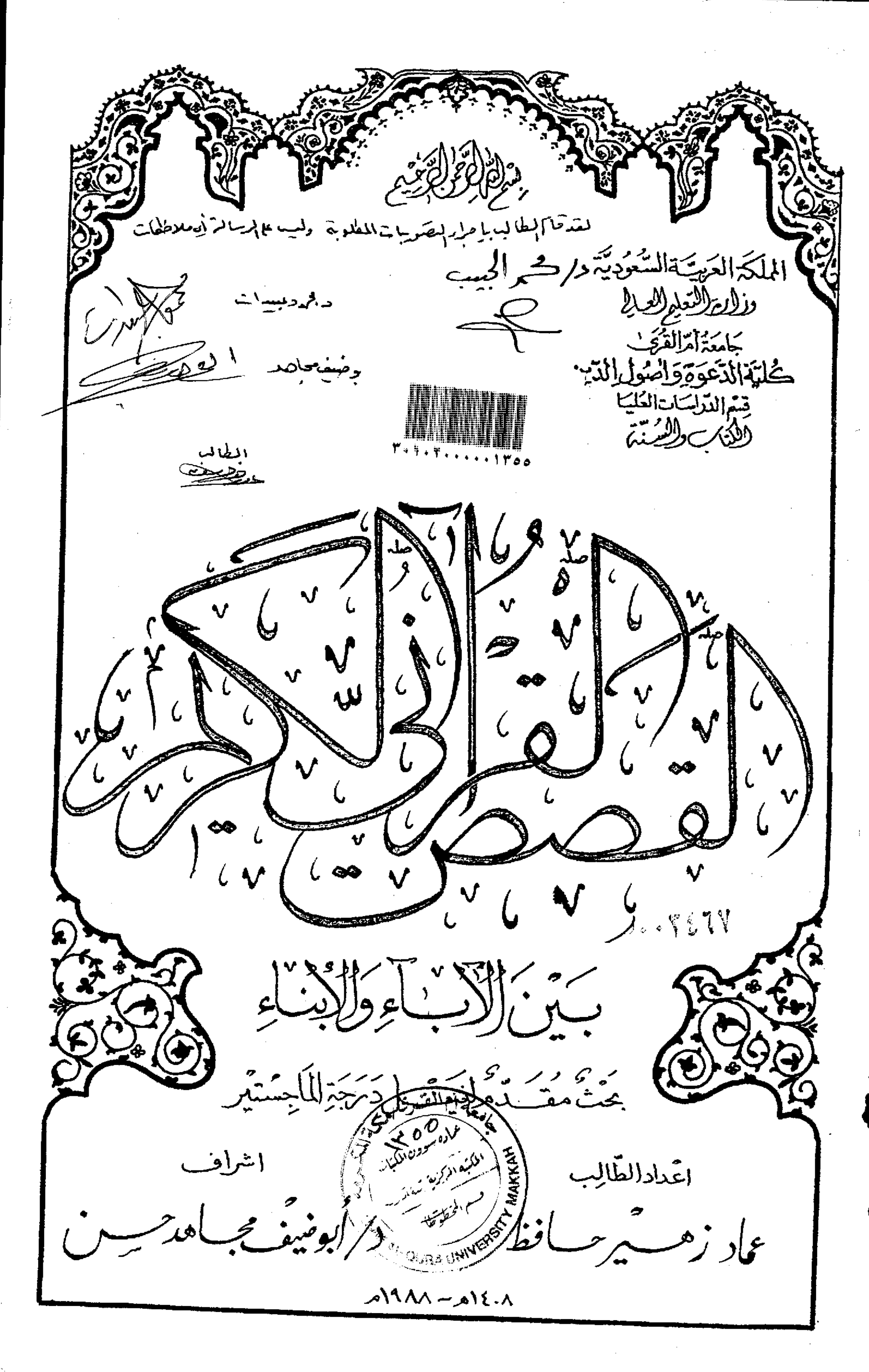

بسم الله الرحمن الرحيم
المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الدعوة وأصول الدين
قسم الدراسات العليا
الكتاب والسنة
القصص القرآني الكريم
بين الآباء والأبناء
بحث مقدم لنيل درجة الماجستير
إعداد الطالب
عماد زهير حافظ
إشراف
د/ أبو ضيف مجاهد حسن
١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

"الإهـــداء"

إلى الذين ذاقوا طعم الإيمان ....

إلى الذين رضوا بالله ربّاً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمّد - صلى الله عليه وسلم - نبياً ورسولاً..

أقدّم هذا العمل .

"شكر وتقدير"

لايسعني بعد أن أنهيت هذه الرسالة إلا أن أتقدّم بالشكر الجزيل لأستاذي المشرف الدكتور أبو ضيف مجاهد حسن الذي لم يدّخر جهداً بإبداء توجيهاته السديدة، وملاحظاته القيّمة في أثناء إعداد هذه الرسالة.

كما أنّي أتقدّم بالشكر لكلّ من ساهم بإخراج هذه الرسالة في شكلها النهائي.

"محتويات البحث"

"مقدمة البحث"

بسم الله الرحمن الرحيم

انّ الحمد لله نحمده -سبحانه- ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيّئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلاهادي له.

ونشهد أن لا إله إلّا الله وحده لاشريك له، له الملك وله الحمد وهو على كلّ شيء قدير.

ونشهد أنّ محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين. أمّا بعد:

فانّه من فضل الله عليّ أن يسّر لي البحث في موضوع جليل عظيم، استمدّ عِظَمه من حيث أنّه صادر عن كلام ربّ العالمين -الذي (لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه تنزيل من حكيم حميد) "فصلت:٤٢"- وهذا الموضوع يتناول جانباً مهمّاً شغل حيّزاً واسعاً من قصص كتاب الله الكريم وهو ماكان فيه بين الآباء والأبناء.

وإنّي إذ أقدّم لهذا البحث في هذا الموضوع فسأبيّن ثلاثة أمور:

أولها: أسباب اختياري لهذا الموضوع.
وثانيها: منهجي في البحث.
وثالثها: خطّة البحث.

* أمّا أسباب الاختيار فأهمّها مايلي :

- إسهام هذا الموضوع في جانب الاستفادة من القصص القرآني الكريم، وذلك حتى لايكون القصص مجرّد آيات تتلى ويتسلّى بها، بل ليكون ذا أثر كبير في حياة

الأفراد والمجتمعات، لما له من المعاني والعبر والفوائد والعظات والدروس العظيمة.

- إنّ البحث في هذا الجانب -وهو فيما يتعلّق بالآباء والأبناء- ليعطينا تصوّراً دقيقاً عن حدود العلاقات بين هذين الطرفين وأهمّيتها وكيفية تحقيقها، وهذا ممّا يحفظ لكلّ واحد حقوقه ويحدّد له واجباته.

- وإنّ هذا الموضوع ليعتبر مجالاً خصباً يساعد المربّين -آباء وغيرهم- على النجاح والوصول إلى الأهداف المطلوبة في مهمّتهم التربوية التي يزاولونها مع من يقومون بتربيتهم.

- واخترت هذا الموضوع -أيضاً- لما يحتويه على مواقف كثيرة من مواقف الدعوة إلى الله -عزّ وجلّ- من لدن نوح -عليه السلام- حتى صحابة رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم، وبيان آثار هذه المواقف.. وهذا ممّا يستفيد منه كلّ داعية إلى الله، وخصوصاً أنّ هذه المواقف هي من جانب أنبياء الله ورسله وأوليائه الصالحين و(أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) "الأنعام: ٩٠".

- وكذلك لما يحتويه -أيضاً- من إبراز أهمّية أمر العقيدة، بل وتصحيحها، والدفاع عنها، والوقوف عند حدودها. مع التغلّب على العاطفة- سواء أكانت من جانب الآباء أو الأبناء -فإنّا نلحظ الابن يعلن العقيدة الحقّة ولو في وجه أبيه، وكذا نلحظ الأب المؤمن لاتأخذه الشفقة على مراعاة ابنه في زيغه وضلاله من الاعتقاد الحقّ.

- وإضافة إلى ماسبق من الأسباب فإنّ مثل هذا البحث ليشارك ويسهم في جانب التفسير الموضوعيّ للقرآن الكريم.. هذا اللون من التفسير الذي يُحتاج إليه في عصرنا، حيث يستشفّ منه الانسان هدي القرآن الكريم فيما يصحّح علاقاته مع ربّه تعالى، ومع من حوله من البشر. وبالتالي يصبح منهج الإنسان في حياته منهجاً قرآنياً، وسلوكه

سلوكاً شرعياً. وهذا مصداق قوله تعالى: (إنّ هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم) "الإسراء: ٩".

* وأمّا المنهج في بحث هذا الموضوع فيتلخّص فيما يلي :

- قراءة مستوعبة لمعظم تفاسير القرآن الكريم في آيات القصّة الواحدة، ثم يتبع تلك القراءة استخلاص أرجح الأقوال وأوضحها وألصقها بالنّص القرآني. ويصاحب ذلك البعد عن كلّ الآراء والأقوال الضعيفة.

- وبجانب استخلاص الأقوال القويّة في بيان النّص القرآني، أقصد إلى التقاط العبر والفوائد -التي يذكرها المفسّرون في ثنايا كلامهم حول الآيات القرآنية- بمختلف أوجهها.

ومع استخراج العبر والفوائد من كتب التفسير أرجع إلى الكتب التي تمسّ جانباً من جوانب موضوعنا لأخرج منها ماأراه مناسباً من العبر والفوائد، وذلك ككتب القصص القرآني، وكتب الدعوة والتربية وغيرها..

وإنّي لاأقتصر على الفوائد الموجودة في الكتب وإنّما قد أذكر ماأستنتجه من رؤيتي كباحث.

- كما أنّه من الفوائد التي أذكرها بعض الأحكام الفقهية التي يشير إليها القصص، وأرجع في ذلك إلى الكتب التي تعنى بذكر أحكام القرآن الكريم، وكذلك إلى بعض الكتب الفقهية التي تعالج نفس الأحكام. إلاّ أنّني لا أخوض في ذكر الاختلافات الفقهية؛ لأنّ هذا ليس من مجال بحثنا، ولكنّي أذكر الراجح منها ممّا رجّحه العلماء المختصّون في هذا العلم.

- ومن الأمور التي أهتمّ بإبرازها الفوائد البلاغية القرآنية في الآيات؛ لما لها

من كبير الأثر في تذوّق جمال النّص القرآني، والتعبير الإلهي الرفيع.

وبجانب ذكري لهذه الفوائد البلاغية أورد في الهامش ماقد يخفى من معاني بعض المصطلحات البلاغيّة فأعرّف لها.

- البعد عن الاسرائيليات، مع وجودها بكثرة في جانب القصص القرآني، إلاّ أنّي أذكر -في النادر- منها بقدر محدود ودون استطراد، ماقد يزيل لبساً في آية معيّنة فيوضّح معناها، ولايعارض الصحيح الثابت فيها. وعلى سبيل المثال لذلك قول اخوة يوسف -عليه السلام- حين وجد الصواع في رحل أخيه: (قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل) ويقصدون بذلك أنّ يوسف قد سرق، فجاءت هنا من الاسرائيليات روايات توضّح معنى كلامهم هذا؛ وتنفي أن يكون يوسف قد سرق -على ماوضحناه في موضعه-.

- الاهتمام بذكر أوجه القراءات المتواترة التي توجد في بعض الآيات التي تتناول القصص، حيث أذكر هذا في الهامش؛ مع توضيح المعنى في الأصل إن ترتّب على اختلاف أوجه القراءة معنى جديد للآية.

- وقد أتطرّق في بعض المواضع إلى ذكر المعاني اللغوية لبعض الكلمات التي أرى من الجدير أن نبيّن الأصل اللغويّ لها؛ لما قد يترتب على ذلك من زيادة بيان، أو إزالة لبس، أو ترجيح معنى.. ولكن كلّ هذا إنّما يكون بقدر محدود؛ منعاً للاطالة والدخول فيما ليس له فائدة .

- وأمّا بالنسبة للأحاديث التي أذكرها في البحث، فإنّي لا أذكر إلاّ الأحاديث الصحيحة أو الحسنة دون الضعيفة؛ لأنّ هذا ممّا يحفظ قيمة البحث العلميّة.

وان كان الحديث الصحيح مروياً في الصحيحين أو في أحدهما فإنّي أكتفي بذكر موضعه فيهما أو في أحدهما دونما ذكر موضعه في كتب الحديث الأخرى؛ لأنّ هذا

يغني القارىء في معرفة هذا الحديث.

وإنّي لأكتفي -أيضاً- في الحكم على الحديث -الموجود في غير الصحيحين- بأقوال علماء الحديث المعروفة أقوالهم بالدقّة والقوّة في الحكم على درجة الحديث دون العلماء المعروف تساهلهم في ذلك.

* وأخيراً نذكر خطة البحث . وهي الآتي :

قد قسمت البحث إلى تمهيد وعشرة أبواب وخاتمة.

أمّا التمهيد فهو بعنوان: أهمّية القصص القرآني وأغراضه.

وأمّا العشرة أبواب -التي تعالج القصص القرآني بين الآباء والأبناء- فقد جعلتها مرتّبة حسب التسلسل الزمني فكانت كما يلي:

الباب الأول: قصّة نوح عليه السلام مع ابنه.

ويشتمل هذا الباب على تمهيد له وفصلين:

الفصل الأول: بيان القصّة.

والفصل الثاني: العبر والفوائد.

الباب الثاني: قصة إبراهيم -عليه السلام- مع أبيه وأبنائه.

ويشتمل هذا الباب على فصلين:

الفصل الأول: قصة إبراهيم -عليه السلام- مع أبيه. ويحتوي هذا الفصل على تمهيد ومبحثين:

الأول: بيان القصة.

والثاني: العبر والفوائد.

والفصل الثاني: إبراهيم -عليه السلام- مع أبنائه. ويحتوي على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: مع ابنه اسماعيل عليه السلام. وفيه أربعة مطالب:
الأول: البشارة به.
الثاني: تركه وأمه في واد غير ذي زرع.
الثالث: قصة رؤيا ذبحه.
الرابع: قصة بناء الكعبة.

المبحث الثاني: مع ابنه إسحاق عليه السلام. وفيه مطلب واحد وهو:
قصة البشرى بإسحاق.

المبحث الثالث: مع أبنائه أجمعين. وفيه -أيضاً- مطلب واحد وهو:
وصيته لهم.

الباب الثالث: قصة يعقوب -عليه السلام- مع أبنائه.
ويشتمل هذا الباب على تمهيد وفصلين:

الفصل الأول: يعقوب عليه السلام مع أبنائه في قصة يوسف.
ويحتوي هذا الفصل على ثلاثة مباحث:
الأول: كيد الإخوة بيوسف.
الثاني: تعرف يوسف على إخوته.
الثالث: اجتماع الشمل.

والفصل الثاني: وصية يعقوب لأبنائه عند احتضاره.
ويحتوي هذا الفصل على مبحثين:
الأول: بيان الوصية.
الثاني: العبر والفوائد.

الباب الرابع: قصة موسى -عليه السلام- مع أمه.
ويشتمل هذا الباب على تمهيد له وفصلين:

الفصل الأول: بيان القصة.
الفصل الثاني: العبر والفوائد.

الباب الخامس: قصة فتاتي مدين مع أبيهما.
ويشتمل هذا الباب -أيضاً- على تمهيد له وفصلين:

الفصل الأول: بيان القصة.
الفصل الثاني: العبر والفوائد.

الباب السادس: داود وسليمان عليهما السلام.
ويشتمل هذا الباب على تمهيد وأربعة فصول:

الفصل الأول: هبة سليمان من الله لداود.

الثاني: العبر والفوائد.

الفصل الثاني: مريم بنت عمران مع ابنها عيسى عليه السلام.
ويحتوي هذا الفصل على تقديم ومبحثين:
الأول: بيان القصة.
الثاني: العبر والفوائد.

الباب العاشر: مواقف بين الآباء والأبناء لعدد من الصحابة رضي الله عنهم.
ويشتمل هذا الباب على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: موقف لأبي بكر الصديق رضي الله عنه.
الفصل الثاني: موقف لسعد بن أبي وقّاص رضي الله عنه.
الفصل الثالث: مواقف لعدد من الصحابة. من خلال قوله تعالى: (لاتجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله.. الآية) "المجادلة:٢٢".

ويتلو هذه الأبواب خاتمة البحث التي تشتمل على أهمّ النتائج التي نستخلصها من هذا البحث.

هذا وإنّي أشكر الله سبحانه وتعالى على أن وفّقني إلى إتمام هذا البحث مع اعترافي الخالص بالعجز والتقصير، فما أحسنت فمن الله وماأسأت فمن نفسي.
(سبحان ربك ربّ العزّة عمّا يصفون. وسلام على المرسلين. والحمد لله ربّ العالمين) "الصافات:١٨٠-١٨٢".

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

"تمهيـــد البحــث"

أهمّية القصص القرآني وأغراضه

في هذا التمهيد أعرض لأهمية القصص القرآني وأهمّ أغراضه -بصورة عامّة- ليحسن لنا الدخول إلى موضوع بحثنا بعد استشعار هذه الأهميّة والأغراض. وأهمّها مايلي :

١- إنّ قصص القرآن الكريم هو قصص لأمور واقعة، يساق للعبر وإعطاء المثلات، وبيان مكان الضالّين ومنزلة المهتدين، وعاقبة الضلال وعاقبة الهداية، وبيان مايقوم به النبيّون ووراءهم كلّ الدعاة إلى الحقّ.
فإذاً هو قصص للعبرة، لالمجرّد المتعة والتسلية. وهذا ما يقرره الله عزّ وجلّ في كتابه حيث قال -بعد ذكر قصّة يوسف-: (لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب. ماكان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كلّ شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) "يوسف: ١١١" (١).

٢- إنّ القصص القرآني يصوّر لنا في أحداثه طبيعة الايمان وطبيعة الكفر في نفوس الناس، ويعرض نموذجاً متكرّراً للقلوب المستمدّة للايمان، ونموذجاً مكرّراً للقلوب المستعدة للكفر(٢). وهذا -بلاشك- ممّا يعرّف الانسان بحقيقة وطبيعة كلا الطريقين. وبصفات وملامح أتباعهما.

---

(١) انظر: محمد أبو زهرة، المعجزة الكبرى "القرآن" (القاهرة: دار الفكر العربي للنشر، دار غريب للطباعة) ص(١٦٢-١٦٢).
(٢) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب ج٢ ص١٢٠٦.

وانطلاقاً من هذا الكلام فإنّ "قصص الأنبياء -خاصّة- يمثّل موكب الايمان في طريقه الممتدّ الواصل الطويل. ويعرض قصّة الدعوة إلى الله واستجابة البشرية لها جيلاً بعد جيل، كما يعرض طبيعة الايمان في نفوس هذه النخبة المختارة من البشر، وطبيعة تصوّرهم للعلاقة بينهم وبين ربّهم الذي خصّهم بهذا الفضل العظيم.

وتتبّع هذا الموكب الكريم في طريقه اللاحب يفيض على القلب رضى ونوراً وشفافية، ويشعرها بنفاسة هذا العنصر العزيز- عنصر الايمان- وأصالته في الوجود. كذلك يكشف عن حقيقة التصور الايماني ويميّزه في الحسّ من سائر التصوّرات الدخيلة" (١).

٢- وإنّ للقصص القرآني أهميّة كبرى في توجيه الدعوة الاسلامية؛ إذ أنّ واقعيّة الاسلام وجدّيته تجعلان توجيهاته وتقريراته تعين الدعوة الاسلامية على إصدار مواقف صحيحة ومدروسة تجاه ماتلاقيه.

وإنّا لنلمح هذا حين كان القصص يتنزّل على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في مكّة، والقلّة المؤمنة معه محصورة بين شعابها، والدعوة الاسلامية مجمّدة فيها، والطريق شاقّ طويل لايكاد المسلمون يرون له نهاية! فكان القصص يكشف لهم عن نهاية الطريق، ويرسم معالمه في مراحله جميعاً، ويأخذ بأيديهم وينقل خطاهم في هذا الطريق، وقد بات لاحباً موصولاً بموكب الدعوة الكريم على مدار التاريخ البشري، وبات بهذا الركب الكريم مأنوساً مألوفاً لاموحشاً ولامخوفاً.. وهكذا كان القرآن يتحرّك في الصف المسلم، ويحرّك هذا الصف حركة مرسومة مأمونة.. وهكذا يمكن اليوم وغداً أن يتحرّك في الدعاة إلى الله ويحرّكهم في طريق الدعوة المرسوم.

إنّ الدعوة الاسلامية في كلّ زمان ومكان لابدّ لها من هذا القصص القرآني تستلهمه وتستوحيه.. تستلهمه في منهجها وخطواتها ومراحلها، وتستوحيه فيما يصادف هذه الخطوات والمراحل من استجابات، وما ينتظرها من عاقبة في نهاية الطريق(٢).



(١) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج١ ص٥٥.
(٢) انظر: المرجع السابق ج٤ ص١٩٤٨.

٤- كما أنّ في القصص -تبعاً لما ذكرنا- تثبيتاً لقلب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وقلوب الأمة المحمّدية ممّن معه وممّن جاء بعده.. تثبيت على دين الله، وتقوية لثقة المؤمنين بنصرة الحقّ وجنده، وخذلان الباطل وأهله. ومصداق هذا قول الله عزّ وجلّ: (وكلاّ نقصّ عليك من أنباء الرسل ماتثبّت به فؤادك وجاءك في هذه الحقّ وموعظة وذكرى للمؤمنين) "هود: ١٢٠" (١).

٥- ومن أغراض القصص -أيضاً- إيضاح أسس الدعوة إلى الله، وبيان أصول الشرائع التي بُعث بها كلّ نبيّ. يقول تعالى: (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلاّ نوحي إليه أنّه لا إله إلاّ أنا فاعبدون) "الأنبياء: ٢٥". فالدين كلّه من عند الله من عهد نوح -عليه السلام- إلى عهد خاتم الأنبياء والمرسلين محمد -صلى الله عليه وسلم-، والمؤمنون كلّهم أمّة واحدة، ضاربة في جذور التاريخ، يضمّهم ركب واحد مبارك، والله هو ربّ الجميع. وكثيراً ماوردت قصص عدد من الأنبياء في سورة واحدة معروضة بطريقة خاصّة لتؤيّد هذه الحقيقة(٢).

٦- وممّا يهدف إليه القصص القرآني -كذلك- تصديق الأنبياء والمرسلين وإحياء ذكراهم وتخليد آثارهم، والإشارة إلى فضلهم ومكانتهم الرفيعة عند الله عزّ وجلّ(٣).

٧- إثبات الوحي والرسالة: فكثيراً ممّا قصّه الله كان غيباً مجهولاً للنبيّ -صلى الله عليه وسلم- ولقومه، فمثلاً مانجده في قصص آدم ونوح وإبراهيم وموسى

---

(١) انظر: مناع خليل القطان، مباحث في علوم القرآن، الطبعة الرابعة عشرة (بيروت- لبنان: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م) ص٣٠٧.

(٢) انظر: المرجع السابق ص٣٠٧؛ عدنان محمد زرزور، علوم القرآن، الطبعة الثانية (بيروت، دمشق: المكتب الاسلامي، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) ص٢٧٦.

(٣) انظر: مباحث في علوم القرآن للقطان ص٣٠٧.

وعيسى -عليهم السلام- من تفصيلات ماكان يعلمها النبيّ -صلى الله عليه وسلم- ولاقومه. وهذا دليل على صدق الرسالة واثبات الصلة بوحي الله.

ويدلّ على هذا ماقاله الله -بعد ذكره لقصّة نوح عليه السلام- (تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ماكنت تعلمها أنت ولاقومك من قبل هذا فاصبر إنّ العاقبة للمتقين) "هود٤٩" (١).

٨- وجاء القصص القرآني -أيضاً- لمقارعة أهل الكتاب بالحجّة فيما كتموه من البيّنات والهدى، وتحدّاهم بما كان في كتبهم قبل التحريف والتبديل. مثال ذلك، قوله تعالى: (كلّ الطعام كان حلاّ لبني إسرائيل إلاّ ماحرّم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزّل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين) "آل عمران:٩٣" (٢).

٩- ثمّ "إنّ القرآن الكريم يستخدم قصصه لجميع أنواع التربية والتوجيه التي يشملها منهجه التربوي: تربية الروح، وتربية العقل، وتربيةالجسم، والتوقيع على الخطوط المتقابلة في النفس، والتربية بالقدوة والتربية بالموعظة، فهي سجلّ حافل لجميع التوجيهات" (٣).

١٠- كما أنّ القصص القرآني بيّن بعض الأحكام الفقهية الشرعية، وهذا ممّا يثبت هذه الأحكام ويدعمها؛ لأنّها تكون أحكاماً متفقاً عليها في كلّ الشرائع السماوية،

---

(١) انظر: محمد شديد، منهج القصة في القرآن، الطبعة الأولى (جدة-المملكة العربية السعودية: دار عكاظ للطباعة والنشر، ١٤٠٤ﻫ/١٩٨٤م) ص(١٠٨-١٠٩)؛ علوم القرآن لعدنان زرزور ص(٢٦٩-٢٧٠).

(٢) انظر: مباحث في علوم القرآن للقطان ص٣٠٧.

(٣) محمد قطب، منهج التربية الاسلامية، ٢ج، الطبعة الخامسة (بيروت، القاهرة: دار الشروق، ١٤٠١ﻫ/١٩٨١م) ج١ ص١٩٤.

وبيان أنّها غير قابلة للنسخ وأنّها مؤكّدة ثابتة، وفي القصّة تكون حكمة شرعيتها قائمة والغاية منها ثابتة. ومثال ذلك قصة قابيل وهابيل ابني آدم..(١).

١١- وأخيراً فإنّ القصص القرآني يمثّل واحداً من أبرز وسائل العرض الفنّي في القرآن الكريم. فهي على قلّة عدد الألفاظ المستخدمة في أدائها فإنّها حافلة بكلّ أنواع التعبير الفنّي ومشخّصاته: من حوار إلى سرد إلى تنغيم موسيقي. إلى إحياء الشخوص، إلى دقّة في رسم الملامح، إلى اختيار دقيق للّحظة الحاسمة في القصّة لتوجيه القلب للعبرة، والتوقيع عليه بالنغم المطلوب.

وهذ كلّه ممّا يؤكّد أنّ القرآن الكريم يخلو من أيّ عيب أو قصور.. والقرآن هو مقياس على صحّة الأدب كما هو مقياس على صحّة اللغة(٢).

هذا من أهمّ مايمكن أن نذكره حول أهميّة القصص القرآني وأغراضه. والله أعلم.

---

(١) انظر: المعجزة الكبرى "القرآن" لأبي زهرة: ص١٩٦.
(٢) انظر: علوم القرآن لعدنان زرزور ص٢٥٧؛ منهج التربية الاسلامية لمحمد قطب ج١ ص١٩٤.

بسم الله الرحمن الرحيم

"الباب الأول"

نوح عليه السلام مع ابنه

وفيه تمهيد، وفصلان :
الفصل الأول: بيان القصّة.
والفصل الثاني: العبر والفوائد.

"تمهيـــــد"

في هذا الباب سنتكلّم عن موقف نوح(١) عليه السّلام مع ابنه الذي عارض دعوة الايمان. ويحسن قبل الكلام حول هذا الموقف أن نذكر - تمهيداً لذلك - أمر دعوته عليه السّلام بصورة إجماليّة عامّة وموقف قومه منها.

فسيّدنا نوح عليه السّلام - كما هو معلوم - أوّل رسول أرسل من عند الله(٢). وأرسله إلى قومه الّذين عبدوا الأصنام من دون الله عزّ وجلّ، فجاءهم بالدّعوة إلى عبادة الله وحده وترك كلّ ما سواه - كما هو الشأن في دعوة كلّ الرّسل - (قال ياقوم إنّي لكم نذير مبين. أن اعبدوا الله واتّقوه وأطيعون)(٢).

وبدأ عليه السلام يدعو قومه تلبيةً لأمر ربّه، ولكنّه وجد منهم غاية العناد والتكذيب، وذلك بالرغم من تنوّع أساليبه في دعوتهم كما هو موضّح في السّورة المسّماة باسمه. وقد بيّن القرآن الكريم أنّه لبث داعياً قومه مدة طويلة من الزّمن، ولم

---

(١) هو نوح بن لامك بن متوشلخ بن خنوخ-وهو ادريس-بن يرد بن مهلاييل بن قينن بن أنوش بن شيث بن آدم أبي البشر عليه السلام (عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، قصص الأنبياء، تحقيق محمد أحمد عبد العزيز، ٢ج. (القاهرة: دار مصر للطباعة، دار الحديث للنشر، ١٤٠١هـ/١٩٨١م) ج١ ص٦٠).

(٢) هو أول رسل الله إلى الأرض، وقد كان آدم أوّل الأنبياء ولم يكن رسولاً، ودليل ذلك ما رواه الامام مسلم في حديث الشفاعة، وهو أنّ النّاس حين يذهبون إلى آدم عليه السلام ثم يرسلهم إلى نوح يقول لهم : .. ولكن ائتوا نوحاً أول رسول بعثه الله، وفي رواية أخرى يقولون له : يا نوح أنت أول رسل الله إلى الأرض ..الخ (انظر : مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، صحيح مسلم بشرح النووي، تحقيق واشراف : عبد الله أحمد أبو زينة، ٥ ج (القاهرة : طبعة كتاب الشعب، ١٣٩٠هـ) كتاب الايمان، حديث رقم : ٢٩٥، ٢٩٩).

(٢) سورة نوح : ٢ - ٣.

يؤمن معه إلاّ قليل (ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ... الآية)(١) (... وما آمن معه إلاّ قليل)(٢).

وكان عليه السّلام طوال هذه المدّة صابراً على تكذيبهم وأذاهم له، باذلاً كلّ جهده في تبليغ الرّسالة، حتى إذا ضاقت به كلّ السّبل، وعلم أنّه لن يؤمن معه إلاّ من آمن لجأ إلى الله يشكوهم إليه (قال ربّ إنّ قومي كذبون. فافتح بيني وبينهم فتحاً ونجّني ومن معي من المؤمنين)(٣).

كما أنه دعا عليهم بالهلاك (وقال نوح رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديّاراً. إنّك إن تذرهم يضلّوا عبادك ولايلدوا إلا فاجراً كفاراً)(٤). فاستجاب الله دعاءه؛ ولكن قبل أن يهلكهم - سبحانه - أراد أن يهيّىء لنوح عليه السلام ومن معه من المؤمنين سبيل النّجاة، فأمره بصنع السفينة (وأوحي إلى نوح أنّه لن يؤمن من قومك إلاّ من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون. واصنع الفلك بأعيننا ووحينا(٥) ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون)(٦).

وصنع نوح السّفينة، حتى إذا جاء أمر الله وظهرت علامات ابتداء الطّوفان من تفجّر الماء من الأرض، وانهماره من السّماء، أمره الله أن يحمل في السّفينة من كلّ من الأحياء والحيوانات زوجين اثنين حتى يبقى النّسل على الأرض، وأمره بعد ذلك بحمل أهله المؤمنين ومن آمن من قومه فيها؛ حتّى ينجوا من عذاب الله (حتى

---

(١) سورة العنكبوت : ١٤ .
(٢) سورة هود : ٤٠ .
(٣) سورة الشعراء : ١١٨ - ١١٩.
(٤) سورة نوح : ٢٦ - ٢٧.
(٥) بأعيننا ووحينا : أي تحت نظرنا وبحفظنا ورعايتنا وتعليمنا لك.
(٦) سورة هود :٣٦-٣٧.

إذا جاء أمرنا وفار التّنور(١) قلنا احمل فيها من كلٍ زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلاّ قليل)(٢). ثمّ وجّه نوح خطابه إلى من أمر بحمله (وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرسيها إن ربّي لغفور رّحيم)(٢).

وفي هذه اللّحظات - لحظات النّجاة - يبدأ القرآن الكريم بقصّ موقف نوح عليه السلام مع ابنه الكافر.. وهذا هو ما ستعرض له بالبحث والدراسة واستخراج العبر والفوائد، والله المستعان سبحانه.

---

(١) وفار التنور : أي فار الماء من التنور الذي يوقد به النار ويخبز فيه، وكان هذا آية ابتداء الطوفان من الله.
(٢) سورة هود : ٤٠.
(٢) سورة هود : ٤١ .

الفصل الأول : بيان القصّة

يُبيّن لنا القرآن الكريم قصة نوح مع ابنه في الآيات التّالية :

(وهي تجري بهم في موجٍ كالجبال ونادى نوح ابنه وكان في معزلٍ يابنيّ اركب معنا ولاتكن مع الكافرين. قال سآوي إلى جبلٍ يعصمني من الماء قال لاعاصم اليوم من أمر الله إلاّ من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين. وقيل ياأرض ابلعي ماءك وياسماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجوديّ وقيل بعداً للقوم الظّالمين. ونادى نوح ربّه فقال ربّ إنّ ابني من أهلي وإن وعدك الحقّ وأنت أحكم الحاكمين. قال يانوح إنّه ليس من أهلك إنّه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إنّي أعظك أن تكون من الجاهلين. قال ربّ إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلاّ تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين. قيل يانوح اهبط بسلامٍ منّا وبركاتٍ عليك وعلى أممٍ ممن معك وأمم سنمتّعهم ثمّ يمسّهم منّا عذاب أليم. تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إنّ العاقبة للمتّقين) (١) .

وستتناول بيان هذه الآيات التي وضّحت القصّة، عبر فقرات قصصية تتّضح من خلالها مجريات هذا الموقف :

١- نداء نوح عليه السّلام لابنه :

في بداية الآية التي تتكلم عن نداء نوح عليه السّلام لابنه - من أجل الركوب في سفينة النّجاة - يعرض الله وصفاً للحالة التي كانت عليها السّفينة في جريها على الماء:

---

(١) سورة هود : ٤٢ - ٤٩.

وذلك لبيان عِظَمِ الموقف ورهبته، وإنّما هي عناية الله ورحمته وحمايته لعباده المؤمنين وهم في هذه السّفينة التي تسير في خضّم هذا الموج (وهي تجري بهم في موجٍ كالجبال).

والموج هو "ما ارتفع من الماء فوق الماء"(١).

وحدوث الموج دليل على أنّه قد حصل في ذلك الوقت رياح شديدة. والجريان في الموج ظاهره أنّ السّفينة تجري في داخل الموج، وذلك يوجب الغرق، ولكنّ المراد أنّ الأمواج لمّا أحاطت بالسّفينة من كل جوانبها شُبّهت بما إذا جرت داخلها(٢). وكذلك شبّه الله الموج بالجبال لعلوّه وارتفاعه وامتداده(٣).

ويصف الله تبارك وتعالى هذا الحدث العظيم في آيات أخر من كتابه الكريم : (وحملناه على ذات ألواحٍ ودسر. تجري بأعيننا جزاءً لمن كان كُفِر)(٤). (إنّا لما طغى الماء حملناكم في الجارية. لنجعلها لكم تذكرةً وتعيها أذن واعية)(٥).

وبعد هذا الوصف العظيم نجد أنّنا أمام الهتاف الأبويّ من نوح عليه السّلام لابنه (... ونادى نوح ابنه وكان في معزلٍ يابنيّ اركب معنا ولاتكن مع الكافرين).

---

(١) أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الأفريقي المصري، لسان العرب، ١٥ج، الطبعة الثانية (بيروت: دار صادر للطباعة والنشر، ودار الفكر) ج٢ ص٢٧٠.

(٢) أنظر: فخر الدين الرازي أبو عبد الله محمد بن عمر بن حسين القرشي الطبرستاني الشافعي ، مفاتيح الغيب الشهير بالتفسير الكبير ، ٣٢ج ، الطبعة الثالثة (بيروت : دار إحياء التراث العربي) ج١٧ ص(٢٢٠-٢٢١).

(٣) أنظر : أحمد مصطفى المراغي ، تفسير المراغي ، ٣٠ج (بيروت دار احياء التراث العربي) ج١٢ ص٢٧.

(٤) سورة القمر : ١٢ - ١٤.

(٥) سورة الحاقة : ١١ - ١٢.

وقبل الدّخول في تفصيل هذا الهتاف لابدّ من بيان مسألتين اختُلف فيهما :

المسألة الأولى : هل هذا هو ابن نوح حقيقة أم لا ؟

أقول : والرّاجح أنّه ابنه حقيقةً ، وهذا ما ذهب إليه جمهور المفسّرين. وعلى رأسهم ابن عبّاس رضي الله عنه ، وقتادة ، وسعيد بن جُبير ، ومجاهد ، وعكرمة ، والضّحاك ، وميمون بن مهران ، وثابت بن الحجّاج ، وتبعهم ابن جرير الطّبري رحمه الله والرّازي وابن كثير وغيرهم.

وإليك أقوالهم وما استدلوا به :

قال ابن عبّاس رضي الله عنه : هو ابنه غير أنّه خالفه في العمل والنّيّة.
وسُئل سعيد بن جبير عن ذلك فقال : كان ابن نوح ؛ إنّ الله لايكذب ، قال تعالى (ونادى نوح ابنه).
وقال عكرمة : أشهد أنّه ابنه ؛ قال تعالى: (ونادى نوح ابنه).
وسأل رجل الضّحاك عن ابن نوح. فقال : ألا تعجبون إلى هذا الأحمق يسألني عن ابن نوح وهو ابن نوح ؛ كما قال تعالى (ونادى نوح ابنه). وقال : هو والله ابنه لصُلبه.

وقال ابن جرير- رحمه الله - فيما معناه : إنّ أولى الأقوال : هو أنّه ابنه، لأنّ الله تعالى ذكره ، وقد أخبر نبيّه محمّداً صلّى الله عليه وسلم أنه ابنه فقال : (ونادى نوح ابنه) ، وغير جائز أن يُخبِر أنّه ابنه فيكون بخلاف ماأخبر.

والرّازي يقول : والدليل عليه : أنّه تعالى نصّ عليه فقال : (ونادى نوح ابنه) ، ونوح أيضاً نصّ عليه فقال : يابنيّ.

وابن كثير أيضاً قال: وهذا هو الصّواب الّذي لاشكّ فيه(١).

وأمّا الّذين ذهبوا إلى أنّه ليس ابنه في الحقيقة فعلى قولين :

الأول : أنّه كان ابن امرأته. وقيل أنّه قول محمد بن علي الباقر والحسن البصري ومجاهد وابن جريج وعبيد بن عمير. وقد قالوا أنّه روي أنّ علياً رضي الله عنه قرأ (ونادى نوح ابنها) والضمير لامرأته. وقرأ محمد بن علي وعروة بن الزبير (ابنَهَ) بفتح الهاء يريدان (ابنها) إلا أنّهما اكتفيا بالفتحة عن الألف.

ويروى أنّ قتادة سأل الحسن عنه فقال : والله ماكان ابنه. فقال له : إنّ الله حكى عنه أنّه قال (إن ابني من أهلي) ، وأنت تقول ماكان ابناً له ، فقال له الحسن: لم يقل : أنّه منّي ، ولكنه قال : من أهلي ، وهذا يدل على قولي. وقالوا أيضاً : يدل على ذلك قوله تعالى (إنّه ليس من أهلك).
وقد قال بعضهم : أنّ المراد بابنه : أي الذي ربّاه.

وأما القول الثاني : أنّه ولد على فراشه عن زنا ، والقائلون بهذا احتجوا بقوله تعالى: (فخانتاهما) (٢).

---

(١) أنظر: محمد بن جرير الطّبري ، جامع البيان في تفسير القرآن ، ٣٠ج (بيروت - لبنان : دار المعرفة للطباعة والنشر ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م) ج ١٢ ص٢٢ ؛ الامام الفخر الرازي ، التفسير الكبير ج١٧ ص٢٢١ ؛ عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ٤ج (بيروت : دار المعرفة ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤م) ج٢ ص٤٤٨.
(٢) أنظر التفسير الكبير للفخر الرازي ج١٧ ص٢٢٢؛ تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٢ ص٤٤٨.

وردّ الجمهور على القول الأوّل بمايلي :

أولاً : أن نسبة هذا القول إلى الحسن ومجاهد كما يزعم من قال مأخوذة من قول الطبرسي ، وهو كذب صريح عليهما. ذكره الألوسي(١).

ثانياً : وأمّا قراءة من قرأ (ابنها) أو (ابنَه) فهي قراءة شاذة غير متواترة فلا يعتد بها ، ولا تعارض الصحيحة والثابتة. وإن قلنا بوجود هذه القراءة فرضاً ؛ فإنّه أضيف إلى أمّه ولم يضف إلى أبيه لأنّه كان كافراً مثلها ، واستبعاداً له(٢).

ثالثاً : ليس في قوله (إنّه ليس من أهلك) دلالة على أنّه ليس بابنه ؛ إذ قوله (ليس من أهلك) محتملٌ من المعنى : فالمراد ليس من أهل دينك ، وحذفت كلمة الدين، كما قال تعالى (واسأل القرية التي كنّا فيها) (٣).

رابعاً : وصرف اللّفظ إلى أنّه ربّاه ، فأطلق عليه اسم الإبن لهذا السّبب هو صرفٌ للكلام عن حقيقته إلى مجازه من غير ضرورة وهذا لايجوز(٤).

---

(١) أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي ، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، ٣٠ج (بيروت - لبنان : دار إحياء التراث العربي) ج١٨ ص٥٢.

(٢) أنظر : محمد بن يوسف الشهير بأبي حيّان الأندلسي الغرناطي، تفسير البحر المحيط ، ٨ج ، الطبعة الثانية (بيروت : دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م) ج٥ ص٢٢٦.

(٣) جامع البيان في تفسير القرآن لابن جرير الطبري : ج١٢ ص٢٢.

(٤) التفسير الكبير للفخر الرازي : ج١٧ ص٢٢٢.

وأمّا القول الثاني فردّ عليه بمايلي :

إنّ احتجاجهم بقوله (فخانتاهما) (١) احتجاج باطل ؛ لأنّ الخيانة هنا ليست هي الزّنا فانّ منصب الأنبياء مصون عن هذه الفضيحة ، لاسيّما وهو على خلاف نصّ القرآن (الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبون للطيبات والطيّبات للطيبين.. الآية) (٢) ، وكذلك قوله : (الزّاني لاينكح إلاّ زانية أو مشركة والزّانية لاينكحها إلاّ زانٍ أو مشرك وحُرّم ذلك على المؤمنين) (٣). فالمراد من الخيانة هنا الخيانة في الدين.

وقد قال ابن عبّاس ، وغير واحد من السلف : "مازنت امرأة نبيّ قط".
وقول ابن عبّاس وغيره في هذا هو الصواب ؛ فانّ الله أغير من أن يُمكّن من امرأة نبي هذه الفاحشة ؛ ولهذا غضب الله على الذين رموا أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها - زوج النبي صلّى الله عليه وسلم - وأنكر على المؤمنين الذين تكلموا بهذا وأشاعوه (إنّ الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لاتحسبوه شرّاً لكم بل هو خير لكم ، لكلّ امرىء منهم ماكتسب من الإثم والذي تولّى كبره منهم له عذاب عظيم - إلى قوله : إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ماليس لكم به علم وتحسبونه هيّناً وهو عند الله عظيم) (٤). فمجموع هذه الأقوال يبيّن بُطلان احتجاجهم(٥).

وهكذا بالردّ على الرأيين يرجح أنّه ابنه حقيقة. والله أعلم.

---

(١) سورة التحريم : ١٠.
(٢) سورة النور : ٢٦.
(٣) سورة النور : ٣.
(٤) سورة النور : ١١-١٥.
(٥) أنظر : التفسير الكبير للفخر الرازي ج١٧ ص٢٢٢ ؛ تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٢ ص٤٤٨ ؛ ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي ، أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، ٥ج (بيروت : مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع) ج٢ ص١٠٩.

أما المسألة الثانية : فهي في اسم ابنه هذا ، فالأكثر على أنّ اسمه "كنعان" والآخرون على أنّه (يام)(١). وليس هناك طريق صحيح عن معصوم يُثبت أحدهما دون الآخر؛ ولكن قد يشير رأي الأكثرية على أنّ الرّاجح "كنعان" وعلى كلّ حال فانّ الخلاف في اسمه لايزيد ولاينقص شيئاً من القصة ، وماجاءت من أجله ، فالمهم المسمّى في ذلك وحقيقة حاله ، والعبرة - كما هو معلوم - بالمُسمّيات لابالأسماء.

وبعد الانتهاء من بيان هاتين المسألتين ، نعود إلى نداء الأب الّذي يريد النّجاة لابنه (ونادى نوح ابنه وكان في معزل يابنيّ(٢) اركب معنا ولاتكن مع الكافرين).. ينادي نوح عليه السّلام ابنه عند ركوب السّفينة وقبل سيرها ، وقد كان ابنه كافراً.

واستبعد كيف ينادي نوح عليه السّلام من هو كافر مع أنّه قال: (رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديّاراً) ؟ ويجاب عن هذا بأنّ ابنه كان منافقاً ، فظنّ نوح أنّه مؤمن ؛ ولذلك ناداه(٣). والله أعلم.

وكان هذا النداء في حالة كون ابنه في مَعزِل ، "والمعزل في اللغة : هو الموضع المنقطع عن غيره. وأصله من العزل وهو التنحية والابعاد. وقوله (وكان في معزل) لايدلّ على أنّه في معزل من أيّ شيء ؛ فلهذا السّبب ذكروا وجوهاً :

---

(١) أنظر : أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي ، زاد المسير في علم التفسير ، ٩ج ، الطبعة الثالثة (دمشق ؛ بيروت : المكتب الأسلامي للطباعة والنشر ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م) ج٤ ص١٠٩.

(٢) اختلف في قراءة (يابنيّ) فقرأ "عاصم" بفتح الياء ، وقرأ الباقون بكسرها (أنظر : أبو زرعة عبد الرحمن بن زنجلة ، حجة القراءات ، الطبعة الثانية ، تحقيق سعيد الأفغاني (بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م) ص٣٤٠.

(٣) أنظر: محمد بن علي الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ، ٥ج (بيروت : دار المعرفة) ج٢ ص٤٩٩.

الأول : أنّه كان في معزل من السّفينة لأنّه كان يظنّ أنّ الجبل يمنعه من الغرق.

الثاني : أنّه كان في معزل عن أبيه وإخوته.

الثالث : كان في معزل من الكفّار ، كأنّه انفرد عنهم فظنّ نوح عليه السّلام أنّ ذلك إنّما كان لأنّه أحبّ مفارقتهم"(١).
ولكن ماهو جواب الابن الذي يرى من أبيه كلّ الشفقة والرّحمة على حاله ؟ هذا ما تبيّنه لنا الفقرة التالية:

٢ - إعراض الابن عن نداء أبيه :

يظهر لنا هذا الاعراض من ابن نوح في قوله تعالى: (قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء). ويعني بذلك أنّه لن يركب مع أبيه والمؤمنين في السفينة ، وسيصير الى جبل يتحصن به ، ويحفظه بارتفاعه من الماء ؛ وحينئذ يكون الجبل مانعاً له من الغرق. وهذا القول - بلا شك - إنما هو جهل منه ؛ حيث اعتقد أنّ الطوفان لايبلغ الى رؤوس الجبال ، وأنّه لو تعلّق في رأس جبل لنجاه ذلك من الغرق ، كما ظنّ ذلك كسائر المياه المعتادة في أزمنة السّيول ؛ التي ربما يتّقى منها بالصعود الى مرتفع، وجهل أيضاً أنّ هذا إنّما هو عذاب للكفرة ، وإهلاك لهم ولابد أن يعمّهم ويدركهم ولو كانوا في قمم الجبال العالية(٢).

واستدلّ الفخر الرّازي -رحمه الله- بقول ابن نوح هذا على أنّه كان متمادياً في الكفر مصرّاً عليه مكذّباً لأبيه فيما أخبر عنه(٣).

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي : ج١٧ ص٢٢٢.
(٢) انظر : جامع البيان في تفسير القرآن لابن جرير الطبري ج١٢ ص٢٨؛ تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٢ ص٤٤٦.
(٣) أنظر : التفسير الكبير للفخر الرازي ج١٧ ص٢٢٢.

هكذا كان موقف الابن.. اعراضٌ عن دعوة أبيه!

ولكن ماهو موقف الأب الصّالح نوح عليه السّلام تجاه ماسمعه من ابنه ؟ إنه موقف الأب المسؤول المخلص المبيّن لحقيقة الموقف ويظهر لنا ذلك في قوله: (قال لاعاصم اليوم من أمر الله إلاّ من رحم) بمعنى أنّه لامانع اليوم من أمر الله الذي قد نزل بالخلق من الغرق والهلاك إلاّ من رحمه الله فأنقذه منه ؛ لأنّه هو سبحانه الذي يمنع من يشاء من خلقه ويعصم(١).

أمّا التعبير عن الطّوفان بأمر الله فهو لأسباب منها ما يلي :

١ - تفخيماً لشأنه وتهويلاً لأمره.
٢ - تنبيهاً لخطأ ابن نوح في تسميته ماءً كسائر المياه.
٣ - تعليلاً للنفي المذكور فانّ أمر الله لا يُردّ ولا يُغلب.
٤ - تمهيداً لحصر العصمة في جناب الله عزّ جاره(٢).

وبعد هذه الكلمات السريعة من نوح لابنه يأتي الموج فيحسم الموقف ويُبيّن نتيجة الاعراض (وحال بينهما الموج فكان من المغرقين) أي من الكفرة الذين حق عليهم الغرق والهلاك.

وتتميماً لبيان الحال آنذاك ، وإسدالاً للستار على مشهد المعارضين لدعوة الله يقول سبحانه (وقيل ياأرض ابلعي ماءك وياسماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجوديّ وقيل بعداً للقوم الظالمين). والمعنى : أنّ الله قال للأرض - بعد ماتناهى أمره في هلاك قوم نوح بما أهلكهم به من الغرق - ياأرض تشرّبي الماء الذي عليك ، وياسماء أمسكي عن إنزال الماء.

ونلاحظ هنا أنّ السماء والأرض خوطبتا كأنهما تعقلان ، وتوضيح ذلك : أنّ الأمر هنا أمر إيجاد لا أمر إيجاب ، فلا يشترط فيه فهم ولا عقل ؛ لأن الأشياء

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير الطبري ج١٢ ص(٢٨-٢٩).
(٢) روح المعاني للألوسي : ج١٢ ص٦١.

منقادة لله عزّ وجلّ (١) ومنه قوله تعالى: (إنّما أمرنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) "النحل: ٤٠". "والماء المراد بلعه هو ما على وجه الأرض من ماء الطّوفان ، دون المياه المعهودة فيها من العيون والأنهار. وعبّر عنه بالماء هنا بعدما عبّر فيما سلف بأمر الله تعالى؛ لأن المقام مقام النّقص والتقليل لا مقام التفخيم والتهويل" (٢). ويعد هذا الأمر الالهي تأتي الطاعة الفوريّة (وغيض الماء) أي "ذهبت به الأرض ونشفته" (٢) وبذلك تمّ أمر الله وكمل ومضى بهلاك قوم نوح المكذبين ، وأتبعه بنجاة أهل الايمان (وقضي الأمر واستوت على الجودي).

والجوديّ : هو اسم للجبل الذي رست عليه سفينة نوح "وهو بالموصل أو الجزيرة من أرض العراق(٤) "ويقال أكرم الله ثلاثة جبال بثلاثة نفر : الجودي بنوح عليه السّلام، وطور سيناء بموسى عليه السّلام، وحراء بمحمد صلى الله عليه وسلم" (٥).

---

(١) أنظر : أبو يحيى زكريا الأنصاري ، فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، الطبعة الأولى ، تحقيق: محمد علي الصّابوني (بيروت : دار القرآن الكريم ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م) ص٢٦٥.

(٢) أبو السعود محمد بن محمد العمادي ، تفسير ارشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ، ٩ج (بيروت : دار احياء التراث العربي) ج٤ ص٢١١.

(٣) جامع البيان في تفسير القرآن لابن جرير الطبري : ج١٢ ص٢٩.

(٤) المرجع السابق : ج١٢ ص٢٩.

(٥) أبو عبد الله محمد بن أحمد الانصاري القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٢٠ج، الطبعة الثانية (بيروت : دار الكتاب العربي، ١٩٥٢م) ج٩ ص٤٢.

وفي هذه الأثناء يصدر الحكم الإلهي بشأن الكفرة الذين ظلموا أنفسهم بعدم اتباعهم الهدى ؛ وظلموا غيرهم لصرفهم عن دين الله (وقيل بعداً للقوم الظالمين). "وهي جملة مختصرة حاسمة معبّرة عن جوّها أعمق تعبير. بعداً لهم من الحياة فقد ذهبوا، وبعداً لهم من رحمة الله فقد لعنوا، وبعداً لهم من الذاكرة فقد انتهوا وماعادوا يستحقّون ذكراً ولا ذكرى !"(١).

وإنها لنهاية مخزية، وتلك نهاية كل من أعرض عن هدى الله وشرعه ونوره.

٢ - سؤال نوح عليه السلام ربه في شأن ابنه :

يفاجأ نوح عليه السلام بما حصل لابنه من الغرق، فيدعو الله سائلاً إياه عن سبب غرقه، مع أنّه من أهله الذين وعد بنجاتهم ؛ وقد ظنّه من أهله المؤمنين (ونادى نوح ربه فقال رب ان ابني من أهلي وإنّ وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين). وهذا الدعاء ليس من باب الاعتراض على الله، فحاشا لنبيّ كنوح عليه السلام أن يعترض على أمر الله، بل هو سؤال استعلام وكشف منه عن حال ولده الذي غرق، أي كيف غرق ابني وهو من أهلي الذين وعدتني بنجاتهم(٢).

والوعد من الله في إنجاء أهله المؤمنين قد جاء في قوله (فإذا جاء أمرنا وفار التنّور قلنا احمل فيها من كلٍ زوجين اثنين وأهلك إلاّ من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل)(٣).

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ٦ج، الطبعة السادسة (بيروت، القاهرة : دار الشروق، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م) ج٤ ص١٨٧٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ج٢ ص٤٤٧.

(٣) سورة هود : ٤٠.

فقوله (وإنّ وعدك الحق) معناه : إن كان وعدٌ تعده فهو الحقّ الثابت الذي لاشك في إنجازه والوفاء به ، وقد وعدتّني أن تنجي أهلي فما بال ولدي لم يكن من الناجين ؟

وختم دعاءه هذا بالاعتراف لله بحكمته وعدله ؛ حتى لايظنّ أنّ سؤاله للاعتراض على الله. وذلك قوله (وانت أحكم الحاكمين) "أي أعلم الحكّام وأعدلهم ؛ لأنّه لا فضل لحاكم على غيره إلا بالعلم والعدل" (١).

٤ - جواب العدل والحقّ من الله لنوح :

بعد هذا السؤال الاستعلامي من نوح عليه السلام يجيبه الله عزّ وجلّ جواب الحقّ والعدل: (قال يانوح إنّه ليس من أهلك إنّه عَملٌ غير صالح فلا تسئلني ماليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين). فانّ هذا الولد ليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم ؛ لأنّه كان لدينك مخالفاً (انّه عملٌ غير صالح) (٢). وهذه الجملة تعليل لانتفاء كونه من أهله ، وفيه إيذان بأنّ قرابة الدين غامرة لقرابة النسب ، وجُعِل ذاته عملاً غير صالح ؛ مبالغة في ذمّه، وقيل أيضاً : لكثرة إساءته ، ومداومته على الفساد.

وقد قيل إنّ الضمير في قوله (إنّه عمل غير صالح) يرجع إلى سؤال نوح عليه السلام ربه (٣).

---

(١) أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري ، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، ٤ج (بيروت : دار لمعرفة) ج٢ ص٢٧٢.

(٢) قرأ الكسائي (إنه عَمِلَ غيرَ صالح) بنصب اللام والرّاء ، وقرأ الباقون (عملٌ غيرُ صالح) بفتح الميم وضمّ اللام والراء (انظر : حجة القراءات لابن زنجلة ص٢٤١-٢٤٢).

(٣) انظر: تفسير ابن جرير الطبري ج١٢ ص(٢٢-٢٣) ؛ الكشاف =

وأقول: إنّ الرّاجح ما ذهبنا إليه أولاً من أنّ الضمير يرجع إلى ابنه ؛ وذلك لأنّه لايصح نسبة الفساد إلى نبيّ من الأنبياء ، كيف وهو من أولي العزم من الرسل ! ويؤيد كلامنا : القراءة الثانية التي قرأ بها الكسائي (إنّه عَمِلَ غيرَ صالح) بالنّصب ، فالضمير هنا لامحالة راجع إلى ابن نوح ، وقراءته سبعية متواترة يحتج بها.

وطرح بعض المفسرين سؤالاً حول هذه الجملة فقالوا : لم أبدل فاسداً بغير صالح؟ وأجيب عنه : إمّا لأنّ الفاسد ربّما يطلق على ما فسد ومن شأنه الصّلاح فلايكون نصاً فيما هو من قبيل الفاسد المحض كالمظالم ؛ وإمّا للاشارة بأنّ نجاة من نجا إنّما هو بسبب صلاحه(١).

= للزمخشري ج٢ ص٢٧٢ ؛ التفسير الكبير للفخر الرازي ج١٨ ص٢؛ روح المعاني للألوسي ج١٢ ص٦٩.

(١) أنظر : روح المعاني للألوسي ج١٢ ص٦٩.

وبعد أن بيّن الله لنوح حقيقة حال ابنه ، نهاه عن مثل هذا السؤال (فلا تسألنِ(١) ماليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين).

وهو نهي فيه عتاب من الله لنبيّه بكلّ رفق وتلطّف ، وكأن الله يقول له : إنّ مقامك عظيم فشأنك أن لا تسأل مثل هذا السؤال الذي لاتعلم أصواب هو أم لا ؛ أو لاتعلم ما هي عاقبته ومآله ، وهل يكون خيراً أو غير ذلك ، وإني أعظك وعظاً تكون به من الكاملين وتنجو به من صفات الجاهلين. ويقول ابن العربي - حول هذا المعنى-: وهذه زيادة من الله وموعظة يرفع بها نوحاً عن مقام الجاهلين ويعليه إلى مقام العلماء والعارفين(٢).

وليس ما قاله الله تعالى لنوح عليه السلام فيه قدحٌ بعصمة الأنبياء كما ذكر بعضهم ، إنّما يحمل هذا العتاب على ترك الأولى ، وحسنات الأبرار سيئات المقرّبين(٢).

---

(١) قرأ ابن كثير (فلا تسألنّ) بفتح النون مع التشديد ، وقرأ أهل المدينة (فلا تسألنّي) بتشديد النون مع الياء ، وقرأ قالون عن نافع ابن عامر (فلا تسألنّ) مكسورة النون مشددة من غير ياء ، وقرأ أبو عمرو (فلا تسألني) بتخفيف النون وسكون اللام مثبتة الياء ، وقرأ أهل الكوفة (فلا تسألنِ) خفيفة النون محذوفة الياء (انظر : حجة القراءات لابن زنجلة ص٣٤٢-٣٤٤).

(٢) انظر : الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج٩ ص٤٨ ؛ تفسير البيضاوي ج٢ ص١١٠ ؛ أحمد الصاوي المكي ، حاشية الصاوي على الجلالين (بيروت : دار إحياء التراث العربي) ج٢ ص٢١٧ ؛ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان ، تحقيق محمد زهري النجار ، ٨ج ، الطبعة الأولى (الرياض - المملكة العربية السعودية : طبع ونشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد ، ١٤٠٤هـ) ج٢ ص٤٢٧.

(٣) أنظر : التفسير الكبير للفخر الرازي ج١٨ ص٤.

٥ - إعتذار نوح عليه السلام واستغفاره :

لمّا عوتب نوح عليه السلام رجع على نفسه باللّوم والنّدم ممّا وقع منه، وسأل الله المغفرة والرّحمة: (قال ربّ إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم، وإلاّ تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين).
ونلاحظ هنا أنّه بدأ اعتذاره بالاستعاذة بالله؛ مبالغة في التوبة وإظهاراً للرغبة والنشاط فيها، وتبركاً بذكر مالقّنه الله تعالى، وهو أبلغ من أن يقول: أتوب اليك أن أسألك ؛ لما فيه من الدلالة على كون ذلك الأمر هائلاً محذوراً لا محيص منه إلاّ بالاستجارة بالله تعالى ، وأنّ قدرته قاصرة على النجاة من المكاره إلاّ بذلك.
وبعد استجارته بالله طلب منه المغفرة والتوبة على ما صدر منه من السؤال.
وأخيراً ختم اعتذاره برجائه الله أن يقبل هذا الاعتذار والأسف ، وإلاّ سيكون من الذين خسروا أعمالهم(١).

٦ - أمان الله وبركته على نوح والمؤمنين :

وقَبِل الله اعتذار نوح عليه السلام ، ومنّ عليه بعد ذلك بنعم عظيمة يوضّحها قوله: (قيل يانوح اهبط بسلام منّا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك .. الآية).
وقوله (اهبط) تحتمل معنيين :

الأوّل : النزول من الجبل إلى الأرض المستوية ؛ لأن الله أخبر من قبل أن السفينة استوت على الجوديّ ، وفي تلك الأثناء خرج نوح ومن معه من السفينة.

الثاني : النزول من السفينة إلى أرض الجبل. والأول أرجح لمناسبته طبيعة الحال. والله أعلم.

---

(١) انظر : تفسير أبي السعود ج٤ ص٢١٢.

وأمّا أولى النعم فهي السلامة والمقصود بها الأمن. والوعد بالأمن من الله يحتمل وجهين :

الوجه الأول : أنّه تعالى أخبر في الآية المتقدمة أنّه تاب عن زلته ، فكان نوح محتاجاً إلى أن يبشره الله بالسلامة من عدم رضاه سبحانه عليه ، فلمّا قيل (يانوح اهبط بسلام منّا) حصل له الأمن من جميع المكاره المتعلقة بالدين.

والوجه الثاني : أنّ ذلك الطّوفان لمّا كان عامّاً في جميع الأرض ، وعلم نوح من ذلك أنه ليس في الأرض ما ينتفع به من النبات والحيوان ، كان كالخائف في أنّه كيف سيعيش وكيف سيدفع جميع الحاجات عن نفسه من المأكول والمشروب ، فقال له الله: (يانوح اهبط بسلام منّا) ، فحين ذلك زال عنه الخوف؛ لأن هذه الكلمات الرّبانية تدل على حصول السلامة من الآفات ، ولا يكون ذلك إلاّ مع الأمن والسعة في الرّزق(١).

أقول : ويمكن الجمع بين الوجهين ولامنافاة بينهما ؛ إذ أنّ السلامة - كما هو معلوم - مطلوبة في أمر الدين والدنيا معاً من قِبل المؤمنين.

وهذا السلام ليس خاصاً بنوح ومن معه من المؤمنين، بل بكل مؤمن صادق الايمان إلى أن تقوم الساعة (وأمم ممن معك) . يقول محمد بن كعب القرظي : دخل في هذا السلام كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة(٢).

وأمّا النعمة الأخرى فهي البركة (وبركات عليك وعلى أمم ممن معك) . والبركة هي ثبوت الخير ونماؤه وزيادته.

---

(١) أنظر : التفسير الكبير للفخر الرازي ج١٨ ص(٦-٧).
(٢) أنظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٢ ص٤٤٨.

وللبركة هنا معنيان :

الأول : أنّ الله سبحانه جعل ذريّته هم الباقين إلى يوم القيامة ، فكل العالم من ذريّة أولاده الثلاثة ، ولم يُعقّب من كان معه في السفينة غيرهم(١) . وهذا المعنى يدلّ عليه قوله تعالى: (وجعلنا ذريّته هم الباقين)(٢) ، وكذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم "سام أبو العرب وحام أبو الحبش ويافث أبو الرّوم"(٣) .
وقد قيل : إن نوحاً - عليه السلام - آدم الأصغر ، أو أبو البشر الثاني؛ لأنّ جميع من بقي كانوا من نسله(٤) .

الثاني : وهو شامل للخيرات النّامية في نسل نوح عليه السلام ، وما يقوم به معاشه ومعاشهم من أنواع الأرزاق(٥) .

---

(١) أنظر : علاء الدين علي بن محمد بن ابراهيم البغدادي الشهير بالخازن، تفسير لباب التأويل في معاني التنزيل ، ٧ج، الطبعة الأولى (بيروت : دار الفكر، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م) ج٢ ص٢٢٦.
(٢) سورة الصّافات : ٧٧.
(٣) رواه الترمذي : كتاب تفسير القرآن ، باب : ٢٨ ، حديث : ٣٢٢٠-٣٢٢١، وقال عنه الترمذي : وهذا حديث حسن غريب (أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي ، الجامع الصحيح - سنن الترمذي ، ٥ج (بيروت : دار احياء التراث العربي) ج٥ ص٣٦٥ ، تحقيق وتعليق : ابراهيم عطوه عوض)؛ الفتح الرباني لترتيب مسند الأمام أحمد: ج٢٠ ص٢٩ (أحمد عبد الرحمن البنا ، الفتح الرباني لترتيب مسند الأمام أحمد (القاهرة: دار الشهاب).
(٤) التفسير الكبير للفخر الرازي: ج١٨ ص٢٢٦.
(٥) انظر : تفسير أبي السعود ج٤ ص٢١٥.

أقول : والمعنى الثاني أولى ؛ لشموله معنى البركة في كلّ شيء ، وهو المناسب لظاهر القرآن إذ لم يَنُصّ في الآية تخصيص البركة بالذّريّة فقط ؛ وإضافة على هذا فانّ زيادة الذّريّة ونماءها تتطلب نماء كلّ شيء - وزيادته وفيضانه - من الخيرات والأرزاق. والله أعلم.

وهذه النعم إنما تخصّ المؤمنين من ذرية -نوح عليه السلام- دون المخالفين لشرع الله والمعارضين لدعوته ؛ لأنّه سيكون لهؤلاء متاع في الدنيا ، ثم عذاب أليم في الآخرة جزاء مخالفتهم (وأمم سنمتعهم ثم يمسّهم منّا عذاب أليم) فهذا الانجاء ليس بمانع أنّ من كفر بعد ذلك من ذرية أولاد نوح ، أن يَحلّ بهم عقاب الله وإن وجدوا من المتاع في الدنيا ما وجدوا فإنهم سيؤخذون بعد ذلك أخذ عزيز مقتدر على ما فرّطوا(١).

وهذه الآية هي أبدع نهاية لهذه القصّة التي بدأت بين الأب المؤمن والابن الكافر .. النهاية التي تصوّر حقيقة الرّابطة التي تربط بين فرد وفرد ، وبين جيل وجيل .. إنها العقيدة الواحدة التي تربط المؤمنين كلّهم في إله واحد ، وربّ واحد، يلتقون في الدّينونة له بلا منازع ولاشريك(٢).

---

(١) أنظر : تفسير الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ج٢ ص٤٢٨.
(٢) أنظر : في ظلال القرآن لسيد قطب ج٤ ص١٨٨١.

الفصل الثاني

"العبر والفوائد"

أولاً : العبر والفوائد من نداء نوح عليه السلام لابنه :

١ - نلاحظ في قوله تعالى (وهي تجري بهم في موج كالجبال) فوائد عدة أهمها ما يلي :

* قمة التصوير الإلهي في رسم حالة الرعب والهول الشديدين في إهلاك المجرمين الكافرين .. التصوير الذي يظهر عظم قدرة الله تبارك وتعالى وجبروته وعزته وانتقامه من الجبارين المتكبرين ؛ مما يحذر من يأتي بعد هؤلاء - ويسمع ما حصل بهم- أن لا يقفوا في جانب المعاداة لله ولرسله ولأوليائه.

* حالة المؤمنين من الثبات والاطمئنان والثقة بالله تعالى ، وعدم خوفهم من الغرق، وهم في سفينة بسيطة بين أمواج عظيمة كالجبال في ارتفاعها وامتدادها، وهم بينها كأنهم في واد سحيق ، ولكن هي ثقة أولياء الله بحماية الله ورعايته لهم (...ألا انّ أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون)(١) ، وما دام الله قد وعد بالنجاة فلابدّ من الاطمئنان ، والثقة - كل الثقة - بوعده سبحانه (..ومن أوفى بعهده من الله..)(٢).

وهذه الحالة التي ينبغي أن يكون عليها كلّ مؤمن بالله حقاً، في ثقته واطمئنانه وتوكّله على الله فإنّه : (ومن يتوكل على الله فهو حسبه ..)(٢).

---

(١) سورة يونس : ٦٢.
(٢) سورة التوبة : ١١١.
(٢) سورة الطلاق : ٣.

* سنة الله في وجوب اتخاذ الأسباب والوسائل من قبل عباده المؤمنين : فالله قد حكم بنجاتهم ولكن مع ذلك أرشدهم إلى فعل أسباب النجاة ، مع أنّ الله قادر على أن يهلك من خالف نوحاً بأيسر السبل. مثل إرسال طير أبابيل أو صواعق تحرقهم أو رياح تدمّرهم أو غير ذلك ، وقادر أيضاً سبحانه أن ينجيهم بدون سفينة.
ولكن هي الأسباب الواجبة ، ولتتحقق العبرة من الطرفين ، فلو كان بغير ذلك لما تحققت العبرة المطلوبة. والله أعلم .

ويذكّرني هذا الموقف بحادث هجرة النبيّ محمد صلى الله عليه وسلم ، فالله كان قادراً على أن يظهره فضلاً عن أن يوصله إلى المدينة بطريقة أو باخرى - بمثل ما حدث في الاسراء والمعراج - ولكنّه صلى الله عليه وسلم أخذ بالأسباب وخطّط لهجرته - كما هو معلوم - واتخذ جميع التدابير اللازمة كما لو كان النجاح متوقفاً على هذا التخطيط وتلك التدابير والوسائل ، ثم اعتمد على خالق الأسباب سبحانه وتعالى ، وهكذا أحداث السيرة النبوية كلّها من القيام بالغزوات وغيرها .. الخ ، وإنّما هي سنّة الأسباب الواجبة الأخذ ، ولتتحقق العبر والدروس لمن جاء من بعد على مرّ الأزمان.

٢ - وفي نداء نوح عليه السلام لابنه بكلمة "يابنيّ" فائدة جليلة : إذ أنّ نداءه بالتصغير "فيه تحنن ورأفة ورحمة" (١) ، وبهذه الكلمة يستجيش فيه عاطفة البنوّة لعلّه يهتم لندائه وينتبه لما يقال له ويستمع ثم ينتفع وتكون الاستجابة المطلوبة.

وهذا الأسلوب في ابتداء الخطاب مع الأبناء بهذه الكلمة هو من الحكمة بمكان في تربية الأبناء، فعلى الآباء والمربين أن يخاطبوا أبناءهم - وإن كانوا على خطأ - بالالفاظ التي يستجيشون بها مشاعرهم ، وأن يشعروهم بحنانهم ورأفتهم بهم ، لعل هذا - يجعل منهم آذاناً صاغية فيلبّون ويطيعون.

---

(١) تفسير البحر المحيط لأبي حيّان: ج٥ ص٢٢٦.

* ومن هنا أيضاً يأخذ الداعية إلى الله درساً وعبرة ، وذلك بأنّ عليه أن يخاطب مدعوّيه بما يظهر لهم فيه مودّته لهم ، وشفقته عليهم ، وبما يؤثر فيهم ويُحرّك عواطفهم ، وليناديهم بأحب الأسماء إلى قلوبهم ؛ لعلهم يسمعون فيجيبون ويهتدون. وهذا من الحكمة - ولا شك - في باب الدعوة إلى الله (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إنّ ربك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) (١).

٢ - إنّ موقف نوح عليه السلام مع ابنه يلاحظ من ناحيتين :

أوّلها : من حيث كونه أباً ، فواجبه يحتم عليه النصيحة لابنه، ولآخر لحظة في حياته؛ حتى لا يعاتبه الله على فساد ابنه وضلاله. وذلك يدل عليه قول الله عزّ وجلّ: (ياأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون) (٢). ويدل على هذه المسؤولية أيضاً قول النبي صلى الله عليه وسلم: ".. كلّكم راع وكلّكم مسؤول عن رعيّته .. الحديث" (٣).

ثانيها : من حيث كونه داعية إلى الله ، فواجبه الدّعوي يحتّم عليه أن لايفتأ عن الدّعوة إلى الله ولآخر لحظة من لحظات إمكان التبليغ ؛ فلعلّ نداءه الأخير هذا يصل إلى "مكان الايمان من قلب مدعوّه فيؤمن" ، أو يلمس ناحية الشـعور فيـه

---

(١) سورة النحل: ١٢٥
(٢) سورة التحريم : ٦.
(٣) رواه البخاري : كتاب الجمعة ، باب الجمعة في القرى والمدن، حديث : ١٨ (محمد بن اسماعيل البخاري ، صحيح البخاري (بيروت : عالم الكتب، الطبعة الرابعة : ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م) ج٢ ص٢٢).

فيذعن" (١).

وهذا - بلاشك - دليل على قمة الاصرار في تبليغ دعوة الله؛ وفي أصعب الظروف وأحرج الأوقات، وهاهو ذا عليه السلام وفي آخر اللحظات وعند ظهور علامات الطوفان يدعو ابنه.

ثانياً : العبر والفوائد من إعراض ابن نوح عن دعوة أبيه :

١- يَمْثُل أمامنا في هذا الموقف شخصيتان اثنتان : شخصية ذلك الأب الملهوف على نجاة ابنه وردّه إلى الحقّ والصّواب، وشخصية الولد العاقّ لأبيه؛ حيث أنّه كذّب بما جاء به من الحقّ وكفر به ولم يثق بما أخبره به.

فالأب نوح عليه السلام كان مثالاً للأب المؤمن الذي عرف واجبه تجاه ابنه والابن (كنعان) كان مثالاً للولد العاقّ الكافر الذي خالف أباه في دعوة الايمان وكذّبه، ونافق في ذلك، ولم يعرف حقّ طاعة أبيه فكان من الخاسرين.

وانطلاقاً من هذا التصوير يستشعر الانسان عظم الموقف؛ أب مؤمن بل نبيّ من الأنبياء، وابن ليس قد ارتكب معصية من المعاصي فحسب، بل ارتكب أعظمها وهي الكفر بالله.

ولايمكننا القول بأنّ نوحاً عليه السلام قد فرّط في تربية ابنه على الايمان، فحاشا لنبي الله أن يهمل هذا الأمر المهمّ، بل ان ابنه ليَجِدُ منه أكثر ممّا يجد غيره من الاهتمام، وقد لاحظنا اهتمامه بابنه وهو في آخر اللحظات وهذا يدل على قولنا.

---

(١) محمد أحمد جاد المولى، قصص القرآن (بيروت : دار الكتب العلمية، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م) ص(١٩-٢٠).

ولكن القول الصحيح أنّ البيئة الكافرة الغالبة آنذاك ، كان لها أثر في شخصية هذا الولد، فتأثر بها ، وبعداً عن لوم أبيه لم يظهر كفره بل نافق فأظهر الايمان وأبطن الكفر - وقد ذكر بعض المفسرين أن الناس في عهد نوح كانوا على ثلاثة أصناف: صنف كافر مظهر لكفره ، وصنف مؤمن ، والصنف الثالث منافق ، ويضاف إلى عامل البيئة الخارجية وجود زوجة نوح الكافرة ، وقد تكون هي أمّاً لذات الولد نفسه ، وبالتالي قد يكون لها أثر في كفره ، وهذا لا يستبعد ، بل قد يكون عاملاً مهماً في نشأة الولد على غير دين أبيه الصحيح.

وهكذا فانّ وجود هذين العاملين المؤثرين قد يصرف الولد عن اتباع نهج أبيه- إن لم يختر طريق الهدى والحقّ - مع ما يبذله الأب من جهد في تربيته ، فالابن هنا يتلقى من أبيه مبادىء الايمان ، ويتلقى من الطرف الآخر في البيت - الطرف صاحب العطف والحنان الزائدين "الأم" - مبادىء الكفر والضلال ، وكذلك يتلقاها من البيئة الكافرة المحيطة. وهذا ممّا ينبت الشكّ في دين أبيه المؤمن ، ومن معه من القلة ، ومن شكّ إلى ظلام دامس وكفر بالله.

وليس معنى هذا أنّ من كان في حالة مماثلة لابن نوح كان هذا مصيره وهو الكفر، انمّا هو الاختيار ، بل إنّ الغالب في أبناء الأنبياء والرسل أن يكونوا على دين آبائهم. والله أعلم.

وأخلص مما تقدم ذكره بتوجيهات عامة نستلهمها من هذا الموقف :

* إنّ على الآباء أن يحرصوا على اختيار الزوجات الصالحات لما لهن من كبير الأثر على الأولاد ونشأتهم ، ويتبع هذا من يُربين الأولاد.

* إنّ على الآباء توفير البيئة الصالحة لأولادهم ، وملاحظة أولادهم فيمن يصحبون ويجتمعون بهم ، لما للبيئة من عظيم الأثر في ما يعتنقه الأولاد من المبادىء والافكار.

* إنّ على الأباء أن يهتموا منذ الصغر على توجيه أبنائهم التوجيه الايماني الصحيح حتى يشبوا على الالتزام به والدعوة إليه.

* إنّ على الأبناء طاعة آبائهم الصالحين فيما يأمرونهم به من الايمان بالله وطاعة الله عزّ وجلّ واتباع سنة نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم.

٢ - وإنّ موقف نوح عليه السلام مع ابنه ليذكّرني بموقف بعض الآباء والأمهات الذين أسلموا في عهد النبي صلى الله عليه وسلم بمكة ، مع أولادهم الذين أبوا إلاّ الكفر والضلال ، وقد أنزل الله فيهم قرآناً يبيّن حالهم هذا. وذلك في قوله (والذي قال لوالديه أفٍ لكما أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي وهما يستغيثان الله ويلك آمن إنّ وعد الله حق فيقول ما هذا إلا أساطير الأوّلين. أولئك الذين حقّ عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجنّ والإنس أنهم كانوا خاسرين) (١) .

---

(١) سورة الأحقاف : ١٧-١٨.
والصحيح أنّ سبب نزول هاتين الآيتين في بعض الآباء والأمهات الذين أسلموا بمكة ولم يسلم أبناؤهم فدعوهم إلى الاسلام.
أمّا من زعم أنّها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) فقوله ضعيف ، لأنّ عبد الرحمن أسلم بعد ذلك وحسن اسلامه وكان من خيار أهل زمانه، كما أنّ الله قد أثبت الخسران لمن ذكر في الآخرة وهذا لا ينطبق عليه رضي الله عنه، وممّا يؤيد هذا أنّ البخاري قد روى في صحيحه عن يوسف بن ماهك قال : كان مروان على الحجاز استعمله معاوية ، فخطب فجعل يذكر يزيد بن معاوية لكي يبايع له بعد أبيه ، فقال له عبد الرحمن بن أبي بكر شيئاً ، فقال: خذوه. فدخل بيت =

فهم - كما نلاحظ - يدعوانه إلى الايمان والاقرار ببعث الله عباده ومجازاتهم على أعمالهم ، وهو يقول لهم : قذراً ونتناً لكم أتعدانني أن أخرج من قبري بعد فنائي وبلائي ؛ ولو كنت مبعوثاً لكان قد بعث من هلك قبلي من القرون.

وان قولهما : (ويلك آمن إنّ وعد الله حق) يشبه قول نوح لولده (يابني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين) وقوله : (لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم). وكانت نهاية أولئك الأبناء الذين كذبوا وأبوا الايمان بأن حقّ عليهم القول أنهم خاسرون في الآخرة ولامحالة ، وهذا يشبه قوله عزّ وجلّ (إلاّ من سبق عليه القول .. الآية) (١).

ومرّة أخرى نقف - هنا - أمام مشهد الولد العاق وهو يجحد برّ أبيه أوّل ما يجحد، فيخاطبهما بالتأفف الجارح الخشن الوقح ، ثم يجحد الآخرة بالحجة الواهية.. والوالدان يريان الجحود ويسمعان الكفر ويفزعان ممّا يقوله الولد العاق لربّه ولهما، ويرتعش حسّهما لهذا التهجّم والتطاول ، ويهتفان به أن آمن.. وهذا أعظم إحسان

= عائشة رضي الله عنها ، فلم يقدروا عليه ، فقال مروان : إنّ هذا الذي أنزل الله فيه (والذي قال لوالديه أف لكما .. الآية). فقالت عائشة من وراء الحجاب: ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن إلاّ أنّ الله أنزل عُذري (كتاب التفسير حديث: ٢٢٢). وهذا نص صريح في ذلك. واضافة إلى ماسبق فانّ الذي هنا بمعنى (الذين)؛ لأنها مبتدأ خبرها (أولئك) والاخبار عن لفظة الذي بصيغة الجمع صريح في أنّ المراد بالذي العموم لا الافراد. والله أعلم (انظر : التفسير الكبير للفخر الرازي ج٢٨ ص٢٢-٢٤ ؛ تفسير الخازن ج٦ ص١٦٠-١٦١ ؛ محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي ، أضواء البيان في ايضاح القرآن بالقرآن ، ١٠ج (المملكة العربية السعودية : طبع على نفقة الأمير أحمد ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م) ج٧ ص٢٨٧ ؛ تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٤ ص١٥٨-١٥٩).

(١) سورة هود : ٤٠.

يصدر منهما لولدهما أن يدعواه إلى ما فيه سعادته الأبدية .. وهما بذلك يبذلان غاية جهدهما ويسعيان في هدايته أشدّ السعي ، حتى أنّهما من حرصهما عليه يستغيثان الله له استغاثة الغريق(١).

وإنها للأبوة الرفيقة المشفقة على أولادها .. وهكذا كان المثال في أول الأمم ، ونجده هنا في آخرها ؛ وذلك لأنّ الايمان هو الايمان ، والكفر هو الكفر ، وصورهما تتكرر في كل زمان ومكان.

والفطن من اتخذ من مواقفهما العبر واتعظ.

٢ - ونقف هنا مع قول نوح لابنه: (لاعاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم) ؛ لنطّلع على عِظَم الأسلوب الذي سلكه نوح عليه السلام في هذا الخطاب بهدف ردّ ابنه إلى حظيرة الايمان :

إنّه سلك في قوله هذا طريقة نفي الجنس المنتظم لنفي جميع أفراد العاصم ، ذاتاً وصفة ؛ للمبالغة في نفي كون الجبل عاصماً بالوجهين المذكورين ، وزاد (اليوم) للتنبيه على أنّه ليس كسائر الأيّام التي تقع فيها الوقائع وتلمّ فيها الملمّات المعتادة التي ربمّا يتخلص منها بالالتجاء إلى بعض الأسباب العادية.

وعبر عن الماء في محل اضماره بأمر الله - أي عذابه الذي أشير إليه- ؛ تفخيماً لشأنه وتهويلاً لأمره وتنبيهاً لابنه على خطئه في تسميته ماءً لوهمه أنّه كسائر المياه التي يُتفصّى منها بالهرب إلى بعض المهارب المعهودة ، وتعليلاً للنفي المذكور، فانّ أمر الله لايغالب ولايرد ، وتمهيداً لحصر العصمة في جناب الله عزّ جاره بالاستثناء ، كأنه قيل: (لاعاصم من أمر الله إلا هو).

---

(١) انظر : في ظلال القرآن لسيد قطب ج٦ ص٢٢٦٢-٢٢٦٤ ؛ تفسير عبد الرحمن السعدي ج٧ ص٤٨-٤٩.

وانما قيل: (إلا من رحم) تفخيماً لشأنه الجليل بالابهام ثم التفسير، وبالاجمال ثم التفصيل ، وإشعاراً بعليّة رحمته في ذلك بموجب سبقها على غضبه.
وكل هذا لكمال عنايته عليه السلام بتحقيق مايرجوه من نجاة ابنه، ببيان شأن الهلاك وقطع أطماعه القارغة وصرفه عن التعلل بما لايغني عنه شيئاً ، ومن ثمّ ارشاده إلى الاعتصام بالحق عزّ حماه ، وباللجوء إليه سبحانه(١).

وهذا الأسلوب الذي سلكه نوح عليه السلام مع ابنه - فيه اشارة للآباء والمربين والدعاة إلى الله ، أن يسلكوا مع مدعويهم - من الأبناء وغيرهم - أفضل الأساليب ، مع تنوعها واختلافها وتدرّجها ؛ حتى تكون أبعد أثراً وأعمق تأثيراً ، وتكون بالتالي أدعى لاستجابتهم عاجلاً أو آجلاً.

٤ - ومن قوله (وقيل ياأرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين) نستفيد ما يلي :

* إنّ من كمال تصوير العبرة أن تُجعل هذه الآية الكريمة بعد الآية التي قبلها، من غير أن تكمل قصة نوح مع ابنه ومناجاته لربه ، فظاهر الترتيب أن تُجعل الآيات: (٤٥-٤٦-٤٧)بعد الآية (٤٢) ، ووجه هذا التقديم والتأخير بينهما : هو أن قدّمت الآية المتممة لأصل القصة المبيّنة لوجه العبرة منها بأروع التعبير الذي يقرع أبواب القلوب بأبلغ قوارع التأثير ، فالآية (٤٢) تصوّر لقارئها عظمة الطوفان بأعظم الصوّر هولاً ورعباً ، ثم تتلوها الآية (٤٤) فتكون الفاصلة يكشف ذلك الكرب العظيم بكلمتين موجزتين من كلمات التكوين الالهي قضي بهما الأمر بنجاة المؤمنين وهلاك الكافرين ، ولو فصل بينهما بهذه الآيات الثلاث اللاتي وضعن بعدهما لضاع تسعة أعشار بلاغتهما وتأثيرهما في العبرة والموعظة المقصودة من القصة(٢).

---

(١) انظر : تفسير أبي السعود ج٤ ص٢١١.
(٢) أنظر : محمد رشيد رضا ، تفسير المنار ، ج١٢ ، الطبعة الثانية (بيروت: دار المعرفة) ج١٢ ص(٨٢-٨٣).

* انّ هذه الآية الكريمة تدلّ على عظمة الله وعلوّه وكبريائه : فكل كلمة فيها تشير إلى ذلك.

وأوّل هذه الكلمات قوله : (وقيل) فانها تدلّ على أنّه سبحانه في الجلال والعلوّ والعظمة؛ بحيث أنّه متى قيل : (قيل) لم ينصرف العقل إلاّ اليه ، ولم يتوجه الفكر إلاّ إلى ذلك القائل هو هو سبحانه. وهذا التنبيه جاء من هذا الوجه ؛ لأنه قد تقرر في العقول أنّه لاحاكم في العالمين ولامتصرف في العالم السفلي والعلوي إلاّ هو سبحانه.

وثانيها - قوله : (ياأرض ابلعي ماءك وياسماء أقلعي) ؛ فانّ الحسّ يدل على عظمة هذه الأجسام وشدتها وقوتها ، فاذا أشعر العقل بوجود موجود قاهر لهذه الأجسام مستولٍ عليها متصرف فيها كيف شاء وأراد ؛ صار ذلك سبباً لوقوف القوة العقلية على كمال جلال الله وعلوّ قهره وعظمته وكمال قدرته ومشيئته.

وثالثها - انّ السّماء والأرض من الجمادات. فقوله عزّ وجلّ (ياسماء.. ياأرض..) مشعر بحسب الظاهر على أنّ أمره وتكليفه نافذ في الجمادات ، وعند هذا يقرر بطريق الأولى أنّ حكمه نافذ على العقلاء ، وهذا يقرر - بلا شك - عظمته وجلاله تقريراً كاملاً ؛ ولأنّ توجيه صيغة الأمر بحسب الظاهر على هذه الجمادات القوية الشديدة يقرر ذلك أيضاً.

أقول: ولا مانع أن يكون الله قد جعل - بقدرته العظيمة - في هذه الجمادات عقلاً وسمعاً وكأنّها صارت مكلفة ، وخاطبها الله حين ذلك ، وهذا يدل على عظمته وجلاله أيضاً، وهذا المعنى له شواهد في القرآن الكريم منها قوله تعالى (.. وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير .. الآية)(١) (.. وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم .. الآية)(٢).

---

(١) سورة الأنبياء : ٧٩.
(٢) الاسراء : ١٧.

ورابعها - قوله (وقضي الأمر). فانّ الذي قدّره وقضاه واقع جزماً وحتماً في وقته وأوانه ومكانه الذي أريد فيه أن يكون ، ولارادّ لقضائه ولامانع من نفاذ حكمه في أرضه وسمائه. وهذا دالّ أيضاً على عظمة الله وجلاله وكبريائه(١)

أقول: والآية في مضمونها تصوّر لنا قدرة الله عزّ وجلّ اللامحدودة، وسيطرته على الكون كله أرضه وسمائه بما فيه ومن فيه من جمادات وغيرها، وأنّ أمره عزّ وجلّ كما يصدر على العقلاء يصدر على غيرهم ، وأنّ الكون كلّه منقادلله عزّ وجلّ وأنّ ذلك إن دلّ فإنّما يدل على أنّه الواحد ولا إله غيره، ولا متصرف بالكون سواه.

وأولى لنا معاشر العقلاء أن ننقاد لله عزّ وجلّ في أمره ونهيه .. ولنتعظ ولنتدبر ولنعتبر ..

* وفي ختام الآية عبرة. فقوله (وقيل بعداً للقوم الظالمين) فيه تعريض بأنّ سالكي مسالك هؤلاء في الظلم والتكذيب يستحقون مثل هذا البعد من الله ، والدعاء عليهم بذلك ..
فأولى للظالمين والمكذبين والمعاندين أن يعتبروا ويرجعوا عن تكذيبهم وظلمهم حتى لاينزل الله بهم ماأنزل بأمثالهم.

* وفي آخر مايستفاد من هذه الآية العظيمة نقول : إنّها قد احتوت على وجوه عديدة من الاعجاز البياني ، وبلغت الغاية في بلاغتها.

فهذا أبو حيّان - المفسر - يسوق في تفسيره واحداً وعشرين نوعاً من البديع فيها، وقد ألّف - أيضاً - السيد محمد اساعيل الأمير رسالة فيها سماها : (النّهر المورود في تفسير آية هود).

---

(١) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ج١٧ ص٢٢٤.

وهذه الأنواع البديعية هي كالتالي : المناسبة، المطابقة ، المجاز، الاستعارة ، الاشارة ، التمثيل ، الارداف ، التعليل ، صحة التقسيم، الاحتراس، الايضاح ، المساواة ، حسن النسق ، الايجاز ، التسهيم ، التهذيب ، حسن البيان، التمكين، التجنيس ، المقابلة ، الذم ، وآخرها الوصف(١) .

ويدل على هذا الاعجاز ماروي من أنّ كفار قريش قصدوا أن يعارضوا القرآن فعكفوا على لباب البرّ ولحوم الضأن وسلاف الخمر أربعين يوماً؛ لتصفو أذهانهم، فلمّا أخذوا فيما قصدوه وسمعوا هذه الآية قال بعضهم لبعض: هذا الكلام لايشبه كلام المخلوقين فتركوا ماأخذوا فيه وتفرقوا.

ويروى كذلك أنّ ابن المقفع وكان -كما في القاموس- فصيحاً بليغاً، بل قيل: انّه أفصح أهل وقته ، فأراد أن يعارض القرآن فنظم كلاماً وجعله مفصّلاً وسمّاه سوراً، فاجتاز يوماً بصبي يقرؤها ، فرجع ومحا ماعمله ، وقال : اشهد أنّ هذا لايعارض أبداً وماهو من كلام البشر(٢) .

ثالثاً : العبر والفوائد من سؤال نوح ربه في شأن ابنه :

١ - انّ العبد المؤمن ليبتلى على قدر إيمانه. وقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم: أي الناس أشد ابتلاءً ؟ فقال : "الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرّجل على حسب دينه ، فان كان في دينه صلباً اشتد بلاؤه ؛ وإن كان في دينه رقّة ابتلي على قدر دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة" (٣) .

---

(١) انظر : محاسن التأويل للقاسمي ج٩ ص١٢١.
(٢) انظر : تفسير روح المعاني للالوسي ج١٢ ص٦٢.
(٣) رواه الترمذي : كتاب الزهد ، باب : ٥٦ ، حديث : ٢٢٩٨ ، وقال عنه : حديث حسن صحيح.

وهاهو ذا نوح عليه السلام - وهو من انبياء الله - يبتلى ابتلاءً شديداً، فاضافة إلى تكذيب قومه وأذاهم له، يبتلى بابنه فيجده في صفّ الكافرين، وقد ابتلي بزوجته - أيضاً - من قبل. (ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين) (١). وإنّه لمن أعظم البلاء أن يجد الانسان أهل بيته في الصفّ المعادي له الكافر بدينه!!

ولكنّه عليه السلام واجه ذلك بالصّبر، ولم يقنط، بل سعى في انقاذ ابنه ودعوته إلى الايمان.

وهذا ماينبغي أن ينهج نهجه من كل مؤمن ابتلي بمثل هذا الابتلاء.

ولاعجب أن تأخذ نوح الدهشة لمّا شاهد ابنه قد غرق مع الكافرين؛ وقد كان يظنه مؤمناً ولاعجب أن تغيب عنه حقيقة قد أخبره الله بها- وهي أنّ من سيغرق هم الكافرون وأنّه منج المؤمنين ولا محالة- لاعجب وهو في تلك اللحظة الحرجة، وهو يرى ابنه قد ذهب مع الكافرين !! لاعجب أن تتحرك عواطف الأبوة في نفسه.. وهو بشر يشعر بشعور البشر. وهذا لايخالف صبره وتحمّله، وثقته بالله وربط همته به.

٢- في قوله عليه السلام (وإنّ وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين) نلمس معنى جميلاً، وهو أنّه لم تشغله عاطفة الأبوّة عن مراعاة الاتجاه وأدبه وحسن السؤال لربه(٢)؛ وما ذاك إلاّ لمعرفته الحقّة بجلال ربّه وعظمته، وأنّ مايقدّره الله عليه فهو له خير. وفي الحديث: "عجباً لأمر المؤمن إنّ أمره كلّه خير. وليس ذلك لأحد إلاّ للمؤمن إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيراً له"(٣).

وهذا ماينبغي أن يكون عليه حال المؤمن في أيّ مقام - خصوصاً فيما اذا كان في مثل حالة نوح عليه السلام. محسناً التوجّه إلى الله، متأدّباً في دعائه إيّاه؛

---

(١) سورة التحريم : ١٠.

(٢) انظر: محاسن التأويل للقاسمي ج٩ ص١٢٢.

(٣) رواه مسلم: كتاب الزهد، حديث رقم: ٦١، ج٥ ص٨٤٤.

لأنه يناجي صاحب العزة والجلال والاكرام ، وعليه أن يستشعر أنّ ما قُضي فهو خير له.

رابعاً : العبر والفوائد من جواب العدل والحق من الله :

١ - (إنّه ليس من أهلك إنّه عمل غير صالح). تدّلنا هذه العبارة على عدة فوائد أهمّها مايلي :

* أنّ العبرة بقرابة الدّين لا بقرابة النسب.

فانّ في هذه الصورة كانت قرابة النسب حاصلة من أقوى الوجوه ، ولكن لمّا انتفى الدّين نفى الله قرابة النسب ، وذلك مع أنّ الاسلام أعطى لصلة النسب حظاً كبيراً من الرّعاية والعناية ، والانسان أيضاً بطبعه مجبول على مراعاتها والقيام بواجباتها ، ولكنّها مشروطة بقرابة الدين(١).

وحول هذا المعنى يقول سيد قطب فيما خلاصته :

إنّ هذه الوشيجة التي يتجمع عليها الناس في هذا الدّين وشيجة مزيدة تتميّز بها طبيعة هذا الدين ، وتتعلق بآفاق وآماد وأبعاد وأهداف يختص بها ذلك النهج الرّباني الكريم.

إنّ هذه الوشيجة ليست وشيجة الدم والنّسب ، وليست وشيجة الأرض أو الوطن أو القوم أو العشيرة أو اللون واللّغة أو الجنس والعنصر ، أو الحرفة والطبقة ، كل هذه الوشائج قد توجد ثم تنقطع العلاقة بين الفرد والفرد ، فالرابط الوحيد هو الايمان لاغير .

وضرب الله أمثلة كثيرة تبيّن هذا التصوّر القويم : ابراهيم مع أبيه - زوجتا نوح ولوط - أصحاب الكهف - امرأة فرعون .. الخ

ويقول تعالى في ذلك (ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة .. الآية) (٢) ، وقال (لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير) (٣) ، وقال سبحانه أيضاً (ياأيها الذين

---

(١) انظر : عفيف عبد الفتاح طبّارة ، مع الأنبياء في القرآن الكريم ، الطبعة الحادية عشرة (بيروت : دار العلم للملايين ،١٩٨٢م) ص٨١.

(٢) سورة الممتحنة : ١.

(٣) سورة الممتحنة : ٣.

آمنوا لاتتخذوا آباءكم واخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الايمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون) (١).

وهكذا تقررت تلك القاعدة الأصيلة الحاسمة في علاقات المجتمع الاسلامي وفي طبيعة بنائه وتكوينه العنصري الذي تتميز به عن سائر المجتمعات الجاهلية قديماً وحديثاً الى آخر الزمان ، ولم يعد هناك مجال للجمع بين الاسلام وبين إقامة المجتمع على أية قاعدة أخرى غير القاعدة التي اختارها الله لأمته المختارة.

انّ العقيدة تمثل أعلى خصائص الانسان التي تفرقه عن عالم البهيمة لأنّها تتعلق بالعنصر الزائد في تركيبه وكينونته عن تركيب البهيمة وكينونتها ، وهو العنصر الروحي الذي به صار هذا المخلوق إنساناً في هذه الصّورة ؛ فينبغي أن تكون هذه الخصيصة هي التي تجمع لأنّها هي المميّزة بين الانسان والحيوان ، ولاتكون آصرة التجمع عنصراً يتعلق بشيء يشترك فيه الانسان مع البهائم (٢).

وبالتالي فانّ الأهل في الحقيقة بالنسبة للمؤمن هم المؤمنون الذين تربطه بهم عقيدة التوحيد. (إنه ليس من أهلك) ..

* وفي قوله (إنه ليس من أهلك) إشارة إلى قطع الولاية بين المؤمن والكافر؛ ولو كانت هناك قرابة نسب بينهما (إنّما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا.. الآية) (٣) ؛ وذلك لأن سبب الولاية هو الايمان ، وإذا عدم الايمان عدمت الولاية (لاتجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم .. الآية) (٤).

---

(١) سورة التوبة :٢٣.
(٢) انظر : في ظلال القرآن لسيد قطب : ج٤ ص١٨٨٥-١٨٩٢.
(٣) سورة المائدة : ٥٥.
(٤) سورة المجادلة : ٢٢.

* وفي هذه الآية تسلية وعزاء للآباء الصّالحين عند فساد أبنائهم.
فهذا نبيّ الله نوح عليه السلام وهو من أولي العزم من الرّسل ، نجد أنّ ابنه كافراً، فإذا وجد بعض الآباء فساداً من بعض أبنائهم فليعتصموا بالله وليستعينوا به سبحانه في طلب صلاحهم ، وليسلكوا معهم ماسلكه نوح عليه السلام في محاولاته مع ابنه ونصيحته له ، مع الرّضا بما يقدّر الله سبحانه إن لم يستجيبوا وعدم السخط.

* وكذلك مما يستفاد "أنّه لاعلاقة للصلاح بالوراثة والأنساب ؛ بل يختلف ذلك باختلاف استعداد الأفراد وما يحيط بهم من البيئة والآراء والمعتقدات ، ولو كان للوراثة تأثير لكان جميع أولاد آدم سواء ، ولكان سلائل أبناء نوح المؤمنين الذين نجوا معه في السفينة كلهم مؤمنين" (١).

وتوضيح هذا الكلام : أنّه ليس المعنى أنّ الأب إذا كان صالحاً والبيئة فاسدة فإنه يفسد الولد ؛ بل الغالب أنّ الأبوين إذا كانا صالحين انعكس ذلك على أبنائهما؛ وإن كانت البيئة فاسدة وفي الحديث "مامن مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه.. الحديث" (٢) ، ولكن إذا كان الولد لديه استعداد للفساد فإنّ البيئة الفاسدة تساعده وتجرفه معها، فكفر ابن نوح -كما أسلفنا- كان سببه الجوّ العام الكافر. ولو تحققت البيئة الصالحة مع صلاح الآباء كان الأبناء صالحين إن شاء الله تعالى؛ وإن كان هناك شواذ فالشاذ لاحكم له. والله أعلم .

---

(١) أحمد مصطفى المراغي ، تفسير المراغي ، ٢٠ج (بيروت : دار احياء التراث العربي) ج١٢ ص٤٢.

(٢) رواه البخاري : كتاب الجنائز، حديثي رقم (١١٤٠،١١٣) ج٢ ص١٩٨؛ كتاب التفسير ، تفسير سورة الروم حديث (٢٦٨) ج٦ ص٢٠٧.
ورواه مسلم : كتاب القدر، الأحاديث (٢٢-٢٧) ج٥ ص(٥١٢-٥١٦).

ومرة أخرى انبّه على أنّه يجب على الآباء والمربين أن يوفروا البيئة الصالحة لأبنائهم؛ وأن يعملوا جاهدين على أن يكون رفاق أبنائهم صالحين حتى يشبوا صالحين؛ فان الصحبة لها الأثر الكبير. وفي الحديث "الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل" (١)، وقد قالوا قديماً : الصاحب ساحب ، وقال أهل المعرفة : لاتقل لي من أنا؟ بل قل لي : من أصاحب ؟ فتعرف من أنا ؟ وما أحسن ما قاله الشاعر :

عن المرء لاتسل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي (٢)

* يبيّن لنا القرآن الكريم - في قوله (إنّه عمل غير صالح) - أنّه ينشد توجيه الانسان إلى أنّ أعماله الصّالحة هي المعوّل عليها في نيل السعادة الأخروية، وأنّه ليس للقرابات أي تأثير في نجاته من عذاب الله إن كان عاصياً (٣). فالتبعة فردية (وأن ليس للانسان إلا ما سعى. وأنّ سعيه سوف يرى. ثم يجزاه الجزاء الأوفى) (٤)، (من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون) (٥)، (..كل امرىء بما كسب رهين) (٦).

---

(١) رواه الترمذي : كتاب الزهد ، باب : ٤٥ ، حديث : ٢٣٧٨ ، ج٤ ص٥٨٩. وقال عنه : هذا حديث حسن غريب ، وأخرجه أبو داود : كتاب الأدب، باب:١٩، حديث: ٤٨٣٢ ، ج٥ ص١٦٨ (أبو داود سليمان بن الاشعث السجستاني الازدي، سنن أبي داود، الطبعة الأولى، اعداد وتعليق: عزت عبيد الدعاس، ٥ج (حمص - سورية : دار الحديث، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٩م).

(٢) انظر : عبد الله ناصح علوان ، تربية الأولاد في الاسلام ، ٢ج ،الطبعة الثالثة (بيروت : دار السلام ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م) ج١ ص٢٩٤.

(٣) انظر : مع الأنبياء في القرآن الكريم لطبّارة ص٨١.

(٤) سورة النجم : ٣٩-٤١.

(٥) سورة الجاثية : ١٥.

(٦) سورة الطور : ٢١.

وهكذا : فإن "حكم الله في خلقه العدل بلامحاباة لولي ولا نبيّ" (١) ، فالكل سواسية أمام الله ، ومن يغترّ بنسبه أو مكانته في الدنيا فإنّما هو جاهل بكتاب الله وحقيقة العدل الألهي (اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لاظلم اليوم .. الآية) (٢).

خامساً: العبر والفوائد من اعتذار نوح عليه السلام لربه:

قال تعالى: (قال ربّ إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين).

يستفاد من هذه الآية ما يلي :

١- إنّ هذه الآية تضمنت شروط التوبة ؛ لأنّ فيها إخباراً عما سيكون عليه الحال في المستقبل ؛ إذ أنّه قال عليه السلام (إني أعوذ بك أن أسألك ماليس لي به علم) أي لا أعود إلى هذا العمل أبداً. ثمّ إن فيها الندم على العمل والاعتذار عما مضى، وذلك قوله (وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين). وحقيقة التوبة تقتضي أمرين: أحدهما في المستقبل وهو العزم على الترك ، والآخر في الماضي وهو الندم على ما مضى(٣).

٢- وفي هذه الآية إشارة إلى الحالة التي ينبغي أن يكون عليها الدّاعية إلى الله حين وقوعه في خطأ. فهو رجّاع إلى الحق والصواب فوراً، مستغفر ربّه طالب المعذرة منه سبحانه ، عازم على عدم العودة إلى مثله. وهذا هو مثال الداعية الصادق المخلص.

---

(١) تفسير المراغي : ج١٢ ص٤٠.
(٢) سورة غافر : ١٧.
(٣) أنظر : التفسير الكبير للفخر الرّازي ج١٨ ص٥.

فينبغي - بالتالي - أن يحذر الدعاة من الأغترار بأنفسهم ، والإستمرار في أخطائهم ، والمعاندة عليها ، وعدم الرّجوع إلى الحق والصواب.

ومن كان على غير هذا الخلق النبيل فالأولى له أن يترك ما هو فيه حتى لا تهلك الدعوة به وبأمثاله؛ وحتى لا يقتدي الناس به في خلقه السيء ويكونوا في مستقبلهم مثله، فيصبحوا وبالاً على الدعوة والدعاة.

سادساً : العبر والفوائد من أمان الله وبركته على نوح والمؤمنين:

١ - إنّ الله عظّم شأن نوح عليه السلام بإيصال السلامة والبركات منه إليه؛ لأنّه قال (بسلام منّا). وهذا يدلّ على أنّ الأنبياء والصديقين لا يفرحون بالنّعمة من حيث أنّها نعمة ، ولكنّهم إنّما يفرحون بالنعمة من حيث أنّها من الحق سبحانه.

وبالتالي يكون فرحهم بالحقّ ، وطلبهم للحقّ، وتوجههم إلى الحقّ وهذا مقام شريف لايعرفه إلاّ خواصّ الله تعالى؛ فان الفرح بالسلامة والبركة من حيث هما سلامة وبركة غير ، والفرح بهما من حيث أنّهما من الحق سبحانه غير ، فالأول نصيب عامة الخلق، والثاني نصيب المقربين(١).

أقول : وهذه درجة عالية ينبغي التفكر فيها والاعتبار منها ، ومحاولة استشعارها فيما أنعم الله علينا ؛ حتى نستطيع الوصول إليها.

٢ - ونستفيد من هنا فائدة أخرى وهي أنّه ما من كربة إلاّ ويتبعها فرج ، وإن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وكلما اشتدت الأزمات كان الفرج أوسع ؛ ولهذا كان جزاء نوح من الله عظيماً ، فكان أن مكنه اللّه في الأرض بعد أن طهرها من الكفرة المفسدين ،ولم يبق على وجه المعمورة إلاّ كل مؤمن موحد . كما أنّ اللّه أخذ منه ابناً كافراً وأبدله به أبناء مؤمنين ، وإضافة إلى هذا كله فان اللّه جعل أهل الأرض -من بعده- جميعاً من ذريته (وجعلنا ذريته هم الباقين) (٢).

---

(١) انظر : التفسير الكبير للفخر الرازي : ج١٨ ص٧-٨.

(٢) سورة الصافات : ٧٧.

ومن هنا يتبيّن لنا أيضاً أنّ ابتلاء الدعاة إلى اللّه له حكمة عظيمة عند اللّه عزّ وجلّ من أوجهها ما يلى :

- أنه قد يكون الخير كل الخير للداعية المبتلى في ابتلائه (وعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً...) (١) ، وبهذا الشعور يسير الداعية في طريق دعوته بلا يأس ولا قنوط ، ومن ثمّ فانه لن يترك الطريق من أجل ابتلاء أصابه، بل يدفعه ذلك إلى الصبر والثبات.

- أنّ النصر انما يكون بعد الابتلاء والصبر (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم) (٢).

وهكذا فانّ النّصر لا ياتي إلاّ مع تقديم التضحيات ، والبذل ، والصبر على المحن والابتلاءات ، وإنّ النّصر مع الصّبر وإنّ الفرج مع الكرب وإنّ مع العسر يسراً (٣).

وهذا ما نبهّ إليه الله عزّ وجل في آخر آية من حديثه عن نوح عليه السلام، فوصّى رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم بالصبر - ويدخل في الوصيّة كل مؤمن- : حتى يكونوا من المتقين الذين يهبهم الله النّصر والعزّة والتمكين في الأرض (تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين).

---

(١) سورة النساء : ١٩.
(٢) سورة محمد : ٣١.
(٣) انظر : محمد سرور بن نايف زين العابدين ، منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله ، الطبعة الأولى (الكويت : دار الأرقم ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م) ج١ ص٧٦-٧٧.

ويقول الشهيد سيد قطب في هذا المقام : "هذه هي الصّورة الهائلة التي يجب أن تقف طلائع البعث الإسلامي في كلّ مكان وفي كلّ زمان أمامها حين تطاردها الجاهلية؛ وحين تغلبها الجاهلية!

إنّها تستحق أن يسخّر الله لها القوى الكونية الهائلة .. وليس من الضروري أن تكون هي الطوفان . فما الطوفان إلاّ صورة من صور تلك القوى ! "وما يعلم جنود ربك إلاّ هو".

وإنّه ليس عليها إلاّ أن تثبت وتستمر في طريقها ؛ وإلاّ أن تعرف مصدر قوتها وتلجأ إليه؛ وإلاّ أن تصبر حتى يأتي الله بأمره ، وإلاّ أن تثق أنّ وليها القدير لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء . وأنّه لن يترك أولياءه إلى اعدائه ، إلاّ فترة الاعداد والابتلاء ؛ وأنها متى اجتازت هذه الفترة فإنّ الله سيصنع لها وسيصنع بها في الأرض ما يشاء.

"وهذه هي عبرة الحادث الكوني العظيم ....."(١).

وبهذه العبرة العظيمة نكون قد انتهينا من كلامنا في هذا الباب - على ما يسّره الله لنا فيه - راجين منه سبحانه التوفيق والسداد ، والحمد لله.

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج٤ ص١٨٩٢.

الباب الثاني

"إبراهيم الخليل عليه السلام مع أبيه وأبنائه"

وفيه فصلان :

الفصل الأول : إبراهيم عليه السلام مع أبيه.

وفيه تمهيد ومبحثان:

المبحث الأول: بيان القصة.

المبحث الثاني : العبر والفوائد.

الفصل الثاني : إبراهيم عليه السلام مع أبنائه.

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: مع ابنه إسماعيل عليه السلام.

المبحث الثاني: مع ابنه إسحاق عليه السلام.

المبحث الثالث: مع أبنائه أجمعين.

"الفصل الأول"

"إبراهيم عليه السلام مع أبيه"

وفيه تمهيـــد، ومبحثان.
المبحث الأول: بيان القصـة.
المبحث الثاني: العبر والفوائد.

"تمهيـــد"

ولد ابراهيم(١) عليه السلام ببابل، وهي أرض الكلدانيين(٢)، ونشأ بها، وكان قومها حينذاك يعبدون الأصنام .. ينحتونها بأيديهم، ثم يجعلونها أرباباً من دون الله، وكان يحكمهم ملك اسمه : النمرود بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح، وكان هذا الملك طاغية جباراً، وقد دعا قومه الى عبادته(٣).

وفي هذه البيئة الكافرة ينشأ ابراهيم عليه السلام، ولكن تأخذه يد العناية الالهية وتجعله سبباً في إزالة الضلال على الأرض. ويؤتيه الله الرشد في صغره (ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين) (٤)، أي كان أهلاً لذلك؛ فبصره الله بالحقيقة العظمى : أن الله واحد، وأنه المهيمن وحده على هذا الكون، وأنه هو الذي ينبغي أن يعبد.

وبعد ان تبين له هذا الحق عزم على تبليغه للناس ورد الناس عما هم فيه من الوثنية والشرك بالله الى عبادة الله:

(إذ قال لأبيه وقومه ماهذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون. قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين . قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين . قالوا أجئتنا بالحق أم كنت من اللاعبين . قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين) (٥).

---

(١) هو ابراهيم بن تارخ بن ناحور بن ساروغ بن راغو بن فالغ بن عابر بن شالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام (قصص الأنبياء لابن كثير : ج١ ص١١٧).

(٢) انظر : قصص الأنبياء لابن كثير ج١ ص١١٧.

(٣) المرجع السابق : ج١ ص١٢٨.

(٤) سورة الأنبياء : ٥١.

(٥) سورة الأنبياء : ٥٢-٥٦.

ومضى عليه السلام في دعوته إلى الله ، مع مايلاقيه من الصّدود والتكذيب من قومه، كما انّه أوذي وفتن في سبيلها ، وبلغ أذى قومه انّهم أرادوا حرقه بالنار فألقوه فيها ولكنّ الله جعلها برداً وسلاماً عليه:
(قالوا حرّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . قلنا يانار كوني برداً وسلامًا على ابراهيم . وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين) (١) فأبطل كيدهم وأنجاه.

وخصّ إبراهيم عليه السلام أباه بالدعوة بدايةً؛ لأنّه أحقّ الناس بإخلاص النصيحة له.
وكان أبوه ممّن يعبد الأصنام ، بل كان ممّن يصنعها(٢) .
وهذا يدلّ على أنّ أباه كان غارقاً في عبادة الأصنام والأوثان ، وداعياً إلى عبادتها بصنعه لها.

وحول الآيات التي تحكي دعوة ابراهيم لأبيه وحواره معه لطلب هدايته سيكون حديثنا في هذا الفصل ، مع الاستشهاد بالآيات الأخرى التي تمسّ الحوار من جانب لآخر.

والله المستعان سبحانه.

---

(١) سورة الأنبياء : ٦٨-٧٠.
(٢) انظر : قصص الأنبياء لابن كثير ج١ ص١١٩.

المبحث الأول: بيان القصّة

إنّ الآيات التي تتكلّم عن قصّة ابراهيم مع أبيه وما جرى بينهما - بصورة خاصّة- هي ما ذكرها الله في سورة مريم عليها السلام في قوله:

(واذكر في الكتاب ابراهيم إنّه كان صديقاً نبياً. إذ قال لأبيه ياأبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولايغني عنك شيأً. ياأبت إنّي قد جاءني من العلم مالم يأتك فاتبعني أهدك سراطاً سوياً. ياأبت لا تعبد الشيطان إنّ الشيطان كان للرحمن عصياً. ياأبت إنّي أخاف أن يمسّك عذاب من الرّحمن فتكون للشيطان ولياً. قال أراغب أنت عن آلهتي ياابراهيم لئن لم تنته لأرجمنّك واهجرني ملياً. قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنّه كان بي حفياً. وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى الاّ أكون بدعاء ربي شقياً. فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له اسحاق ويعقوب وكلاّ جعلنا نبياً. ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق علياً) (١).

مسألة :

وقبل البدء في بيان هذه الايات يجدر بنا أن نمر على مسألة اختلف فيها وهي: مااسم أبي إبراهيم ؟
وفي هذه المسألة قولان :

الأول : أن اسمه آزر ، كما ذكره الله تعالى في قوله: (وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتّخذ أصناما آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين) (٢).

---

(١) سورة مريم : ٤١-٥٠.
(٢) سورة الانعام : ٧٤.

والثاني : أن اسمه (تارح) بالحاء المهملة، وهذا قول جمهور أهل النسب، ونقل عن أهل الكتاب (تارخ) بالخاء المعجمة(١).

والذين قالوا بهذا القول اختلفوا في (آزر) الذي في الآية السابقة الذكر من هو؟ ولهم أقوال نذكرها كما يلي :

- قال الضحاك عن ابن عباس : إن أبا ابراهيم لم يكن اسمه آزر بل كان (تارخ)، وآزر هو اسم لصنم ، وقال بعضهم: إنّه سمي بالصنم للزوم عبادته واستغراقه في خدمته. وبهذا القول قال مجاهد والسّدي كذلك(٢).

- وقيل : إنّ في الكلام تقديماً وتأخيراً ، والتقدير : أتتخذ آزر أصناما.

- وقيل : إن آزر نعت لأبيه . قال الضحاك : معناه الشيخ الهرم ، وقال الزجاج: المخطىء، وقال الفراء وسليمان التيمي : المعوّج (٣).

- وقيل : أنه لما صار مع النمرود قيّماً على خزانة آلهته سماه آزر . قاله الثعلبي في العرائس (٤).

- وقيل : يكون أحدهما لقباً والآخر علماً. فاسمه بالسريانية تارح ؛ وآزر لقبه المشهور به(٥).

- وقيل ايضا: إن آزر هو عمّ ابراهيم ، وليس اسم أبيه.

وهذا القول هو قول الشيعه ؛بزعمهم أنّ آباء الأنبياء لايكونون كفاراً(٦).

---

(١) انظر : قصص الأنبياء لابن كثير ج١ ص١٢٠.

(٢) انظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٢ ص(١٤٩-١٥٠) ؛ تفسير أبي السعود ج٢ ص١٥١.

(٣) انظر : تفسير أبي السعود ج٢ ص١٥١.

(٤) انظر : تفسير القرطبي ج٧ ص٢٢.

(٥) تفسير أبي السعود ج٢ ص١٥١.

(٦) انظر: تفسير البحر المحيط لأبي حيان ج٤ ص١٦٤.

أقول : والقول الأول هو أنّ اسم أبيه : آزر ، هو الصحيح والراجح.
وذلك لوجوه:

- إنّ الله عزّ وجلّ أخبر به أنّه أبوه في الآية التي ذكرناها سابقاً.
وهذا هو القول المحفوظ من قول أهل العلم دون القول الآخر. وبهذا قال عمدة المفسرين ابن جرير الطبري(١).
وكذلك فانّ الله ذكر في آيات أخرى لفظ أبيه دون ذكر آزر (إذ قال ابراهيم لأبيه..)، و ذكر في هذه الآية (آزر) فيجتمع من ذلك أنّ اسم أبيه آزر.
وقوله أيضاً: (ياأبت) يدلّ على أنّه أبوه.

- إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكره في الحديث الصحيح على أنّه اسم أبيه فقال: "يلقى ابراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة. فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك لا تعصني ؟ ... الحديث"(٢) فهذا الحديث نصّ على أنّ اسم أبيه آزر.

- وأمّا ماذكره المؤرخون والنّسابون من أنّ اسمه (تارخ) فانّما ذكروه بناءً على ما في التوراة ، وانّ من المقطوع به أنّ التوراة والانجيل قد دخل إليهما تحريف كبير ولم يعد هناك مجال للوثوق بما فيهما من النصوص وخصوصاً إذا عارضت نصاً صحيحاً.
يقول الشيخ أحمد شاكر رحمه الله : "أما أنّ اسم والد إبراهيم "آزر" فانّه عندنا أمر قطعي الثبوت بصريح القرآن في هذه الآية بدلالة الألفاظ على المعاني.
وأمّا التأويل والتلاعب بالالفاظ ، فما هو إلا إنكار مقنع لمضمون الكلام ومعناه، وسواء أكان اسمه في قول أهل النسب نقلاً عن الكتب السابقة "تارح" أو لم

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري : ج٧ ص(١٥٨-١٥٩).
(٢) رواه البخاري: كتاب الأنبياء، باب:٨، حديث(٦٠)؛ فتح الباري: حديث(٣٣٥٠)، ج٦ ص٣٨٧.

يكن، فلا أثر له في وجوب الإيمان بصدق مانصّ عليه القرآن، وبدلالة لفظ " لأبيه" على معناه الوضعي في اللغة، والقرآن هو المهيمن على ما قبله من كتب الأديان السابقة. ثم يقطع كل شك، ويذهب بكل تأويل الحديث الصحيح الذي رواه البخاري، وليس بعد هذا مجال للتلاعب. "(١).

- وأمّا أنّه نعت لأبيه ، وأنه خاطبه بيا مخطىء أو يامعوج وغيرها من الألفاظ التي تحمل معنى التحقير فهذا بعيد ؛ لأنه لا يمكن أن يكون خاطب أباه بهذه الكلمات التي فيها التحقير والإهانة له ، وكما أنّه يدل على هذا أنّه حين هدده أبوه بقوله (أراغب أنت عن آلهتي ياابراهيم .. الآية) لم يكن له جواب على هذه الجفوة القاسية وهذا التهديد العنيف إلاّ بأن قال له :(سلام عليك سأستغفر لك ربي .. الآية) (٢).

- ثمّ إن قول من قال إنه سمّي بالصنم الذي كان يلزم عبادته وخدمته، من باب حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مكانه فضعيف ولا يقف أمام النصوص الصحيحة الصريحة.

- و من قال بأن آزر لقبه وتارح اسمه ؛ فنقول : إنّ هذا اللقب (آزر) في لغتهم المخطىء أو العرج أو المعوج ؛ وهذا كما قلنا لا يصح من إبراهيم أن يطلقه على أبيه.

- والّذين قالوا : أنّ (آزر) عمّه وليس أباه سواء كان هذا كلام الشيعة

---

(١) هامش التحقيق لتفسير زاد المسير لابن الجوزي: ج٢ ص٧٠.
(٢) انظر: عبد الوهاب النجار، قصص الأنبياء، الطبعة الثالثة (بيروت: دار إحياء التراث العربي) ص٩٤.

أو غيرهم، لزعمهم أن آباء الأنبياء لايكونون كفاراً ؛ فالأمر ليس فيه ما يخلّ بمقام ابراهيم عليه السلام أو ينتقص من شأنه. وقد ورد في القرآن الكريم ما يدل على كفر أبيه، وكذلك في الحديث السابق الذي رواه الامام البخاري في صحيحه وفيه أنّ ابراهيم قال لله: يارب إنّك وعدتني ألا تخزني يوم يبعثون ، وأي خزي أخزى من أبي الأبعد؟ فيقول الله : إني حرمت الجنة على الكافرين . .الحديث.

بل إن هناك حكمة في كفر بعض أرحام الأنبياء الأقربين وهي : "تقرير أصل التوحيد الهادم لقاعدة الوثنية بالفصل بين ما هو لله تعالى وما هو لرسله ، وهو أنّ الرسل عليهم السلام لم يرسلوا إلاّ مبشرين ومنذرين ، و ما عليهم إلاّ تبليغ دين الله واقامته ، وليس لهم من الأمر شيء، ولا يملكون لأحد ضرّاً ولا نفعاً ، وليس عليهم هدى أحد ولا رشده بالفعل ، وإنّما عليهم هداية التعليم والحّجة ، فلا يهدون من أحبوا ولا يغنون من الله شيئاً ؛ وإن كان أقرب الناس وأحبه إليهم في النسب والمعاملة الدنيوية" (١).

- وإضافة إلى هذا فانّ إطلاق كلمة الأب على العمّ مجاز لايصح في اللغة إلا بقرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي ، وسياق الحديث أيضاً يعيّن هذا المعنى الأصلي (٢).

وبما سبق - من الوجوه والردود - يظهر لنا أنّ الصحيح والراجح أن أبا إبراهيم هو آزر . والله أعلم.

وبعد بيان هذه المسألة نعود للكلام حول موقف إبراهيم عليه السلام مع أبيه ونبدؤه بما يلي :

---

(١) انظر: تفسير المنار لمحمد رشيد رضا ج٧ ص٥٤٥.

(٢) انظر: المرجع السابق ج٧ ص٥٤٤.

١- نصح إبراهيم عليه السلام لأبيه :

قبل البدء في بيان النصيحة يمدح الله عز وجل نبيه إبراهيم قائلاً: (واذكر في الكتاب إبراهيم إنّه كان صديقاً نبياً). أي أنّه من أهل الصّدق في حديثه وأخباره ومواعيده لايكذب . وإضافة إلى هذا فإنّه نبيّ أوحى الله إليه وبنباه(١).

وقوله (نبياً) وصف خاص لأن كل نبي صدّيق وليس كل صدّيق نبي، فالصدّيقية مرتبة تحت النبوّة (٢). يقول تعالى (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً) (٣).

هذا الصدّيق النبيّ شأنه أن يخلص النصيحة لأبيه لكونه أقرب الناس إليه؛ ليرده عن عبادة غير الله ويهديه إلى عبادة الواحد الأحد سبحانه المستحق لها، ولذلك كانت نصيحته لأبيه التي ذكرها القرآن مفصلة في الآيات التي ذكرناها سابقاً من سورة مريم .

ويبدأ نصيحته عليه السلام بطريقة لطيفة ، حيث يصدّرها بكلمة (ياأبت) التي تشعر أباه بالصّلة القلبية بينه وبين ابنه إبراهيم ؛ فيستميل أباه بذلك ويستعطفه.

وإضافة إلى ابتدائه بهذه الكلمة فإنه يسلك معه طريقاً غير مباشر في النهي عن عبادة الأصنام ، إنه يسلك معه الأسلوب الاستفهامي عن سبب عبادته لها: (ياأبت(٤) لم تعبد مالايسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيأ) ، "وهو استفهام إنكاري فيه معنى التوبيخ "(٥)؛ ويقصد به دلالته على الذي يستحق العبادة وهو الله.

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري: ج١٦ ص٦٨

(٢) انظر: حاشية الصاوي على الجلالين ج٢ ص٢٨.

(٣) سورة النساء:٦٩.

(٤) قرأ ابن عامر: (ياأبتَ) بفتح التاء، وقرأ الباقون بكسرها (انظر: حجّة القراءات لابن زنجلة ص٤٤٤).

(٥) انظر: فتح القدير للشوكاني ج٣ ص٣٢٥.

ومعناه: أي ماذا تصنع بعبادة الوثن الذي لا يسمع ولايبصر شيئاً ، ولا يدفع عنك ضرّ شيء، وإنّما هو صورة مصوّرة لا تضرّ ولا تنفع .

وكأنّه يقول له : اعبد الذي إذا دعوته سمع دعاءك ، وإذا أحيط بك أبصرك فنصرك، وإذا نزل بك ضرّ دفع عنك (١).

- وبعد هذه البداية - التي تدعو إلى الانتباه - يبيّن له حقيقة حاله وأنّه صاحب رسالة هدى (ياأبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً) . أي : وإن كنت من صلبك وتراني أصغر منك ، فاعلم أنّي قد اطّلعت على علم من الله لم تعلمه أنت ولا اطلعت عليه ، ولا جاءك بعد ؛ ولذلك أرجو منك اتباعي حتى أدلك على الطريق المستقيم الموصل إلى نيل المطلوب والنجاة من المهروب (٢).

والعلم المراد به هنا هو علم الدّلالة على الطريق السويّ ، ويدخل فيه علم التوحيد والشرع ، والعلم بالآخرة وغير ذلك .

وتدلّ هذه المحاورة على أنّ ذلك كان بعد ما نبيء إبراهيم عليه السلام؛ لأنّ كلمة (جاءني) تفيد تجدد العلم ، والذي جاءه الوحي الذي أتى به الملك(٣).

- ثمّ أفصح له عن سبب بعده عن الطريق المستقيم (ياأبت لا تعبد الشيطان إنّ الشيطان كان للرحمن عصياً).

فالسبب هو طاعة الشيطان فيما يزينه له من عبادة الأصنام .

وجعل ذلك عبادة للشيطان لأنّه هو الآمر بها والداعي إليها والراضي بها . كما قال تعالى (ألم أعهد إليكم يابني آدم ألاّ تعبدوا الشيطان إنّه لكم عدو مبين) (٤).

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير الطبري ج٧ ص(١٥٨-١٥٩).
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٣ ص١٢٢.
(٣) انظر: البحر المحيط لأبي حيّان ج٦ ص١٩٤.
(٤) سورة يس: ٦٠.

ومِمّا لا شكّ فيه أنّ في هذا الكلام تثبيطاً لأبيه عمّا هو عليه من الشرك ؛ لأنه مع خلوّ ما يعبده من النفع واستلزامه للضرّ فإنّه - أيضاً - في الحقيقة عبادة للشيطان(١).

وأردف عليه السلام قوله هذا بذكر العلّة للنهي (إن الشيطان كان للرحمن عصيّاً) فمن هذا شأنه ينبغي أن لايطاع ؛ لأنه اختار لنفسه معصية الله فلن يختار إلا هي لمن يتبعه.

وأتى بالصيغة التي تدل على كثرة عصيانه لله ، للاشارة إلى أنّه ينبغي الاحتراز منه كلّ الاحتراز(٢).

وذكر لفظ (الرّحمن) دون غيره لعدة أمور أهمّها مايلي :

١ - التنبيه على سعة رحمة الله ، وبالتالي فإنّ من هذا وصفه هو الذي ينبغي أن يعبد ولايعصى.

٢ - الاعلام لشقاوة الشيطان ؛ حيث أنّه عصى من هذه صفته ، وارتكب من ذلك ماطرده من هذه الرحمة ، وفي هذا إظهار لكمال شناعة عصيانه.

٣ - الاشارة إلى أنّ المعاصي تمنع العبد من رحمة الله الواسعة ، وتغلق عليه أبوابها ؛ كما أن الطاعة أكبر الأسباب لنيل الرحمة الالهية. والأولى الاتجاه إلى طاعة الله الرحّمن(٣).

- ويختم - إبراهيم عليه السلام - نصحه لأبيه بتحذيره من سوء عاقبة عبادة غير الله ؛ واتباع الشيطان فيقول له (ياأبت إني أخاف أن يمسّك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليّاً).

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثيرج٣ ص١٢٢؛ تفسير البيضاوي ج٤ ص٨.

(٢) انظر: تفسير أبي السعود ج٥ ص٢٦٧.

(٣) انظر: البحر المحيط ج٦ ص١٩٤؛ تفسير أبي السعود ج٥ ص٢٦٧؛ تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي ج٥ ص١١٢.

وهذه هي العاقبة السيئة ... إنّها عذاب من الله الرحمن ، وإظهار كلمة الرحمن هنا للاشعار بأنّ وصف الرّحمانية لا يدفع حلول العذاب (١).

وهذا العذاب قد يكون عذاباً في الدنيا والآخرة، ويحمل العذاب في الدنيا امّا على الخذلان من الله فيصير موالياً للشيطان . وامّا بأن يبتلى على كفره بعذاب ويكون سبباً لتماديه على الكفر وصيرورته إلى ولاية الشيطان . كما قال تعالى: (وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون)(٢).

وذكر - عليه السلام - الخوف و المسّ و نكّر العذاب ؛ إما مجاملة لأبيه أو لخفاء عاقبته عليه (٢).

أمّا قوله: (فتكون للشيطان ولياً) فمعناه : أنّه إذا أستوجب عذاب الله كان مع الشيطان في النّار ، والولاية سبب للمعيّة، وإطلاق إسم السبب على المسبب مجاز؛ وإن لم يجز حمله على الولاية الحقيقية لقوله تعالى (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين) (٤)، وقوله (ثمّ يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا.. الآية) (٥)، وحكي - أيضاً - عن الشيطان قوله (إني كفرت بما أشركتمون من قبل.. الآية) (٦).

و ممّا يدلّنا عليه قول إبراهيم عليه السلام هذا لأبيه أنّ ولاية الشيطان أسوء حالاً من العذاب نفسه وأعظم؛ والسبب في ذلك أننّا نجد في مقابله أنّ رضوان الله أعظم من الثواب على ما قال تعالى: (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود ج٥ ص٢٦٧.
(٢) انظر: البحر المحيط لأبي حيّان ج٦ ص١٩٤. والآية رقم:١٦٨ من سورة الأعراف.
(٢) انظر: تفسير البيضاوي ج٤ ص٨.
(٤) سورة الزخرف: ٦٧.
(٥) سورة العنكبوت:٢٥.
(٦) سورة إبراهيم:٢٢.

هو الفوز العظيم)(١). فوجب أن تكون ولاية الشيطان أسوء حالاً من العذاب وأعظم(٢).

٢- الردّ العنيف الساخط من آزر :

وبعد هذا النّصح بالأسلوب اللطيف الحكيم من الابن البارّ ؛ يقف الأب -آزر- ليردّ مقابل ذلك كلّه بالقسوة والعنف والتهديد (قال أراغب أنت عن آلهتي ياإبراهيم لئن لم تنته لأرجمنّك واهجرني مليّاً).

إنّه يفاجيء ابنه بهذا الاستفهام الانكارى الذي يحمل في طيّاته كلّ التقريع والتوبيخ والتعجيب (٣)، (أراغب أنت عن آلهتى ياإبراهيم) أي أمعرض ومنصرف عنها لا تريد عبادتها ولا ترضاها .

وهكذا، فبعد أن دعاه إلى التوحيد ، وذكر له الدلالة على فساد عبادة الأوثان، وأردف تلك الدلالة بالوعظ البليغ ، وأورد كلّ ذلك مقروناً باللّطف والرفق؛ قابله بجواب يضاد ذلك، قابل حجته بالتقليد ؛ إذ أنه لم يذكر في مقابل حجته إلاّ قوله: (أراغب أنت عن آلهتي ياإبراهيم) . فأصرّ على ادّعاء إلهيتها جهلاً وتقليداً دونما دليل، وقابل رفقه في قوله :(ياأبت) بالعنف ؛ حيث لم يقل : يابنّي بل قال: ياإبراهيم(٤).

ثم يتبع الأب استفهامه هذا بتحذيره وتهديده ابنه -إن لم يترك ذكر آلهته بسوء- برجمه بالكلام وذلك السبّ والقول القبيح. أمّا إذا كفّ عن ذلك فإنّه سيتركه

---

(١) سورة التوبة: ٧٢.
(٢) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ج٢١ ص٢٢٦.
(٣) انظر: فتح القدير للشوكاني ج٣ ص٢٢٦.
(٤) انظر: البحر المحيط لأبي حيّان ج٦ ص١٩٤؛ تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٣ ص١٢٢؛ تفسير أبي السعود ج٥ ص٢٦٨.

سوياً سليماً من عقوبته. (قال بهذا المعنى: ابن عباس رضي الله عنهما، والضحاك، وقتادة، وعطية، ومالك، وغيرهم . واختاره ابن جرير الطبري) (١) .

٢- حلم إبراهيم عليه السلام :

وقد صدق الله قوله: (إنّ إبراهيم لحليم أوّاه منيب) (٢) ؛ فما كان جوابه لأبيه بعد توبيخه وتقريعه وتهديده له إلّا أن قال له: (سلام عليك سأستغفر لك ربي إنّه كان بي حفياً) .
أي يقول له : أمنة منّي لك أن أعاودك فيما كرهت ، ولن يمسّك منّي مكروه ولا أذى، وسأسأل لك ربي أن يستر عليك ذنوبك بعفوه ، ولا يعاقبك عليها ؛ إنّ ربي عهدته بي لطيفاً يجيب دعائي إذا دعوته (٣) .

وقوله: (سأستغفر لك ربي) هو وعد من إبراهيم لأبيه باستغفاره له، وقد وفّى بذلك الوعد كما قال تعالى عنه: (واغفر لابي إنّه كان من الضالّين) (٤) وقوله: (ربّنا اغفر لى ولوالديّ وللمؤمنين يوم يقوم الحساب) (٥) .
ولكن لما تبيّن له أنّه عدو لله تبرأ منه ، ولم يستغفر له بعد ذلك: (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلّا عن موعدة وعدها إيّاه فلما تبيّن له أنّه عدوّ لله تبرأ منه إنّ إبراهيم لأوّاه حليم) (٦) .

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير الطبري ج١٦ ص٦٩.
(٢) سورة هود: ٧٥.
(٣) انظر: تفسير ابن جرير الطبري ج١٦ ص٧٠.
(٤) سورة الشعراء: ٨٦.
(٥) سورة ابراهيم: ٤١.
(٦) سورة التوبة: ١١٤.

ويحتمل أنّه علم أنّه عدو لله عند موته على الشرك ، أو بوحي من الله تعالى أنّه لن يؤمن أبداً(١).

أمّا استغفاره لأبيه مع كون الاستغفار ليس جائزاً للكفرة ؛ فيجوز أنّ يكون إبراهيم عليه السلام أوّل نبيّ أوحي إليه أنّ الله لا يغفر لكافر ؛ لأنّ هذا طريقه النقل لا غير ، وكانت هذه المقالة منه لأبيه قبل أن يوحى إليه بعدم الجواز . قاله ابن عطية(٢).

ومع هذا السلام والأمن من إبراهيم لأبيه كان لابد من بيان المفاصلة في الأمر، فالسلام ليس معناه الضعف والاستسلام لرغبة المعارض لدين الله . وهذه المفاصلة يقولها عليه السلام واضحة قوية: (وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربّي عسى الاّ أكون بدعاء ربّ شقياً).

فيبيّن لهم أنّه مجتنبهم ومتبرّىء منهم وممّا يعبدون من دون الله، وسيدعو الله وحده بإخلاص العبادة له وإفراده بالعبودية ، ومن ثمّ يرجو أن لا يكون خائباً ضائع السعي مثلهم في دعاء آلهتهم (٣).

وفي تصديره كلامه ب(عسى) إظهار للتواضع وهضم للنفس، والتنبيه على أنّ الاجابة والاثابة تفضّل من الله غير واجبتين عليه ، وأنّ ملاك الأمر خاتمته ،، وهو غيب عليه ، وهذا كما في قوله (والّذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين) (٤).

وقيل : إنّ الدعاء هنا يشمل دعاء العبادة ودعاء المسألة ؛ وهو أنّه سأل الله أن يهب له ولداً وأهلاً يستأنس بهم في اعتزاله ، ويطمأن إليهم عند وحشته، ويدل على ذلك قوله تعالى : (فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود ج٤ ص١٠٨.

(٢) تفسير البحر المحيط لأبي حيّان ج٦ ص(١٩٥-١٩٦).

(٣) انظر: تفسير ابن جرير الطبري ج١٦ ص٧٠؛ تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٣ ص١٢٤.

(٤) سورة الشعراء: ٨٢.

ويعقوب وكلاً جعلنا نبياً) (١).

وهذا القول أولى لأنّ الجمع بين العبادة والمسألة -هنا- ممكن ولا مانع من ذلك، والآية التى جاءت بعد قوله هذا مباشرة تدلّ عليه وتؤيّده. والله أعلم

٤- إكرام الله لنبيه إبراهيم عليه السلام :

ولمّا اعتزل إبراهيم قومه وما كانوا يعبدون من دون الله ، أكرمه الله بأن آنس وحشته من بعد فراقهم ؛ وأبدله بمن هو خير منهم ، بأن وهب له أبناء أنبياء، وأسبل عليهم نعمه ظاهرة وباطنة (فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له اسحاق ويعقوب وكلاً جعلنا نبياً . ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليّا) .
وإن من أعظم النعم على الانسان أن يهبه الله أولاداً صالحين ، فكيف بنبيّ الله إبراهيم عليه السلام وقد أعطاه الله أولاداً صالحين ، وجمع لهم مع الصّلاح النبوة!!

أما الرّحمة الموهوبة لهم فانها تشمل الخير الدينّي والدنيويّ من العلم والمنزلة والشرف في الدنيا والنعيم في الآخرة . ويدخل في هذه الرّحمة ما جعله الله لهم من الثناء والذكر الحسن عليهم من الناس إلى الأبد (وجعلنا لهم لسان صدق علياً) وهذا من استجابة الله لدعاء إبراهيم عليه السلام حين دعاه بقوله: (واجعل لي لسان صدق في الآخرين) (٢).

---

(١) انظر: تفسير البيضاوي ج٤ ص٩؛ التفسير الكبير للفخر الرازي ج٢١ ص٢٢٠؛ تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي ج٥ ص١١٤؛ تفسير القرطبي ج١١ ص١١٢. والآية رقم:٤٩ من سورة مريم.
(٢) انظر: تفسير البحر المحيط لأبي حيّان ج٦ ص١٩٦، والآية رقم: ٨٤ من سورة الشعراء.

يقول ابن السعدي : " وهذا أيضاً من الرّحمة التي وهبها لهم ؛ لأن الله وعد كلّ محسن أن ينشر له ثناءً صادقاً بحسب إحسانه، وهؤلاء من أئمة المحسنين ، فنشر الله لهم الثناء الحسن الصادق غير الكاذب العالي غير الخفيّ ، فذكرهم ملأ الخافقين، والثناء عليهم ومحبتهم امتلأت بها القلوب ، وفاضت بها الألسنة ، فصاروا قدوة للمقتدين، وأئمة المهتدين ، ولا تزال ذكراهم في سائر العصور متجددة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم." (١).

مسـألة :

وقد يسأل سائل : لماذا لم يورد الله هنا اسماعيل - في معرض ذكره لرحمته على إبراهيم - مع إسحاق ويعقوب ؟

والجواب على هذا السؤال من وجوه عدة:

أوّلها: "لأن إبراهيم لمّا اعتزل قومه خرج بزوجه سارة، وهي قد اعتزلت قومها أيضاً إرضاءً لربّها ولزوجها ، فذكر الله الموهبة الشاملة لإبراهيم وزوجه، ولأنّ هذه الموهبة لمّا كانت كفاءً لإبراهيم على مفارقته أباه وقومه كانت موهبة من يعاشر إبراهيم ويؤنسه وهما إسحاق ويعقوب ، وقد كان إسماعيل عليه السلام بعيداً عنه" (٢).

وثانيها: لبيان أنّه جعل له نسلاً وعقباً أنبياء أقرّ الله بهم عينه في حياته ولهذا قال: (وكلاً جعلنا نبياً) (٣).

---

(١) تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي: ج٥ ص١١٥.
(٢) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور: ج١٦ ص١٢٤.
(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ج٣ ص١٢٤.

وثالثها : لعلّه أراد أن يذكر إسماعيل بفضله على الانفراد(١).

ورابعها: أنّه قيل: خصّما بالذكر لأنهما شجرتا أنبياء بني إسرائيل ، والقصد هنا ذكر أنبياء بني إسرائيل وهم بأسرهم أولاد إسحاق ويعقوب ، وإسماعيل لم يخرج من صلبه إلاّ محمد صلّى الله عليه وسلم (٢).

وآخرها : قيل : لأنّ إسحاق وهب من حرّة وكانت عجوزاً عقيماً ، وإسماعيل ولد من أمة فكانت المنّة في هبة إسحاق أظهر(٢).

وهذه الوجوه جميعها راجعة إلى اجتهادات المفسرين ، وهي مسألة لا يترتب عليها شيء ، وأيا كان السبب فلا ضير ، وكلها محتملة والله أعلم بمراده .

وبهذا الكرم الرباني لعبده وخليله يختم الله عز وجل هذا الموقف العظيم الدال بكل آياته على عظمة شخصية إبراهيم عليه السلام ، من قوة إيمانه بالله، وكمال نصحه لأبيه .
وبه نختم كلامنا حول هذه الآيات ، وننتقل بعدها للكلام عمّا نستفيده من هذا الموقف.

---

(١) تفسير البيضاوي: ج٤ ص٩
(٢) انظر: فتح الرحمن بكشف مايلتبس في القرآن لأبي يحيى زكريا الأنصاري ص١٧٠.
(٢) انظر: المرجع السابق ص١٧٠.

المبحث الثاني : العبر والفوائد

١- العبر والفوائد من نصح إبراهيم عليه السلام - بصورة عامة - لأبيه :

* نلاحظ ابتداءً وصف الله عزّ وجلّ لخليله إبراهيم عليه السلام بالصدّيقية قبل وصفه بالنبوّة ؛ لأنّه كان صادقاً مع قومه قبل النبوّة ، كما كان صادقاً أميناً في تبليغ الرسالة وفي انقياده لأوامر الله عزّ وجلّ (١).

ويذكّرني التعليل الأول بما كان عليه النبيّ صلى الله عليه وسلم قبل النبوة، فقد كان قومه - كما هو معلوم - يلقبونه بالصادق الأمين.

ومن هذا يستفيد الدعاة إلى الله درساً وهو : أنّ استقامة الداعية وحسن سيرته في نشأته أدعى إلى نجاحه في دعوته النّاس ؛ إذ لا يجدون ما يعيّرونه به في سلوكه الشخصي قبل الدعوة.

وبهذا يكون الداعية - أبداً - رافع الرأس ناصع الجبين ، لايجد أعداء الدعوة سبيلاً إلى غمزة بماض قريب أو بعيد ، ولا يتخذون من هذا الماضي المنحرف تكأةً للتشهير به ودعوة الناس إلى الاستخفاف بشأنه(٢).

كما أنّ هذا أدعى لقبول ما يدعوهم إليه والانتفاع به لكونه قدوة لهم في ماضيه وحاضره، وأول الدعوة إنّما يكون بالقدوة الصّالحة ؛ إذ أنّ الناس لاتؤثر فيهم المواعظ والخطب بقدر ما تؤثر النماذج الحية المتحركة بهذا الدين.

---

(١) انظر : منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله لمحمد سرور ص٩٤.

(٢) انظر : مصطفى السباعي ، السيرة النبوية دروس وعبر، الطبعة الرابعة (بيروت : المكتب الاسلامي ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م) ص٢٥.

* وقد ذكرنا في البحث السابق أنّ آزر أبا إبراهيم كان يعبد الأصنام، بل كان ممّن ينحتها ويبيعها ، وهو أقرب النّاس إلى إبراهيم عليه السلام وألصقهم به، وأولاهم بالهداية، وأجدرهم بإخلاص النصيحة فمن البرّ به أن يهديه سواء السبيل(١).

وهذا واجب كلّ داعية أن يبدأ مع أقربائه وأهله بدعوتهم إلى الخير تطبيقاً لقوله تعالى (وأنذر عشيرتك الأقربين)(٢). وهذا أمر توجّه إلى النبيّ صلىّ الله عليه وسلم في بدء دعوته ، وقد بدأ صلىّ الله عليه وسلم أوّل ما بدأ بدعوة أهله وأقربائه؛ وذلك لأنّه إذا آمن أهله ولبّوا دعوته كانوا له سنداً قوياً فيحمونه ويؤازرونه ويدافعون عن دعوته بكلّ ما يستطيعون .

ولا بدّ من البدء مع الأقربين حتى تبرأ ذمة الداعي إلى الله من التفريط في حقّ أهله.

وقد نجد بعض الدّعاة .. يهتمّون بدعوة النّاس من غير أهلهم وليس لهم أدنى اهتمام بأقربائهم، وهذا - لا شك - من الخطأ العظيم بمكان ، فينبغي أن يوازن الداعية بين اهتمامه لكلا الجانبين .

* وكون آزر من الناحتين للأصنام ، والداعين الى عبادتها ، فهو إذن داعية اثم ومبعث فتنة ، فهدايته قربى إلى الله عظيمة ، واستئصال لبذور الشرّ واجتثاث لجذور الضلال(٣).

ولهذا أيضاً جدّ ابنه ابراهيم في دعوته.

وهذا يدلنا على أهمية دعوة مصدر الشر ومبعث الفتنة ، وعدم إغفاله. ولابدّ من المحاولة الجادّة تلو المحاولة في هدايته وإيصال الدعوة اليه بالحكمة والموعظة الحسنة عسى أن يهتدي؛ إذ أنّ أثره على المجتمع كبير ، فقد يهتدي بسبب؛ هدايته الكثير من النّاس الّذين أخذوا عنه واقتدوا به من قبل.

---

(١) انظر : قصص القرآن لمحمد أحمد جاد المولى ص٢٢.
(٢) سورة الشعراء : ٢١٤.
(٣) انظر : قصص الأنبياء لمحمد أحمد جاد المولى ص٢٢.

* وفي تصدير نصائحه لأبيه بقوله: (ياأبت) أي بلفظ الأبوّة التي هي أقوى الروابط وأوثقها؛ استهلال جذّاب يستميل به قلب أبيه، ويكسر حدّته؛ حتى يستطيع تبليغه رسالة الله و يقيم الحجة أمامه وهو هادئ غير ثائر(١).

وهذا الأسلوب أدعى لاستماعه الذي هو طريق لاقتناعه ، وهو من الأدب في مخاطبة الآباء ومن الاحسان في دعوتهم ؛ إذ قد يختلف أسلوب الدعوة مع الآباء عن غيرهم من الناس، بحكم مكانتهم ومايتبغي تجاهها على حدّ قوله (..وصاحبهما في الدنيا معروفاً.. الآية)(٢).

وهكذا ينبغي أن يلجأ الداعية -أولاً- إلى استعمال العاطفة لعلّها تفسح الطريق للعقل أن يتفكّر ويتدبّر فيتّعظ و ينتفع.

وبصورة عامّة يجب على الداعية أن يُحسِن اختيار الأسلوب الّذي يدعو به الآخرين، كّل على حسب مايناسب حاله ، ممّا يكون لذلك أكبر الأثر في استمالة قلب المدعو للاستماع ومن ثمّ اقتناعه بما يسمع إن شاء الله. وهذا من الحكمة في الدعوة وقد أمر الله بذلك فقال: (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن.. الآية)(٣) وقال (ولاتستوي الحسنة ولاالسيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنّه ولي حميم)(٤).
فبحسن الأسلوب يصبح العدو صديقاً؛ والبعيد من الهداية قريباً منها، وكما أنّ لكلّ شيء أسباباً فللهداية أيضاً أسباب وأوّل أسبابها الأسلوب الحسن اللطيف؛ ولذلك خاطب الله نبيّه محمداً صلى الله عليه و سلّم قائلاً له: (ولو كنت فظّاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ..الآية)(٥).

---

(١) انظر: منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله لمحمد سرور ج١ ص(٩٤-٩٥).
(٢) سورة لقمان : ١٥.
(٣) سورة النحل : ١٢٥.
(٤) سورة فصّلت : ٣٤.
(٥) سورة آل عمران : ١٥٩.

٢- العبر والفوائد من قوله: (ياأبت لم تعبد مالا يسمع ولايبصر ولايغني عنك شيئاً):

* إنّ ابراهيم عليه السلام مع إنكاره على أبيه أشدّ الانكار أن يعبد غيرالله، إلاّ أنّه لحلمه و حكمته أخرج استفهامه الانكاري في طريقة لطيفة تقترب من الاستفهام التنبيهي ، وبهذا الاستفهام يوقع الحجة بحسن أدب، فهو لم يصرح بضلاله بل طلب العلّة التي تدعوه إلى عبادة ما يستخف به العقل الصحيح؛ فانّ الأصل في العبادة أن يتوجّه بها الانسان إلى من هو أعلى وأعلم وأقوى منه، وأن يرفعها إلى مقام أسمى وأسنى من مقامه ، فكيف يتوجّه بها إلى ما هو في مرتبة أدنى من مرتبة الحيوان، لايسمع و لا يبصر ولا يملك ضراً ولا نفعاً ، والشيء ولو كان حياً مميزاً سميعاً بصيراً مقتدراً على النفع والضرّ ، ولكن كان ممكناً لاستنكف العقل القويم عن عبادته، وإن كان أشرف الخلق كالملائكة والنبيين لما يراه مثله في الحاجة والانقياد للقدرة الواجبة(١).

* وفي استفهام ابراهيم عن سبب العبادة لفت للنظر عميق يبعث على الشك والبحث(٢).

وهذا أسلوب جيّد في نقض الدّعاوي الباطلة التي يتمسّك بها أهل الضلال؛ لأنّ بعث الشك في النفس الضالّة ممّا هي متمسّكة به طريق الى بحثها عن البديل الحق الذي ينبغي أن يتوجه إليه.

---

(١) انظر : حسن محمد باجودة ، تأملات في سورة مريم (القاهرة : دار النصر للطباعة الاسلامية - دار الاعتصام ، ١٩٧٨م) ص(٨٧-٨٨)؛ تفسير البيضاوي ج٤ ص٨؛ في ظلال القرآن لسيد قطب ج٤ ص٢٢١١.

(٢) محمد محمودحجازي، التفسير الواضح، الطبعة الأولى، ٢ج (بيروت : دار الكتاب العربي ١٤٠٢هـ) ج٢ ص١٠.

كما أنّه يعلّمنا - هنا - سيدنا ابراهيم كيفية الدعوة مع غير المؤمنين، وهو سلوك سبيل الاقناع العقلي أولاً؛ إذ أنّ هذا الصّنف من المدعوّين غير مؤمن- أساساً- بكلّ ما عند المؤمنين بالله من الكتاب والسنة ، وبالتالي فلن يستجيب إذا ذكر ببعض الآيات أو الأحاديث. فلا بدّ من إقامة البرهان والحجة العقلية أولاً ، ثمّ يتبع ذلك الاستشهاد بما تيسّر من الكتاب والسنة.

٢- العبر والفوائد من قوله تعالى (ياأبت إني قد جاءني من العلم مالم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سويا):

* وفي هذه الآية يستمر ابراهيم عليه السّلام في خطاب أبيه بالأسلوب اللّيّن الرفيق؛ استمالة لقلبه شيئاً فشيئاً عساه أن يذعن لأمرالله الذي جاءه به.

ولم يصف أباه بالجهل ، ولا وصف نفسه بالعلم الكامل لأنّ ذلك ممّا يُنفّر ، بل قال له: إنّي قد أعطيت شيئاً من العلم قليلاً ولم تُعطه ؛ ولاضير عليك في شيء إن اتبعتني، فإنّك بهذا اتبعت ابنك حتى يهديك إلى الصراط المستقيم .

وكأنّه يقول له : هب ياأبي أنّا سائران في الطريق وأنا على علم به، أفلا يكون من الخير أن تتّبعني حتى تصل إلى برّ السلامة ، وأنت أبي على كلّ حال وأنا ابنك البارّ.

وإضافةً إلى هذا فهو لم ينسب العلم الى نفسه ؛ إنّما ردّه إلى الذي جاءه منه فهداه به وهو الله سبحانه. ولو أنّه أصغر من أبيه سنّاً وأقلّ تجربة ولكن المدد العلويّ الذي جاءه جعله يفقه ويعرف الحقّ فمدار القيمة العلميّة لا يرجع إلى كِبَر السنّ أو صغره ، فقد يكون صغير السن أعلم ممّن هو أكبر كما كان الشأن في ابن عباس ن

رضي الله عنه وغيره . . وليست هناك غضاضة في أن يتّبع الوالد ولده إذا كان الولد على الحقّ؛ فالقصد اتباع الحقّ والصّواب(١).

* أمّا قوله : (فاتبعني) فهو واحد من الأدلّة -التي لايكاد يأتي عليها الحصر في القرآن الكريم - على أنّ دور الأمّة بخصوص العقيدة قاصرٌ في كلّ زمان و في كلّ مكان على الاتّباع ، فليس هناك مجال مطلقاً للتغيير أو التبديل ، أو الزيادة أو النقص، فقد جاء - مثلاً - على لسان يوسف عليه السلام: (واتبعت ملة آبائي ابراهيم واسحاق ويعقوب.. الآية)(٢).

وجاء كذلك على لسان المصطفى صلىّ اللّه عليه وسلّم في قوله تعالى: (قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين)(٣).

فكلّ ماكان خارجاً عن الاتّباع فهو من البدع المنهيّ عنها(٤).

* وقوله: (أهدك صراطاً سويّاً) يقطر اخلاصاً وحباً وحناناً وبراً(٥). وهكذا ينبغي أن يسعى الأبناء في هداية آبائهم بكلّ اخلاص ، ويشعروهم بمحبتهم؛ وحنانهم عليهم. وفي السعي في هدايتهم أداء لواجب البرّ بهم، بل إن هذا هو أعظم البرّ بالآباء؛ لأنّ فيه سعادتهم في الدّارين.

---

(١) انظر: التفسير الواضح لمحمد حجازي ج٢ ص١٠ ؛ في ظلال القرآن لسيد قطب ج٢ ص٢٢١١.

(٢) سورة يوسف:٣٨.

(٣) سورة يوسف : ١٠٨.

(٤) تأملات في سورة مريم لباجودة : ص(٩١-٩٢).

(٥) المرجع السابق: ص٩٢.

وإنّ الواقع ليرينا أنّ أعظم مايكنّه الآباء لأبنائهم من البرّ بهم ، ويذكرونهم به، إنّما هي كلمات نصحوهم بها في أمر دينهم فكان لها الأثر الحسن في حياتهم من بعد.

٤ - العبر والفوائد من قوله تعالى (ياأبت لاتعبد الشيطان إنّ الشيطان كان للرّحمن عصياً) :

* يستعمل عليه السلام هنا النّهي الصّريح في هذه المرّة بقوله (لاتعبد).

ونلحظ في هذا تطوره في الأسلوب ؛ فمن قبل قال : (لم تعبد) ، فهو قد تدرّج حتّى وصل إلى مرحلة النهي الصّريح.

وهذا التدرّج دليل على حلمه - عليه السلام - من جهة ، ودليل على تشبث آزر بعبادة الأصنام من جهة أخرى.

ومع ذلك فإنّه في نهيه أباه عن عبادة من لايستحق العبادة ، يجيء على لسانه النّهي عن عبادة الشيطان ، ولايجيء على لسانه لاتعبد مالايسمع ولايبصر..الخ .

ولايخفى أنّ قوله عليه السلام لازال يتمشى مع ما عرف به من حلم، ومع فكرة التدرّج التي يسير عليها في حديثه(١).

والتدرج -ممّا لاشكّ فيه- أنّه من الحكمة المطلوبة في باب الدعوة إلى الله؛ وذلك لكبير أهمّيته في استجابة المدعوّين، إذ أنّ الأمر المطلوب عرضه على المدعو اذا ألقي بداية عليه دونما مقدّمات تهيئ لتقبّله واستحسانه ورضاه به؛ فإنّه سيؤدّي ذلك إلى إنكاره، بل وقد يؤدّي إلى النفرة من الداعية ودعوته التي يدعو إليها.

---

(١) انظر: تأمّلات في سورة مريم لباجودة ص٩٢.

ومن هنا نقول: أنّه لابدّ على كلّ داعية إلى الله، أن يضع لمن يدعوه مراحل وأساليب يتدرّج بها معه، مرحلة بعد مرحلة؛ حتى يصل إلى غايته المرجوّة بالتدرّج الحكيم.

ويكون بهذا قد انتظر الثمرة حتى نضجت، ولم يقطفها قبل نضوجها.

ومن فوائد التدرّج أيضاً أنّه وإن لم يستجب المدعو في النهاية -لما عرض عليه- فلن يكون نافراً من الدعوة وأهلها، بل قد يكون نصيراً لها في يوم من الأيام.

* ويحضرني مع ذكر التدرّج أن أنبّه إلى جانب آخر من جوانب الحكمة في الدعوة قد يسير هو والتدرّج في آن واحد، وهو جانب التنويع في العرض؛ لأنّ التكرار لنفس الأفكار بأسلوب واحد قد يورث الملل عند المدعو. وقد لايجدي مع المدعو أسلوب معيّن، ويجدي معه أسلوب آخر، إلى أن يأتي الأسلوب المناسب الذي يلمس قلبه فيذعن.

وبالتالي، فانّه ينبغي أن لاييأس الداعية إلى الله من عدم قبول الناس لدعوته، بل عليه أن يستخدم كل المفاتيح التي يمكن استخدامها للوصول إلى قلب المدعوّين حتى يملك عليهم قلوبهم فيؤثّر فيهم، ومن ثمّ يكون قد وصل إلى هدفه وهو هداية الآخرين.

* ويذكر الفخر الرازي سؤالاً -قد يخطر على بال الكثير- ويجيب عليه، ويجدر بنا أن نورد كلامه في هذا لما له من الفائدة:

أمّا السؤال فيقول عنه: "فان قيل إنّ هذا القول يتوقّف على إثبات أمور.

أحدها: إثبات الصانع أي الله. وثانيها: إثبات الشيطان. وثالثها أنّ الشيطان عاص لله. ورابعها: أنّه لمّا كان عاصياً لم تجز طاعته في شيء من الأشياء. وخامسها: أنّ الاعتقاد الذي كان عليه ذلك الانسان (آزر) كان مستفاداً من طاعة الشيطان، ومن شأن الدلالة التي تورد على الخصم أن تكون مركّبة من مقدّمات معلومة مسلّمة لديه،

ولعلّ أبا إبراهيم كان منازعاً في كلّ هذه المقدّمات، وكيف والمحكيّ عنه أنّه ماكان يثبت إلهاً سوى نمرود، فكيف يسلّم بوجود الإله الرحمن، وإذا لم يسلّم بوجوده فكيف يمكنه تسليم أنّ الشيطان كان عاصياً للرحمن، ثمّ إنّه على تسليم ذلك، فكيف يسلّم الخصم بمجرّد الكلام أن مذهبه مقتبس من الشيطان، بل لعلّه يقلب ذلك على خصمه؟"

(ويجيب عليه بقوله): "الحجّة المعوّل عليها في إبطال مذهب آزر هو الذي ذكره أولاً من قوله (لم تعبد مالايسمع ولايبصر.. الآية) فأمّا هذا الكلام فيجري مجرى التخويف والتحذير الذي يحمله على النظر في تلك الدلالة. وعلى هذا التقدير يسقط السؤال"(١).

* ومن البلاغة القرآنية -في هذه الآية- مايلي :

- إنّ إعادة النداء بقوله (ياأبت) لزيادة تأكيد ماأفاده النداء الأول والثاني، من استجلاب حنان وعطف أبيه؛ للرغبة في إيمانه(٢).

- وعبّر عن عبادة الأصنام بعبادة الشيطان إفصاحاً عن فسادها وضلالها، فإنّ نسبة الضلال والفساد إلى الشيطان مقرّرة في نفوس البشر، ولكن الذين يتّبعونه لايفطنون إلى حالهم، ويتّبعون وساوسه تحت ستار التمويه مثل قولهم: (إنّا وجدنا آباءنا على أمّة وإنّا على آثارهم لمقتدون)، ففي الكلام هنا إيجاز(٣).

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي :ج٢١ ص(٢٢٥-٢٢٦).
(٢) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ج١٦ ص١١٦.
(٣) انظر: المرجع السابق ج١٦ ص١١٦.

- وقوله (إنّ الشيطان كان للرحمن عصيّاً) فيه: أنّ ذِكر وصف "عصياً" الذي هو من صيغ المبالغة في العصيان، مع زيادة فعل كان؛ للدلالة على أنّه لايفارق عصيانه وأنّه متمكّن منه، فلاجرم أنّه لايأمر إلاّ بما ينافي الرحمة، أي بما يفضي إلى النقمة؛ ولذلك اختير وصف الرحمن من بين صفات الله تنبيهاً على أنّ عبادة الأصنام توجب غضب الله فيفضي إلى الحرمان من رحمته. فمن كان هذا حاله فهو جدير بأن لايتّبع.

وإظهار اسم الشيطان في مقام الإضمار لايتضاح إسناد الخبر إلى المسند إليه، ولزيادة التنفير؛ لأنّ في ذكر صريح اسمه تنبيهاً إلى النفرة منه، ولتكون الجملة موعظة قائمة بذاتها(١).

٥- العبر والفوائد من قوله تعالى (ياأبت إنّي أخاف أن يمسّك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليّاً) :

* يختم -عليه السلام- نصحه لأبيه بتخويفه من سوء العقاب الذي يناله إن ظلّ على ضلاله، ولكنّه قرن هذا التخويف بالأدب الجمّ الذي لايفارقه في كلّ نصائحه؛ فقوله: (ياأبت) دليل على أنّه لو استمرّ حديثه لصدّر كلّ فكرة بهذه البداية الدالّة على حسن صحبته لوالده(٢).

وقوله: (إنّي أخاف أن يمسّك عذاب) تدل على مايحمله قلبه -عليه السلام- من الشفقة على أبيه في أن يظلّ عابداً للشيطان فيناله عذاب الله، فهو يخاف على أبيه بسبب ذلك مجرّد المسّ الدالّ على أقلّ كميّة ممكنة من العذاب، وعند تأمّلنا لكلمة (عذاب) نجد أنّها جاءت منكّرة وليست معرّفة، وتنكيرها يتمشّى مع المسّ وتؤكّد معها أنّ كميّة العذاب محدودة(٣).

---

(١) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ج١٦ ص١١٧.
(٢) انظر: تأمّلات في سورة مريم لباجودة ص٩٤.
(٣) انظر: المرجع السابق ص٩٤.

وهذا هو ماينبغي أن يكون عليه شأن الداعية إلى الله مع أهله خاصّة ومع الناس عامّة: أن يحمل لهم في قلبه كلّ الشفقة عليهم.. الشفقة التي تدفعه على أن يخلص ويجدّ في دعوتهم لينقذهم من عذاب الله وولاية الشيطان.

* ومن أدبه عليه السلام أنّه لم يصرّح بلحوق العذاب، بل أخرج ذلك مخرج الخائف(١).

وهذا -لاشكّ- من الأدب في مخاطبة الآخرين، فلا يقال لهم: إنّ العذاب لامحالة واقع بكم؛ لأنّ هذا القول يدعوهم إلى اليأس من رحمة الله ومن ثمّ النفرة من دينه، وإضافة إلى هذا فانّ أمر الخاتمة ممّا لايعلمه الإنسان، وإنّما مردّ ذلك إلى الله، فلو قال ذلك لكان كلامه تألّياً على الله.

* ومن أدبه مع أبيه أيضاً في أنّه أتى بلفظ المسّ في قوله: (أن يمسّك)؛ لأنّ المسّ ألطف من المعاقبة، فلايجيء على لسانه: أن ينالك أو أن يلحق بك(٢).

وهذا من الرفق المطلوب في الدعوة إلى الله.

فعلى الدعاة أن يقتدوا بأبي الأنبياء في رفقه بمن يدعوه، وليكونوا رفقاء بمن ينصحون، فالرفق أمرٌ وسببٌ مطلوب لوصول الداعية إلى مايريده من مدعوّيه، وإضافة إلى هذا فانّه يثاب عليه، وقد قال النبي- صلى الله عليه وسلم- لعائشة رضي الله عنها: "ياعائشة إنّ الله رفيق يحبّ الرفق ويعطي على الرفق مالا يعطي على العنف ومالا يعطي على ماسواه"(٢).

---

(١) انظر: البحر المحيط لأبي حيان ج٦ ص١٩٤.

(٢) انظر: تأمّلات في سورة مريم لباجودة ص٩٤؛ البحر المحيط لأبي حيان ج٦ص١٩٤.

(٢) رواه مسلم: كتاب البرّ، باب فضل الرفق، حديث رقم(٧٨)، ج٥ ص٤٥٢.

كما أنّ بالرفق تُكسَب القلوب؛ وبالعنف تنفر النفوس. قال صلى الله عليه وسلّم: "إنّ الرفق لايكون في شيء إلاّ زانه ولاينزع من شيء إلاّ شانه" (١).

* ونلاحظ في كلام إبراهيم -عليه السلام- لأبيه أنّه لايفتأ لسانه عن ذكر الله بلفظ (الرحمن)، فهو يؤثره على كلّ لفظ سواه من أسماء الله الحسنى؛ وذلك ليحمل أباه على التفكير والتدبّر في السبب الذي يجعل الله البرّ الرحيم يعذبه فلعلّه يقلع عنه (٢).
وكأنّه يقول له: تبْ إلى الله من كفرك به، وأسلم له فانّ الاسلام يجبّ ماقبله، وربّنا يرحم ويغفر وهو التوابُ الرحيم.

* وهكذا يتبيّن لنا أنّ إبراهيم عليه السلام - في حديثه مع أبيه آزر- لم يعرض لجانب واحد من القضيّة إنّما عرض لقضّية كاملة ذات جوانب متعدّدة، في طريقة من الكلام جميلة تدلّ على علم وحلم وبر.
وكان لهذا العرض الجميل المنطقي المتدرّج أثر على والده، وكفانا دليلاً على ذلك أنّه ترك لابنه الفرصة كاملة كي يقول كلّ ماعنده، ويقلّب الأمر على وجوهه المختلفة، دون أن يحمل هذا الأب المفتون بآلهته على أن يقاطع ابنه أثناء حديثه؛ فضلاً عن أن يبطش به، وعلى الرغم من أنّه يهاجم الآلهة التي لها المنزلة الرفيعة في نفس آزر، وهو لم يصرّح برغبته عن الآلهة فقط، ولكنّه نصّ على البديل الحقّ، وتعرّض كذلك لعدوّ الانسان الشيطان الرجيم وتعرّض أيضاً للبعث والنار والجزاء... وهكذا (٢).

---

(١) رواه مسلم: كتاب البر، باب فضل الرفق، حديث رقم(٧٩)، ج٥ ص٤٥٢.
(٢) انظر: تأمّلات في سورة مريم لباجودة ص٩٥.
(٢) انظر: المرجع السابق ص٩٦.

٦- العبر والفوائد من ردّ آزر العنيف لابنه في قوله تعالى: (أراغب أنت عن آلهتي ياإبراهيم لئن لم تنته لأرجمنّك واهجرني مليّاً):

* انّ بهذه القسوة قابل آزر نصيحة ابنه المؤدّب المهذّب إبراهيم عليه السلام.. قابل الرفق بالعنف، والوعظ بالسفاهة، والتعطّف بالفظاظة والغلظة.
وذلك هو شأن الايمان مع الكفر، وشأن العقل الذي هذّبه الإيمان والقلب الذي أفسده الكفر والبعد عن الله عزّ وجلّ، فكلّ إناء بما فيه ينضح، وكلّ ينفق ممّا عنده (١).

وفي هذا الموقف الأبويّ العنيف تسلية للنبي -صلى الله عليه وسلم- آنذاك على ماكان يلاقيه من الأذى من عمّه أبي لهب، ومن قومه عامّة. وكذلك للصحابة الذي كانوا يعانون من آبائهم وأمّهاتهم المشركين.
وهو تسلية وتثبيت -أيضاً- لمن جاء من بعد ذلك من المؤمنين الذين يلاقون من أهليهم وذويهم الذين فسدت فطرتهم وبعدوا عن الحقّ وصدّوا عنه.
وانّ من الأمور المعلومة أنّ أشدّ مايكون على نفسيّة الداعية إلى الله أن يجد أهله وذويه يعارضونه في دعوته ويؤذونه بالفعال والمقال، ويهجرونه ويصدّون عنه الناس.
وانّ هذا لهو من سلسلة الامتحانات التي يمتحن الله بها عباده المؤمنين ليميّز بينهم وليعرف صدقهم.
فلاعلاج في هذا الموقف إلاّ الصبر والتجلّد أمام هذه المواقف المؤثّرة والله خير معين.

---

(١) انظر: حاشية الصاوي على الجلالين ج٢ ص٢٩؛ تفسير المراغي ج١٦ ص٥٧؛ في ظلال القرآن لسيد قطب ج٤ ص٢٢١٢.

* إنّ موقف آزر غير ودّي البتّة تجاه ابنه، مع أنّه جرى في العرف والطبيعة البشرية أن يكون جانب العطف والشفقة من الأب أكثر، ولكن هنا نرى العكس.

وهذا يدلّ على أثر الكفر والشرك بالله في تغيير الفطرة البشرية والطبيعة الانسانية. وهذا مانشاهده جليّاً واضحاً في كفرة هذا الزمان البعيدين عن دين الله، فكم من الحوادث التي أصبحت أمراً طبيعياً في حياة هذه الفئة من الناس، فحوادث قتل الآباء والأمّهات لأبنائهم وعدم اكتراثهم لذلك. وغير ذلك من التصرّفات اللاانسانية المنبئة عمّا يفعل الكفر والبعد عن الله في انحراف وفساد الفطرة الانسانية.

ألا فليعتبر أولوا الألباب.

* وفي ردّ آزر على إبراهيم -بقوله (أراغب أنت عن آلهتي ياإبراهيم..)- دعوة منه لابنه أن يعبد إلهه وأن لايرغب عن ذلك.

وإنّه لمن عظائم الأمور أن يدعو الأب ابنه إلى عبادة غير الله وترك ماهو عليه من الحقّ والايمان.

فاذا لم يكن إيمان الولد قوياً راسخاً فانّه قد يركن إلى قول أبيه ويخرج بذلك من النور إلى الظلمات، أمّا إذا كان إيمانه قوياً كايمان إبراهيم عليه السلام فانّه -بإذن الله- سيبقى في النور ولن يخرج منه إلى الظلمات.

فالواجب هو أن يقوم الآباء بدعوة أبنائهم إلى الحقّ وتثبيتهم عليه، لادعوتهم إلى الضلال وإخراجهم من النور إلى الظلمات. فلنعتبر!

٧- العبر والفوائد من حلم إبراهيم عليه السلام، والظاهر في قوله تعالى:
(قال سلام عليك سأستغفر لك ربّي إنّه كان بي حفيّاً. وأعتزلكم وماتدعون من دون الله وأدعو ربّي عسى ألاّ أكون بدعاء ربّ شقيّاً).

* نشاهد في هذا القول قمّة البرّ الذي تمتّع به إبراهيم عليه السلام، فمع جهل

أبيه عليه وتهديده له لم ينس حق الصحبة بالمعروف (وإن جاهداك على أن تشرك بي ماليس لك به علم فلاتطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً.. الآية) (١).

* وفي قوله: (سلام عليك) نلمح قمّة الحلم الذي وصل إليه إبراهيم عليه السلام، وبهذه الصفة كان عليه السلام من أولي العزم من الرسل (ولمن صبر وغفر إنّ ذلك لمن عزم الأمور) (٢).

وهذه الصفة العظيمة لازمة لكلّ داعية إلى الله؛ لأنّ لها أكبر الأثر في استجابة الناس، كما أنّ معها يثبت الأجر حتى لو لم يستجب أحد. وقد مدح الله عباده المؤمنين بهذه الصفة فقال: (..والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحبّ المحسنين) (٣).

ويذكّرني موقف الخليل -هذا- مع أبيه بذاك الصحابي الجليل الذي جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: يارسول الله إنّ لي قرابة أصلهم ويقطعوني وأحسن إليهم ويسيئون إليّ، وأحلم عنهم ويجهلون عليّ. فقال صلى الله عليه وسلم: "لئن كنت كما قلت فكأنّما تسفّهم الملّ ولايزال معك من الله تعالى ظهير عليهم مادمت على ذلك" (٤).

---

(١) سورة لقمان: ١٥.
(٢) سورة الشورى: ٤٣.
(٣) سورة آل عمران: ١٣٤.
(٤) رواه مسلم: كتاب البرّ، حديث رقم(٢٠)، ج٥ ص٤٢٢.
والمَلّ بفتح الميم هو الرماد الحارّ، ومعناه: كأنّما تطعمهم الرماد الحارّ، وهو تشبيه لما يلحقهم من الألم بما يلحق آكل الرماد الحارّ من الألم، ولاشيء على هذا المحسن بل ينالهم الاثم العظيم في قضيّة إدخالهم الأذى عليه.

وكما يقال: إنّ الحلم هو سيد الأخلاق.
والداعية الحليم هو الذي ينجح في دعوته، أمّا الذي يغضب ولايعفو ولايتجاوز عن سيّئات الناس وأذاهم، فإنّه لامحالة سيترك هذا المجال لعدم اتّصافه بصفة الصبر اللازمة لأصحاب هذا الطريق.

وهاهو ذا لقمان الحكيم حين أوصى ابنه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ أوصاه بالصبر على مايصيبه في أداء هذا الواجب (يابنيّ أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ماأصابك إنّ ذلك من عزم الأمور) (١).
وزيادة على هذا فإنّ الحلم دليل على عدم الانتصار للنفس، لأنّه متى أراد الداعية أن ينتصر لنفسه فإنّه سيخرج عن الجادّة وعن التصرّف السليم، وهكذا كان الخليل عليه السلام، وهكذا ينبغي أن يكون الدعاة، لاينتصرون لأنفسهم، فإن غضبوا غضبوا لله، ولايتعالون على المدعوّين في نقاشهم معهم، بل وينبغي أن يتركون لهم كلّ الفرصة لعرض مايريدون؛ وذلك حتى يسهل قيادهم إلى اتباع دين الله(٢).

* وإنّ قوله: (سلام عليك) تحمل -أيضاً- معنى التوديع والمتاركة، ومقابلة السيئة بالحسنة(٣).
وتلك صفات عباد الرحمن (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً) (٤)، (وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لانبتغي الجاهلين) (٥).
وإنّما يقال هذا القول بعد بذل كلّ المحاولات لهداية المدعوّين، وعدم وجود الاستجابة، ولم تعد تنفع معهم أيّة محاولة.

---

(١) سورة لقمان: ١٧.
(٢) انظر: منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله لمحمد سرور ج١ ص٩٦.
(٣) انظر: تفسير البيضاوي ج٤ ص٩.
(٤) سورة الفرقان: ٦٣.
(٥) سورة القصص: ٥٥.

وهذا هو شأن الداعية وصفته المميّزة، إذا أسيء إليه قابل بالحسنة وأعرض عمّن جهل عليه اتباعاً لأمر ربّه (ادفع بالتي هي أحسن السيّئة نحن أعلم بما يصفون) (١).
وبهذا يكسب الداعية مدعوّيه (ولاتستوي الحسنة ولاالسيّئة ادفع بالتي هي أحسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنّه وليّ حميم) (٢).

ونذكر في هذا المقام كلاماً للشيخ عبد الرحمن السعدي حيث يقول: "وقد أمرنا الله باتّباع ملّة إبراهيم عليه السلام، فمن اتّباع ملّته سلوك طريقه في الدعوة إلى الله، بطريق الحكمة والعلم، واللين والسهولة، والانتقال من رتبة إلى رتبة، والصبر على ذلك، وعدم السآمة منه، والصبر على مايناله الداعي من أذى الخلق بالقول والفعل، ومقابلة ذلك بالصفح والعفو؛ بل بالإحسان القولي والفعلي" (٣).

* وفي قول إبراهيم عليه السلام: (سأستغفر لك ربّي) امتداد في بيانه لحقيقة الدعوة، فاذا كان قد نفى السمع والبصر والقدرة عن الآلهة من قبل، فانّه أثبت لله في كلامه هذا مايليق به من صفات، ومن يغفر الذنوب إلاّ القادر على كلّ شيء.

وكذلك فللفظ الربّ في قوله مغزى بعيد ووقع حميد؛ يهيّئان للانتقال إلى الجزئية الأخيرة في الآية (إنّه كان بي حفيّاً) الدالّة على إكمال النعمة وإتمام الفضل، إذ الودّ إنّما يكون من نصيب عباد الله المؤمنين الصالحين، وقد جاءت الاشارة إلى ذلك صراحة في آخر هذه السورة -سورة مريم- في قوله تعالى: (إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودّاً) (٤).

---

(١) سورة المؤمنون: ٩٦.
(٢) سورة فصّلت: ٣٤.
(٣) تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي: ج٥ ص١١٢.
(٤) سورة مريم: ٩٦.

فأين توجد هذه المعاني الرائعة من نفي أبسط الصفات عن تلك الأصنام التي لاتسمع ولاتبصر ولاتغني شيئاً. وكأنّ ابراهيم يريد من أبيه أن يقارن بين هذه المعاني الخاصّة بالسميع والبصير القادر على كلّ شيء، وبين حقيقة تلك الأصنام العاجزة. وإن لم تكن المقارنة في الحال فلتكن بعد ذلك، فالمهمّ أن يحمل فكر والده على العمل والتدبّر(١).

* وقوله: (وأعتزلكم وماتدعون من دون الله وأدعو ربّي عسى ألاّ أكون بدعاء ربّ شقيّا) ينتقل فيه إلى خطاب الجماعة، بعد أن استخدم قبله ضمير المفرد المخاطب.

وهذا أيضاً من حلمه وبرّه؛ فقد كان يستخدم ضمير المفرد حين تحدّثه فيما يتصل بأبيه وخاصّة فيما يتمنّاه له من خير، أمّا حين جاء دور الردّ على أبيه بعد التهديد والوعيد لم يردّ عليه بجملة مماثلة، بل يقول له: (وأعتزلكم) فيدخله في مجموع المخاطبين العابدين لغير الله أدباً وبرّاً وحلماً بأبيه. فما أعظم أسلوب خليل الله في الدعوة إلى الله.

كما أنّ اختياره لكلمة (الاعتزال) دون كلمة (الهجر) يشير إلى ذلك أيضاً؛ فالهجر كلمة تعني البعد البيّن، ومن متعلقاته البغض، أمّا الاعتزال فانّه يعني البعد وعدم المشاركة والموافقة في الرأي. وإضافة إلى هذا فانّ الهجر يحمل معنى اليأس من الاستجابة، والاعتزال يحمل من الأمل في الهداية وتكرير المحاولة إذا سنحت الفرصة(٢).

* ولايلام عليه السلام في اعتزاله هذا ومفاصلته لأبيه وقومه؛ لأنّه قد بذل كلّ مافي وسعه من إرشادهم وهدايتهم ولم يجد منهم إلاّ العناد والتكذيب والصدود، بل والأذى بالقول والفعل. فلابدّ إذن بعد هذا من المفاصلة والاعتزال.

---

(١) انظر: تأمّلات في سورة مريم لباجودة ص١٠٠.

(٢) انظر: المرجع السابق ص(٩٩-١٠٢).

وهذا حال الداعية الذي يدعو مراراً ويبذل كل جهوده ولكن لامجيب ولامستجيب، فعليه أن يعتزل الكذبين الضالّين ومايدينون به من الباطل، وأن يشتغل بإصلاح نفسه وتهذيبها، وبإصلاح من معه من المؤمنين. وذلك مايدلّ عليه قوله تعالى: (ياأيها الذين آمنوا لايضرّكم من ضلّ إذا اهتديتم. الآية) (١).

٨- العبر والفوائد من إكرام الله لنبيّه :

انّ الله عزّ وجلّ جاعل مع العسر يسراً، ومن بعد الهمّ فرجاً ومخرجاً، وما ذاك إلاّ لأوليائه المتقين المتوكّلين عليه حقّ التوكّل. يقول تعالى: (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لايحتسب ومن يتوكّل على الله فهو حسبه إنّ الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً) (٢).

وهذا إبراهيم الخليل عليه السلام ترك قومه واعتزلهم إرضاء لله تبارك وتعالى، فأبدله الله خيراً ممّا كان فيه. (فلمّا اعتزلهم ومايعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلاّ جعلنا نبياً. ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق علياً).

ويؤكّد الرازي ماذكرناه بقوله: "اعلم أنّه ماخسر على الله أحد فانّ إبراهيم عليه السلام لمّا اعتزلهم في دينهم وفي بلدهم، واختار الهجرة إلى ربّه حيث أمره، لم يضرّه ذلك ديناً ولادنيا، بل نفعه فعوّضه أولاداً أنبياء، ولاحالة في الدنيا والدين

---

(١) سورة المائدة: ١٠٥.
(٢) سورة الطلاق: ٢-٣.

لبشر أرفع من أن يجعله الله رسولاً إلى خلقه، ويلزم الخلق بطاعته والانقياد له، مع مايحصل فيه من عظيم المنزلة في الآخرة، فصار جعله إيّاهم أنبياء من أعظم النعم في الدنيا والآخرة"(١).

وبهذه العبرة الجليلة نختم الكلام حول موقف إبراهيم عليه السلام مع أبيه آزر. والحمد لله .

وننتقل بعدها إلى الحديث عنه مع أبنائه . والله المستعان.

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي: ج٢١ ص٢٢٠.

الفصل الثاني

"ابراهيم عليه السلام مع أبنائه"

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول مع ابنه إسماعيل عليه السلام. وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: البشارة به.

المطلب الثاني: تركه وأمّه في واد غير ذي زرع.

المطلب الثالث: قصّة رؤيا ذبحه.

المطلب الرابع: قصّة بناء الكعبة.

المبحث الثاني: مع ابنه إسحاق عليه السلام. وفيه مطلب واحد:

البشرى به.

المبحث الثالث: مع أبنائه أجمعين. وفيه مطلب واحد:

وصيّته لهم.

المبحث الاول : مع ابنه -الاكبر- اسماعيل عليه السلام

المطلب الأول : البشـــارة به

أولاً - بيان البشـارة به :

تظهر لنا البشارة باسماعيل عليه السلام في قوله تعالى : (وقال إني ذاهب الى ربي سيهدين . ربّ هب لي من الصالحين . فبشّرناه بغلام حليم) (١) ، وذلك بعد ان دعا إبراهيم عليه السلام قومه الى عبادة الله وترك كلّ ماسواه ، وحاجّهم في ذلك فأجمعوا على القائه في النار ليحرقوه ، فجعلها الله عليه برداً وسلاماً .

(وانّ من شيعته لابراهيم . إذ جاء ربه بقلب سليم . إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون . أئفكاً آلهةً دون الله تريدون . فما ظنّكم بربّ العالمين . فنظر نظرة في النجوم . فقال إني سقيم . فتولّوا عنه مدبرين . فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون. مالكم لاتنطقون . فراغ عليهم ضرباً باليمين . فأقبلوا إليه يزفّون . قال أتعبدون ماتنحتون . والله خلقكم وما تعملون . قالوا ابنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم. فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين) (٢) .

فأبطل الله كيدهم ، وحينذاك وبعد أن رأى منهم مارأى من الاعراض والأذى؛ قرّر مفارقتهم واعتزالهم ، وطلب من الله أن يعطيه أولاداً صالحين مطيعين حتى يكونوا عوضاً عن قومه وعشيرته ، وليحملوا الرّسالة من بعده فقال : (ربّ هب لي من الصالحين) . فاستجاب الله دعاءه وبشّره (فبشرناه بغلام حليم) وهذا الغلام الذي بُشّر به إنما هو إسماعيل ، إذ أنه أول ولد بُشر به إبراهيم عليه السلام، وهو أكبر من إسحاق عليه السلام باتفاق المسلمين وأهل الكتاب .
وذلك أنه حين فارق قومه من أرض " فدان آرم " بالعراق ، توجّـه هــو

---

(١) سورة الصافات : ٩٩ - ١٠١ .
(٢) سورة الصافات : ٨٢ - ٩٨ .

وزوجته سارة وابن أخيه لوط الذي آمن - (فآمن له لوط وقال إنّي مهاجرٌ الى ربي انه هو العزيز الحكيم) - (١) الى أور الكلدانيين ثم الى حاران ، ثمّ اتجهوا الى أرض فلسطين ، وسكن إبراهيم ولوط في تلك الأنحاء وكانت أرض الكنعانيين ، فحدث جدبٌ في الأرض فانتقل إبراهيم الى مصر وكان على مصر آنذاك ملوك الرعاة وهم العماليق (الهكسوس) . وكانت سارة عمرها في ذلك الوقت سبعين عاماً أو أكثر ، وكانت عاقراً لاتلد ، وكان ملك مصر قد أعطاها جارية مصريةً تُدعى هاجر ، وقد تألمت سارة اذ لم تجد لابراهيم نسلاً وهي قد شاخت ولايُرجى لها أن تكون أماً ، فوهبته هاجر ، فدخل بها فأتت منه بهذا الغلام الذي بُشّر به من قبل وهو إسماعيل(٢) .

واشتملت البشارة على ذكوريّة المولود ، وبلوغه سنّ الحلُم ، ووصفه بالحلم أيضاً .

ونلاحظ هنا أن الله عز وجل وصف إسماعيل بالحلم كما وصف أباه من قبل ، وقيل : ما نعت الله الأنبياء عليهم السلام بأقلّ مما نعتهم بالحلم ، وذلك لعزّة وجوده ولاشك أن الحلم هو رأس الصلاح وأصل الفضائل . قال الحسن البصري رحمه الله : " ما سمعت الله يُجلّ عباده شيئاً أجلّ من الحلم " (٢) .

ثانياً - العبـــر والفوائـــد :

* يتبيّن لنا من حال إبراهيم عليه السلام ودعائه في طلب الولد الصالح - حتى

---

(١) سورة العنكبوت : ٢٦ .
(٢) انظر : قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار ص (٨٢ - ٩٢) .
(٢) انظر : البحر المحيط لابي حيّان ج٧ ص٣٦٩ ؛ الكشاف للزمخشري ج٣ ص ٣٤٧ ؛ محاسن التأويل للقاسمي ج ١٤ ص ١١٧ ؛ أبو الحسن علي بن حبيب الماوردي البصري ، تفسير النكت والعيون ، الطبعة الأولى ٤ج (الكويت : مطابع مقهوي ، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية ، التراث الاسلامي ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م) ج٣ ص٤٢١ .

يعينه على أمر الدعوة والتبليغ ويحملها من بعده للناس - ما ينبغي أن يكون عليه الداعية تجاه دعوته والرغبة في استمرارها وبقائها .

فوجود الأنصار للدعوة مما يضمن استمرارها ودوامها وانتقالها من جيل إلى جيل .

وفي هذا دلالة - أيضاً - على أن الدعوة إلى الله لايكفي أن يقوم بشؤونها فرد واحد بذاته ، بل لابد له ممن يعينه عليها . وهذا مصداق لقوله تعالى (ولتكن منكم أمّة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهَوْن عن المنكر وأولئك هم المفلحون) (١) .

* ينبغي على من يطلب الولد أن ينهج نهج الخليل في طلبه الولد الصالح ، وأن يدعو الله بهذا . وقد ذكر الله أنّ من صفات عباده المتقين طلب ذلك (والذين يقولون ربّنا هبْ لنا من أزواجنا وذريّاتنا قرّة أعيُن واجعلنا للمتقين إماماً) (٢) . وقرة العين بهم لاتكون إلا إذا كانوا من السالكين سبيل الصلاح .

كما أنّ الولد الصالح هو ممّاينفع الله به العبد بعد موته . يقول النبي صلى الله عليه وسلم " إذا مات الانسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة إلا من صدقة جارية ، أو علم يُنتفع به ، أو ولد صالح يدعو له " (٣) .

* انّ الصلاح يُعتبر أفضل الصفات ، بدليل أنّ الخليل عليه السلام طلبه لنفسه فقال : (ربّ هبْ لي حُكماً وألحقني بالصالحين) (٤) ، وطلبه - أيضاً - لولده فقال: (ربّ هبْ لي من الصالحين) ، وطلبه كذلك نبيّ الله سليمان بعد كمال درجته في

---

(١) سورة آل عمران : ١٠٤ .
(٢) سورة الفرقان : ٧٤ .
(٣) رواه مسلم : كتاب الوصية ، حديث رقم ١١ ج٤ ص ١٦٧ .
(٤) سورة الشعراء : ٨٣ .

الدين والدنيا فقال: (... وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين) (١) . فهذا وغيره يدل على أن الصلاح أشرف مقامات العباد (٢) .

* إنّ الله سبحانه قد استجاب دعاء خليله الذي تجرّد له وترك وراءه كل شيء وجاءه بقلب سليم . وهذا شأن الله مع كل من تجرّد له وانقطع إليه وإلى دعوته بأن يستجيب لدعائه ويعطيه سؤله .فعلى الدعاة أن يقتدوا بسيدنا إبراهيم عليه السلام في صدقه وإخلاصه وتجرده حتى يحقق الله الخير على أيديهم ، وينشر لهم من رحمته مايشاء .

* ويؤخذ من قوله تعالى : (فبشرناه بغلام حليم) دلالة على استحباب البشارة والتهنئة بالمولود . فإنه يستحب للمسلم أن يبادر إلى مسرّة أخيه المسلم إذا ولد له مولود وذلك ببشارته وتهنئته . وفي هذا تقوية للأواصر وتمتين للروابط بين العوائل المسلمة . وإن فاتته البشارة استحب له تهنئته بالدعاء له ولطفله الوليد .

ونجد أن القرآن الكريم ذكر البشارة بالولد في مناسبات عدة ارشاداً وتعليماً للأمة الاسلامية فمع هذه الآية قال تعالى : (ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى .. الآية) (٣) ، وقال تعالى : (فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يُبشرك بيحيى ....الآية) (٤) ، وفي آية أخرى أيضاً (يازكريا إنّا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سمياً) (٥) .

---

(١) سورة النمل : ١٩ .
(٢) التفسير الكبير للفخر الرازي : ج٢٦ ص ١٥١ .
(٣) سورة هود : ٦٩ .
(٤) سورة آل عمران : ٣٩ .
(٥) سورة مريم : ٧ .

وهذا مايسعى إليه كتاب الله - دائماً - في إرشاده الأمّة بما يزيد من تآلف أسرها وأفرادها ونشر المحبة بينهم (١) .

* ومرة أخرى نقف عند أهمية خلق الحلم ، فانّ الله لمّا بشّر إبراهيم بالولد قرن بشـارته بصفة الحلم ، وماختار غيرها من الصفات الطيبة ، وما ذاك إلا لأهميتها ، وتميّز من يتخلق بها . وخصوصاً وأن إبراهيم كان قد طلب الولد ليعينه على أمر الدعوة فمن كمال البشارة أن تقرن بهذه الصفة التي تعطي إشارة إلى صلاحية هذا الولد لأن يدعو ويستمر في دعوته ، إذ أنّ بهذه الصفة - كما هو معلوم - يجذب الداعية قلوب الناس إليه ، ويشوّقهم الى سماع دعوته ، ومن ثمّ انتفاعهم إذا شاء الله .

ومقابل هذه الصفة تأتي صفة الفظاظة وغلظة القلب ، إذ أنها تسبب النفور وتورث العداوة وتقضي على روح التقبل للخير عند الناس ، وتعزل الدعاة عن العامّة وتؤخّر مسيرة الدعوة ، وبها يتملك اليأس والقنوط قلوب الناس (٢) (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظّاً غليظ القلب لانفضّوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر ...... الآية) (٣) .
ألا فليتخلق الدعاة بهذا الخلق العظيم (...وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم) (٤) .

---

(١) انظر : تربية الأولاد في الاسلام لعبد الله علوان ج١ ص٦٧ - ٦٨ .
(٢) انظر عبد الله ناصح علوان ، أخلاقية الداعية ، الطبعة الاولى (بيروت : دار السلام للطباعة والنشر ١٤٠٥ هـ) ص (٢٦ - ٣٠) .
(٣) سورة آل عمران : ١٥٩ .
(٤) سورة النور : ٢٢ .

المطلب الثاني : ترك اسماعيل وأمه في وادٍ غير ذي زرع

اولاً - بيان القصة :

أمر الله نبيه إبراهيم عليه السلام بحمل ابنه إسماعيل وأمه إلى مكة ، فذهب به وبأمه إلى هذا الوادي المقفر والذي ليس به أحد .
وبعد أن تركهم ابتهل داعياً إلى الله بقوله :

(ربنا إنّي أسكنْت من ذريّتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون) (١) .

ولايوجد في القرآن الكريم غير هذه الآية مما يُبيّن هذه القصة ، ولكن جاء الحديث النبوي ففصّل ماأجمله لنا القرآن . ففي صحيح البخاري وردت هذه القصة مفصلة موضّحة كالتالي :
(قال ابن عباس : أول ماأتّخذ النساء المِنْطَق (٢) من قِبل أم إسماعيل اتخذت منطقاً لتُعفّي (٣) أثرها على سارة . ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء فوضعهما هنالك ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء ، ثمّ قفّى إبراهيم منطلقاً فتبعته أم إسماعيل فقالت : ياإبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولاشيء ، فقالت ذلك مراراً وجعل لايلتفت إليها ، فقالت له : آلله أمرك بهذا . قال : نعم . قالت : إذاً لايُضيّعنا ثم رجعت فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنيّة (٤) - حيث لايرونه - استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الكلمات ورفع يديه فقال : (ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم . . . . . . حتى بلغ يشكرون) .

---

(١) سورة ابراهيم : ٣٧ .
(٢) هو مايُشَدّ به الوسط .
(٣) أي لتخفيه عليها بالترائي لها بزيّ الخادمة .
(٤) هي أعلى المسيل في رأس الجبل .

وجعلت أم اسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء ، حتى إذا نفد مافي السقاء عطشت وعطش ابنها ، وجعلت تنظر إليه يتلوّى أو قال يتلبّط ، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه ، فوجدت الصّفا أقرب جبل في الأرض يليها ، فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً ، فلم تر أحداً ، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ثم سعت سعي الانسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحداً فلم تر أحداً ، ففعلت ذلك سبع مرّات. قال ابن عباس : قال النبي صلى الله عليه وسلم : فذلك سعي الناس بينهما. فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت : صه(١). تريد نفسها ، ثم تسمّعت فسمعت أيضاً فقالت : قد أسمعت إن كان عندك غُوَاث ، فاذا هي بالملك عند موضع زمزم فَبَحَثَ بعقبه أو بجناحه حتى إذا ظهر الماء فجعلت تُحوّضه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعد ماتغرف . قال ابن عباس : قال صلى الله عليه وسلم : يرحم الله أمّ إسماعيل لو تركت زمزم أو قال لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عيناً معيناً ، قال فشربت وأرضعت ولدها ، فقال لها الملك : لاتخافوا الضّيعة(٢) ، فانّ ههنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه ، وإنّ الله لايُضيّع أهله . وكان البيت مرتفعاً من الارض كالرّابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله فكانت كذلك حتى مرّت بهم رفقة من جُرْهُم أو أهل بيت من جُرْهُم مقبلين من طريق كَدَاء فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائراً عائفاً(٣) ، فقالوا : إنّ هذا الطائر ليدور على ماء لَعَهْدُنا بهذا الوادي وما فيه ماء ، فأرسلوا جَرِيّاً أو جريين فاذا هم بالماء فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا . قال : وأم إسماعيل عند الماء ، فقالوا أتأذنين لنا أن ننزل عندك . فقالت : نعم ، ولكن لاحقّ لكم في الماء . قالوا نعم . قال ابن عباس: قال صلى الله عليه وسلم : فألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحبّ الأنس ، فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم وشبّ الغلام وتعلم

---

(١) اي قالت لنفسها : اسكتي .
(٢) أي الهلاك .
(٣) هو الذي يتردد على الماء ويحوم حوله .

العربية منهم وانفسهم واعجبهم حين شبّ ، فلما أدرك زوّجوه امرأة منهم وماتت أم إسماعيل ... الحديث) (١).

ولنا في هذه الرواية الصحيحة غنىً عن غيرها من الروايات .

ثانياً : العبر والفوائد

* نشهد في هذه الحادثة قوة الايمان والثقة بالله المتمثلتين في شخص إبراهيم الخليل عليه السلام ؛ حيث أنّه انقاد لأمر الله في ترك ولده وأهله في هذا المكان الجدب ، بل ولم يتردد لحظة واحدة في تطبيقه . فهو بهذا لم يستجب لنداء العاطفة فيتراخى عن تنفيذ أمر الله ، وإنما هي طاعة الله المحرّكة له ورضا الله هو المقدّم على ماسواه .

ومن المعلوم أنّ الزوجة والولد هما ممّا يتعلق بهما الانسان وتشغله أمورهما ، وقد يؤدي هذا التعلق عند بعض الناس ممّن لم يُلامس الايمان شغاف قلوبهم إلى أن يقدّموا مصالحهما على طاعة أوامر الله عز وجلّ ، أما إبراهيم عليه السلام ومن اتبع هديه وكان في مثل إيمانه فإنه لاتصرفه كل الجواذب الدنيوية أو الأرضية عن طاعة الله وطلب محبته ورضاه .

ويصدق على هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم "ثلاث من كنّ فيه وجد بهنّ حلاوة الايمان : أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما ... الحديث "(٢)

وهذا بلاشكّ درس يستفيد منه كل داعية الى الله .

---

(١) رواه البخاري : كتاب الأنبياء ، باب يَزِفّون النّسلان في المشي ، حديث رقم (١٦٦) ، ج٤ ص (٢٨٢ - ٢٨٤) .

(٢) رواه البخاري : كتاب الايمان ، باب حلاوة الايمان ، حديث رقم (١٥) ، ج١ ص ١٨ ؛ ورواه مسلم : كتاب الايمان ، حديث رقم (٦٣) ، ج١ ص٢١٧ .

* إنّ هاجر كانت مثالاً للزوجة الصالحة التي تعين زوجها على طاعة الله والدعوة إلى دينه ، وإنها لكلمة عظيمة تلك التي قالتها لإبراهيم عليه السلام ! كلمة تدلّ على صدق إيمانها وعظيم ثقتها بالله ، وتوكلها عليه سبحانه: آلله أمرك...إذاً لايضيّعنا، وكأنها تقول: مادام هذا أمراً من الله فإنّا نلبّي ونطيع، ولن يتركنا الله للهلاك.

وكان ماحصل لهم من مظاهر عناية الله من نبع ماء زمزم ، وقدوم قبيلة جُرْهُم، ومما لايعلمه إلا الله من أمور العناية والرعاية لهم . وتلك نتيجة صدق الايمان والتوكّل على الله (ومن يتوكل على الله فهو حسبه ..الآية) (١) ، (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لايحتسب ..الآية) (٢) .

ألا فليقتدين الزوجات في حسن المعاونة والمساعدة لأزواجهنّ على طاعة الله وتبليغ أمر الدعوة ، وليحملن أنفسهنّ على أن يكنّ في صفّ الواثقات بالله والمتوكلات عليه والصادقات ..وما أحوجنا اليوم إلى مثل هؤلاء اللاتي يكنّ عنصراً إيجابياً في مجال الدعوة إلى الله .

* ونرى أنّ إبراهيم عليه السلام بعد أن ترك زوجته وولده توجّه الى الله متضرّعاً إليه بدعاء خاشع بأن يجعل أهله مقيمين للصلاة شاكرين له على نعمه .

فهو عليه السلام قد تجرّد لله كل التجرّد وخلص اليه كل الخلوص ، وفعل ماأمره به ؛ وإن كان من شيء بعد ذلك فإنما هو بيد الله .

وهكذا يكون المؤمن المطمئنّ إلى قدر الله ، الذي ملئ قلبه يقيناً بالله ، يترك أهله وولده طاعة لله ثم يستودعهما الله الذي لاتضيع ودائعه ، ويدعو لهم بالصلاح في الدين والدنيا والله خير مجيب لعبده وخليله ونبيه الكريم .

---

(١) سورة الطلاق : ٣ .
(٢) سورة الطلاق : ٢ .

وقد تمرّ بالداعية إلى الله أحداث تضطره إلى أن يترك أولاده وأهله لتأدية واجب ديني عليه ، فما على الداعية آنذاك إلا أن يقتدي بأبي الأنبياء عليه السلام.

* وتتجلى لنا رحمة الأم بولدها بين هاجر وإسماعيل ؛ إذ هي لاتريد أن ترى ابنها يتلوّى من العطش والجوع فذلك يفتت كبدها عليه ويؤلمها شفقة على حاله ، فتنطلق مسرعة وتقطع المسافات الطويلة فوق الجبال الوعرة من أجل أن تجد إغاثة تسعف ولدها بها حتى يبقى على قيد الحياة . وما هذه الرحمة إلا دليل على فضل مكانة الأمّ ومنزلتها العظيمة .

ومن أجل هذا الحنان والعطف تقدّمت الأمّ بالبر ؛ لأنّ الولد قد يتساهل في حقّ أمه عليه لما يرى من ظواهر عطفها ورحمتها وحنانها ، فجاءت الشريعة موصية الولد بأن يكون أكثر برّاً بها حتى لايتساهل في حقها ولايتغاضى عن احترامها وإكرامها(١).

---

(١) أنظر تربية الاولاد في الاسلام لعبد الله علوان ج١ ص ٢٨٥ .

المطلب الثالث : قصة رؤيا ذبحه

أولاً : بيـان القصـة

يذكر الله هذه القصة في قوله (فلما بلغ معه السعي قال يابنيّ إنّي أرى في المنام أنّي أذبحك فانظر ماذا ترى قال ياأبت افعل ماتؤمر ستجدني إنْ شاء الله من الصابرين . فلمّا أسْلَما وتلّه للجبين . وناديناه أنْ ياإبراهيم قد صدقت الرؤيا بالحقّ إنّا كذلك نجزي المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم . وتركنا عليه في الآخرين . سلام على إبراهيم . كذلك نجزي المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين) (١) .

وقبل البدء في بيان هذه القصة الجليلة يجدر توضيح مسألة قد اختلف فيها المفسّرون وهي :
أيّ ولدَيْ إبراهيم هو الذبيح ، إسماعيل أم إسحاق ؟
والصحيح والراجح الذي يعوّل عليه أنّ الذبيح هو إسماعيل عليه السلام .

أما الذين قالوا بأنّه إسحاق عليه السلام احتجّوا بما يلي :
١ - قال حمزة الزيّات عن أبي ميسرة رحمه الله قال : قال يوسف عليه السلام للملك في وجهه : ترغب أن تأكل معي وأنا والله يوسف بن يعقوب نبي الله بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله (٢) .
٢ - عن عبيد بن عمير عن أبيه قال : قال موسى عليه السلام : يارب يقولون : باله ابراهيم وإسحاق ويعقوب فيم قالوا ذلك ؟ قال : إنّ إبراهيم لم يعدل بي شيء قطّ إلاّ اختارني ، وإنّ إسحاق جاد لي بالذبح وهو بغير ذلك أجود ، وإنّ يعقوب كلما زدته بلاءً زادني حسن ظنّ .
وروي مثل هذا عن كعب الاحبار أنه إسحاق (٣).

---

(١) سورة الصافات : ١٠٢ - ١١١ .
(٢) انظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٤ ص١٧ .
(٣) المرجع السابق : ج٤ ص١٧ .

٣- عن العباس بن عبد المطلب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال في حديث ذكره: هو إسحاق (١) .

٤- وقالوا يدل عليه كتاب يعقوب الى يوسف : من يعقوب إسرائيل الله ابن اسحاق ذبيح الله ابن ابراهيم خليل الله .

وقالوا أيضاً أنّه قد سُئل النبي صلى الله عليه وسلم أيّ النسب أشرف ؟ فقال: يوسف بن يعقوب نبي الله بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله (٢) .

- وقد حكى البغويّ القول بأنّه اسحاق عن عمر وعلي وابن مسعود والعباس رضي الله عنهم ، ومن التابعين عن كعب الاحبار وسعيد بن جبير وقتادة ومسروق وعكرمة وعطاء ومقاتل والزهري والسّديّ . وقال : وهي رواية عكرمة وسعيد بن جبير عن ابن عباس(٣) .

وقد اختار هذا الرأي ابن جرير الطبري(٤) .

وأمّا القائلون بأنّ الذبيح هو إسماعيل احتجّوا بما يلي :

١- إنّ الآيات السابقة الذكر تدل على أنّه إسماعيل ؛ فانّ الله حين فرغ من قصة المذبوح من ابنَيْ إبراهيم قال : (وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين) فعلم أنّ الاول غير الثاني (اسحاق) وبذلك يكون هو إسماعيل عليه السلام .

والبشارة بإسماعيل لما كانت عقب دعاء إبراهيم أن يهب الله له من الصالحين عطفت هنا بفاء التعقيب ، وبشارته بإسحاق ذكرت معطوفة بالواو عطف القصة على القصـــة ، والعطف يدلّ على أنّ البشارة الاولى شيء غير المبشّر به في الثانية ؛ لأنّه لايجوز حمل كتاب الله على أنّ معناه فبشرناه بإسحاق ، ثم بعد انتهاء قصة ذبحه يقول أيضاً : وبشرناه باسحاق ، فهو تكرار لافائدة فيه يُنزّه عنه كلام الله ، ومعلوم أيضاً أنّ العطف يقتضي المغايرة (٥) .

---

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٤ ص١٧ .
(٢) انظر : الكشاف للزمخشري ج٢ ص٢٥٠ ؛ تفسير أبي السعود ج٧ ص٢٠٠ .
(٣) انظر : تفسير البغوي في هامش تفسير الخازن ج٦ ص(٢٦ - ٢٧) .
(٤) انظر : تفسير ابن جرير الطبري ج٢٣ ص (٥٤ - ٥٥) .
(٥) انظر : التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ج٢٣ ص١٤٩ .

٢- إنّ الله لمّا ابتلى إبراهيم عليه السلام بذبح ابنه ، كان الظاهر أن الابتلاء وقع حين لم يكن لإبراهيم ابن غيره لأنّ ذلك أكمل في الابتلاء . وحكى الله عنه أنه قال : (إني ذاهب الى ربي سيهدين) ثم طلب من الله ولداً يستأنس به في غربته فقال : (رب هب لي من الصالحين) ، وهذا السؤال إنما يحسن قبل أن يحصل له الولد.

فثبت أنّ المطلوب بهذا الدعاء هو إسماعيل ، ثم إنّ الله تعالى ذكر عقيبه قصة الذبيح فوجب أن يكون الذبيح هو إسماعيل (١) .

٣- ثمّ إنّ قوله تعالى (فبشرناها باسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب) (٢) يدل على أنّه إسماعيل ، إذ لو كان الذبيح إسحاق لكان الأمر بذبحه إما أن يقع قبل ظهور يعقوب منه أو بعد ذلك ، والأول باطل لأنه تعالى لما بشّرها باسحاق وبشّرها معه بأن يحصل منه يعقوب ، فقبل ظهور يعقوب منه لم يجز الأمر بذبحه وإلاّ حصل الخلف في قوله : (ومن وراء إسحاق يعقوب) وحاشا لله (٣) ، بل وكيف يعقل أن يؤمر إبراهيم بذبحه وهو صغير وهو عنده علم يقين بأنّه يعيش حتى يأتي منه يعقوب وكانّ ذلك عبث وحاشا لله .

٤- إنه قد وردت أخبار كثيرة تدل على تعليق قرني الكبش المفدى به إسماعيل بالكعبة ، وهذا يُشير إلى أن الذبح كان بمكة ; ولو كان الذبيح اسحاق لكان الذبح بالشام . قال ابن عباس : والذي نفسي بيده لقد كان أول الاسلام وإنّ رأس الكبش لمعلّق بقرنيه في ميزاب الكعبة وقد يبس .

وقال الاسمعي : سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح اسحاق كان أم إسماعيل ؟ فقال : ياأسمعي أين ذهب عقلك ؟! متى كان إسحاق بمكة ، إنما كان إسماعيل وهو الذي بنى البيت مع أبيه .

---

(١) انظر : التفسير الكبير للفخر الرازي ج٢٦ ص١٥٤ .
(٢) سورة هود : ٧١ .
(٣) انظر : التفسير الكبير للفخر الرازي ج٢٦ ص١٥٤ .

ويدل عليه أيضاً ورود بعض الأخبار وفيها أنّ الشيطان عرض لإبراهيم عليه السلام ليصرفه عن ذبح ابنه فرجمه ومن هذه الحادثة كانت سنة رمي الجمرات في الأجيال بعده (١) . والله أعلم .

٥- واحتجوا أيضاً بما روي في المستدرك من أنّ عبد الله بن سعيد الصنابحي قال : حضرنا مجلس معاوية بن أبي سفيان فتذاكر القوم إسماعيل بن إبراهيم وإسحاق عليهما السلام ، فقال بعضهم : الذبيح إسماعيل . وقال بعضهم : بل إسحاق الذبيح. فقال معاوية : سقطتم على الخبير . كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتاه الأعرابيّ فقال : يارسول الله خلفت البلاد يابسة والماء يابساً ، هلك المال وضاع العيال فعد عليّ بما أفاء الله عليك ياابن الذبيحين ، فتبسم صلى الله عليه وسلم ولم ينكر عليه . فقلنا ياأمير المؤمنين : وما الذبيحان . قال : ابن عبد المطلب لما أمر بحفر زمزم نذر لله إنْ سهّل أمرها أن ينحر بعض ولده ، فأخرجهم فأسهم بينهم فخرج السهم لعبد الله فأراد ذبحه فمنعه أخواله من بني مخزوم وقالوا : ارض ربك وافد ابنك . قال : ففداه بمائة ناقة . فهو الذبيح وإسماعيل الثاني (٢) .

٦- إنّ الله وصف إسماعيل عليه السلام بالصبر دون إسحاق في قوله (وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين) (٣) . وهو صبره على أمر الذبح ، ووصفه بصدق الوعد بقوله: (إنه كان صادق الوعد ..الآية) (٤) .لأنه وعد أباه من نفسه الصبر على الذبح فوفّى له بذلك ، وكذلك وصف إسماعيل بالحلم (فبشرناه بغلام حليم) (٥) ووصف اسحاق بالعلم دون الحلم (فأوجس منهم خيفة قالوا لاتخف وبشّروه بغلام عليم) (٦) .

---

(١) انظر المرجع السابق ج٢٦ ص١٥٤ ؛ التحرير والتنوير ج٢٢ ص(١٥٨ - ١٥٩) .

(٢) المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري : كتاب التاريخ ج٢ ص٥٥٤، وتعقبه الذهبي في التلخيص ولم يقرّه وقال : إسناده واه .

(٣) سورة الأنبياء : ٨٥ .

(٤) سورة مريم : ٥٤ .

(٥) سورة الصافات : ١٠١ .

(٦) سورة الذاريات : ٢٨ .

٧- ويقول الامام ابن القيّم في ذكره لأدلة هذا القول "إنّ الله سبحانه أجرى العادة البشرية أنّ بكر الأولاد أحبّ إلى الوالدين ممن بعده ، وإبراهيم عليه السلام لما سأل ربه الولد ووهبه له تعلّقت شعبة من قلبه بمحبته ؛ والله تعالى قد اتخذه خليلاً ، والخلّة منصب يقتضي توحيد المحبوب بالمحبة وأن لايشارك بينه وبين غيره فيها . فلمّا أخذ الولد شعبة من قلب الوالد ، جاءت غَيْرة الخلّة تنتزعها من قلب الخليل ، فأمره بذبح المحبوب ، فلمّا أقدم على ذبحه وكانت محبة الله أعظم عنده من محبة الولد ، خلُصت الخلّة حينئذٍ من شوائب المشاركة فلم يبق في الذبح مصلحة؛ إذ كانت المصلحة إنّما هي في العزم وتوطين النفس عليه ، فقد حصل المقصود وفُدِي الذبيح ، وصدّق الخليل الرؤيا وحصل مراد الربّ تبارك وتعالى . ومعلوم أنّ هذا الامتحان إنما حصل عند أول مولود ، ولم يكن ليحصل في المولود الآخر دون الأول، بل لم يحصل عند المولود الآخر من مزاحمة الخلّة مايقتضي الأمر بذبحه وهذا في غاية الظهور "(١) .

٨ - ومن أدلة ابن القيم كذلك قوله :" إنّ سارة امرأة الخليل غارت من هاجر وابنها أشدّ الغيرة فإنها كانت جارية ، فلما ولدت إسماعيل وأحبه أبوه اشتدت غيرة سارة ، فأمره الله سبحانه أن يُبعد عنها هاجر وابنها ويسكنها في أرض مكة لتبرد عن سارة حرارة الغيرة ، وهذا من رحمته ورأفته تعالى ، فكيف يأمره سبحانه بعد هذا أن يذبح ابنها ، ويدع ابن الجارية بحاله ، بل حكمته البالغة اقتضت أن يأمره بذبح ولد السّرّيّة فحينئذ يرق قلب السيدة عليها وعلى ولدها ، وتتبدل قسوة الغيرة رحمة ، ويظهر لها بركة هذه الجارية وولدها"(٢) .

---

(١) ابن قيّم الجوزية ، زاد المعاد في هدي خير العباد ، تحقيق : شعيب وعبد القادر الارنؤوط ، الطبعة السادسة ، ٥ ج (بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) ج١ ص(٧٤ - ٧٥) .

(٢) المرجع السابق :ج١ ص٧٥ .

ويشير صاحب التحرير والتنوير إلى أمر حسن فيقول : " قد أشارت هذه الآيات إلى قصة الذبيح ولم يسمّه القرآن هنا لعله لئلا يُثير خلافاً بين المسلمين وأهل الكتاب في تعيين الذبيح من ولَدَيْ إبراهيم ، وكان المقصد تألف أهل الكتاب لإقامة الحجّة عليهم في الاعتراف بنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم وتصديق القرآن ، ولو لم يكن ثمّة مقصد مهم يتعلق بتعيين الذبيح ولا في تخطئة أهل الكتاب في تعيينه ، وأمارة ذلك أن القرآن سمّى إسماعيل في مواضع غير قصة الذبيح ، وسمّى إسحاق في مواضع، ولم يُسمّ هنا قصداً للإبهام مع عدم فوات المقصود من الفضل ؛ لأنّ المقصود من القصة التنويه بشأن إبراهيم عليه السلام ، فأيّ ولديه كان الذبيح كان في ابتلائه بذبحه وعزمه عليه وما ظهر في ذلك من المعجزة تنويه عظيم بشأن إبراهيم . "(١) .

ونقل القول بأنه إسماعيل عن أبي هريرة وأبي الطفيل عامر بن واثلة وعبد الله بن عمر وابن عباس ومعاوية رضي الله عنهم من الصحابة رضي الله عنهم ، ومن التابعين: سعيد بن المسيّب والشعبي والحسن البصري ومجاهد والربيع بن أنس وعلقمة والكلبي ومحمد بن كعب القرظي والامام أحمد بن حنبل(٢) .

* وَرَدّ على أدلة من قال بأنه اسحاق كالآتي :

١- يقول ابن كثير -رحمه الله- في الرد على ماأشرنا إليه بالرقمين (٢،١) في أدلة من قال بإسحاق : " إن هذه الاقوال - والله أعلم - كلها مأخوذة عن كعب الاحبار ، فانه لما أسلم في الدولة العمريّة جعل يحدّث عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- عن كتبه قديماً ، فربما استمع له عمر فترخّص الناس في استماع ماعنده ، ونقلوا ماعنده غثّها وسمينها ، وليس لهذه الأمة والله أعلم حاجةٌ إلى حــــرف

---

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور : ج٢٢ ص١٥٦ .
(٢) انظر : تفسير البغوي على هامش الخازن ج٦ ص٢٧ ؛ تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٤ ص١٧ .

واحد منّا عنده "(١) .

٢- وفي الرد على ماأشرنا إليه بالرقم (٢) يقول ابن كثير - أيضاً - :" وفي إسناد هذا الحديث ضعيفان وهما الحسن بن دينار ، والبصري (متروك) ، وعلي بن زيد بن جدعان منكر الحديث "(٢) ، وعليه فإنّ هذا الحديث لايصلح في مقام الاحتجاج.

٣- وفي الردّ عى ماأشرنا إليه بالرقم (٤) يقول أبو السعود رحمه الله :" فالصحيح أنه صلى الله عليه وسلم قال :" يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم" في سؤاله أي النسب أشرف ؟ والزوائد من الراوي ، وما روي من أن يعقوب كتب الى يوسف مثل ذلكلم يثبت "(٣) .

٤- وزيادة على ماذكر من الردّ ، فإنه يروي لنا ابن اسحاق عن بريدة بن سفيان الأسلمي عن محمد بن كعب القرظي أنه حدّثهم : أنه ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز وهو خليفة إذ كان معه بالشام ، فقال له عمر :إنّ هذا لشيء ماكنت أنظر فيه وإني لأراه كما قلت ، ثم أرسل الى رجل كان عنده بالشام وكان يهودياً فأسلم وحسن إسلامه وكان يُرى أنه من علمائهم فسأله عمر بن عبد العزيز عن ذلك ، قال محمد بن كعب : وأنا عند عمر بن عبد العزيز فقال له عمر :أيّ ابني إبراهيم أمِرَ بذبحه ؟ فقال :اسماعيل والله ياأمير المؤمنين ، وإنّ يهود لتعلم بذلك ، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم الذي كان من أمر الله فيه والفضل الذي ذكر الله تعالى له لصبره لما أمر به ، فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه إسحاق لأنّ إسحاق أبوهم(٤) .

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ج٤ ص١٧ .
(٢) المرجع السابق : ج٤ ص١٧ .
(٣) تفسير أبي السعود : ج٧ ص٢٠٠ .
(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ج٤ ص١٨ .

ويؤيد هذا ماذكره الامام ابن القيم في كتابه زاد المعاد حيث يقول : " واسماعيل هو الذبيح على القول الصواب عند علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم. وأما القول بأنه اسحاق فباطل بأكثر من عشرين وجهاً ، وسمعت شيخ الاسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول : هذا القول إنما هو متلقى عن أهل الكتاب ، مع أنه باطل بنص كتابهم ؛ فانّ فيه : إن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه بكره ، وفي لفظ: وحيده ، ولايشك أهل الكتاب مع المسلمين أن إسماعيل هو بكر أولاده ، والذي غرّ هؤلاء أن في التوراة التي بأيديهم : اذبح ابنك اسحاق ، قال : وهذه الزيادة من تحريفهم وكذبهم لأنها تناقض قوله :اذبح بكرك ووحيدك . ولكن اليهود حسدت بني إسرائيل على هذا الشرف ، وأحبوا أن يكون لهم ، وأن يسوقوه إليهم ويحتازوه لأنفسهم دون العرب ، ويأبى الله إلا أن يجعل فضله لأهله(١) .

وهكذا يظهر لنا فيما أوردناه من أدلة وردود وحقائق أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام .

وبعد بياننا لهذه المسألة نبدأ في إيضاح قصة رؤيا ذبح إسماعيل عليه السلام كما يلي :

١- عرض الرؤيا على إسماعيل عليه السلام :

وحين بلغ إسماعيل السنّ التي يطيق فيها معاونة أبيه على العمل(٢) ، جاءت الرؤيا بالأمر بذبحه ، فجاء ابراهيم عليه السلام يعرضها عليه (يابنيّ إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى ...) ، ويعرضها عليه بغاية الشفقة والرحمة

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم : ج١ ص(٧١-٧٢) .
(٢) انظر : تفسير ابن جرير الطبري ج٢٣ ص٤٩ . وقيل كان عمره آنذاك :١٣ سنة ، وقيل : ٧ سنين . والأول ماعليه الجمهور وهو الأصح والله أعلم .

الواضحة في ابتدائه بكلمة : يابنيّ - " ورؤيا الانبياء وحي(١) " وحق يجب تنفيذها- ويعرض الأمر عليه - أيضاً - بصيغة السؤال والاستشارة (فانظر ماذا ترى) -وهذا من حسن العرض في الأمور الشاقة المطلوبة - أي ماتريك نفسك من الرأي .

وهذه مشاورة ليست ليرجع الى رأيه ومشورته ولكن ليعلم ماعنده فيما نزل به من بلاء الله فيثبّت قدمه ، ويصبّره إن جزع ، ويأمن عليه الزلل إن صبر وسلّم ، وليعلمه حتى يراجع نفسه فيوطّنها ويهوّن عليها ويلقى البلاء وهو كالمستأنس به ، ويكتسب المثوبة بالانقياد لأمر الله قبل نزوله(٢) .

٢- موقف الابن المطيع :

لم يرفض الابن (اسماعيل عليه السلام) ذلك الأمر العظيم ، بل لم يتردد او يتلجلج بل قال مطيعاً لله ولرسوله مستجيباً واثقاً: (ياأبت افعل ماتؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين) أي الذين يصبرون ويحتسبون الأجر عند الله في سبيل مرضاته ، وصدق فيما وعد به أباه ولهذا قال تعالى: (واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً)(٣) .

---

(١) رواه البخاري في رواية طويلة وفيها : أن عبيد بن عمير قال : رؤيا الأنبياء وحي ثم تلى (يابنيّ إني أرى في المنام ...الآية) ، وعبيد من كبار التابعين ولأبيه صحبة [انظر : أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي ، إشراف طبع : محب الدين الخطيب قرأ أصله تصحيحاً وتحقيقاً وأشرف على مقابلة نسخه : عبد العزيز بن باز ، ١٢ ج (الرياض : مكتبة الرياض الحديثة ، ١٣٧٩ هـ) ٤ كتاب الوضوء ، ٥ : باب التخفيف في الوضوء ، حديث :١٣٨] .

(٢) انظر : الكشاف للزمخشري ج٣ ص٣٤٨ .

(٣) سورة مريم : ٥٤ .

٢- تحقيق الرؤيا :

واستعدّ الأب وابنه لتنفيذ ماأمرا به (فلما أسلما وتلّه للجبين) أي لما أسلما أمرهما لله وفوّضاه إليه ، واتفقا على التسليم لأمره والرضا بقضائه ، وصرعه على جبينه(١).

وفي هذا الوقت ينادى إبراهيم (وناديناه أن ياإبراهيم.قد صدقت الرؤيا.)

وهذا جواب قوله (فلما أسلما وتلّه للجبين) ، والواو هنا مقحمة صلة مجازه : ناديناه ، كقوله تعالى (فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابت الجبّ "و"أوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لايشعرون)(٢).

وإنه لصدّق الرؤيا بعزمه وإتيانه بالمقدمات ، وقد تمّ الغرض من الرؤيا حيث ظهر منه عليه السلام كمال الطاعة والانقياد لأمر الله وكذا من اسماعيل عليه السلام.

وقد قيل إنّ في قوله تعالى (واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صدّيقاً نبياً) إشارة الى هذا المعنى حيث أنه صدّق الرؤيا بالحق(٢).

---

(١) انظر : تفسير الطبري ج٢٢ ص٥٠ ، والجبين : ماعن يمين الجبهة أو عن شمالها وللوجه جبينان والجبهة بينهما .

(٢) انظر : تفسير البغوي على هامش الخازن ج٦ ص٢٩ ، والآية رقم: ١٥ من سورة يوسف .

(٣) انظر : تفسير الخازن ج٦ ص (٢٩ - ٣٠) ؛ تفسير البيضاوي ج٥ص٩ .

ويقال : إنّ ابراهيم عليه السلام أمرّ السكّين على حلق اسماعيل فلم تعمل شيئاً بمانع من القدرة الالهية ، روي هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما .

وفي قولٍ آخر: إنه لم يمرّ السكين، بل لما أضجعه وأراد ان يمرّ السكين جاءه النداء(١).

أقول: ولاأثر لهذه الجزئيّة البسيطة ؛ فما أورده الله عز وجلّ من وصفٍ للفعل الذي قام به ابراهيم وابنه عليهما السلام الدالّ على كمال الطاعة لله لكافٍ في إظهار الصورة المطلوبة بيانها .

ثم بيّن الله سبب تفريجه لهذه الشدة عنهما في قوله: (إنا كذلك نجزي المحسنين) ؛ فالسبب إنما هو بلوغهما درجة الاحسان التي هي أعلى مقامات العبودية لله تبارك وتعالى(٢).

وفي بيان هذا السبب ثناء من الله عليهما بهذه الصفة الرفيعة.

وفيه أيضاً وعد من الله لايتخلّف عن عباده الذين يحسنون ويطيعون ويعملون في رضاه أن يؤتيهم مثل ماآتاهما ويجزيهم بمثل ماجزاهما به من فضله وكرمه وتفريجه.

وقبل أن يُتمّ الله القصة اشار الى أن هذا الأمر انما هو اختبار وابتلاء ومحنة شديدة فقال: (إنّ هذا لهو البلاء المبين) . اي الابتلاء البيّن الذي يتميّز فيه المخلص من غيره(٣) ، وهذا - ايضاً - فيه زيادة ثناء من الله على عبديه ابراهيم واسماعيل عليهما السلام ؛ إذ انهما واجها هذا الابتلاء الصعب بكل طاعة وانقياد وصبر .

---

(١) انظر : حاشية الصاوي على الجلالين ج٣ ص٣٤٢ .
(٢) انظر : تفسير البيضاوي ج٥ص٩ .
(٣) انظر : المرجع السابق ج٥ص٩ .

٤- الفـــداء :

وتأتي القصة الى نهايتها - بعد تحقق الغرض من الرؤيا - وتشاء قدرة الله ان يجعل مكان اسماعيل كبشاً عظيماً (وفديناه بذبح عظيم) وبهذا الذبح أنقذه الله من الذبح .

وقد اختلف المفسرون في أن الذبح لم سمّي عظيماً ؟ فقال بعضهم : لأنه كان قد رعى في الجنة .
وقال آخرون : لأنه كان ذبحاً متقبلاً . وقال آخرون : لأنه ذبح بالحقّ، حيث ذبح بدين ابراهيم عليه السلام .
وقيل : سمّي عظيماً لعظم قدره إذ انه فُديَ به نبي ابن نبي ، وقيل أيضاً : لكونه عظيم الجثة سمين(١) .

أقول : وهذه الأقوال الاول منها يحتاج الى نقل صحيح ، بل هو مأخوذ من الاسرائيليات ، واما باقي الاقوال فهي استنتاجات لاأكثر من ذلك ، وهي في حدّ ذاتها لاتعارض النصوص ، فلامانع اذاً من ذكرها ؛ ولكن الأولى من ذلك عدم التخصيص اذ يقول الامام ابن جرير الطبري : " ولاقول في ذلك أصح مما قال الله جلّ ثناؤه ، وهو ان يقال فداه الله بذبح عظيم ، وذلك ان الله عمّ وصفه إياه بالعظم دون تخصيصه فهو كما عمّه به "(٢) .

---

(١) انظر : تفسير ابن جرير الطبري ج٢٢ ص(٥٥ - ٥٦)؛ تفسير البيضاوي ج٥ص٩ ؛ تفسير القرطبي ج١٥ص١٠٧ .
(٢) تفسير ابن جرير الطبري : ج٢٢ ص٥٦ .

وتتمّ بنهاية هذه الآية قصة رؤيا ذبح اسماعيل عليه السلام ، ثم يجيء التعقيب عليها بذكر جزاء الله وفضله على أبي الانبياء عليه السلام (وتركنا عليه في الآخرين. سلام على إبراهيم . كذلك نجزي المحسنين . إنّه من عبادنا المؤمنين) أي أبقى الله عليه فيمن بعده الى يوم القيامة ثناءً حسناً جميلاً ، فما من امة إلا تصلي عليه وتحبه .

وكذا السلام عليه دائماً . وهذا السلام يحتمل عدة امور : فهو إما أمنة من الله في الارض لابراهيم أن لايذكر من بعده الا بالجميل من الذكر ، وإما سلامة له من الآفات . مثل قوله تعالى (سلام على نوح في العالمين) " الصافات ٧٩ " ، او تحية عليه من الله كقوله تعالى: (قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى) " النمل :٥٩ " . وكذلك يجزي الله من تابع ابراهيم عليه السلام في إحسانه وقوة ايمانه وإخلاصه(١) .

---

(١) انظر : تفسير ابن جرير الطبري ج٢٢ ص٥٧؛ تفسير القرطبي ج١٥ ص١١٢؛ تفسير عبد الرحمن السعدي ج٦ ص٣٩١ .

ثانياً : العبر والفوائد

١- العبر والفوائد من عرض الرؤيا على اسماعيل عليه السلام :

* في بداية الكلام عن العبر والفوائد لابد من بيان مسألة قد ترد على خاطر الكثير وهي : كيف يؤمر ابراهيم بذبح ولده وهو معصية والامر بالمعصية لايجوز ؟ ويردّ على هذا : أن المعاصي والطاعات ليست بأوصاف ذاتية للأعيان ، وانما الطاعات عبارة عما تعلق به الامر من الافعال ، والمعصية عبارة عما تعلق به النهي من الافعال، فلما تعلق الامر بذبح الولد اسماعيل من ابراهيم صار طاعة وابتلاءً، ولهذا قال تعالى: (إنّ هذا لهو البلاء المبين) في الصبر على ذبح الولد والنفس(١) .

* ولعل من الامر الملاحظ : ان التكليف بالذبح جاء عن طريق الرؤيا في المنام ولم يأت في حال اليقظة ، مع أن الله قادرٌ على ان يجعل ذلك في اليقظة!! ؛ وهذا - والله اعلم بمراده - لزيادة البلاء ، ولتكون مبادرتهما الى الامتثال ادلّ على كمال الانقياد والاخلاص لله تعالى(٢) .

* وفي عرض الرؤيا من ابراهيم على ابنه تظهر لنا شفقته ورحمته به ؛ اذ انه يخاطبه بكلمة (يابنيّ) التي توحي بالاهتمام بشأنه والمراعاة لشعوره ، ومما يهيء اسماعيل لتقبل مايعرضه عليه بكل سرور وترحيب .
ومع ان الموقف صعب وفصْل ولامجال للرفض ، ولكن لايمنع هذا كله ان يعتني ابراهيم بطريقة واسلوب العرض ، وكلاهما واقع به الابتلاء والمحنة .

* وفي قوله (فانظر ماذا ترى) زيادة في الرأفة وحسن العرض ، فانه لم يقل: له إني سأذبحك . بل عرض الامر على طريق المشاورة وأخذ الرأي .

---

(١) انظر : تفسير القرطبي ج١٥ ص(١١١-١١٢) .
(٢) انظر : تفسير البيضاوي ج٥ ص٩ .

وفي هذه المشاورة - ايضاً - تواضع من الاب لابنه . وهذا - لاشك - أنه من اساليب التربية الصحيحة ؛ اذ ان الاب بهذا الاسلوب يعطي ابنه ثقة في نفسه ويجعل له شخصيته القادرة على اتخاذ القرار المناسب .

ويذكر الفخر الرازي أن الحكمة في مشاورة ابراهيم عليه السلام لابنه هنا من اجل " ان يطلع ابنه على هذه الواقعة ليظهر له صبره في طاعة الله فتكون فيه قرّة عين لابراهيم حيث يراه قد بلغ في الحلم الى هذا الحدّ العظيم ، وفي الصبر على اشدّ المكاره الى هذه الدرجة العالية ، ويحصل للابن الثواب العظيم في الآخرة والثناء الحسن في الدنيا" (١) .

* وان المتأمّل في الظروف التي ورد فيها هذا الامر الرباني ليدرك -حقيقة- انما هو ابتلاء عظيم ؛ فقد بلغ اسماعيل اجمل سنّ واحبها الى والديه ، وهو في المرحلة التي يمكن الانتفاع به فيها ، وكذلك فهو وحيد ابويْه ، وابراهيم وهو في هذه السن الكبيرة قد يُظنّ أنه لاينجب بعدها ، فلنا ان نتصور - فقط - ان يؤمر الانسان بذبح فلذة كبده ووحيده !! . ولكن هذا كله لايقف في وجه الايمان الصادق، الذي لايجد امامه الا رضا الله تعالى .

ويتحدث سيد قطب - رحمه الله - عن هذا الموقف - فيما خلاصته - بما يلي: ياالله ويالروعة الايمان والطاعة والتسليم ... انه يلبي ويستجيب دون ان يعترض ودون ان يسأل ربه لماذا أذبح ابني الوحيد ؟! وانه لايلبي في انزعاج ، ولايستسلم في جزع ، ولايطيع في اضطراب ، وانما هو القبول والرضى والطمأنينة والهدوء ، ويبدو ذلك في كلماته لابنه وهو يعرض عليه الامر الهائل في هدوء واطمئنان عجيب (قال يابنيّ إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى) كلمات المالك لاعصابه ، المطمئن للأمر الذي يواجهه ، الواثق بأنه يؤدي واجبه ، وهي في الوقت ذاته كلمات المؤمن الذي لايهوله الامر فيؤديه في اندفاع وعجلة ليخلص منه

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي :ج٢٦ص١٥٦ .

ويتهي ، ويستريح من ثقله على أعصابه. والامر شاقّ مافي ذلك شك ، فهو لايطلب اليه ان يرسل بابنه الوحيد الى معركة ، ولايطلب اليه ان يكلفه امراً تنتهي به حياته، انما يطلب اليه ان يتولى هو بيده ذبحه ، وهو مع هذا يتلقى الامر هذا التلقي ويعرضه هذا العرض ، ويطلب اليه ان يتروّى في امره ، وان يرى فيه رأيه!
انه لايأخذ ابنه على غرّة لينفذ اشارة ربه وينتهي ، انما يعرض الامر عليه كالذي يعرض المألوف من الامر ؛ فالامر في حسّه هكذا . ربه يريد فليكن مايريد على العين والرأس ، وابنه ينبغي ان يعرف وان يأخذ الامر طاعة واستسلاماً لاقهراً واضطراراً لينال هو الآخر أجر الطاعة ، وليسلّم وليتذوّق حلاوة التسليم(١) .

* وتتضح لنا - هنا - حقيقة الايمان ، فانه ليس ادّعاءات ترددها الالسن ، وليس هو نظرية من النظريات يغوص العقل في كشف خفاياها ، انما هو الاندماج الكلّي في ارادة الله التي تتركّز في العمل بأوامره ، والتضحية بكل غال ونفيس في سبيله(٢) .
وهاهي ذي الطاعة والتسليم والتضحية تتجلى واضحة في هذا الموقف الجليل.
وان التضحية - بلاشك - لهي ارفع صور الايمان وأجلّها وأظهرها لحقيقة الايمان المتغلغل في النفوس المؤمنة الصادقة (أحسب الناس أن يُتركوا أن يقولوا آمنّا وهم لايُفتنون . ولقد فتنّا الذين من قبلهم فلَيعلمنّ الله الذين صدقوا وليعلمنّ الكاذبين) (٣) .

وما أحوجنا الى هذا الدرس في هذا الزمن الذي اصبح فيه المال والولد والزوجة يستأثرون بحب الانسان الذي آثرهم على كل شيء ، حتى اصبحوا معبودين له من دون الله ، يقدم رضاهم على رضا الله ولايبالي !!!

---

(١) انظر : في ظلال القرآن الكريم لسيد قطب ج٥ ص(٢٩٩٤-٢٩٩٥) .
(٢) انظر : مع الانبياء في القرآن الكريم لعفيف طبارة ص١٢٩ .
(٣) سورة العنكبوت : ٢ - ٣ .

وانه -لما- أحقر الانسان اذا تعلق بزينة الحياة الدنيا الفانية وترك الحقيقة الخالدة التي هي سبب وجوده ومصدر استمرار حياته ، وبيدها شقاوته او سعادته ولنتذكر قول الله عز وجل :

(المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملا) (١) .

٢- العبر والفوائد من موقف الابن المطيع :

* نقف هنا - مرة أخرى - مع صورة من صور التضحية في هذ القصة : صورة التضحية بالنفس في سبيل طاعة الله وطلب رضاه . وانها لأعلى الصور ، فما عند الانسان شيء هو اعزّ عليه من روحه وأغلى ، ولكن هاهو ذا اسماعيل يسلم روحه لله بدون ثمن سوى رضاه . وانها لقمة الايمان والشعور بأن روح الانسان انما هي امانة عنده لم يهبها هو لنفسه وانما وهبها الوهّاب سبحانه ، فهو المتصرف فيها متى شاء وأراد ، فلابد اذاً من تسليم الامانة اذا طلبها واهبها ومعطيها عز وجلّ .

وبلا تردد ولاتلجلج ولاتمحّل ولاسؤال قطّ ، وانما هي الاجابة الفورية بالقبول والرضا (ياأبت افعل ماتؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين) .. قبول المؤمن لامر الله ، ورضا الواثق بما عند الله من الاجر والثواب ، وإنها لاتساوي النفس شيئاً اذا كانت مانعة عن الوصول الى رضا الله .

* وبمناسبة ذكر صفة الرضا التي تحلّى بها اسماعيل عليه السلام نريد ان نبيّن -للفائدة- اهم ثمرات الرضا مما ذكره ابن القيم في مدارج السالكين وهي كما يلي:

---

(١) سورة الكهف : ٤٦ .

- إن الرضا يخلّص من الهم والحزن والغم وشتات القلب وكسف البال وسوء الحال والظن بالله ، ويوجب للانسان الطمأنينة وبرد القلب وسكونه وقراره .

- والرضا ينزل السكينة على العبد التي لاأنفع له منها ، ومتى نزلت السكينة استقام وصلحت أحواله وصلح باله .

- وهو يفتح باب السلامة ، فيجعل القلب نقياً من الغش والدّغل والغلّ .

- وهو يفتح باب اليقين في الله ، فيسلم الراضي من باب الشك في الله وقضائه وقدره ، وحكمته وعلمه .

- وإن من ملأ قلبه من الرضا بالقدر ، ملأ الله صدره غنىً وأمناً وقناعة وفرّغ قلبه لمحبته والانابة اليه والتوكل عليه .

- والرضا يثمر الشكر ، الذي هو من اعلى مقامات الايمان ، بل هو حقيقة الايمان.

- ثم إنّ الرضا يبعد الشيطان ؛ فإن الشيطان يظفر بالانسان غالباً عند السخط والشهوة .

- والرضا - كذلك - يخرج الهوى من القلب ، فالراضي هواء تبع لمراد ربّه منه ، فلايجتمع الرضا واتباع الهوى في القلب ابداً .

- والراضي واقف مع اختيار الله له ، معرض عن اختياره لنفسه .

- وأعظمها أن الرضا يوجب رضا الله عن صاحبه ، ورضا الله اكبر من الجنة ومافيها لأن الرضا صفة الله والجنة خلقه قال تعالى (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم) "التوبة٧٢" ، ولما كان هذا الجزاء افضل الجزاء كان سببه افضل الاعمال(١) .

---

(١) انظر : ابن قيّم الجوزية : مدارج السالكين بين منازل اياك نعبد وإياك نستعين ، تحقيق : محمد حامد فقي ، الطبعة الثانية ، ٢ ج (بيروت - لبنان: دار الكتاب العربي ، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م)ج٢ ص(٢٠٥ - ٢٢٠) ؛ عبد المنعم صالح العلي العزّي ، تهذيب مدارج السالكين (الامارات العربية المتحدة : وزارة العدل والشؤون الاسلامية والاوقاف) ص٢٧٦ - ٢٧٩ .

* واما ذكر اسماعيل لجملة (إن شاء الله) في قوله: (ستجدني إن شاء الله من الصابرين)؛ فانما أتى بها تبركاً، واشارة الى أنه لاحول له عن المعصية الا بعصمة الله، ولاقوة على الطاعة الا بمعونة الله وتيسيره (١).

وهذه هي الهمة المطلوبة ... الهمة المرتبطة بالحق سبحانه؛ اذ ان الهمة اذا تعلقت بالله طلباً صادقاً خالصاً محضاً، فتلك هي الهمة العالية التي لايقدر معها على المهلة، ولايتمالك صبره لغلبة سلطانها عليه، وشدة الزامها إياه بطلب المقصود وصاحب هذه الهمة سريع وصوله وظفره بمطلوبه (٢).

وهذا هو الادب مع الله من اسماعيل، ومعرفة حدود قدرته وطاقته في الاحتمال، والاستعانة بربه على ضعفه ونسبة الفضل اليه في اعانته على التضحية ومساعدته على الطاعة (٣).

* كما انه لما استثنى وفقه الله للصبر فكان من الصابرين وفي اعلى مقامات الصبر؛ اذ ان الصبر - كما ذكر الامام ابن القيّم - ثلاثة مقامات: صبر لله: رجاء ثوابه وخوف عقابه، وهو اعلاها، وصبر بالله، وصبر على احكامه.

والصبر لله فوق الصبر بالله واعلى درجة منه وأجلّ؛ لأن الصبر لله متعلق بالاهيته، والصبر به متعلق بربوبيته، وما تعلق بالاهيته اكمل واعلى مما تعلّق بربوبيته، ولأن الصبر له: عبادة، والصبر به: استعانة، والعبادة غاية والاستعانة وسيلة، والغاية مرادة لنفسها والوسيلة مرادة لغيرها، ولأن الصبر به مشترك بين المؤمن والكافر والبّر والفاجر، فكل من شهد الحقيقة الكونية صبر به. واما الصبر له فمنزلة الرسل والانبياء والصدّيقين واصحاب مشهد (إياك نعبد وإياك نستعين)، ولأن

---

(١) انظر: حاشية الصاوي على الجلالين ج٢ ص٢٤٢.
(٢) مدارج السالكين لابن قيّم الجوزيّة: ج٢ ص(٢ - ٤)؛ تهذيب مدارج السالكين للعزّي: ص٥٠٧.
(٣) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب ج٥ ص٢٩٩٥.

الصبر له : صبر فيما هو حق له ، محبوب له مرضيّ له . والصبر به قد يكون في ذلك وقد يكون فيما هو مسخوط له ، وقد يكون في مكروه او مباح فأين هذا من هذا؟

واما الصبر على احكامه ، فانه صبر على اقداره ، والصبر لله - لاشك - اعلى منه ؛ لأن الصبر على احكامه صبر ضرورة ، اما الصبر لله فيه اختيار وايثار ومحبة ، ولذلك كان صبر نوح وابراهيم وموسى وعيسى على مانالهم في الله باختيارهم ، ومقاومتهم قومهم : اكمل من صبر ايوب على مناله في الله من ابتلائه وامتحانه بما ليس مسبباً عن فعله .

وكذلك صبر اسماعيل الذبيح - هنا - ، وصبر ابيه ابراهيم عليهما السلام على تنفيذ امر الله اكمل من صبر يعقوب على فقد يوسف . فيعلم من هذا أن الصبر لله اعلى مقامات الصبر ، وحظي بهذا المقام اسماعيل وابراهيم عليهما السلام(١) .

* ومن صبره وحلمه عليه السلام - كذلك - أنه خاطب اباه في جوابه له بقوله : ياأبت ... بهذه الكلمة التي تحمل كل المودة واظهار القربى ؛ فشبح الموت لايزعجه ولايفزعه ولايفقده رشده ، بل لايفقده ادبه ومودته(٢) .

٢- العبر والفوائد من تحقيق الرؤيا والفداء :

* ويستوقفنا هذا المشهد الرائع الذي نشاهد فيه نبل الطاعة وعظمة الايمان وطمأنينة الرضا وراء كل ماتعارف عليه بنو الانسان .. نجد ابراهيم عليه السلام يكب ابنه على جبينه استعداداً والابن يستعلي بايمانه كأبيه فيستسلم ، فكلاهما قد اسلما ، وهذا هو الاسلام في حقيقته .. ثقة وطاعة وطمأنينة ورضى وتسليم .. وبعد ذلك تنفيذ . ولم يبق الا تنفيذ الذبح ، وفي هذه اللحظة الحاسمة يأتي النداء العلويّ بالايقاف لأن الغرض من التكليف قد ظهر وغايته

---

(١) انظر : مدارج السالكين لابن قيّم الجوزية ج٢ ص (١٥٧ - ١٧٠) ؛ تهذيب مدارج السالكين ص(٢٦٠ - ٢٦١) .
(٢) انظر في ظلال القرآن لسيد قطب ج٥ ص٢٩٩٥ .

قد تحققت ، ولم يعد الا الالم البدني والدم المسفوح والجسد الذبيح ، وهذا لايعني شيئاً في ميزان الله ، وهكذا .. فقد نجحا في الامتحان فلم يبق في النفس ماتكنّه عن الله او تعزّه عن امره او تحتفظ به دونه ، ويفدي الله هذه النفس التي اسلمت بكبش عظيم ، ومضت بذلك سنة النحر في الاضحى ، ذكرى لهذا الحادث العظيم الذي يرتفع منارة لحقيقة الايمان وجمال الطاعة وعظمة التسليم، والذي ترجع اليه الامة الاسلامية لتعرف حقيقة أبيها الذي تتبعه ، ولتعرف طبيعة العقيدة التي تقوم بها وعليها، وتتجه الى ربها كما اتجه في طاعة راضية واثقة ملبّية لاتسأل ربها لماذا؟ ولاتختار طريقاً سوى طريق طاعته ورضاه ، ولتعرف أن الله لايريد أن يعذبها بالابتلاء ولايؤذيها بالبلاء؛ انما يريد سبحانه ان تأتيه طائعة ملبية مستسلمة لاتقدم بين يديه ولاتتألى عليه، فاذا عرف منها الصدق اعفاها من التضحيات والآلام واحتسبها لها وفاءً وأداءً وأكرمها كما أكرم أباها(١) .

* ويستفاد من هذا الموقف : انه من يتق الله يجعل له من امر شدته مخرجاً ويفرّج عنه كربته ؛ اذ أن الخليل وابنه اسماعيل - عليهما السلام - كانا في قمة التقوى لله ، وقاما بما أمرا به بكل تسليم ، ففرج الله عنهما وجعل لهما من أمرهما مخرجاً .

وهذا مصداق قوله تعالى: (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لايحتسب ومن يتوكّل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً) (٢).

* مسألة في العقيدة :

إن في احد القولين المشهورين أن ابراهيم عليه السلام أمرّ السكين على حلق

---

(١) انظر : في ظلال القرآن لسيد قطب ج٥ ص (٢٩٩٥- ٢٩٩٧) .
(٢) سورة الطلاق : ٢-٣ .

ابنه فلم تعمل شيئاً بمانع من القدرة الالهية ، ومن هذا القول وغيره استُدلّ على انّ الامور العادية لاتؤثر شيئاً لابنفسها ولابقوة اودعها الله فيها ، وانما المؤثر هو الله تعالى . فتخلّف القطع بالسكين في ولد ابراهيم - عليه السلام - كما تخلّف الاحراق بالنار في ابراهيم عليه السلام، وكما تخلّفت سيولة الماء عند انفلاق البحر لموسى عليه السلام(١) .

* مسألتان في اصول الفقه :

(أولهما) - إن قصة الذبيح تؤيد احد القولين المشهورين عند اهل الاصول في حكمة التكليف ؛ هل هي للامتثال فقط ، أم هي مترددة بين الامتثال والابتلاء ؛ لأنه قد بين الله في هذه الحادثة أن حكمة تكليفه لابراهيم بذبح ولده ليست هي امتثاله ذلك بالفعل ، لأنه لم يرد ذبحه كوناً وقدراً ، وانما حكمة تكليفه بذلك مجرّد الابتلاء والاختبار ، هل يصمّم على امتثال ذلك ام لا ؟ كما صرّح بذلك في قوله: (إن هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم) فتبين لنا بهذا أن التحقيق في هذه المسألة: أن حكمة التكليف مترددة بين الامتثال والابتلاء(٢) .

(وثانيها) - أنه يصح النسخ قبل التمكن من الفعل ، فان الله تعالى شرع لابراهيم عليه السلام ذبح ولده ثم نسخه عنه وصرفه الى الفداء . وخالفت طائفة من المعتزلة في هذه المسألة ، وحججهم ظاهرة البطلان لاداعي لذكرها والاطالة فيها(٣) .

---

(١) انظر : حاشية الصاوي على الجلالين ج٣ ص٣٤٢ .
(٢) انظر : اضواء البيان للشنقيطي ج٦ ص (٦٩٣ - ٦٩٤) .
(٣) انظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٤ ص١٦ ؛ محمد الامين بن محمد المختار الشنقيطي ، مذكرة اصول الفقه على روضة الناظر (المدينة المنورة: المكتبة السلفية) ص٧٢ .

* مسائل فقهية :

* استدلّ بقوله تعالى: (وفديناه بذبح عظيم) على أن من نذر أن يذبح ولده تلزمه شاة ؛ وذلك لأن الله تعالى جعل ذبح الولد عبارة عن ذبح الشاة شرعاً، فألزم الله ابراهيم ذبح الولد وأخرجه عنه بذبح شاة . وبذا قال الامام ابوحنيفة والامام مالك ، أما الشافعي فقال : لاشيء عليه بل يستغفر الله لأنها معصية، واما الامام احمد : ففي رواية عنه ألزم عليه كفارة يمين ، وفي رواية اخرى كقول أبي حنيفة ومالك عملاً بفداء ولد ابراهيم عليه السلام (١) .

* وانه بمناسبة هذه الحادثة التي سنّ الله بها الأضحية نودّ أن نشير الى اهم الاحكام المتعلقة بالاضحية ولكن دون الاطالة والبحث في اوجه الخلاف وغيرها مما لايسعه مجال بحثنا؛ اذ أن هذا محله في كتب الفروع الفقهية ، ومن اهم هذه الاحكام مايلي:

- حكمها سنة مؤكدة . وهو قول الجمهور .
- والذي يضحّى به بالاجماع : الازواج الثمانية : وهي الضأن والمعز والابل والبقر ، وافضل مايضحّى به منها عند الامام مالك : الضأن ثم البقر ثم الابل ؛ نظراً لطيب اللحم ، ولأن النبي صلى الله عليه وسلم ضحّى بكبشين ولايفعل الا الافضل ، ولو علم الله خيراً منه لفدى به اسماعيل .
- وذهب اكثر العلماء الى أنه يستحب ان يتصدق الرجل بثلث الاضحية ، ويطعم الثلث ، ويأكل هو وأهله الثلث لقوله تعالى (فكلوا منها وأطعموا القانع والمعترّ) .

---

(١) انظر : الجامع لاحكام القرآن للقرطبي ج١٥ ص(١١١ - ١١٢) ؛ وهبة الزحيلي ، الفقه الاسلامي وادلته ، الطبعة الثانية ، ٨ج (دمشق : دار الفكر، ١٤٠٥هـ) ج١ ص٤٨٥ .

- واختلف العلماء في وقت الذبح يوم النحر فقال مالك : بعد صلاة الامام وذبحه الا ان يؤخر تأخيراً يتعدى به فيسقط الاقتداء به ، وراعى ابوحنيفة الفراغ من الصلاة دون ذبح الامام ، والشافعي راعى دخول وقت الصلاة ومقدار ماتوقع فيه الخطبتين ، فاعتبر الوقت دون الصلاة . ولكن لاخلاف بينهم في أنه لايجزئ ذبح الاضحية قبل طلوع الفجر من يوم النحر .

- واما الايام التي ينحر فيها - على الراجح - ثلاثة : يوم النحر ويومان بعده . قال بهذا الجمهور ، والشافعي يرى أنها أربعة: يوم النحر وثلاثة بعده (١) .

- ونذكر اخيراً صفات الحيوان المضحّى به : فصفات الأضحية ثلاثة انواع : مستحبة ، ومانعة الاجزاء ، ومكروهة .

اما المستحبة بالاتفاق : فهي ان يكون كبشاً سميناً أقرن أملح (أبيض) فحلاً ، والسبب في استحبابها هو انها صفات لأضحية النبي صلى الله عليه وسلم .

واما الصفات المانعة الاجزاء فهي أربعة بالاتفاق : العور البيّن ، والمرض البيّن ، والعرج ، والعجف (الهزال) ، وأضاف الفقهاء عيوباً أخر بالقياس على هذه الأربعة هي في معناها او أقبح منها ، كالعمى وقطع الرجل وغيرها .

واما الصفات المكروهة : فقال الفقهاء : الشرقاء (المشقوقة الاذن)، الخرقاء (التي يخرق اذنها الوسم)، والمدابَرة (التي يقطع شيء من مؤخر اذنها)، والمقابَلة (التي يقطع شيء من مقدم اذنها)، والمجزوزة (التي جزّ صوفها قبل الذبح لينتفع به)، والحولاء (التي في عينها حول). وهذا ماكرهه الحنفية، وعندالمالكية اضافوا العضباء (الناقصة الخلقة او المكسورة القرن)، والتي كسرت بعض اسنانها لكبر ونحوه، وعند الشافعية : الجلحاء (وهي التي لم يخلق لها قرن) ، والقصماء (التي انكسر غلاف قرنها) (٢) . والله اعلم .

---

(١) انظر : الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج١٢ ص(٤٢-٤٧) ، ج١٥ ص(١٠٧-١١٠) .

(٢) انظر الفقه الاسلامي وأدلّته لوهبة الزحيلي ج٢ ص(٦١٧-٦٢٤) .

المطلب الرابع : قصـة بناء الكعبـة

اولاً - بيـان القصة :

في هذه القصة الكريمة تظهر لنا مشاركة اسماعيل لابيه ابراهيم - عليهما السلام- المشاركة بكل وجوهها الحسية والمعنوية . وهذا مانشاهده من خلال الآيات الكريمة التالية :

(وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا الى إبراهيم وإسماعيل أن طهّرا بيتي للطائفين والعاكفين والركّع السجود . وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتّعه قليلاً ثم أضطرّه إلى عذاب النار وبئس المصير . وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمَيْن لك ومن ذريتنا أمّة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكّيهم إنك أنت العزيز الحكيم)(١) .

أمّا بياننا لهذه القصة ومعالجتنا لها يتضح عبر الفقرات الآتية :

١- الأمـر بالبنـاء :

لقد ورد أن الكعبة بحيال البيت المعمور ، وكذا معابد السماوات السبع . قال بعض السلف : إن في كل سماء بيتاً يعبد الله فيه أهل كل سماء ، وهو فيها كالكعبة لأهل الارض ، فأمر الله ابراهيم - عليه السلام - أن يبني له بيتاً يكون لأهل الارض كتلك المعابد لملائكة السماوات(٢) .

---

(١) سورة البقرة :١٢٥ - ١٢٩ .

(٢) انظر : قصص الانبياء لابن كثير ج١ ص(١٤٩ - ١٥٠) .

وهذا الأمر من الله كما جاءت الاشارة إليه في القرآن جاء كذلك في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي سبق وأن ذكرنا جزءاً منه - وفيه أنه صلى الله عليه وسلم قال - مخبراً عن إبراهيم عليه السلام - : ".. ثم لبث عنهم -أي عن اسماعيل واهله - ماشاء الله ، ثم جاء بعد ذلك واسماعيل يبري نبلاً له تحت دوحة قريباً من زمزم ، فلما رآه قام اليه وصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد . ثم قال : يااسماعيل إنّ الله أمرني بأمر . قال : فاصنع ماأمرك ربك .قال : وتعينني - وفي رواية أنّه قال له : إنّ الله قد أمرني أن تعينني عليه - فقال له : واعينك - إذن أفعل - . قال : فان الله أمرني أن أبني ههنا بيتاً ، وأشار الى أكمة مرتفعة على ماحولها .. الحديث" (١) .

ويتضح لنا هنا شيئان :

الأول : الاستجابة من إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام لأمر الله .

الثاني: انّ قول إبراهيم عليه السلام :"فانّ الله أمرني أن ابني ههنا بيتاً وأشار إلى أكمة مرتفعة على ماحولها .." . يشير إلى انّ الله قد أرشد نبيه إبراهيم إلى مكان البيت الذي يريد بناءه ودليل هذا أيضاً قوله تعالى: (وإذ بوّأنا لإبراهيم مكان البيت ..الآية) (٢) ، أي عيّنا له محلّه. وقد استدل بهذه الآية كثير ممن قال : انّ إبراهيم أوّل من بنى البيت العتيق وأنه لم يبن قبله ، ويؤيد قولهم ماثبت في الصحيح عن أبي ذر رضي الله عنه أنّه قال : قلت : يارسول الله أيّ مسجد وضع في الأرض أوّل ؟ قال : المسجد الحرام . قلت ثم أي ؟ قال المسجد الأقصى .قلت : كم كان بينهما ؟ قال : أربعون سنة ...الحديث(٣) . ومصداق هذا قوله تعالى: (إنّ أوّل بيت وضع للناس للّذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين) (٤) .

---

(١) رواه البخاري : كتاب الانبياء ، حديث رقم (١٦٦) ج٤ ص(٢٨٢-٢٨٦) ، الرواية الاخرى حديث (١٦٧) ج٤ ص٢٨٧ .

(٢) سورة الحج : ٢٦ .

(٣) رواه البخاري : كتاب الانبياء ، حديث رقم(١٦٨) ، ج٤ص٢٨٨ .

(٤) سورة آل عمران :٩٦ .

ويقول ابن كثير - فيما خلاصته - : لم يجئ في خبر صحيح عن معصوم أنّ البيت كان مبنياً قبل الخليل عليه السلام ، ومن تمسك في هذا بقوله (مكان البيت) فليس بناهض ولاظاهر ؛ لأن المراد مكانه المقدر في علم الله . وما ورد من طواف الملائكة حوله ، وطواف سفينة نوح اربعين يوماً حوله وغير ذلك ، فان كل هذا مأخوذ من اخبار بني إسرائيل ، ومقرّر أنّ أخبارهم لاتصدق ولاتكذّب فلا يحتج بها ، وإذا ردها الحق فهي مردودة ، وقد ذكرنا الآيات والاحاديث الصحيحة التي تردّ على ذلك - والحمد لله - فالصحيح كما قال الله بأنه اول بيت وضع للناس لعبادتهم ونسكهم يطوفون حوله ويصلون به ويعتكفون عنده، ومن بناء إبراهيم وابنه إسماعيل ، ومثل هذا ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم(١) .

٢- تنفيذ الامـــر :

وبعد اتفاق التعاون بين الاب وابنه عليهما السلام شرعا في تنفيذ أمر الله (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك انت السميع العليم) ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في تتمة الحديث السابق الذكر: "... فعند ذلك رفعا القواعد من البيت ، فجعل اسماعيل يأتي بالحجارة وابراهيم يبني ، حتى اذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه ، وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان : (ربنا تقبل منا إنك انت السميع العليم) قال : فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان (ربنا تقبل منا ..الآية)"(٢) ، وفي الرواية الاخرى قوله : " حتى اذا ارتفع البناء وضعف الشيخ عن نقل الحجارة فقام على حجر المقام فجعل يناوله الحجارة ويقولان : (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم)"(٣) .

---

(١) انظر : قصص الانبياء لابن كثير ج١ ص١٥٠ ؛ تفسير القرآن العظيم لابن كثير ص٢٨٣ .

(٢) رواه البخاري : كتاب الانبياء ، حديث (١٦٦) ، ج٤ ص٢٨٧ .

(٣) رواه البخاري : كتاب الانبياء ، حديث (١٦٧) ، ج٤ ص٢٨٨ .

وأما القواعد فهي جمع قاعدة ، وهي الاساس والاصل لما فوقه وهي صفة غالبة ومعناها الثابتة ، ورفع الاساس البناء عليها ؛ لأنها اذا بني عليها نقلت من هيئة الانخفاض الى هيئة الارتفاع وتطاولت بعد التقاصر(١) .

وهما - كما هو ملاحظ - لاينفكان من الدعاء لله بتقبل ماهما فيه من طاعته .. يرجوان الله أن يتقبل منهما ويخافان أن لايثابا على عملهما وأن لايرضى الله عنهما به!!!

وإنه لمشهد عظيم يذكره الله في كتابه تاريخاً وعبرة للناس أجمعين : لأنه مشهد بناء بيته الدالّ على عظمته وحرمته ، وخضوع الجميع له سبحانه بكل ذلّة وإنابة .

ومما يظهر لنا هنا - أيضاً - حكمة الله عز وجل في أمره إبراهيم -من قبل- بحمل ولده وزوجه إلى هذا الوادي : وهي ماأراده الله عز وجل من بناء بيته في هذا المكان ، والذي جعل من بعد قبلة للمسلمين في عهد خاتمة الرسالات وفي زمن أفضل الأنبياء والمرسلين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .

ونُفّذ الأمر الرباني ، ولكن بقيت هناك اشياء في نفسَيْ الخليل وابنه عليهما السلام ترويها لنا الفقرة التالية :

٢- الدعـاء الخاشـع :

ويدعوان - عليهما السلام - بدعاء خاشع جليل ، امتدّ اثر استجابته الى الاجيال كلها ويبقى الى قيام الساعة ووجود الموحدين لرب العالمين .

وأوّل جمل هذا الدعاء قولهما : (ربنا واجعلنا مسلِمَيْن لك ومن ذريتنا أمّة مسلمة لك) فطلبا أولا أن يجعلهما الله مسلمين له ، وطلب الاسلام منهما مع أنّهما مسلمان إنّما هو طلب للثبات على الاسلام ، والمعنى أنّهما يرجوان من الله أن يجعلهما مستسلمين لأمره خاشعين لطاعته لايشركان معه في الطاعة أحداً سواه ولافي العبادة غيره دوام حياتهما .

---

(١) تفسير النسفي: ج١ ص٧٤ .

ثم خصا بعض الذرية بما خصا به ذواتهما (ومن ذريّتنا أمّة مسلمة لك) ، وإنّما خصا بعض الذرية لاجميعهم ؛ لأنّ الله قد أعلم إبراهيم أنّ من ذريته من لاينال عهده لظلمه وفجوره (١) .

وثاني جمل هذا الدعاء قولهما (وأرنا مناسكنا) وذلك أنّ الله أمر خليله بدعوة الناس للحج فقال: (وأذّن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق) (٢) فطلبا منه - عقب هذا الأمر - أن يعرّفهما مناسك الحج حتى يبلغوها الناس . فاستجاب الله دعاءهما وأوضح لهما مناسك الحج ، حيث قيل: إنّ جبريل عليه السلام أرى إبراهيم المناسك كلها(٣) . وجميع الأجيال - من بعده وإلى ماشاء الله - متعبّد لله بهذه المناسك .

وثالثها : قولهما: (وتب علينا إنّك أنت التواب الرحيم) ، فهما يطلبان التوبة من الله ، وهما اذ يطلبانها لالذنوب ارتكباها بل هما معصومان ؛ وانما قد يكون ذلك لتركهما الاوْلى وحسنات الابرار سيئات المقربين . وقد يقصدان بدعائهما التوبة على الظلمة من اولادهما وذريتهما ، فيكون ظاهر الكلام الدعاء لنفسيهما والمعنيّ به ذريتهما. أو لعلّ قولهما هذا ليكون سنة يقتدي بها من جاء بعدهما ، فتتخذ الناس تلك البقعة الطاهرة موضع تنصّل من الذنوب وتوبة إلى الله(٤) . والله أعلم.

ثم ختما دعاءهما بخير ختام (ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكّيهم إنّك أنت العزيز الحكيم) .

يقول ابن جرير الطبري موضحاً هذه الخاتمة العظيمة - فيما خلاصته - :

---

(١) انظر : تفسيرابن جرير الطبري ج١ ص٤٣٢ .
(٢) سورة الحج :٢٧ .
(٣) انظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج١ص١٨٤ .
(٤) انظر : تفسير ابن جرير الطبري ج١ ص(٤٣٢- ٤٣٥) .

وهذه دعوة ابراهيم واسماعيل عليهما السلام لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم خاصة، وهي الدعوة التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول عنها: "أنا دعوة إبراهيم وبشرى عيسى عليهما السلام ، ورأت أمّي حين حملت بي أنّه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام .. الحديث" (١).

كما شملت هذه الدعوة صفات هذا النبي الكريم وأولها - (يتلو عليهم): أي يقرأ عليهم كتابك الذي توحيه اليه .

وثانيها - (ويعلمهم الكتاب والحكمة) : والكتاب هو القرآن الكريم ، أمّا الحكمة فاختلف فيها ؛ فقال قتادة : هي السنة ، وقال بعضهم : هي المعرفة بالدين والفقه فيه واتباعه ، وقال ابن زيد: الحكمة الدين الذي لايعرفونه إلا به يعلمهم إياها .

وثالثها - (ويزكيهم) : والتزكية - هنا - التطهير من الشرك بالله وعبادة الاوثان ، والتنمية بالخير والاكثار بطاعة الله . وقولهما: (إنّك أنت العزيز الحكيم) -في نهاية هذا الدعاء العظيم- مشير إلى مايختلج به قلباهما من التضرع والخشوع لله وكأنهما يقولان : إنك يارب انت العزيز القوي الذي لايعجزه شيء أراده ؛ فافعل بنا وبذريتنا ما سألناه وطلبناه منك ، وانت الحكيم الذي لايدخل تدبيره خلل ولا زلل فأعطنا ماينفعنا وينفع ذرياتنا ولاينتقصك ذلك ولاينقص خزائنك سبحانك (٢).

وهكذا تمّت القصة بهذا الدعاء الخاشع الذي نعيش من خيره الذي جعله الله فيه ..

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين : ج٢ ص٦٠٠ ، وقال عنه: صحيح الاسناد ، ووافقه الذهبي على حكمه هذا ، وله شاهد يقوّيه . وصححه الالباني في سلسلة الاحاديث الصحيحة : ج٤ حديث رقم (١٥٤٥) .

(٢) أنظر : تفسير ابن جرير الطبري ج١ ص(٤٢٥ - ٤٢٦) .

ثانياً : العبر والفوائد

١- العبر والفوائد من قوله تعالى: (وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) .

* ان من اجمل الاحوال واحسنها ان يكون الاب والابن كلاهما يجتهدان في طاعة الله ونيل رضاه ، وهذا مانلاحظه في قصة بناء الكعبة ؛ فإنّ الخليل عليه السلام يقول لابنه اسماعيل : إن الله قد امرني ان تعينني فيه . فيقول : اذن افعل . بلاسؤال ولاتردد ولاهروب من الطاعة .
والأب إبراهيم عليه السلام قد أعطى القدوة الصالحة لابنه - من قبل - في طاعة الله وبذل الغالي والرخيص في سبيل مرضاته ، وهاهو ذا الابن قد تربى على هذا المنهج الأبوي الكريم .. قد أعطاه القدوة في مراحل شتّى من حياته : حين تركه وأمه في واد غير ذي زرع تلبية لأمر الله ، وحين جاءه برؤيا ذبحه فأراد ذبحه منقاداً مختاراً طاعة الله لايقدم شيئاً عليها !! وإنها للقدوة التي تربي وتغرس القيم العليا غرساً .

ولايفوتنا في هذا المقام أن نشير الى أن تربية الابناء على طاعة الله إنّما تكون اولاً بالقدوة الصالحة الماثلة امامهم ، فالقدوة هي انجح وسائل التربية الفاضلة التي تؤثر في تكوين الولد إسلامياً .
والابناء مهما كان استعدادهم للخير قوياً ، ومهما كانت فِطَرهم نقية سليمة فإنهم لن يستجيبوا لمبادئ الخير وأصوله مالم يروا مربيهم في ذروة الالتزام بمنهج الله -الا من رحم الله- .
ولعلّ أعظم الانحرافات الخلقية التي نجدها في مجتمعاتنا اليوم من قِبَل ابناء المسلمين إنّما هي نتيجة فقدان القدوات الصالحة المربية .

* وانه ليخشع القلب وهو يتصور ابراهيم واسماعيل - عليهما السلام - وهما يقومان بهذا العمل الجليل .. بناء بيت الله في الارض ، وإنّه لشرف عظيم لهما من الله ، وإنها لمنزلة عالية رفيعة لهما عند الله ؛ أن كلفهما ببناء بيته ولم يكلّف غيرهما ممن سبق أو لحق .

وإن القلم ليعجز عن وصف هذا الحدث العظيم بكل مافيه من مظاهر العظمة والجلال والتوحيد لله ، وما فيه من الشعور بالخضوع والتذلل والرهبة بكل معانيها، وحق لهما - عليهما السلام - وهما في هذا الموقف أن يبتهلا ويدعوا ربهما ، فإن لم يكن الدعاء في هذا الموقف فأين يكون !! وحُقّ لهما أن يخافا ألّا يقبل منهما عملهما هذا وهما في هذا الامر الجليل والمشهد العظيم .

* وإنّها لدرجة عظيمة تلك التي يعمل فيها الانسان العمل الصالح وهو يخاف أن لايتقبل منه ، وهذا كما حكى الله عن حال المؤمنين الصادقين في قوله: (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة انهم الى ربهم راجعون)(١) . اي يبذلون ويتقربون الى الله ثم يخافون ان لايتقبل منهم .
يقول الشهيد سيد قطب واصفاً هذه الحالة: "...هم يأتون من الطاعات مااستطاعوا، ولكنّهم بعد هذا كلّه (يؤتون ماآتوا وقلوبهم وجلة) لإحساسهم بالتقصير في جانب الله ، بعد ان بذلوا مافي طوقهم ، وهو في نظرهم قليل. وعن عائشة رضي الله عنها انها قالت : يارسول الله (الذين يؤتون ماآتوا وقلوبهم وجلة) هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر ، وهو يخاف الله عز وجّل ؟ قال :" لايابنت الصديق ! ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق وهو يخاف الله عز وجلّ "(٢) .
إنّ قلب المؤمن يستشعر يد الله عليه ، ويحسّ آلاءه في كل نفس وكل نبضة... ومن ثم يستصغر كل عباداته ، ويستقل كل طاعاته ، الى جانب آلاء الله ونعمائه.
كذلك هو يستشعر بكل ذرة فيه جلال الله وعظمته ، ويرقب بكل مشاعره يد الله في كل شيء من حوله .. ومن ثم يشعر بالهيبة ، ويشعر بالوجل ، ويشفق أن

---

(١) سورة المؤمنون : ٦٠
(٢) رواه الترمذي : كتاب تفسير القرآن ، باب (٢٤) ، حديث (٣١٧٥)؛ رواه ابن ماجه : الزهد ، باب (٢٠) ، حديث (٤١٩٨) . (دار الفكر تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي).

يلقى الله وهو مقصر في حقه ، لم يوفه حقه عبادة وطاعة ولم يقارب أياديه عليه معرفة وشكراً "(١).

ومن جهة اخرى فان هذا الشعور دليل على الاخلاص ، إذ أنّ من الاخلاص خجل المؤمن من عمله ، وهو شدة حيائه من الله ، إذ لم ير ذلك العمل صالحاً له مع بذل مجهوده فيه ، فهو قد جمع احساناً في مخافة ، وسوء ظن بنفسه .(٢)

* إنّ طلب القبول من الخليل وابنه يدلّ علىأنّ بناءالمساجد قربة لله عز وجلّ؛ لأن القبول يتضمن الاجر والثواب من الله (٣) ، ويدل على هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم " من بنى مسجداً لله بنى الله له بيتاً في الجنة "(٤) .

وفي هذا الحديث حثّ على بناء المساجد وأنه من أعظم القربات الى الله تعالى.

* فائدة بلاغية :

في قوله: (وإذ يرفع) ورد التعبير بصيغة المضارع حكاية عن الماضي، ولذلك وجه معروف في محاسن البيان ، وهو استحضار الصورة الماضية وكأنّها مشاهدة بالعيان، فكأن السامع ينظر ويرى الى البنيان وهو يرتفع والبنّاء هو إبراهيم وإسماعيل(٥).

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج٤ ص٢٤٧٢.

(٢) انظر : مدارج السالكين لابن قيم الجوزية ج٢ ص٩٥ . او تهذيب المدارج للعزي ص٢٢٤ .

(٣) انظر : ابوبكر احمد بن علي الرازي الجصاص الحنفي ، احكام القرآن، الطبعة الاولى ، ٣ج (لاهور باكستان : نشر سهيل اكيديمي) ج١ص٨١.

(٤) رواه البخاري : كتاب الصلاة ، باب من بنى مسجداً ، حديث (١١٠) ، ج١ ص١٩٥؛ ورواه مسلم: كتاب المساجد، حديث (٢١) ، ج٢ص١٦٥.

(٥) محمد علي الصابوني ، صفوة التفاسير ، الطبعة الرابعة ، ٣ج (بيروت: دار القرآن الكريم ، ١٤٠٢ هـ /١٩٨١ م) ج١ص٩٥.

٢- العبر والفوائد من دعائهما عليهما السلام :

* ان في دعائهما -(ربنا واجعلنا مسلمين لك)- مايدل على كمال سعادة ماهما فيه ، فانّ كمال سعادة العبد أن يكون مسلماً لأحكام الله تعالى وقضائه وقدره ، وأن لايكون ملتفتاً إلى أحد سواه سبحانه .
وهذه هي السعادة الحقيقية التي شمّر اليها المشمرون حتى ينالوها ، فالمؤمن الصادق هو الذي يجد سعادته في طاعة الله ، والاخلاص له في كل شيء وعدم التوجّه إلى أحد سواه .

* وقد دعوا لذريتهما ، والدعاء للأولاد هو من الصفات التي مدح الله بها عباده ، حيث ذكرها سبحانه في تعداده لصفات عباد الرحمن فقال تعالى: (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرّة أعين واجعلنا للمتقين إماماً)(١).
فعباد الرحمن يرجون أن تعقبهم ذرية تسير على نهجهم فتقرّ بهم أعينهم ، وتطمئن بهم قلوبهم ، ويتضاعف بهم عدد " عباد الرحمن " ، وهذا شعور فطري ايماني عميق ..شعور الرغبة في مضاعفة السالكين في الدرب إلى الله . وفي أولهم الذرية والازواج ، فهم أقرب الناس تبعة ، وهم أول أمانة يسأل عنها الرجال .
وهي الرغبة كذلك في أن يحسّ المؤمن إنّه قدوة للخير يأتم به الراغبون في الله ، وكذلك ذريته(٢).
وهكذا.. فان المسلم الحق ينظر لمصلحته ومصلحة الآخرين من أبناء أمّته ، فهو لايريد صلاح أولاده لنجاتهم هم فقط ، ولكن ليصلح بهم غيرهم وينجو معهم أيضاً.

* ويقول الشهيد سيد قطب حول دعائهما (ومن ذريتنا أمّة مسلمة لك ..): "ثم هو طابع الأمّة المسلمة .. التضامن ..تضامن الأجيال في العقيدة (ومن ذريتنا أمّة مسلمة لك) وهي دعوة تكشف عن اهتمامات القلب المؤمن ، إنّ أمر العقيدة هو

---

(١) سورة الفرقان :٧٢ .
(٢) انظر : في ظلال القرآن لسيد قطب ج٥ ص(٢٥٨٠ - ٢٥٨١) .

شغله الشاغل ، وهو همّه الأول ، وشعور إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بقيمة النعمة التي أسبغها الله عليهما .. نعمة الايمان .. تدفعهما إلى الحرص عليها في عقبهما، وإلى دعاء الله ربهما الا يحرم ذريتهما هذا الانعام الذي لايكافئه إنعام. لقد دعوا الله ربهما أن يرزق ذريتهما من الثمرات ولم ينسيا أن يدعواه ليرزقهم من الايمان ، وأن يريهم جميعاً مناسكهم ، ويبيّن لهم عباداته ، وأن يتوب عليهم ؛ بما إنّه هو التواب الرحيم" (١) .

* ومن دعائهما كانت أعظم النعم وهي بعثة رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي بعثه الله رحمة للعالمين وكان خاتم رسله وخيرهم على الاطلاق .

وتحققت هذه الدعوة وفق قدر الله وتدبيره بنصها الذي تعيده سورة الجمعة هنا لتذكّر بحكاية ألفاظ إبراهيم عليه السلام . يقول تعالى:

(هو الذي بعث في الأمّيين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين . وآخرين منهم لمّا يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم) (٢) .

كما قال إبراهيم!! حتى صفة الله في دعاء ابراهيم (إنّك أنت العزيز الحكيم) هي ذاتها التي تعقّب على التذكير بمنّة الله وفضله في سورة الجمعة (وهو العزيز الحكيم) (٣) .

ومن نعمة الله على هذه الأمّة - أيضاً - أن كان هذا الرسول منهم لامن غيرهم، وذلك لوجوه :

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب : ج١ ص(١١٤ - ١١٥) .
(٢) سورة الجمعة : ٢-٣ .
(٣) انظر : في ظلال القرآن لسيد قطب ج٦ ص٣٥٦٥ .

أحدها - ليكون محلهم ورتبتهم في العزّ والدين أعظم ؛ لأن الرسول والمرسل إليه إذا كانا معاً من ذريته كان أشرف لطلبته اذا أجيب إليها .

وثانيها - أنّه إذا كان منهم فإنهم يعرفون مولده ومنشأه ، فيقرب الامر اليهم في معرفة صدقه وأمانته .

وثالثها - إنّه إذا كان منهم كان أحرص الناس على خيرهم وأشفق عليهم من الأجنبيّ لو أرسل إليهم (١).

وهذا ماشاهدنا آثاره جليّة واضحة في سيرة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

* ومن البلاغة القرآنية - هنا - نقول :

إنّ تكرار النداء بقوله (ربنا) فيه إظهار الضراعة إلى الله ، وإظهار أنّ كلّ دعوة من هذه الدعوات مقصودة بالذات ؛ ولذلك لم يكرر النداء إلا عند الانتقال من دعوة الى اخرى ، فان الدعوة الاولى لتقبل العمل ، والثانية لطلب الاهتداء والثبات ، والثالثة لطلب تمام الهداية ببعثة الرسول في ذريتهما(٢). والله أعلم .

---

(١) انظر : التفسير الكبير للفخر الرازي ج٤ ص٦٥.

(٢) انظر : التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ج١ص(٧١٩-٧٢٢) .

المبحـث الثانـي
" ابراهيـم عليـه السلام مع ابنه اسحاق "

وفيه مطلب واحد وهو : "قصة البشرى باسحاق"

أولاً - بيان القصّة :

تحدث القرآن الكريم عن هذه البشرى في ثلاثة مواضع :

- في سورة هود بقوله :(ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا سلاماً قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ . فلما رأى أيديهم لاتصل اليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لاتخف إنا أرسلنا الى قوم لوط . وامرأته قائمة فضحكت فبشّرناها باسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب . قالت ياويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب . قالوا أتعجبين من أمر الله رحمت الله وبركاته عليكم اهل البيت إنه حميد مجيد)(١) .

- وفي سورة الحجر بقوله :(ونبئهم عن ضيف ابراهيم . اذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال إنا منكم وجلون . قالوا لاتوجل إنا نبشّرك بغلام عليم . قال أبشّرتموني على أن مسّني الكبر فبم تبشّرون . قالوا بشّرناك بالحق فلا تكن من القانطين. قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون)(٢) .

- وآخرها في سورة الذاريات بقوله :(هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً .قال سلام قوم منكرون . فراغ الى أهله فجاء بعجل سمين . فقربه إليهم قال ألا تأكلون . فأوجس منهم خيفة قالوا لاتخف وبشّروه بغلام عليم . فأقبلت امرأته في صرّة فصكّت وجهها وقالت عجوز عقيم . قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم)(٣) .

---

(١) سورة هود : ٦٩ - ٧٣ .
(٢) سورة الحجر : ٥١ - ٥٦ .
(٣) سورة الذاريات : ٢٤ - ٣٠ .

وسنتاول هذه القصة بفقرات متسلسلة - تبين مجرياتها عبر هذه الآيات الكريمة- وهي كما يلي :

١ - ضيافة ابراهيم للملائكة:

يخبرنا الله - تبارك وتعالى - عن مجيء ملائكته الكرام الى ابراهيم لتبشيره باسحاق في قوله :(ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى ..الآية) ، وأكّد الله هذا الخبر بحرف (قد) ؛ للاهتمام به . ثم يحكي الله لنا انهم حين دخلوا عليه حيّوه فقالوا له : (سلاماً) ، فرد عليهم بتحية افضل من تحيتهم حيث قال لهم: (سلام) (١) ووجه أفضليتها أنّه قالها بالرفع ، والرفع يدل على الثبوت والدوام ، وهذا على حدّ قوله تعالى : (وإذا حيّيتم بتحيّة فحيوا بأحسن منها أو ردوها... الآية) (٢) .

وعندما دخلوا عليه لم يعرفهم ، وأبان لهم ذلك في رده على تحيتهم كما في آية الذاريات : (قال سلام قوم منكرون) ؛ اذ لم يخبروه بدايةً عن حالهم ومن هم؟ ، ولكن لم تهمه هذه القضية وأسرع في إحضار الطعام إكراماً لهم : (فما لبث أن جاء بعجل حنيذ) وفي آية الذاريات (فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين) . وكلا التعبيرين : مالبث - فراغ(٣) ، تدل على إسراعه في إحضار الطعام، فراغ:

---

(١) قرأ حمزة والكسائي : (سلم) بكسر السين وإسكان اللام من غير الف فيهما ، وقرأ الباقون بفتح السين واللام والف بعدها .(انظر : محمد بن محمد الدمشقي الشهير بابن الجزري، النشر في القراءات العشر، ٢ج (بيروت - لبنان : دار الكتب العلمية)ج٢ ص٢٩٠ .

(٢) سورة النساء : ٨٦ .

(٣) راغ : اي مال في المشي الى جانب ، ومنه روغان الثعلب، والمعنى: أنه اذا حاد عن المكان الذي نزلوا به الى اهله .(التحرير والتنوير: ج٢٦ ص٣٥٨) .

بمعنى انه انسلّ خفية في سرعة . وتضمّنت الآيتان صفة العجل - وهو فتيّ البقر - وطريقة طهوه؛ ففي آية الذاريات بين الله أنه عجل (سمين) اي كثير اللحم ، وفي آية هود أشار إلى أنّه (حنيذ) أي مشويّ على الرضف وهي الحجارة المحمّاة.

وبهذا فانه قد أتاهم بخير ماعنده وفي اسرع وقت لأن - من المعروف - ان الشيء هو اسرع الطرق في طهو الطعام(١) ، وهذا يشير الى غاية كرمه عليه السلام لضيوفه .

٢- فزعه عليه السلام من ضيوفه :

ولما جاءهم بالعجل ادناه منهم ، وعرضه عليهم وقال لهم : (ألا تأكلون) ، فرأى انّ أيديهم لاتمتد إليه . وفي هذه اللحظة فزع إبراهيم وخاف من ضيوفه ؛ وذلك لأن من يقدم إليه الطعام ثم لايأكل منه فانه يخيف ويشعر بأنه ينوي خيانة او غدراً بحسب تقاليد اهل البدو(٢) . قال تعالى : (فلما رأى ايديهم لاتصل اليه نكرهم وأوجس منهم خيفة ..الآية) ، والوجس : هو الصوت الخفي ويطلق على مايعتري النفس من الشعور والخواطر عند الفزع (٣) . وفي آية الحجر أوضح شعوره هذا وقال لهم : (إنا منكم وجلون) اي خائفون .

وحين علمت الملائكة ماهو فيه من الخوف والفزع لم يبقوه على فزعه بل أخبروه بحقيقتهم وطمأنوه : (قالوا لاتخف إنا أرسلنا الى قوم لوط) فنحن ملائكة وأتينا بأمر اهلاك قوم لوط ؛ وفي طريقنا اليهم مررنا عليك .

---

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٢ ص (٤٥١ - ٤٥٢) .
(٢) كان ابراهيم عليه السلام قد هاجر من ارض الكلدانيين (مسقط رأسه في العراق) وعبر الاردن وسكن بأرض كنعان في البادية .
(٣) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا : ج١٢ ص١٢٨ .

وفي هذه اللحظة تظهر شخصية جديدة في القصة وهي سارة زوج سيدنا ابراهيم عليه السلام (وامرأته قائمة فضحكت ..) ، وكانت تقوم بخدمتهم ، ولما سمعت كلامهم ضحكت استبشاراً بهلاك قوم لوط لكثرة فسادهم وغلظ كفرهم بالله وعنادهم(١) .

٢- البشارة بإسحاق عليه السلام :

وبعد أن زال الخوف والفزع عن إبراهيم أفصحت له الملائكة بالبشارة التي جاءوا من أجلها إليه : وهي البشارة بإسحاق .
وقد كان لابراهيم عليه السلام موقف تجاه هذه البشارة ، كما ان لزوجته سارة موقفاً مشابهاً . فنذكر أولاً موقف إبراهيم عليه السلام عند سماعه البشارة :

يقول تعالى: (قالوا لاتوجل إنّا نبشّرك(٢) بغلام عليم . قال أبشّرتموني على أن مسّني الكبر فبم تبشّرون(٣) . قالوا بشّرناك بالحق فلاتكن من القانطين . قال ومن يقنط(٤) من رحمة ربّه إلا الضالون) .
ونلاحظ أنّ الله حكى قولهم وبشارتهم لابراهيم عليه السلام هنا في "الحجر" بقوله: (انا نبشّرك بغلام عليم) وكذا في "الذاريات" (وبشّروه بغلام عليم)، ولكنّه -عز وجلّ- لم يفصّل في موقف إبراهيم عليه السلام إلاّ في "الحجر".

---

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٢ ص(٤٥١ - ٤٥٢) .
(٢) قرأ الجمهور :(نُبَشّرك) بضم النون وفتح الموحدة وتشديد الشين، وقرأ حمزة وحده :(نَبْشُرك) بفتح النون وسكون الموحدة وضم الشين . (انظر: النشر لابن الجزري ج٢ ص٢٢٥) .
(٣) (فبم تبشرون) قرأ نافع وابن كثير بكسر النون وفتحها الباقون وشددها ابن كثير ، وقرأ الباقون بتخفيفها (النشر : ج٢ ص٢٠٢) .
(٤) قرأ الجمهور: (يقنط) بفتح النون، وقرأ أبوعمرو والكسائي ويعقوب وخلف بكسر النون، وهما لغتان في قنط (النشر: ج٢ ص٢٠٢) .

وقوله: (عليم) أي يكون نبياً عالماً بالشريعة الربانية ، وهو كقوله تعالى في آية الصافات: (وبشّرناه بإسحاق نبياً من الصالحين) (١) .

ولما بشّروه قال لهم متعجباً : (قال أبشّرتموني على أن مسّني الكبر فبم تبشّرون) ، وتفسير قوله على أنّه يقول لهم : أتبشّرونني بهذه البشارة وأنا قد بلغت من الكبر مابلغت ولايُتصور أنّي أنجب في هذا السنّ .

و (على) -هنا- بمعنى (مع) وهي دالة على شدة اقتران البشارة بمسّ الكبر إيّاه ، وأكّد تعجبه - أيضا - بإتيانه بالاستفهام التعجبي في قوله : (فبم تبشّرون) أي بأي شيء تبشّروني ، وفي قوله - هذا - نُزّل الأمر العجيب المعلوم منزلة الأمر غير المعلوم لأنه يكاد أن يكون غير معلوم .

ولما سمعت الملائكة منه هذا الكلام نهوْه عنه وأعلموه أنّ ذلك يعتبر استبعاداً لرحمة القدير - مع علمه بأن المبشرين هم رسل من الله - واستبعاد تلك الرحمة يفضي الى القنوط . وهو قولهم : (فلاتكن من القانطين) .

ويمكننا تحليل هذا الموقف فنقول : أنّه لما استبعد - عليه السلام - ذلك استبعاد المتعجب من حصوله كان ذلك أثراً من آثار رسوخ الأمور المعتادة في نفسه بحيث لم يقطعه عنها الخبر الذي يعلم صدقه ؛ فبقي في نفسه بقية تردد من حصول ذلك ، فقاربت حاله حال من ييأس من أمر الله ، ولكونه - عليه السلام - مبرءاً من أن يقنط وعظوه بطريقة مناسبة لمقامه فنهوه عن أن يكون في زمرة القانطين تحذيراً له مما يدخله في تلك الزمرة .

وهذا النهي يشابه قول الله لنوح - عليه السلام - فيما مرّ بنا :(إني أعظك أن تكون من الجاهلين) (٢) .

وقد ذكّرت موعظة الملائكة إبراهيم مقاماً نسيه فاستدرك قائلاً :

---

(١) سورة الصافات : ١١٢ .

(٢) سورة هود : ٤٦ .

(قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون) وهو استفهام إنكار في معنى النفي؛ ولذلك استثنى منه (إلا الضالون) يعني بذلك: أنه لم يذهب عنه اجتناب القنوط من رحمة الله ولكنّه امتلكه المعتاد فتعجب ، فصار ذلك كالذهول عن المعلوم فلما نبّه تذكّر(١) .

وأما موقف سارة تجاه البشارة فقد حكاه الله في هود والذاريات ، وذلك لأن البشارة كانت لهما معاً ، ويحتمل ان البشارة حصلت في وقت واحد وحكى الله قول كل منهما ، ويحتمل حصولها في وقتين متقاربين فبشروه أولاً بانفراد ، ثم جاءت امرأته بعده(٢) . والله أعلم .

وكما ذكرنا ان موقف سارة شبيه بموقف زوجها - عليه السلام - وهو التعجب، ولكن اختلفت الصورة والعبارة ، فهي حينما أخبرت بها صرخت صرخة عظيمة، وضربت بيدها على جبينها ، بمعنى أنّها لطمت تعجباً كما تتعجب النساء من الأمر الغريب: (فأقبلت امرأته في صرّة فصكّت وجهها وقالت عجوز عقيم) وكأنها تقول : كيف ألد وأنا عجوز وقد كنت في حال الصبا والشباب لاأحبل(٣) .

وفي آية هود أضيف قولها :(ياويلتى) مع بيان حالتها تلك ، و (ويلتى) كلمة أصلها (ياويلي) وتقال عندما يفجؤ الانسان أمر مهمّ من بلية أو فجيعة أو فضيحة تعجباً منه أو استنكاراً له أو شكوى منه(٤).

ونلاحظ أن آية الذاريات ذكرت حركات التعجب ، وفي آية هود ذكر لفظ التعجب؛ وذلك لتكتمل الصورة بكل مافيها ، ويكون ذلك أبلغ في التعبير وأوقع في الحسّ.

وكما أنّ سارة في تعجبها عرّفت بحالها الذي لايلائم الحبل ؛ عرّفت بحال زوجها الشيخ المسنّ فأشارت إليه قائلة: (وهذا بعلي شيخاً) أي كبيراً لايولد لمثله .

---

(١) انظر : التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ج١٤ ص (٥٨ - ٦٠).
(٢) انظر : التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ج١٤ ص٥٨ .
(٣) انظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٤ص٢٢٦ .
(٤) انظر : تفسير المنار لمحمد رشيد رضا ج١٢ ص١٢٩ .

والتعجب - كما في آية اخرى - شمل امرين ، اذ بشروها بإسحاق ويعقوب . يقول تعالى: (فبشّرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب) ، فيولد لها ولد ويعيش وتعيش هي حتى يولد لابنها ولد ، وهذا أدخل في العجب وأبلغ في البشارة ؛ لأن شان أبناء الشيوخ أن يكونوا مهزولين لايعيشون غالباً إلا معلولين ، ولايولد لهم في الأكثر ، وايضاً فان شأن الشيوخ الذين يولد لهم أن لايدركوا يفع أولادهم فضلاً عن أولاد أولادهم. وهذا مادفعها إلى أن تؤكد تعجبها وتصرّح به في قولها: (إنّ هذا لشيء عجيب) (١) .

وحين رأت الملائكة مابلغها من التعجب خاطبوها بقولهم : (أتعجبين من أمر الله .. الآية) وهذا استفهام انكاري لاستفهامها التعجبي ، أي لاينبغي لك أن تتعجبي من شيء هو من امر الله الذي لايعجزه شيء ، كما جاء في آية الذاريات : (قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم) الحكيم في أقواله وأفعاله ، العليم بما يستحقونه من الكرامة(٢) ، ولذلك جاء قوله تعالى هناك (رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد) .

ويقول النسفي رحمه الله - في هذ المقام - : " وإنما أنكرت الملائكة تعجبها لأنها كانت في بيت الآيات ومهبط المعجزات والأمور الخارقة للعادات ؛ فكان عليها أن تتوقر ولايزدهيها مايزدهي سائر النساء الناشئات في غير بيت النبوة ، وأن تسبح الله وتمجده مكان التعجب . وإلى ذلك أشارت الملائكة حيث قالوا (رحمت الله وبركاته عليكم اهل البيت) أرادوا أنّ هذه وأمثالها مما يكرمكم به رب العزّة ، ويخصكم بالانعام به ياأهل بيت النبوة ، فليست بمكان عجيب ، وهو كلام مستأنف علل به إنكار التعجب كأنه قيل: إيّاك والتعجب لأن أمثال هذه الرحمة والبركة متكاثرة من الله عليكم " (٣) .

---

(١) انظر : التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ج١٢ ص(١١٩-١٢١) .
(٢) انظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٤ص٢٢٦ .
(٣) تفسير النسفي : ج٢ص١٩٧ .

ثانياً : العبر والفوائد

١- العبر والفوائد من ضيافة إبراهيم للملائكة المبشّرين :

* يستدل من قوله تعالى : (ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا سلاماً .. الآية) على أنّ السلام الذي هو تحيّة الاسلام ، هو تحيّة الملائكة أيضاً(١) . وكذلك أخبر الله أنّها تحيتهم لعباده المؤمنين في الآخرة في آيات عديدة من كتابه كقوله في سورة الرعد مثلاً (... والملائكة يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) (٢) وكقوله في سورة الزمر - ايضاً - (وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين) (٢) .

* إنّ الكرم من خلق الأنبياء والمرسلين وعباد الله الصالحين ، فهاهو ذا ابراهيم - عليه السلام - يعطينا القدوة في الكرم والسخاء؛ فان الآيات الكريمة أخبرت أنّه - عليه السلام - كان في غاية الكرم لضيوفه مع أنه لايعرفهم من قبل !! ويدلنا على غاية كرمه مايلي :

- إحضاره الطعام بسرعة ومن حيث لايشعرون ، ومن دون أن يسألهم هل يأتي بالطعام أم لا . ويدل على هذا قوله (فما لبث أن جاء بعجل حنيذ) ؛ فان الفاء في قوله (فما لبث) للدلالة على التعقيب إسراعاً في إكرام الضيف ، وإتيانه بالعجل الحنيذ وهو المشوي دليل كذلك على اسراعه في إحضار الطعام ؛ لأنّ الشيّ - كما بينا من قبل - هو اسرع طرق الطهو ، فهو أعون على تعجيل إحضار الطعام للضيف.

---

(١) انظر : عماد الدين بن محمد الطبري المعروف بالكيا الهراسي، أحكام القرآن، الطبعة الاولى، ٤ج (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٢هـ) ج٢ص٢٢٦.

(٢) سورة الرعد : ٢٣ - ٢٤ .

(٢) سورة الزمر : ٧٣ .

وكذلك قوله في الآية الأخرى : (فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين . فقربه إليهم) يدل على إسراعه في إحضار الطعام ، إذ أن الفاء جاءت هنا لعطف الأفعال (فراغ -فجاء- فقربه) تدل على ان هذه الافعال وقعت في سرعة . وقوله (فراغ) الذي معناه -كما ذكرنا- أنه انسلّ في خفية ، مايدلّ على أنه أتاهم به من حيث لايشعرون. وهذا كله يدلنا على زيادة كرم الخليل عليه السلام لضيوفه(١) .

- ويدل على كرمه - ايضاً - انه جاءهم بأفضل ماعنده ؛ فقدّم اليهم عجلاً سميناً .

- كما أنّه قرب الطعام إليهم ، فلم يضعه وقال اقتربوا ، بل وضعه بين أيديهم. وهذا من آداب الضيافة والزيادة في الكرم ايضاً .

- ومن أدبه في ضيافتهم أنّه لم يأمرهم أمراً يشق على سامعه بصيغة الجزم فقال: كلوا ، بل قال : (ألا تأكلون) على سبيل العرض والتلطف . وهذا - بلاشك - زيادة في الاكرام مع تمكن الضيف من الطعام .

- ونلاحظ أنه نظر في ضيوفه بعد تقريب الطعام إليهم هل أكلوا أم لا . وهذا - كذلك - من أدب الضيافة ؛ إذ أن لصاحب البيت أن ينظر في ضيفه هل يأكل أم لا. وذلك ينبغي أن يكون بتلفت ومسارقة لابتحديد النظر ، فان تحديد النظر مما يزعج الضيف ويحرجه ، وقد روي أنّ أعرابياً أكل مع هشام بن عبد الملك ، فرأى هشام في لقمة الاعرابي شعرة . فقال له : أزل الشعرة عن لقمتك ، فقال له : أتنظر اليّ نظر من يرى الشعرة في لقمتي ؟! والله لا أكلت معك . وخرج من عنده وهو يقول :

وللموت خير من زيارة باخل يلاحظ أطراف الأكيل على عمْد

---

(١) انظر : التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ج١٢ ص١١٧ ؛ نفس المرجع ج٢٦ ص(٢٥٩ - ٢٦٠) .

فهذه الأمور التي ذكرناها لتدل بوضوح على ما تحلّى به الخليل - عليه السلام - من غاية الاكرام لضيوفه ، وفيه لنا خير قدوة(١) .

* إن تعجب ابراهيم عليه السلام وزوجه سارة من البشارة باسحاق لايدل على أنّهما أنقصا من قدرة الله ومشيئته العليا ، وإنما هو غلبة الأمر المعتاد والسنة الجارية ، ودليل هذا انه تنبّه عليه السلام بأدنى تنبيه : (قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون) .

وهكذا فان قدرة الله عز وجلّ لايحدها ولايقيدها ناموس من نواميسه أو سنّة من سننه ؛ إذ هو خالق السنن والنواميس سبحانه .

وللشهيد سيد قطب كلام في هذا المقام وهو قوله : "ولاعجب من أمر الله ، فالعادة حين تجري بأمر لايكون ، معنى هذا أنها سنة لاتتبدل ، وعندما شاء الله لحكمة - يريدها - وهي هنا رحمته بأهل هذا البيت وبركاته الموعودة للمؤمنين فيه يقع مايخالف العادة ، مع وقوعه وفق السنة الالهية التي لانعلم حدودها ، ولانحكم عليها بما تجري به العادة في أمد هو على كل حال محدود ، ونحن لانستقرىء الحوادث في الوجود، ثم يرد على من يقيدون مشيئة الله بما يعرفون من نواميس وسنن بما يلي:

والذين يقيدون مشيئة الله بما يعرفونه هم من نواميسه لايعرفون حقيقة الالهية كما يقررها الله في كتابه، وقوله الفصل، وليس للعقل البشري قول في ذلك القول، وحتى الذين يقيدون مشيئة الله بما يقرر الله سبحانه أنه ناموسه لايدركون حقيقة

---

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٤ ص٢٢٥ ؛ تفسير القرطبي ج٩ ص(٦٥ - ٦٦) .

الالهية نعم إنّ الله يجري هذا الكون وفق النواميس التي قدرها له .. ولكن هذا شيء والقول بتقييد إرادته بهذه النواميس بعد وجودها شيء آخر ، إنّ الناموس يجري وينفذ بقدر من الله في كل مرة ينفذ فيها ، فهو لايجري ولاينفذ آلياً . فاذا قدر الله في مرة أخرى ان يجري الناموس بصورة اخرى غير التي جرى بها في مرات سابقة كان ماقدره الله ولم يقف الناموس في وجه هذا القدر الجديد .. ذلك ان الناموس الذي تندرج تحته كل النواميس هو طلاقة المشيئة بلا قيد على الاطلاق ، وتحقق الناموس في كل مرة يتحقق فيها بقدر خاص طليق ."(١)

* وقد استدل من قوله تعالى :(... رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت إنّه حميد مجيد) على مايلي :

- إن منتهى السلام : (وبركاته) . كما أخبر الله هنا عن صالحي عباده وهم الملائكة(٢) .

- إن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يعتبرن من اهل بيته ؛ لأن الملائكة سمّت امرأة إبراهيم من أهل بيته ، وكذلك قال الله في مخاطبة ازواج النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: (ومن يقنت منكنّ لله ورسوله وتعمل صالحاً) إلى قوله (وأطعن الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) "سورة الاحزاب :٣١-٣٣" قد دخل فيه ازواج النبي صلى الله عليه وسلم لأن ابتداء الخطاب لهنّ(٣) .

ويستدل من هنا على أن زوجة الرجل تعتبر من أهل بيته(٤) .

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب :ج٤ ص١٩١٢ .

(٢) انظر : تفسير القرطبي ج٩ ص٧١ .

(٣) انظر : احكام القرآن للجصّاص ج٢ ص١٦٦ .

(٤) انظر : تفسير القرطبي ج٩ ص٧١ .

المبحث الثالث

" ابراهيم عليه السلام مع ابنائه أجمعين "

وفيه مطلب واحد ، وهو : " وصيته لأبنائه "

وقبل الخوض في وصيته عليه السلام لأبنائه يجدر بنا أن نوضّح تعريف الوصية. فالوصية أصلها : الوصل . من قولهم : أرض واصية أي متصلة النبات ، ويقال: وصاه إذا وصله ، وفصاه اذا فصله ، كأنّ الموصي يصل فعله بفعل الوصي(١) . ويقول الألوسي - رحمه الله - : " التوصية هي التقدم إلى الغير بفعل فيه صلاح وقربة ، سواء كان حالة الاحتضار أوْ لا، وسواء كان ذلك التقدم بالقول أو الدلالة. وإن كان الشائع في العرف استعمالها في القول المخصوص بحالة الاحتضار" (٢) .

وبعد تعريفنا لكلمة الوصية نشرع في بيان وصية إبراهيم -عليه السلام- لأبنائه وذكر مانأخذه منها من العبر والفوائد .

أولاً : " بيـان الوصيـة "

ذكر الله وصية إبراهيم لأبنائه في سياق الآيات التي تتحدث عن وجوب التمسك بملته ، والتي تبين أن من ترك ملته رغبة عنها إلى غيرها فإنما هو جاهل بموضع حظ نفسه فيما ينفعها ويضرها في معادها كاليهود والنصارى الذين انحرفوا عن الطريق الصحيح . فيقول سبحانه وتعالى :

---

(١) انظر : الطاهر أحمد الزاوي ، ترتيب القاموس المحيط للفيروزأبادي، الطبعة الثالثة ، ٤ج (بيروت : دار الفكر) ج٤ ص٦٢٢ .

(٢) روح المعاني للالوسي : ج١ ص٣٨٦ .

(ومن يرغب عن ملّة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين . إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين . ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابَنيّ إنّ الله اصطفى لكم الدين فلاتموتُنّ إلا وأنتم مسلمون) (١) .

وبيان هذه الوصية كالتالي :

١- موضوع الوصية :

أمّا موضوعها فهو : الحثّ على التمسك بالاسلام وعدم تركه أبداً .

٢- كلمات الوصية :

وكلماتها كما ذكر الله تعالى : (يابَنيّ إن الله اصطفى لكم الدين فلاتموتُنّ إلا وأنتم مسلمون) .

ويبدأ وصيته لهم بتذكيرهم بنعمة الله وفضله عليهم ؛ بأن اختار لهم هذا الدين الكامل من بين الأديان ، وفضلهم به . وبعد ان هيأ قلوبهم واذهانهم باستشعارهم النعمة التي ذكرهم بها ، أخذ يعرض لهم ماأراد أن يوصيهم به وهو أن يتمسكوا بهذه النعمة - التي فضلهم الله بها واختارها لهم - ولا يموتوا إلا وهم عليها . بمعنى أن لايفارقوا هذا الدين أيام حياتهم كلها ؛ وذلك لأنه لايدري أحد متى تأتيه منيته ، وكأنه يقول لهم : اثبتوا على دين الاسلام حتى لاتأتيكم المنية وأنتم على غيره فتموتوا وربكم ساخط عليكم فتهلكوا(٢) .

ويقول ابن كثير - رحمه الله - في تفسيره موضحاً هذه الوصية : " أي أحسنوا في حال الحياة والزموا هذا ليرزقكم الله الوفاة عليه ، فان المرء يموت غالباً على ماكان عليه ، ويبعث على مامات عليه ، وقد أجرى الله الكريم عادته بأن من قصد الخير وُفق له ويُسّر له ومن نوى صالحاً ثبت عليه "(٣) .

---

(١) سورة البقرة : ١٣٠ - ١٣٢ .

(٢) انظر : تفسير ابن جرير الطبري ج١ ص٤٢٨ .

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج١ ص(١٨٥-١٨٦) .

٢- ذكر أبنائه الذين وصّاهم :

لإبراهيم عليه السلام ثلاثة عشر ولداً : أكبرهم إسماعيل وأمّه هاجر القبطية المصرية ، ويليه إسحاق من سارة بنت عم الخليل ، ثم تزوج بعد وفاة سارة بقنطور بنت يقطن الكنعانية فولدت له ستة من الولد وهم : مدين ، وزمران ، وسرج ، ويقشان ، ونشق ، والسادس لم يسمّ . ثم تزوج بعدها بحجون بنت أمين فولدت له خمسة وهم : كيسان ، وسورج ، وأميم ، ولوطان ، ونافس ." هكذا ذكره أبو القاسم السهيلي في كتابه التعريف والاعلام "(١) .

ويحتمل أن جميع أولاده هؤلاء حضروا هذه الوصية ، أو أنه حضرها بعضهم. ويحتمل - كذلك - أن هذه الوصية تكررت لأبنائه جميعاً كل على حسب عهده وزمن وجوده. والله أعلم .

---

(١) انظر : البداية والنهاية لابن كثير ج١ ص١٦٤ .

ثانياً : العبـــر والفوائـــد

* نستنبط من وصية إبراهيم عليه السلام: أن الوصية بعقيدة التوحيد وما تشتمل عليه من سلوك ومكارم أخلاق هي أهم مايوصي به الأب أبناءه في كل أطوار حياتهم حتى يلقوا ربهم وهم عليه .

وإن الدين المعني به هنا هو الدين الاسلامي الحنيف على حد قوله تعالى: (ملّة أبيكم إبراهيم هو سمّاكم المسلمين من قبل ...الآية)(١) ، و(أل) في الدين للتعريف على حد قوله - هناك - (إن الدين عند الله الاسلام ..الآية)(٢) وقوله: (ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه ..الآية)(٣) وقوله أيضاً: (....ورضيت لكم الاسلام ديناً ..)(٤) ، ومن هنا يعلم أيضاً ان الدين الاسلامي هو الدين ولادين غيره منذ أن بعث الله الرسل لقوله تعالى: (شرع لكم من الدين ماوصّى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى.. الآية)(٥). ويتضح لنا من هذه الآية الأخيرة أن إبراهيم عليه السلام - نفسه - كان قد وُصّي من الله عز وجلّ بهذا الدين، وهو من بعد أوصى به أبناءه .

فينبغي على الآباء أن يكونوا في غاية الحرص على أبنائهم بتوجيههم وإرشادهم على اتباع دين الله والتمسك به ، فإن هذا خير مايقدمه الوالد لولده ؛ اذ به ينقذه من سخط الله وعذابه ، ويضعه في محل رضوانه ومحبته عز وجلّ .

كما أنّ من فوائد الاهتمام بصلاح الاولاد هو الابقاء على صلاح الذرية التي تتلوهم من بعدهم في الاغلب ، لانهم هم - كذلك - سيهتمون بأبنائهم هذا الاهتمام لكونهم على طريقة آبائهم من الصلاح والدعوة اليه .

---

(١) سورة الحج :٧٨.
(٢) سورة آل عمران :١٩ .
(٣) سورة آل عمران :٨٥ .
(٤) سورة المائدة :٣ .
(٥)سورة الشورى :١٣ .

* ومما يذكره الفخر الرازي حول مايستفاد من هذه الوصية قوله : " إعلم أن هذه الحكاية اشتملت على دقائق مرغبة في قبول الدين :

(أحدها) أنه تعالى لم يقل : وأمر ابراهيم ، بل قال : ووصى .. ولفظ الوصية أوكد من الأمر ، لأن الوصية عند الخوف من الموت ، وفي ذلك الوقت يكون احتياط الانسان لدينه أشد وأتمّ ، فاذا عرف انه عليه السلام في ذلك الوقت كان مهتماً بهذا الأمر متشدداً فيه ، كان القول إلى قبوله أقرب .

(وثانيها) أنه عليه السلام خصص بنيه بذلك ، وذلك لأن شفقة الرجل على أبنائه اكثر من شفقته على غيرهم ، فلما خصصهم بذلك في آخر عمره علمنا ان اهتمامه بذلك كان اشد من اهتمامه بغيره .

(وثالثها) أنه عمم بهذه الوصية جميع بنيه ولم يخصّ احدا منهم . وذلك يدل على شدة الاهتمام .

(ورابعها) أنه عليه السلام اطلق هذه الوصية غير مقيدة بزمان معين ومكان معين ، ثم زجرهم أبلغ الزجر عن ان يموتوا غير مسلمين ، وذلك يدل - ايضاً - على شدة الاهتمام بهذا الأمر .

(وخامسها) أنه عليه السلام مامزج بهذه الوصية وصية غيرها ، وهذا يدل على شدة الاهتمام بالامر .

ولما كان إبراهيم عليه السلام هو الرجل المشهود له بالفضل وحسن الطريقة وكمال السيرة ، ثم عرف أنه كان في نهاية الاهتمام بهذا الامر ، عرف حينئذ أن هذا الأمر أولى الأمور بالاهتمام وأحراها بالرعاية والقبول "(١) .

وبهذه الوصية نكون قد انتهينا من هذا الفصل (إبراهيم عليه السلام مع أبنائه) ، وبنهاية هذا الفصل ينتهي البحث في هذا الباب (إبراهيم عليه السلام مع أبيه وأبنائه) . والحمد لله .

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي : ج٤ ص(٧٢- ٧٣) .

الباب الثالث

" يعقوب عليه السـلام مع ابنائه "

وفيه تمهيد وفصلان :

الفصل الاول : يعقوب عليه السـلام مع ابنائه في قصة يوسف .

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الاول : كيد الاخوة بيوسف .

المبحث الثاني : تعرف يوسف على إخوته .

المبحث الثالث : اجتماع الشمل .

والفصل الثاني : وصية يعقوب لأبنائه

وفيه مبحثان :

المبحث الاول : بيان الوصية.

المبحث الثاني : العبر والفوائد.

* تمهيـــد *

وفي هذا الباب سنبحث فيما ورد عن النبي يعقوب عليه السلام - حفيد أبي الأنبياء ابراهيم عليه السلام - مع أبنائه .

ولم يذكر في القرآن الكريم عن ذلك سوى قصته مع يوسف واخوته وماكان من الاحداث التي وردت في سورة يوسف عليه السلام، وكذلك وردت وصيته لأبنائه عند احتضاره (أم كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت ..الآية) (١) .

ويجدر بنا هنا أن نذكر ماورد عن أهل الكتاب في عدد زوجات يعقوب وأبنائه لما قد يكون له صلة ببحثنا :

فيعقوب عليه السلام له أربع زوجات رزق منهن باثني عشر ولداً .

وأول زوجاته : (ليا) . ورزق منها : روبيل ، شمعون ، لاوي ، يهوذا ، إيساخر، وزابلون .

والثانية : (راحيل) . ورزق منها : يوسف ، وبنيامين .

والثالثة : (بلهى) . وهي أمة لراحيل أهدتها ليعقوب ، ورزق منها : دان، ونفتالي .

والرابعة : (زلفى) . وهي امة لليا اهدتها يعقوب ، ورزق منها : جاد ، واشير(٢) .

ومما ينبغي الاشارة اليه أن الله قد خصّ يوسف عليه السلام بالنبوة - على الصحيح - من بين أولاد يعقوب عليه السلام . وقد جاء في القرآن الكريم على لسان أحد المؤمنين وهو يعظ قومه : (ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً) "غافر :٢٤" .

---

(١) سورة البقرة : ١٣٢ .

(٢) انظر : قصص الانبياء لابن كثير ج١ ص٢٠٠ .

أما قوله تعالى : (إنّا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والاسباط ...الآية) "النساء:١٦٣" وما ذكر في غيرها من أن الأسباط قد أوحى الله إليهم ؛ فليس المراد - هنا - أنهم أولاده الاثنا عشر هؤلاء انبياء ، بل المراد هنا حفدته ذراري أبنائه ، والسبط من اليهود كالقبيلة من العرب وهم الذين يرجعون الى اب واحد ، وقد اصبح كل واحد من اولاد يعقوب ابآ لسبط من اسباط بني اسرائيل فجميع بني اسرائيل انحدروا وتناسلوا من اولاد يعقوب الاثني عشر ، فالمقصود انه قد ظهرت في هذه الاسباط النبوة ؛ فسبط لاوي فيه (موسى ، هارون ، الياس ، واليسع) . وسبط يهوذا فيه : (داود ، سليمان ، زكريا ، يحيى ، وعيسى) ، وسبط بنيامين فيه: (يونس) عليهم السلام(١) .

وبعد بيان ماتقدم فانّه سيكون بحثنا في هذا الباب مشتملاً على فصلين :

اما الفصل الاول فيختص بقصة يعقوب عليه السلام مع ابنه يوسف عليه السلام واخوته مما جاء ذكره في سورة يوسف ، ويتكون هذا الفصل من ثلاثة مباحث :

المبحث الاول : كيد الاخوة بيوسف . وفيه مطلبان :

المطلب الاول : بيان القصة في هذا المبحث . وفيه :

يوسف يعرض رؤياه على ابيه - اخوة يوسف يدبرون المكيدة - القاء يوسف في الجبّ - التقاط يوسف وبيعه .

والمطلب الثاني :العبر والفوائد .

اما المبحث الثاني فهو : تعرف يوسف على اخوته . وفيه مطلبان :

الاول : بيان القصة وفيه :

قدوم اخوة يوسف مصر - عودتهم الى ابيهم يعقوب - رجوعهم الى يوسف ثانية واحتجازه بنيامين - استعطاف يوسف لترك بنيامين .

والمطلب الثاني يشتمل على العبر والفوائد من القصة .

والمبحث الثالث والأخير بعنوان : اجتماع الشمل . وفيه - أيضا - مطلبان:

---

(١) انظر : مع الانبياء في القرآن الكريم لطبارة ص١٥٦ .

الأول : بيان القصة في هذا المبحث وفيه :
أمر يعقوب لأبنائه بالبحث عن يوسف وأخيه - تعرّف الاخوة على يوسف - تلقي يعقوب خبر سلامة يوسف - تحقق رؤيا يوسف .
والثاني : العبر والفوائد .

وأما الفصل الثاني فيختص بوصية يعقوب عليه السلام لأبنائه عند احتضاره ، ويشتمل هذا الفصل على مبحثين اثنين :
اولهما : بيان الوصية .
وثانيهما : العبر والفوائد المستفادة من الوصية .

والله نسأل التوفيق والرشاد
وبه نستعين

الفصل الاول

" يعقوب عليه السلام مع يوسف واخوته "

المبحث الاول : كيـد الاخـوة بيوسف

المطلب الاول : بيان القصة

١- يوسف يعرض رؤياه على ابيه :

تبدأ القصة بعرض الرؤيا التي رآها يوسف على ابيه يعقوب عليهما السلام ، قال تعالى :

(إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين . قال يابني لاتقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً إن الشيطان للانسان عدو مبين . وكذلك يجتبيك ربك ويعلّمك من تأويل الأحاديث ويتمّ نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما اتمّها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق إنّ ربك عليم حكيم) (١) .

والظاهر إنما أخبره بالرؤيا لانه علم بإلهام او بتعليم سابق من ابيه ان للرؤيا تعبيراً ، وعلم ان الكواكب والقمر كناية عن موجودات شريفة ، وان سجود المخلوقات الشريفة له كناية عن عظم شأنه(٢) .

وقد تكلم المفسرون عن تعبير هذه الرؤيا فقالوا : ان الاحد عشر كوكباً عبارة عن إخوته ، وكانوا احد عشر رجلاً سواء ، والشمس عبارة عن أمّه ، والقمر

---

(١) سورة يوسف : ٤-٦ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور : ج١٢ ص (٢٠٨-٢٠٩) .

عبارة عن أبيه. (روي هذا عن ابن عباس والضحاك وقتادة وسفيان الثوري وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم) . وقد وقع تفسيرها بعد اربعين سنة من وقت رؤيته لها؛ وذلك حين رفع أبويه على العرش - وهو سريره - وإخوته بين يديه وخرّوا له سجّداً (.. وقال ياأبت هذا تأويل رُؤْيايَ من قبل قد جعلها ربي حقاً... الآية) "يوسف: ١٠٠".

وحين سمع يعقوب من ابنه هذه الرؤيا - التي تعبيرها خضوع إخوته وتعظيمهم إياه تعظيماً زائداً بحيث يخرون له ساجدين إجلالاً واحتراماً وإكراماً - خشي أن يخبر أحداً من إخوته بها فيحسدونه على ذلك الفضل ويبغون له الغوائل نتيجة حسدهم، ولهذا قال له : (يابنيّ لاتقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً)، ويابني -كما هو معلوم- تصغير (ابن) وأتى بها للشفقة عليه ، أو لصغره لأنه كان ابن اثنتي عشرة سنة ، والكيد هو اخفاء عمل يضر المكيد . أي بمعنى : أنهم يحتالون حيلة يضرونه بها ؛ والحال أن الشيطان ظاهر العداوة للانسان فلا يألو جهداً في إغواء إخوته وإضلالهم وحملهم على مالا خير فيه ، وهو استئناف كان يوسف قال: كيف يصدر ذلك عن إخوتي الناشئين في بيت النبوة فقيل له: إن الشيطان يحملهم على ذلك .

وقوله هذا هو تحذير له مع ثقته بأن التحذير لايثير في نفسه كراهة لإخوته؛ لأنه وثق بكمال عقله وصفاء سريرته ومكارم خلقه ، ومن كان هذا حاله كان سمحاً عاذراً معرضاً عن الزلات .

وبعد أن نبهه - عليه السلام - على ان لرؤياه شأناً عظيماً يستتبع منافع وحذّره إشاعتها المؤدية إلى كيد إخوته له شرع في تعبيرها وتأويلها على وجه إجمالي فقال له فيما معناه: أنه كما سخّر لك الله تلك الأجرام العظام واختارك وأراك إياها ساجدة لك كذلك يختارك ويصطفيك لنبوته ويعلّمك من تأويل الاحاديث (تعبير الرؤيا) ، ويتمّ نعمته عليك بإرسالك والإيحاء إليك ، ولهذا قال له: (كما أتمّها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق إنّ ربك عليم حكيم) وهو أعلم حيث يجعل رسالته، ويعطيها لمن يستحقها بحكمته سبحانه(١) .

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ج٢ص(٤٦٨-٤٦٩) ؛ تفسير البيضاوي ج٣ص١٢٧ ؛ تفسير ابي السعود ج٤ ص(٢٥١-٢٥٤) ؛ التفسير الكبير للفخر الرازي ج١٨ ص(٨٧-٩١) ؛ تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ج١٢ص٢١٤.

٢- إخوة يوسف يدبّرون المكيدة :

يظهر الله لنا تدبيرهم في قوله : (لقد كان في يوسف واخوته آيات للسائلين. إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منّا ونحن عصبة إنّ أبانا لفي ضلال مبين . أقتلوا يوسف او اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين. قال قائل منهم لاتقتلوا يوسف وألقوه في غيابت الجبّ يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين . قالوا ياأبانا مالك لاتأمنّا على يوسف وإنّا له لناصحون . أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنا له لحافظون . قال إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون . قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذاً لخاسرون)(١) .

اجتمع الاخوة وبدءوا حديثهم بتقرير حقيقة لمسوها جميعاً : وهو أن اباهم يعقوب يحب يوسف وأخاه بنيامين اكثر منهم ، والحال أنهم عصبة - والعصبة والعصابة العشرة فصاعداً ، سمّوا بذلك لأن الأمور تعصب بهم(٢)- فهم أنفع له فيما يستطيعون من تقديم الخير له والاعمال اكثر منهما ، ونسبوا الى ابيهم انه في ذهاب عن طريق التعديل اللائق وتنزيل كل منهم منزلته التي يستحقها ؛ وهذا بُعد ظاهر فيه وواضح(٣) .

وهم قد لاحظوا ذلك ليس من اختلاف معاملة ابيهم لهم : انما من بعض القرائن الدالّة على هذا الحب . ولايعقل ان لايساوي يعقوب عليه السلام في المعاملة بين ابنائه وهو نبي من انبياء الله ويعلم ان هذا امر لايجوز ، ولكنما هو الميل القلبي الذي لايملكه الانسان ولايؤاخذ عليه لاستحالة تصرفه فيه .

---

(١) سورة يوسف : ٧-١٤ .
(٢) تفسير البيضاوي : ج٣ ص١٢٧ .
(٣) انظر : تفسير ابي السعود ج ٤ ص٢٥٥ .

ثم شرعوا في اختيار الطريقة التي يتخلصون بها من يوسف - ولم يدمجوا اخاه بنيامين معه شفقة عليه لصغره - فأشار احدهم بأن يقتلوه او يرموه في ارض منكورة مجهولة بعيدة من العمران ؛ وهذان يضمنان هلاكه ومحوه من الوجود ، وأكد رأيه لاخوته وقوّاه بانه عند ذلك يخلص لهم وجه أبيهم فيقبل عليهم بكليّته ولايلتفت عنهم الى غيرهم ولايساهمهم أحد في محبته . وبعد هذا العمل سوف يتوبون الى الله فيقبل الله توبتهم ويقبل ابوهم اعتذارهم ويكونون قوماً صالحين .

ولكن هذا الرأي لم يناسب الجميع حيث أشار أحدهم إلى رأي آخر لاإفراط فيه مع تحقيق الهدف المرجوّ وهو إبعاد يوسف عن ابيه : (قال قائل منهم لاتقتلوا يوسف وألقوه في غيابت الجبّ يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين) اذاً هو الالقاء في غيابت(١) الجب . والجب هو البئر . وسميت جباً لأنها قطعت قطعاً ولم يحصل فيها غير القطع من طيّ وغيره ، وأما قوله: (في غيابت الجب) أي في أسفله وقاعه ، وسمي بذلك لغيبوبته عن أعين الناس . والألف واللام في الجب تقتضي المعهود السابق، بمعنى أنه جبّ معروف لديهم ، واختلف المفسرون فيه ، فقال قتادة: هو بئر بيت المقدس ، وقال وهب : هو بأرض الاردن ، وقال مقاتل : هو على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب(٢) . وإنما عيّنوه للعلّة التي يريدونها وهي أن يلتقطه بعض السيارة ، اي بعض الطوائف أو القوافل المارّة التي تسير في الارض ؛ وفي طريقها تمرّ بهذا الجب لتستقي منه فتجده فيه فتلتقطه ثم تبيعه أو تأخذه وتحمله معها، فيكون ذلك محققاً لغرضهم .

ثم ختم كلامه - صاحب هذا الرأي - بقوله: (إن كنتم فاعلين) ليبيّن لهم أنه لم يبتّ هذا القول عليهم ، وإنما عرضه عليهم ؛ وذلك تأليفاً لقلوبهم وتوجيهاً الى رايه وحذراً من أن ينسبوا اليه التحكّم والافتيات(٣) .

---

(١) قرأ نافع : (في غيابات الجب) بالألف ، وقرأ الباقون : (غيابت) (حجة القراءات لابن زنجلة : ص٣٥٥) .

(٢) انظر : التفسير الكبير للفخر الرازي ج ١٨ ص (٩٥-٩٦) ؛ تفسير البيضاوي ج٣ ص١٢٨ .

(٣) انظر : تفسير ابي السعود ج٤ ص٢٥٧ .

وحاز هذا الرأي على موافقتهم واستقرّ رأيهم عليه .

وبعد هذا الاتفاق الذي أبرموه بينهم في خفاء ذهبوا يحتالون على أبيهم ليسمح لهم باصطحاب يوسف ليلعب ويرتع معهم : (قالوا ياأبانا مالك لاتأمنّا على يوسف وانا له لناصحون . أرسله معنا غداً يرتع ويلعب(١) وانا له لحافظون) . ولعل يعقوب - عليه السلام - كان لايأذن ليوسف بالخروج معهم للرمي او للسبق خوفاً عليه من أن يصيبه سوء من كيدهم أو من غيرهم ؛ ولم يكن يصرّح لهم بأنه لايأمنهم عليه ، ولكن حاله في منعه من الخروج كحال من لايأمنهم عليه فنزّلوه منزلة من لايأمنهم ، وأتوا بالاستفهام المستعمل في الانكار على نفي الائتمان .

كما أنهم خاطبوه في بداية كلامهم معه بقولهم : (ياأبانا) ؛ تحريكاً لسلسلة النسب بينهم وبينه وتذكيراً لرابطة الاخوّة بينهم وبين يوسف ليتسببوا بذلك الى استنزاله - عليه السلام - عن رأيه في حفظه منهم لمّا أحسّ منهم علامات الحسد ، وأتبعوا استفهامهم الانكاري - هذا - بأن كذبوا عليه في أنّ حالهم مخالف لما يظنّه بهم فهم له ناصحون مريدون له الخير ومحبون له مشفقون عليه(٢) !!

وبعد تحايلهم هذا - باظهار أنّهم حريصون عليه محبون له - أخذوا يترجّون أباهم أن يسمح لهم بالخروج معهم إلى المراعي غداً ليلعب ويمرح ويتمتع بالأكل والشرب مثلهم ، وأكّدوا حالهم الذي يدّعونه بقولهم: (وانّا له لحافظون) ، وماهذا كله الا احتيال ليتم لهم مادبروه .

ولكن ماهو جواب الاب المحب لابنه ؟ انه يحزنه ان يبتعد عنه ويخاف اذا

---

(١) قرأ ابن كثير وابو عمرو وابن عامر : (نرتعْ ونلعبْ) بالنون ، وقرأ أهل المدينة والكوفة : (يرتعْ ويلعبْ) . وقرأ نافع وابن كثير : (نرتعِ) بكسر العين، وقرأ الباقون (يرتع) بجزم العين (حجة القراءات لابن زنجلة ص٢٥٥-٢٥٦).

(٢) انظر : تفسير ابي السعود ج ٤ ص٢٥٧ .

أمنهم عليه أن يأكله الذئب وهم في غفلة عنه ، وذلك لأن الأرض كانت مذأبة . وانما ذكر يعقوب أنّ ذهابهم به يحدث له حزناً مستقبلاً ؛ ليصرفهم عن الالحاح في طلب الخروج لأن شأن الابن البارّ أن يتقي مايحزن أباه .

وتأكيد الجملة بحرف التوكيد : (إنّي) لقطع الحاحهم بتحقيق أنّ حزنه لفراقه ثابت تنزيلاً لهم منزلة من ينكر ذلك ، ويسري التأكيد ايضاً الى جملة (وأخاف، أن يأكله الذئب(١) . .الآية) (٢) .

ونلاحظ أنّ يعقوب عليه السلام قد جمع في كلامه بين الحزن والخوف ، والحزن هو ألم القلب بفوت المحبوب ، والخوف انزعاج النفس لنزول المكروه ، ولذلك نرى أنّه أسند الاول الى الذهاب والثاني الى مايتوقع نزوله من الذئاب(٢) .

ولكنهم مع كل ماأظهره عليه السلام من خوف وحزن لم يفتؤا في الانصراف عن كيدهم وتدبيرهم ؛ بل احتالوا عليه واقسموا له بأنه لن يحصل له مايكره ولن يأكله الذئب وهم جماعة يعصب الامر بهم ويعتمد عليهم ، وإنّه أيّ مكروه يحدث له يصيبهم عاره ، ولذلك هم حريصون عليه كمثل حرصه عليه إن لم يكن أشدّ ؛ حتى لايظهروا أمام الناس بمظهر الجماعة الخاسرة. أي الخائبة الفاشلة التي لايعتمد عليها في أمر من الامور .

---

(١) قرأ أبو عمرو والكسائي وورش عن نافع (الذيبُ) بغير همز ، وقرأ الباقون بالهمز وهو الأصل لأنه مأخوذ من تذائبت الريح إذا أتت من كل ناحية فكأنه شبّه من خفته وسرعة حركته بالريح (حجة القراءات لابن زنجلة : ص٣٧٥) .

والذئب حيوان من الفصيلة الكلبية وهو كلب بري وحشي من خلقه الاحتيال والنفور ، وهو يفترس الغنم ، وإذا قاتل الانسان فجرحه ورأى عليه الدم ضرى به فربما مزقه (التحرير والتنوير : ج٢ص٢٢١) .

(٢) انظر : التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ج ١٢ ص (٢٢١-٢٢٢).

(٢) انظر : تفسير ابي السعود ج٤ ص٢٥٧ .

وبهذا القسم وبتلك الكلمات المؤكدة لحرصهم على يوسف وعدم التفريط في الانتباه له، وافق الاب بما طلبوا منه وسمح بإرساله معهم. ولكن ماالذي حدث بعد ذلك ؟ هذا ماتوضحه لنا الفقرة التالية .

٢- إلقاء يوسف في الجبّ :

وكما قلنا - من قبل - إن الوعود والقسم والكلمات الطيبة الدالة على المحبة والحرص ماذاك الا تحايلاً على ابيهم ودليله مافعلوه بيوسف من القائه في البئر . وهذا ماتظهره لنا الآيات التالية :

(فلما ذهبوا به وأجمعوا على أن يجعلوه في غيابت الجبّ وأوحينا اليه لتنبئنّهم بأمرهم هذا وهم لايشعرون . وجاءوا أباهم عشاءً يبكون . قالوا ياأبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب ومأأنت بمؤمن لنا ولو كنّا صادقين . وجاءوا على قميصه بدم كذب قال بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ماتصفون) (١) .

وتحكي لنا الآيات أنّهم حين أخذوه معهم وذهبوا به إلى مكان البئر - الذي سيلقونه فيه ، واتفق كلهم على إلقائه في قاع البئر- أوحى إليه الله مثبتاً له وميسراً عليه ومطيباً لقلبه، وذلك بأن القى في روعه بأن لايحزن فانه سيجعل له مما هو فيه مخرجاً وفرجاً وسينصره عليهم ويرفع درجته ، بل وسيخبرهم بما فعلوا معه من هذا الصنيع ، وهم لايشعرون بهذا الايحاء ، او كما قال ابن عباس : وهم لايعرفونك ولايستشعرون بك (٢) .

واستداداً لسلسلة احتيالاتهم جاءوا يعقوب عليه السلام يبكون تصنّعاً

---

(١) سورة يوسف : (١٥-١٨) .

(٢) انظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٢ ص٤٧١ .

ويعتذرون إليه عن عدم رجوع يوسف معهم بحجة أن الذئب اكله ؛ وذلك حينما تركوه يحرس متاعهم وهم قد ذهبوا ليستبقوا . وتأكيداً لقولهم هذا قالوا له : وإنك لن تؤمن بصدقنا لاتهامك إيانا بكرهه وحسده ولو كان مانقوله هو الحق والصدق .

وكان مجيؤهم لأبيهم ليلاً ، وانما جاءوا في هذا الوقت بالذات ليكونوا اقدر على الاعتذار في الظلمة ؛ بحيث لاترى ملامح وجوههم التي قد تظهر كذبهم ، ولذا قيل : لاتطلب الحاجة بالليل فإن الحياء في العينين ، ولاتعتذر بالنهار من ذنب فتتلجلج في الاعتذار(١) .

فاذاً اعتذارهم في الليل -أيضاً - هو من حلقات مكرهم وحيلهم !!

وتتميماً لافتراءاتهم العظيمة أتوا بقميص يوسف ملطخاً بدم ليوهموا أباهم بصدق حادثة اكل الذئب ليوسف ، وذلك قوله تعالى (وجاءوا على قميصه بدم كذب) ودم كذب أي مكذوب مفتعل ، ووصف الدم بالمصدر مبالغة .

وأمام هذا الخبر ماذا كان موقف يعقوب عليه السلام الذي يحب ابنه أشدّ الحب ؟ إنّه موقف المؤمن الصابر : (قال بل سوّلت لكم أنفسكم امراً فصبر جميل والله المستعان على ماتصفون) .

قيل : إنه علم بكذبهم بدليل أنّ القميص الذي جاءوا به غير ممزق مع تلطخه بالدم ، فلو كان الذئب - حقاً - قد افترس يوسف لكان من باب أولى أن يُمزّق قميصه.

فهم بذلك قد نسوا تمزيقه ، وكما يقولون : إنّ آفة الكذب النسيان .

وقوله : بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً ؛ قال ابن عباس : " معناه بل زينت لكم أنفسكم أمراً " . والتسويل : تقدير معنى في النفس مع الطمع في اتمامه .

وقال الازهري : كأن التسويل تفعيل من سؤال الانسان ، وهو امنيته التي يطلبها فتزين لطالبها الباطل وغيره ، وأصله مهموز غير أنّ العرب استثقلوا فيه الهمز.

---

(١) الجامع لاحكام القرآن للقرطبي : ج ٩ ص١٤٤ .

وقال صاحب الكشاف : سوّلت : سهلت من السول وهو الاسترخاء ، أي بمعنى سهلت لكم أنفسكم وهوّنت في أعينكم أمراً عظيماً .

ولامناقضة بين المعنيين فكلاهما جار مع صنيعهم هذا (١) .

وأما قوله : (فصبر جميل والله المستعان على ماتصفون) فبيان لحالة الصبر التي واجه بها هذا الخبر الاليم .. صبر جميل لايصاحبه جزع ولايأس ، ومن ثم هو يطلب من الله عز وجلّ العون على كشف حقيقة مايصفون .

ونلاحظ أنّه عليه السلام لم يسع للكشف عن مصير يوسف لأنه علم تعذر ذلك عليه لكبر سنّه، ولأنه لاعضد له يستعين به على أبنائه أولئك ، وقد صاروا هم الساعين في البعد بينه وبين يوسف ؛ فأيس من استطاعة الكشف عن يوسف بدونهم ، ويدلّ على هذا أنّه حين أحسّ منهم صلاحاً بعد ذلك قال لهم : (اذهبوا فتحسّسوا من يوسف وأخيه.. الآية) (٢) .

ومما لاشك فيه أنّ أفعال أبناء يعقوب هؤلاء تدل على عدم نبوّتهم ؛ لأنها تنفي ذلك إذ انهم قد ارتكبوا فيها جرائم عظيمة والانبياء معصومون عنها .

يقول محمد بن اسحاق بن يسار : " لقد اجتمعوا على امر عظيم من قطيعة الرحم، وعقوق الوالد ، وقلة الرأفة بالصغير الضرع الذي لاذنب له ، وبالكبير الفاني ذي الحق والحرمة والفضل وخطره عند الله ، مع حق الوالد على ولده ؛ ليفرقوا بينه وبين أبيه وحبيبه على كبر سنّه ورقّة عظمه مع مكانه من الله فيمن أحبه طفلاً صغيراً وبين ابنه على ضعف قوته وصغر سنّه وحاجته الى لطف والده وسكونه اليه " (٣) . فتلك أمور عظائم وكبائر لاتصدر من أنبياء .

---

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ٢ ص٤٧١ ؛ التفسير الكبير للفخر الرازي ج١٨ ص١٠٢ ؛ تفسير البيضاوي ج٢ ص١٢٩ ؛ الكشاف للزمخشري ج٢ ص٢٠٨.

(٢) انظر : التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ج١٢ ص٢٤٠ .

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ج٢ ص٤٧٠ .

ونعود الى يوسف وهو في البئر ينتظر فرج الله عليه ومخرجه .. وهاهو يأتيه الفرج وهذا ماتوضحه لنا الفقرة التالية :

٤ - التقاط يوسف وبيعه :

يقول تعالى (وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يابشرى(١) هذا غلام وأسرّوه بضاعة والله عليم بما يعملون . وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين . وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً . وكذلك مكّنّا ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل الاحاديث والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لايعلمون . ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين)(٢) .

وهكذا فرّج الله على يوسف بمرور قافلة تقصد مصر؛ حيث أنّهم أرسلوا واردهم وهو الذي يرد الماء فيستقي لهم ، ولمّا أدلى دلوه تعلق به يوسف حتى خرج من البئر ، ففرح به هذا الرجل فرحاً شديداً وأتى به الى رفقائه يعلن ابتهاجه قائلاً: ياللخبر السارّ هذا غلام ، ثم أخفاه هؤلاء بين أمتعتهم وجعلوه من بضائعهم التي يرغبون في بيعها ، ثم ذهبوا الى سوق مصر ليبيعوه ، فباعوه بدراهم قليلة للتخلّص منه خشية أن يدركهم أهله فينتزعوه منهم، وكان الذي اشتراه هو وزير الملك المسمّى : قوطيفار؛ وهو العزيز الذي كان على خزائن مصر ، وكان الملك يومئذ الريّان بن الوليد رجل من العماليق الهكسوس ، واسم امرأة العزيز : زليخا. وقيل: راعيل

---

(١) قرأ عاصم وحمزة والكسائي : (يابُشْرى) بترك الاضافة ، وقرأ الباقون (يابشرايَ) باثبات ياء الاضافة وفتحها (حجة القراءات لابن زنجلة : ص٣٧٥) .

(٢) سورة يوسف : ١٨ - ٢٢ .

بنت رعاييل.

فأرسله العزيز الى بيته وأوصى امرأته به خيراً؛ وقال لها : أحسني معاملته وأكرميه حتى تطيب له الاقامة معنا لعله ينفعنا أو نتبنّاه فيكون لنا ولداً .

ومرّت الأيام ومنّ الله على يوسف وجعل له مقاماً كريماً في منزل العزيز، بل ومكانة رفيعة في أرض مصر كلها. وإضافة الى هذه النعمة ألهمه الله تفسير الرؤى . وهكذا فان الله لايعجزه شيء وليس هناك حدّ لقدرته وكل مايريده نافذ، ولكن أكثر الناس لايعلمون خفايا حكمته سبحانه .

ومن نعم الله العظيمة عليه التي لاتعلوها نعمة هي نعمة النبوة ، فانه حينما بلغ أشدّه - وهي مرحلة الشباب بحيث استكمل عقله وتمّ خلقه - آتاه الله النبوة وهي تشمل الحكم والعلم إذ الحكم والعلم من مقتضياتها .

وإنّ مثل هذا الجزاء الوافر يثيب الله به عباده الذين بلغوا أعلى الدرجات وهي درجة الاحسان(١) .

---

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٢ ص٤٧٢ ؛ تفسير البيضاوي ج٣ ص١٢٩ ؛ التفسير الكبير للفخر الرازي ج١٨ ص (١٠٦-١٠٧) ؛ مع الانبياء في القرآن الكريم لطبارة ص١٦٠ .

المطلب الثاني : العبـر والفوائـد

١ - العبر والفوائد من عرض الرؤيا على أبيه :

* في عرض يوسف لرؤياه على أبيه دون غيره دلالة على ماينبغي أن يكون عليه الولد إذا عرض عليه عارض بأن يرجع أولاً الى أبيه ليخبره به ، خصوصاً إذا كان الأب من أهل العلم والشفقة على أبنائه . كما أنّ هذا أمر تدفعه الفطرة ، فإنّ من أحبّ الأناسيّ الى الانسان أباه فتراه حين يعرض عليه عارض يتجه نحو أبيه مخبراً إيّاه ؛ لعله يجد الحل المناسب ، وإن كان هناك من سوء في هذا الأمر فإنه يصرفه عنه ، وذلك بما لديه من العلم والخبرة ، وبما يحمله له من الشفقة .

وحول بعض من هذا الكلام أشار القاسمي في تفسيره قائلاً : " إنّما ناجى يوسف اباه بهذه الرؤيا لاعتقاده كمال علمه وشفقته عليه ، بحيث لو كانت رؤياه تسوؤه لأمكنه صرفها عنه " (١) .

* ويقول الشيخ عبد الرحمن السعدي مبيناً أهمّية هذه الرؤيا : " كانت هذه الرؤيا مقدمة لما وصل اليه يوسف - عليه السلام - من الارتفاع في الدنيا والآخرة ، وهكذا إذا أراد الله أمراً من الاصول العظام قدّم بين يديه مقدمة توطئة له وتسهيلاً لأمره ، واستعداداً لما يرد على العبد من المشاق ، ولطفاً بعبده وإحساناً إليه " (٢) .

* ومن قول يعقوب ليوسف حين عرض الرؤيا عليه : (يابنيّ لاتقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً ... الآية) نستفيد مايلي :

- ضـــرورة رعاية الحالة النفسية بين الأبناء من قبل الأبوين ؛ فإنّ ذلـك

---

(١) محاسن التأويل للقاسمي : ج٩ ص١٨٧ .
(٢) تفسير الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي : ج٤ ص٦ .

يؤدّي إلى بقاء العلاقة الأخوية بينهم في أحسن صورها . وهذا يعقوب- عليه السلام - يعلم مايكنّه إخوة يوسف له من بعض الحسد لما كان عليه من مظاهر الجمال والنجابة والفطنة ، فأمره أن لايقصّ عليهم هذه الرؤيا - التي تشير الى شرفه وفضله عليهم - حتى لايؤدي ذلك الى تضاعف نفسية الحسد عندهم ؛ ومن ثم يدبرون له السوء والشر فتنفصم عرى الأخوة بينهم بسبب ذلك .

- ومن هذه المراعاة - أيضاً - أنّه لو علم أحد الأبوين أنّ تحذير بعض الاخوة من بعض يؤدّي إلى اثارة الأحقاد بينهم فان عليه أن لايفعله . ويعقوب عليه السلام - كما ذكرنا - علم أنّ تحذيره هذا لايؤثر في نفسية يوسف شيئاً تجاه إخوته لما علم منه الفهم والصلاح وادراك الامور على حقيقتها ، ولو أنّه علم أنّ هذا التحذير يتبعه إثارة كراهية وحقد في نفس يوسف على إخوته لما فعل ذلك .

- ومما نستفيده - أيضاً - أنّه ينبغي البعد عن أسباب الشر ، واستحباب كتمان مايخشى من مضرته(١) .

- وفي تحذيره - عليه السلام - دليل على أنّه يباح للمسلم أن يحذر أخاه المسلم ممن يخاف عليه ولايكون ذلك داخلا في معنى الغيبة؛ إذ أنّه يجوز ذكر الانسان بما يكره على وجه النصيحة(٢) .

- ويستفاد - ايضاً - جواز ترك اظهار النعمة عند من تخشى غائلته حسداً وكيداً(٣) ، فانه قد نهى يعقوب يوسف أن يخبر إخوته بهذه الرؤيا الدالة على فضله وعظم مكانته ، وهي - بلاشك - من نعم الله عليه .

---

(١) انظر : تفسير السعدي ج٤ ص٦٩ .
(٢) انظر : تفسير القرطبي ج٩ ص١٢٦ ؛ تفسير السعدي ج٤ ص٦٩ .
(٣) تفسير القرطبي : ج٩ ص١٢٧ .

* ومن قوله : (وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الاحاديث ويتمّ نعمته عليك.. الآية) يستفاد مايلي :

- إنّ تعبير يعقوب - عليه السلام - لرؤيا ابنه فيه دلالة على أنّه تعبر الرؤيا ولو من الصغار ، وإن كانت من عالم الخيال(١) .

- إنّ عطف هذا الكلام على تحذيره من قصّ الرؤيا على إخوته فيه إعلام ليوسف بعلوّ قدره ومستقبل كماله؛ كي يزيد تملياً من سموّ الاخلاق فيتسع صدره لاحتمال أذى إخوته والصفح عنهم، وليتمحض كذلك تحذيره عليه السلام للصلاح وتنتفي إثارة البغضاء ونحوها . ولاشك أن هذه حكمة نبوية عظيمة وعلاج ناجح في مسألة كهذه(٢) .

ومن هنا يستفيد الآباء في طريقة معالجة امثال هذه المسائل ، فانه مع تحذير الابن مما قد يلحقه من اخوته من سوء ، لابد من اقتران هذا التحذير بتشجيعه على أن يتسع صدره ويحتمل الاذى المتوقع منهم .

- وفي هذا القول مدحٌ من يعقوب لابنه يوسف ، فيؤخذ منه : جواز مدح الشخص في وجهه اذا لم يضره هذا المدح(٣) . والمعنى : ان المدح يكون بحسب كل انسان فاذا كان الممدوح ممن اذا مدح ازداد خيراً وتقوى وطاعة كان المدح مستحباً في حقه ، اما اذا كان الممدوح ممن قد يغترّ بمدحه فان المدح لايجوز آنذاك .

- وفي قوله : (ويتمّ نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمّها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق ..الآية) دلالة على أنّ نعمة الله على العبد نعمة على من يتعلق به من اهل بيته وأقاربه وأصحابه وأنّه ربما شملهم وحصل لهم ماحصل له بسببه(٤) .

---

(١) محاسن التأويل للقاسمي : ج٩ ص١٩١ .
(٢) انظر : التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ج١٢ ص٢١٥ .
(٣) انظر : محاسن التأويل للقاسمي ج٩ ص ١٩١ .
(٤) تفسير الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي : ج٤ ص٦٩ .

* ومن البلاغة القرآنية في الآيات مايلي :

- قوله : (.. إنّي رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين) فيه استعارة ؛ لأن الكواكب والشمس والقمر مما لايعقل فكان الوجه ان يقال : ساجدة ، ولكنها لما أطلق عليها فعل من يعقل وهو السجود جاز ان توصف بصفة من يعقل لأن السجود من فعل العقلاء(١) .

- وقوله (يابنيّ لاتقصص ..) فيه أنّ النداء مع حضور المخاطب مستعمل في طلب احضار الذهن اهتماماً بالغرض المخاطب فيه(٢) .

- وقوله : (يابني) فيه كناية عن تحبيب وشفقة ، كما فيه كناية عن امحاض النصح له(٣) .

- وقوله : (فيكيدوا لك كيداً) اللام في (لك) لتأكيد صلة الفعل بمفعوله كقوله : شكرت لك النعمى . وتنوين (كيداً) للتعظيم والتهويل زيادة في تحذيره من قص الرؤيا عليهم(٤).

- وقوله : (وكذلك يجتبيك) اي ومثل ذلك الاجتباء يجتبيك ربك في المستقبل . فهاهنا تشبيه تعليلي ؛ لأنه تشبيه احد المعلولين بالآخر لاتحاد العلة(٥).

- وقوله : (كما أتمّها) فيه تشبيه مرسل مجمل(٦) .

----

(١) صفوة التفاسيرللصابوني : ج٢ ص٤٥ .
(٢) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور : ج١٢ ص٢١٢ .
(٣) التحرير والتنوير : ج١٢ ص٢١٢ .
(٤) المرجع السابق: ج١٢ ص٢١٢.
(٥) المرجع السابق : ج١٢ ص٢١٥ .
(٦) صفوة التفاسير للصابوني : ج٢ ص٤٥ .

٢- العبر والفوائد من تدبير المكيدة بيوسف :

* إنّ قولهم : (.. ليوسف وأخوه أحبّ إلى أبينا منّا ونحن عصبة إنّ أبانا لفي ضلال مبين) يشير الى حقد دفين في نفوسهم سببه شعورهم بأن يوسف وأخاه مقربان الى ابيهم يعقوب . وهنا يورد الفخر الرازي سؤالاً فيقول : ان من الامور المعلومة ان تفضيل بعض الاولاد على بعض يورث الحقد والحسد ويورث الآفات ، فلما كان يعقوب عالماً بذلك فلم أقدم على هذا التفضيل ؛ وايضاً الأسنّ والأعلم والانفع افضل فلم قلب هذه القضية ؟ واجاب عليه بقوله : " انه عليه السلام مافضلهما على سائر الاولاد الا في المحبة ، والمحبة ليست في وسع البشر ، فكان معذوراً فيه ولايلحقه بسبب ذلك لوم "(١) .

وأقول : ولم يكن يعقوب عليه السلام بالذي يخفى عليه ذلك ، فقد كان مساوياً بين الجميع في المعاملة والنفقة وغيرها ولم يحابه احداً على احد في الظاهر ، ولكن في قلبه كان يحمل ليوسف واخيه حباً زائداً عن البقية ، ولعل ابناءه الآخرين احسوا بذلك لامن المعاملة والتفريط في حقهم ، انما من بعض قرائن اخرى مما لايستطيع ان يملكه احد . ولكن على كل حال لايفوتنا ونحن في هذا المقام ان نشير الى انه ينبغي على الآباء الاعتناء بمداراة ابنائهم وتربيتهم على تبادل المحبة بينهم ، وعليهم ان يعدلوا بينهم حتى لايقع منهم التحاسد والتباغض ، وان يجتنبوا تفضيل بعضهم على بعض بما يعده المفضول إهانة له ومحاباة لأخيه بالهوى .
وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك مطلقاً فقال : "اتقوا الله

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي : ج١٨ ص٩٢ .

واعدلوا بين ابنائكم " وجاء هذا النهي في الحديث الذي رواه النعمان بن بشير- رضي الله عنه - وفيه : أنّ أباه أتى به رسول الله - صلى الله عليه وسلم- فقال: إنّي نحلت ابني هذا (أي أعطيته غلاماً كان لي). فقال صلى الله عليه وسلم: أكل ولدك نحلته مثل ذلك ؟ فقال : لا . فقال صلى الله عليه وسلم : فأرجعه، وفي رواية: يابشير ألك ولد سوى هذا ؟ فقال : نعم . فقال : أكلهم وهبت لهم مثل هذا ؟ قال: لا. فقال صلى الله عليه وسلم : فلا تشهدني اذاً(١) فإني لاأشهد على جور . ثم قال: أيسرك أن يكونوا إليك في البر سواء ؟ قال : بلى . قال : فلا اذاً . وفي رواية للامام مسلم : " قاربوا بين أولادكم" (٢) . فلابد من آلاباء أن يهتموا بهذه القضية التربوية؛ حتى لاينبتوا بذور الحقد والكراهية، ولترفرف السعادة على حياة الابناء. أما ماكان من ناحية قلبية فهذا أمر لايملكه إلا الله، فما يفعل الانسان بغريزته وقلبه وروحه؟ أيستطيع أن يحول دون سلطانها على جوارحه، وكما قال الشاعر :

دلائل العشق لاتخفى على أحد   كحامل المسك لايخلو من العبق(٣)

---

(١) الاختيار عند البصريين أن تكتب (اذاً) بالألف ، والاختيار عند الكوفيين أن تكتب (إذن) بالنون ؛ لأنها نون في الحقيقة وليست بتنوين. (انظر: أبوالحسن علي بن عيسى الرماني النحوي، معاني الحروف، تحقيق د. عبد الفتاح شلبي، الطبعة الثالثة (جدة- المملكة العربية السعودية: دار الشروق للنشر والتوزيع والطباعة، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤م) ص١١٧).

(٢) رواه البخاري : كتاب الهبة ، حديث رقم (٢١٠٢٠) ، ج٢ ص٢١٢، رواه مسلم: في كتاب الهبات الاحاديث (٩-١٨) .

(٣) انظر: تفسير المنار لمحمد رشيد رضا ج١٢ ص٢٦١.

* ويصف سيد قطب حالتهم التي وصلوا اليها من الحقد والكراهية - الممثلة في قولهم (اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين) - فيقول : " يغلي الحقد ويدخل الشيطان فيختل تقديرهم للوقائع وتتضخم في حسهم أشياء صغيرة وتهون أحداث ضخام . تهون الفعلة الشنعاء المتمثلة في ازهاق روح . روح غلام بريء لايملك دفعاً عن نفسه وهو لهم أخ وهم أبناء نبيّ، يهون هذا وتفخم في أعينهم حكاية إيثار أبيهم له بالحب حتى توارى القتل أكبر جرائم الأرض قاطبة بعد الشرك بالله، وهكذا ينزع الشيطان وهكذا يسول للنفوس عندما تغضب وتفقد زمامها، وتفقد صحة تقديرها للاشياء والاحداث ، وهكذا لما غلا في صدورهم الحقد برز الشيطان ليقول لهم : اقتلوا ... والتوبة بعد ذلك تصلح مافات! وليست التوبة هكذا إنّما تكون التوبة من الخطيئة التي يندفع اليها المرء غافلاً جاهلاً غير ذاكر ، حتى إذا تذكّر ندم ، وجاشت نفسه بالتوبة ، أمّا التوبة الجاهزة! التوبة التي تعد سلفاً قبل ارتكاب الجريمة لإزالة معالم الجريمة فليست بالتوبة انما هي تبرير لارتكاب الجريمة يزينه الشيطان "(١) .

وتعليقاً على كلام سيد قطب اقول: إنّ ماوصلوا إليه نتيجة حقدهم تجاه يوسف لأمر عظيم غير متوقع!! فهم يتمنون موت أخيهم، وقطع وجوده من الحياة!!! ولاشك أن ماأفسد بينهم الا الشيطان -لعنة الله عليه- إذ أن الانسان آخر مايتصوره ويتوقعه أن يفكر في قتل أخيه ولو فعل مافعل.. ولكن ذلك موجود حينما تنحرف الفطرة وينزغ الشيطان؛ ولذلك كان إلزاماً أن يهتمّ الآباء منذ البداية على نشأة اولادهم على حب بعضهم البعض، ومساعدة بعضهم البعض، وعلى تكافلهم وتجانسهم،

---

(١) انظر : في ظلال القرآن لسيد قطب: ج٤ ص١٩٧٢.

وعليهم أن يقتنموا المناسبات والفرص لغرس هذه المعاني؛ بل وتهيئة كل الأسباب المؤدية لذلك حتى يشبّوا وهم قد تأصل في ذوات أنفسهم حب الخير لإخوانهم بل وإيثارهم على أنفسهم، وهذا مايريده الاسلام ويدعو إليه الجميع .

* ثم إنّ قولهم : (ياأبانا مالك لاتأمنّا على يوسف وإنا له لناصحون. أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنا له لحافظون) لمظهر من مظاهر عقوقهم لأبيهم، لأنّهم يكذبون ويفترون عليه ، ويقلبون له الحقائق ويعمون عليه الأمور، وزيادة على هذا كله فانهم يؤكدون كلامهم ليصدقهم وهذا من أشدّ التغرير؛ وكيف وهم يكذبون على نبيّ من أنبياء الله!!!

وفي هذا المقام ينبغي الاشارة الى خلق إسلامي فقده أبناء يعقوب في هذه القصة ، الا وهو خلق الصدق فقد رأينا كيف انهم كذبوا وبالغوا في كذبهم .

ونحن لانقول أنّ يعقوب عليه السلام قد قصّر في جانب تربيتهم على الصدق فحاشا له ذلك؛ بل هي غواية الشيطان لهم ، وتنكبهم عما عودهم عليه أبوهم من الصدق نتيجة ماتغلغل في أنفسهم من الحقد والحسد تجاه يوسف، والحقد والحسد مفتاح - بلاشك - لكثير من الجرائم الخلقية كالكذب وغيره مما قد رأيناه من قبل في تصرفاتهم.

ولكن مع هذا لايفوتني ونحن نتعرض لصفة الصدق أن أقول: إنّه لابد من تعويد الابناء وتربيتهم على التحلي بهذا الخلق والبعد عن ضده منذ الصغر حتى يشبّوا وقد اعتادوا هذا الخلق الكريم ، وابتعدوا عن خلق الكذب المشين، وينبغي أن يكون الآباء هم قدوة حسنة في ذلك والا لما كان هناك أثر لتوجيههم .

ونذكر في كلامنا هنا قصة طريفة ترينا كيف كان يعوّد السلف الصالح ابناءهم على الصدق ، ويعاهدونهم عليه : حتى لايسلكوا في حياتهم غير طريقه : يقول العالم

الرباني الشيخ عبد القادر الكيلاني - رحمه الله - : " بنيت أمري من حين مانشأت على الصدق وذلك أنّي خرجت من مكة الى بغداد أطلب العلم، فأعطتني أمي أربعين ديناراً استعين بها على النفقة ، وعاهدتني على الصدق ، فلما وصلنا أرض همدان خرج علينا جماعة من اللصوص فأخذوا القافلة ، فمر واحد منهم وقال لي : مامعك ؟ قلت : اربعون ديناراً ، فظن اني اهزأ به فتركني ، فرآني رجل آخر ، فقال : مامعك ؟ فأخبرته بما معي، فأخذني الى كبيرهم، فسألني فأخبرته، فقال ماحملك على الصدق ؟ قلت : عاهدتني أمي على الصدق، فأخاف أن أخون عهدها!! ، فأخذت الخشية رئيس اللصوص، فصاح ومزّق ثيابه ، وقال: أنت تخاف أن تخون عهد أمك وأنا لاأخاف أن أخون عهد الله؟! ثم أمر بردّ ماأخذوه من القافلة ، وقال : أنا تائب لله على يديك ، فقال من معه: أنت كبيرنا في قطع الطريق، وأنت اليوم كبيرنا في التوبة، فتابوا جميعاً ببركة الصدق" (١) .

٢- العبر والفوائد من إلقاء يوسف في الجبّ :

* إنّ إلقاء يوسف في الجبّ يعد أول المحن التي مرت به في حياته ، وإنّها لمحنة تمر به وهو لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره.. محنة معنوية وحسية ؛ معنوية لأنّه يلاقي هذا التصرف الخطير من إخوته الكبار الذين ينبغي أن يكونوا مصدر عطف وحنان وشفقة عليه؛ لامصدر عنف وغضب وخطر.. فانّ المصدر الذي يجب أن يستند اليه اصبح مصدراً يجب ان يهرب منه ويبتعد عنه ؛ لأنه وجد القسوة والعنف منه، ومحنة حسية لأنه القي في البئر المظلم المخيف الذي لايتوقع أن يخلو من أشياء تؤذيه ويمكنه النجاة منها ، وقد يؤدي إلقاؤه - أيضاً - الى عطشه وجوعه لانقطاعه عن

---

(١) تربية الاولاد في الاسلام لعبد الله علوان : ج١ ص١٧٥ .

أعين الناس - وقد قيل إنّه مكث ثلاثة أيام في البئر حتى جاءته السيارة(١)- ولاريب أنّ هذه المحنة هي بداية تهيئة له ليكون أقدر احتمالاً على ماسيلاقيه من المحن في حياته .

ويقول الشيخ محمد أحمد جاد المولى - واصفاً هذه المحنة - : " يوسف الآن في الجب يحتويه ظلامه ويشتمله سكونه ، محنة يمتحن بها هذا الفتى الكريم والله يمتحن عباده المخلصين بأنواع المصائب ويفتنهم بضروب الآلام ليكونوا اقدر احتمالاً على مايلقى عليهم من مهمات الامور وعظيماتها ، ولم تكن محنة انكى في الداء وابلغ في الالم وابعث على الجزع من هذه ، وربما كانت أخفّ لو وقعت على رجل خبر الحياة ولكن يوسف لايزال عزيزاً لايعرف شيئاً ، وربما كانت أخفّ لو أنّ يوسف كان قد اقترف خطيئة أو ارتكب إثماً، ولكن كان مبرءاً من كل عيب وخطأ ، ولو أنّ رمية يوسف كانت من غير إخوته ومحنته جاءت من غير أسرته لاحتملها قلبه واتسعت لها جوانب صدره..)(٢).

* يظهر لنا - هنا - شؤم الذنوب وآثارها السيئة على الانسان ، فان الذنب الواحد يستتبع ذنوباً متعددة ولايتم لفاعله إلا بعد جرائم ؛ فاخوة يوسف لما ارادوا التفريق بينه وبين ابيه احتالوا لذلك بأنواع من الحيل وكذبوا عدة مرات، وزوّروا على ابيهم في القميص والدم الذي فيه .. الى آخر أعمالهم السيئة . ألا فليحذر الانسان من الذنوب حتى لاتهلكه وترديه الى سوء المصير(٣) .

* وإنّا لنلمح في قول يعقوب - حين أخبر بأن الذئب أكل حبيبه يوسف- (..فصبر جميل والله المستعان على ماتصفون) قمة الصبر ، والاستعانة بالله على هذه المصيبة ، وكان هذا عزاء له في مصابه .

---

(١) انظر : تفسير البيضاوي ج٣ ص١٢٩ .
(٢) قصص الانبياء لمحمد احمد جاد المولى : ص٧٦ .
(٣) انظر : تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي ج٤ ص٧٠ .

وإنّ ذلك لهو مايطلبه الله من عباده المؤمنين به أن يرضوا بقدره ويسلموا لامره ويستعينوا به فكما قال تعالى : (الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا اليه راجعون) (١) .

* إنّ الله عز وجل كان قادراً على أن يبلغ نبيه بمكان يوسف وما فعلوا به حقيقةً عن طريق وحيه ، ولكن هو الابتلاء لعباده المؤمنين .

* ويستفاد من هذه الآيات بعض الاحكام الفقهية وهي كالتالي :

- إنّ بكاء المرء قد لايدل على صدقه لاحتمال كونه تصنعاً .
- مشروعية المسابقة : من قوله (إنّا ذهبنا نستبق ..) .
واللعب إن كان بين الصغار جاز بما لامفسدة فيه ولاتشبه بالفسقة. وأمّا بين الكبار ففيه ثلاثة أقسام:
الاول : أن يكون في معنى القمار ؛ فلا يجوز .
الثاني : أن لايكون في معناه ، وفيه استعانة وحث على القوة والجهاد كالمناضلة بالقسيّ والمسابقة على الخيل فذلك جائز وفاقاً .
والثالث: أن لايكون فيه عوض كالمصارعة ونحوها . ففي ذلك قولان للشافعية، ورجّح الجواز إن كان بغير عوض أو بعوض يكون دفعه على سبيل الرضا ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم صارع يزيد بن ركانة(٢) ، وروي عن عائشة قالت : سابقت الرسول صلى الله عليه وسلم مرتين فسبقته في الاولى ، فلما بدنت سبقني وقال : هذه بتلك (٢) .

---

(١) سورة البقرة : ١٥٦ .
(٢) رواه ابو داود : كتاب اللباس ، (٢٤) باب في العمائم ، حديث (٤٠٧٨) .
(٢) رواه ابن ماجه : (٩) كتاب النكاح ، (٥٠) باب حسن معاشرة النساء، حديث (١٩٧٩) ، وقال في الزوائد : اسناده صحيح على شرط البخاري .

وقد جاء في الحديث : " ليس من اللهو ثلاثة : ملاعبة الرجل اهله ، وتأديبه فرسه ، ورميه بقوسه "(١) .

- ومن قوله : (قال بل سولت لكم انفسكم امراً ..) استدل على ان الحكم بما يظهر من العلاقة في مثله في التكذيب او التصديق جائز ؛ لأنه عليه السلام قطع بأن الذئب لم يأكله بظهور علاقة كذبهم وهو عدم تخريق القميص(٢) .

* ومن البلاغة القرآنية في الآيات مايلي :

- في قوله : (يخل لكم وجه أبيكم) كناية تلويح عن خلوص محبته لهم دون مشارك(٣) .

- وقوله : (بدم كذب) فيه : أنّ الدم لايوصف بالكذب ، والمراد بدم مكذوب فيه او دم ذي كذب وجيء بالمصدر على طريق المبالغة(٤) .

- وتعبير يعقوب عما اصاب يوسف بقوله (بما تصفون) في غاية البلاغة ؛ لأنه كان واثقاً بأنهم كاذبون في الصفة ، وواثقاً بأنهم ألحقوا بيوسف ضراً فلم يتعيّن عنده نوع الضرر او المصاب ، فأجمل التعبير عنه اجمالاً موجهاً لأنهم يحسبون أنّ مايصفونه هو موته بأكل الذئب إيّاه ، ويعقوب يريد أنّ مايصفونه هو المصاب الواقع الذي وصفوه وصفاً كاذباً(٥) .

---

(١) انظر : محاسن التأويل للقاسمي ج٩ ص٣٠٢ ، الحديث رواه ابو داود: كتاب الجهاد ، (٢٤) باب الوحي ، حديث (٢٥١٣) ، وأخرجه الترمذي ايضاً في كتاب الجهاد، باب فضل الرمي في سبيل الله ، حديث (١٦٣٧) .

(٢) احكام القرآن للجصاص : ج٣ ص١٦٩ .

(٣) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور : ج١٢ ص٢٢٤ .

(٤) صفوة التفاسير للصابوني : ج٢ ص٤٥ .

(٥) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور : ج١٢ ص٢٤٠ .

٤- العبر والفوائد من التقاط يوسف وبيعه في مصر :

* إنّ الله إذا أراد شيئاً أتى به على التدريج ومهّد له أسبابه وصنعها سبحانه، فهاهم أولاء يلتقطونه ويذهبون به ويبيعونه في مصر ، ويشتريه عزيز مصر، الذي أوصى زوجته بأن ترعاه وتحفظه عسى أن ينتفعا به أو يتخذاه ولداً. وتدرج حتى أصبح على خزائن مصر وكان ماكان من أمره ونبوته عليه السلام وجعله رحمة للناس، ومن ثم التقاء إخوته به عن طريق هذه المكانة التي حازها وأخيراً رجوعه الى أبيه في نهاية القصة وتحقق رؤياه التي رآها في صغره !! فسبحان الله خالق كل شيء ومقدره حق التقدير ، لامانع لحكمه ولاراد لقضائه.. وهنا يخشع القلب إزاء عظمة الخالق سبحانه وتعالى في تسيير الامور وتهيئة الاسباب .

* وإنّ قول عزيز مصر لامرأته : (أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً) يذكرني بقول عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - : " أفرس الناس ثلاثة: العزيز في يوسف ؛ حيث قال لامرأته :(أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً)، وابنة شعيب حين قالت لأبيها في موسى : (استأجره ...الآية) ، وابوبكر في عمر - رضي الله عنهما - حيث استخلفه ، وفي رواية اخرى : وامرأة فرعون حين قالت : (قرة عين لي ولك لاتقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً) "(١) .

ويحسن بنا في هذا المقام ان نشير - من باب الفائدة - على حقيقة الفراسة، فللامام ابن القيم - رحمه الله - كلام حولها مختصره مايلي : الفراسة سببها: نور يقذفه الله في قلب عبده ؛ يفرق به بين الحق والباطل، والصادق والكاذب وغير ذلك. وحقيقتها : انها خاطر يهجم على القلب ينفي مايضاده يثب على القلب كوثب الاسد على الفريسة، لكن الفريسة فعيلة بمعنى مفعولة ، وبناء الفراسة كبناء الولاية والامارة والسياسة .

---

(١) مدارج السالكين لابن قيم الجوزية : ج٢ ص٤٨٥ .

وهذه الفراسة على حسب قوة الايمان ، فمن كان أقوى إيماناً فهو أحدّ فراسة.
وقال عمرو بن نجيد : كان شاه الكرماني حادّ الفراسة لايخطئ ، وكان يقول: من غضّ بصره عن المحارم ، وأمسك نفسه عن الشهوات ، وعمر باطنه بالمراقبة وظاهره باتباع السنة وتعوّد أكل الحلال لم تخطئ فراسته .
وقال أبوجعفر الحداد: الفراسة أول خاطر بلامعارض ، فان عارضه معارض آخر من جنسه فهو خاطر وحديث نفس .
وقال الهروي : لايصدق منها إلا فراسة تجنى من غرس الايمان؛ فشبّه الايمان بالغرس لأنه يزداد وينمو ويزكو على السّقي ، ويؤتي أكله كل حين بإذن ربه، وأصله ثابت في الأرض وفروعه في السماء . فمن غرس الايمان في ارض قلبه الطيبة الزاكية، وسقى ذلك الغراس بماء الاخلاص والصدق والمتابعة : كان من بعض ثمره الفراسة.

ومما يذكر أن أعظم الأمّة المحمدية فراسة الصّدّيق ، وبعده عمر بن الخطاب، ووقائع فراسته مشهورة ؛ فانه ما قال لشيء : أظنّه كذا الا كان كما قال. ويكفي في فراسته، موافقته ربه في المواضع المعروفة ، مما كان في شأن اسرى بدر ونحوها.
ويروى أنّ سواد بن قارب مرّ بعمر - رضي الله عنه - ولم يكن يعرفه. فقال: "لقد أخطأ ظنّي، أو أنّ هذا كاهن ، او كان يعرف الكهانة في الجاهلية" فلما جلس بين يديه قال له ذلك عمر . فقال : سبحان الله ياأمير المؤمنين مااستقبلت احداً من جلسائك بمثل مااستقبلتني به . فقال له عمر : ماكنا عليه في الجاهلية اعظم من ذلك. ولكن أخبرني عما سألتك عنه . فقال : صدقت ياأمير المؤمنين كنت كاهناً في الجاهلية ثم ذكر القصة.

ولاشك في أنّ فراسة الصحابة - رضي الله عنهم - أصدق الفراسة، وأصل هذا النوع من الفراسة : من الحياة والنور اللذيْن يهبهما الله تعالى لمن يشاء من عباده فيحيا القلب بذلك ويستنير فلا تكاد فراسته تخطئ . قال تعالى: (أوَ من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ..الآية)" الانعام : ١٢٢ " .

وكان إياس بن معاوية من أعظم الناس فراسة ، وله وقائع مشهورة. وكذلك الامام الشافعي ، وقيل ان له فيها تآليف . والله اعلم(١) .

* وبمناسبة التقاط السيارة ليوسف عيه السلام نقول: إنّها وردت في ديننا الحنيف احكام تختص بمسألة اللقيط ويجدر الاشارة اليها للفائدة :

فاللقيط هو الطفل المنبوذ ، وهو محكوم بحريته : لما روى سعيد عن سفيان عن الزهري أنّه سمع شيبياً أبا جميلة قال : وجدت ملقوطاً فأتيت به عمر بن الخطاب- رضي الله عنه - فقال عريفي :ياأمير المؤمنين انه رجل صالح . فقال عمر: أكذلك هو؟ قال:نعم . فقال : اذهب فهو حر ولك ولاؤه وعلينا نفقته ، أو قال رضاعه.

وقال ابن المنذر : اجمع عوامّ اهل العلم على ان اللقيط حرّ ؛ ولأن الاصل في الآدميين الحرية فيكون حراً . وهو محكوم أيضاً بإسلامه إن كان في دار الاسلام واذا كان فيها مسلم لأنّه اجتمع الدار وإسلام من فيها . وما وجد عنده من المال فهو له، وكذلك مايوجد من الثياب والحليّ ، أو تحته من فراش أو سرير أو غيره لأنه آدمي حر فأشبه البالغ .

وولايته لملتقطه اذا كان مسلماً عدلاً . والمراد ولاية حفظه والانفاق عليه، أمّا اذا كان ليس عنده ماينفق عليه فنفقته في بيت المال.

وما خلفه فهو فيء ؛ وذلك لأن ميراث اللقيط وديته - إن قتل - لبيت المال إن لم يخلف وارثاً معروفاً كغيره من المسلمين .

---

(١) انظر : مدارج السالكين لابن قيم الجوزية ج٢ ص(٤٨٢-٤٨٦) ؛ تهذيب المدارج للعزي ص(٤٩١ - ٤٩٢) .

ومن ادّعى نسبه الحق به مسلماً كان أو كافراً ؛ لأنه أقر له بحق لاضرر فيه على أحد كما لو أقر له بمال . ويتبع الكافر نسباً لاديناً ؛ لأنه محكوم بإسلامه بالدار فلا يزول ذلك بدعوى كافر، ولايدفع الى الكافر ولايسلم له ؛ لأنه لا ولاية لكافر على مسلم(١) .

* ومن البلاغة القرآنية في الآيات : قوله : (يابشرى) فنداء البشرى هنا مجاز ؛ لأن البشرى لاتنادى ، ولكنها شبهت بالعاقل الغائب الذي احتيج اليه فينادى كأنه يقال له : هذا اوان حضورك ، ومنه : ياحسرتا ، ويا عجباً .. فهي مكنية وحرف النداء تخييل أو تبعية ، والمعنى فرح وابتهاج بالعثور على الغلام(٢) .

---

(١) انظر : بهاء الدين عبد الرحمن بن ابراهيم المقدسي ، العدة شرح العمدة (الرياض : مكتبة الرياض الحديثة) ص(٢٦٢ - ٢٦٣) .
(٢) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور :ج١٢ ص٢٤١ .

المبحث الثاني : تعرف يوسف على اخوته
المطلب الاول : بيان القصـة

وقبل أن نبدأ في بيان القصة في هذا المبحث أود أن أشير الى أن هناك فترة زمنية بين ماانتهت اليه احداث المبحث الاول من استقرار يوسف في بيت عزيز مصر، وبين بداية أحداث هذا المبحث ؛ فانه قد مرت بيوسف عليه السلام في هذه الفترة -كما هو معلوم- محن ومنح ، كقصة مراودة امرأة العزيز له ثم كيدها له الى أن ألقي في السجن بسببها . ثم بسبب رؤيا رآها ملك مصر - (إنّي أرى سبع بقرات سمان . .الآية) - وتفسير يوسف لها وهو في السجن ؛ جعل الملك يقربه اليه حتى أولاه على جميع أرض مصر ، فأصبح عزيز مصر وسماه الملك (صفنات فعينج) ، وزوجه (اسنات) بنت أحد كهنة مصر(١) .

ولم نخض في هذه الفترة لعدم صلتها بموضوع بحثنا ؛ اذ المطلوب منا متابعة احداث قصة يعقوب عليه السلام مع ابنائه وما يدور حولها .
وبعد هذه الاشارة نبدأ في بيان القصة بهذا المبحث وهي على النحو التالي :

١- قدوم اخوة يوسف - عليه السلام - الى مصر :

وتحقق تأويل يوسف لرؤيا الملك بمجيء السنوات السبع الخصبة فرعاها يوسف - عليه السلام - بتدبيره ، وخزن الفائض من غلاتها ، ثم جاءت السنوات السبع المجدبة بعدها فحصل قحط شديد لاسيما في البلاد المجاورة لعدم استعداد اهلها كفلسطين وغيرها .

وقد أصاب يعقوب عليه السلام وأهله كما أصـــاب غيرهم من الضيق الشديد في

---

(١) انظر : التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ج٢ ص(٢٠٥-٢٠٦) .

عيشهم ، وقد فشا خبر وجود رزق في مصر ، واصبح الناس يردون اليها من مختلف الاقاليم ويمتارون لأنفسهم وعيالهم .

وكان يوسف لايعطي الرجل اكثر من حمل بعير في السنة الواحدة ، وكان لايشبع نفسه ولايأكل هو والملك وجنودهما الا اكلة واحدة في وسط النهار حتى يتكفأ الناس بما في ايديهم مدة السبع سنين .

وحين ذلك ارسل يعقوب - عليه السلام - ابناءه باستثناء بنيامين الى مصر كي يمتاروا لأنفسهم . ويبين لنا القرآن الكريم قصة مقدمهم على يوسف في مصر وماحدث اثناء ذلك في الآيات الاتية :

(وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه وهم له منكرون . ولما جهزهم بجهازهم قال ائتوني بأخ لكم من ابيكم الا ترون اني أوف الكيل وأنا خير المنزلين . فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولاتقربون . قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون. وقال لفتيانه(١) اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها اذا انقلبوا الى أهلهم لعلهم يرجعون)(٢) .

وتروي لنا الآيات السابقة أنّ أخوة يوسف دخلوا عليه ، وقد كان يقوم هو بنفسه بالكيل للناس والاشراف على ذلك لأهمية هذا العمل ولحفظه عن التلاعب، ومراعاته لكفاف الناس أجمعين .

ودخلوا عليه فعرف أنّهم إخوته بملامحهم وكلامهم وأزيائهم الخاصة بفلسطين(٣) ، أمّا هم فلم يعرفوه لطول عهدهم به ومفارقتهم إيّاه في سنّ الحداثة ونسيانهم إيّاه وتوهمهم أنّه هلك ، ولقلة تأملهم في صورته بسبب التهيّب والاستعظام لمكانته بين الناس ويضاف الى هذا احتمال أنّه كلمهم باللغة المصرية القديمة، ويحتمل

---

(١) قرأ حمزة والكسائي وحفص : (وقال لفتيانه) بالألف ، وقرأالباقون (لفتيته) بدون ألف (حجة القراءات لابن زنجلة ص٣٦١) .

(٢) سورة يوسف : ٥٨ - ٦٢ .

(٣) مع الانبياء في القرآن الكريم لطبارة : ص١٧٤ .

كذلك لتغير اسمه فكما ذكرنا أنّ الملك أسماء (صفنات فعينج) (١). ومما لاشك فيه أنّ هذا الموقف بالنسبة ليوسف موقف مفاجئ جميل ، لأنّ الله جمع بينه وبين إخوته بعد هذه الفترة الطويلة ، وسيعرف بالتدريج أخبار أبيه وأخيه بنيامين منهم ، وسيكون هذا سبباً في جمع شملهم بعد تشتته.

ودعاهم للنزول في ضيافته فاستجابوا ، وأخذ يتكلم معهم واستدرجهم في الكلام حتى ذكروا له حالهم على وجه التفصيل . والظاهر أنّهم ذكروا له - في كلامهم اليه - أنّ لهم أخاً صغيراً من أبيهم لم يحضر معهم لأنّ أباهم يحبه ولايطيق فراقه .

وبعد أن هيّأ لهم الطعام والميرة وأعطاهم مايحتاجون ؛ طلب منهم أن يحضروا معهم اخاهم الصغير من ابيهم في المرة القادمة ، وإلا فلن يكيل لهم ويعطيهم الميرة التي يجيئون من أجلها .

والمسوّغ لهذا الطلب - كما قال البعض - هو أنّه قال لهم يوسف - حين أخبروه عن أخيهم - : أنّ بقاءه عند أبيكم يدل على أنّ حبّ أبيكم له أزيد من حبه لكم وهذا شيء عجيب ؛ لأنه مع جمالكم وعقلكم وادبكم ومحبته لأخيكم اكثر منكم فإن هذا يدل على أنّ هذا الأخ أعجوبة في العقل والفضل والادب فجيئوني به حتى أراه (٢) . وهذا السبب محتمل ومناسب . والله اعلم .

ومن ثم حثّهم - عليه السلام - بالإتيان به وهم قد رأوا منه كل كرم في ضيافته لهم وإيفائه لكيلهم ولايشك في أمره بل هو يريد مصلحتهم ومنفعتهم .

فوعدوه انهم سيحاولون مع أبيهم حتى يسمح لهم بإتيانه اليه (قالوا سنراود عنه أباه وإنّا لفاعلون) ولفظ (نراود) يصور لنا الجهد الذي يعلمون انهم باذلوه مع أبيهم(٣) ، وأكّدوا ذلك بقولهم : (وإنّا لفاعلون) .

---

(١) انظر : تفسير البيضاوي ج٢ ص١٧٣ ؛ مع الانبياء لطبارة ص١٧٤ .
(٢) انظر : التفسير الكبير للفخر الرازي ج١٨ ص١٦٦ .
(٣) في ظلال القرآن لسيد قطب : ج٤ ص٢٠١٦ .

* وأورد القرطبي - رحمه الله - استفساراً حسناً قد يقع السؤال عنه فيقول: "إن قيل كيف استجاز يوسف ادخال الحزن على أبيه بطلب أخيه؟" ثمّ أجاب عنه بأربعة أجوبة:

أحدها : يجوز أن يكون الله عز وجل أمره بذلك ابتلاءً ليعقوب ليعظم له الثواب ؛ فاتّبع أمره فيه .
الثاني : يجوز أن يكون الله أراد بذلك أن ينبّه يعقوب على حال يوسف.
الثالث : لتتضاعف المسرة ليعقوب برجوع ولديه عليه .
والرابع : ليقدم سرور اخيه باجتماعه معه قبل اخوته لميل كان منه اليه(١) ".

أقول : والجواب الاول هو الظاهر والراجح . والله أعلم ؛ إذ أنّ الثاني والثالث مستبعدان لبعد دلالة ذلك الوقت عليهما ، ولبعد معرفة يعقوب ان هذا الطلب هو من يوسف . واما الرابع فهو محتمل ولكن ليس بقوة الاول ، ولاتتحقق فيه الاجابة عن السؤال المطروح ؛ فإن فيه تقديماً لجانب ارتياح يوسف وعدم المراعاة لجانب الأبوة.

* ولما همّ الاخوة بالرحيل امر يوسف فتيانه - الذين يقومون بالاعمال المطلوبة منهم - أن يضعوا بضاعتهم - وهي الأثمان التي جاؤوا بها ليشتروا الطعام بقدرها وقيل انها كانت دراهم ودنانير - في أوعيتهم وأمتعتهم لكي يعرفوها اذا رجعوا الى اهلهم وفتحوها ؛ وذلك حتى يرجعوا اليه فانه علم أنّ دينهم يحملهم على ردّ الثمن لأنهم مطهرون عن اكل الحرام فيكون ذلك أدعى الى العود اليه(٢) .

---

(١) تفسير القرطبي : ج٩ ص(٢٢١ - ٢٢٢) .
(٢) انظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٢ ص١٨٢ .

وأولى من هذا أن يقال : إنّه أراد أن يحملهم - متى رجعوا الى فلسطين وعرفوا حسن صنيعه معهم - على حسن الظن به ؛ اذ أنّه بلغ من الكرم والجود معهم حداً كبيراً ، فيوسف اراد بذلك ان يشجعهم على الرجوع اليه وليعرفوا أنّه يعطف عليهم وانّهم يتوقعون كثيراً من الخير من قِبَله(١).

واني أرى هذا الرأي أولى لعلمهم أنّهم أعطوه الثمن ، وها قد وجدوه في امتعتهم بعد ان رجعوا ، فلايحتمل ذلك نسياناً منهم في اعطاء الثمن له ، بل لاتأويل له الا الاكرام من يوسف لهم .

واما ماقيل : من انه خشي يوسف ان لايكون عندهم بضاعة اخرى يرجعون للميرة بها ، او هو تورّع منه عليه السلام ان يأخذ من ابيه واخوته عوضاً عن الطعام(٢) ، فمعناها محتمل وقد يدخل في باب بيان كرمه لهم وتشجيعهم من بعد للرجوع اليه ، ولكن ليس هنا الاصل في علة عمله هذا . والله اعلم .

* ومن جهة أخرى قد يقال : إنّ مقتضى البر أن يبادر يوسف الى أبيه ويستدعيه فما شأن المسألة هنا ؟ وما فعله يوسف يخالف ذلك ! ويجيب على هذا السؤال ابو حيان فيقول فيما معناه : ان ظاهر كل مافعله يوسف معهم إنّما هو بوحي من الله ، فالله أراد بذلك تكميل أجر يعقوب عليه السلام ومحنته، ولتتفسر رؤيا يوسف عليه السلام(٣) . وهذا هو الصحيح - إن شاء الله - وهو ماأشرنا اليه من قبل .

---

(١) انظر : مع الانبياء في القرآن لطبارة : ص١٧٥ .
(٢) انظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٢ ص ١٨٢ .
(٣) انظر : البحر المحيط لأبي حيان ج٥ ص٣٢٢

٢- عودتهم الى أبيهم :

ولما عادوا الى أبيهم أخبروه عما حدث لهم في مصر مع الوزير ،وأعلموه انه قد منع منهم الكيل بعد هذه المرة إن لم يرسل معهم اخاهم بنيامين لأنه قد طلب إحضاره، وطلبوا منه أن يرسله معهم في المرة القادمة حتى يستطيعوا الاكتيال؛ وأكّدوا له بأنهم سيرعونه ويحفظونه من السوء ويهتمّون بأمره، ولامجال للخوف عليه فانه راجع اليه ، وهذا الكلام شبيه بما قالوا له في يوسف من قبل : (ارسله معنا غداً يرتع ويلعب وانا له لحافظون) ؛ ولهذا فقد ثارت في نفسه ذكريات الماضي فأجابهم والحسرة تملؤ فؤاده : هل أنتم صانعون به إلا كما صنعتم بأخيه من قبل؛ تغيبونه عني وتحولون بيني وبينه ؟ ثم فوّض أمره الى الله وتوكل عليه فهو الحافظ سبحانه وهو أرحم الراحمين وكأنه يقول : هو أرحم الراحمين بي وسيرحمني بحفظه ولا يجمع عليّ مصيبتين. سيرحم كبري وضعفي ووجدي بولدي، وأرجو أن يردّه علي ويجمع شملي به(١).

هذا ماكان من أمرهم في بداية عودتهم إلى أبيهم من مصر ؛ وقد حكته لنا الآيتان التاليتان :

(فلمّا رجعوا إلى أبيهم قالوا ياأبانا منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل(٢) وإنّا له لحافظون . قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل فالله خير حافظاً(٣) وهو أرحم الراحمين)(٤).

---

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٢ ص(٤٨٢ - ٤٨٥) ؛تفسير البيضاوي ج٢ ص١٢٨ .

(٢) قرأ حمزة والكسائي : (أخانا يكتل) بالياء ، وقرأ الباقون: (نكتل) بالنون (حجة القراءات لابن زنجلة ص٢٦١) .

(٣) قرأ حمزة والكسائي وحفص : (فالله خير حافظاً) بالألف ، وقرأ الباقون: (فالله خير حفظاً) بدون الالف (انظر : حجة القراءات لابن زنجلة ص٢٦٢).

(٤) سورة يوسف : ٦٢ - ٦٤ .

* وبعد كلامهم هذا في شأن طلب أخيهم ؛ ذهبوا لفتح أمتعتهم فوجدوا أنّ ماأشتروا به من ثمن قد رُدّ لهم ودُسّ في متاعهم . وحين ذلك قالوا : ماذا نريد وراء هذا إنّ بضاعتنا ردّت الينا وقد أوفي لنا الكيل وأكرمنا أشدّ الاكرام وهذا دافع لنا أن نرجع اليه مرة أخرى ونأتي بالميرة وقد حفظنا اخانا ، ونزداد به كيل بعير وذلك كيل سهل متيسر عليه لايتعاظمه . ولكن الأب الحنون المشفق الذي قد مر بتجربة سابقة أراد أن يستوثق من كلامهم في شأن حفظ ابنه بنيامين فطلب منهم أن يؤتوه موثقاً من الله - (اي عهداً موثوقاً به بسبب تأكده باشهاد الله وبسبب القسم بالله عليه) - فيه أنّهم يأتونه به. إلا أن يغلبوا عليه ولايقدروا على تخليصه؛ فان أعطوه هذا القسم فحينئذ يرسله معهم ، فآتوه موثقهم ، ثم اتبع ذلك عليه السلام بأن اشهد الله على كلامهم اجمعين وعلى ماجرى بينهم من المواثيق (١) .

وهذا تفسير قوله تعالى:

(ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردّت إليهم قالوا ياأبانا مانبغي هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير. قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله لتأتنّني به إلا أن يُحاط بكم فلما آتوه موثقهم قال الله على مانقول وكيل) (٢).

* وجاء وقت رحيلهم -للمرة الثانية - الى يوسف في مصر ليمتاروا . وفي هذه الاثناء نجد يعقوب -عليه السلام - يوصي أبناءه بوصية توحي لنا عما يحمله قلبه الطاهر من الرحمة والشفقة على أبنائه من أن يصيبهم أيّ سوء وهي قوله لهم فيما ذكره الله عنه:

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٨٤ ؛ التفسير الكبير للفخر الرازي ج١٨ ص١٧١ ؛ تفسير النسفي ج٢ ص (٢٢٩ - ٢٣٠) .

(٢) سورة يوسف : ٦٥ - ٦٦ .

(وقال يابنيّ لاتدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرّقة وماأغني عنكم من الله من شيء إن الحكم الا لله عليه توكلت وعليه فيتوكل المتوكلون) (١).

فهو يوصيهم أن لايدخلوا كلهم من باب واحد، وليدخلوا من أبواب عديدة متفرقة، وقصد من هذه الوصية أن لاتصيبهم العين -وهذا ماقاله جمهور المفسرين- وذلك أنّهم كانوا ذوي جمال وهيئة حسنة ومنظر وبهاء . وحتى لايصرفوا هممهم ويربطوه بهذا السبب ذكرهم بخالق الأسباب سبحانه وأشار اليهم أنّ هذا الاحتراز لايرد قدر الله وقضاءه؛ إذ أنّ الله إذا أراد شيئاً لايخالف ولايمانع والحكم لله لالغيره ، فعليه التوكل أولاً وآخراً وعليه فليتوكل المتوكلون فلايتكلوا على شيء سواه سبحانه (٢).

فأطاع الأبناء أباهم ودخلوا من حيث أمرهم. قال تعالى: (ولمّا دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ماكان يغني عنهم من الله من شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها وإنّه لذو علم لما علمناه ولكنّ أكثر الناس لايعلمون) (٣).
وما فعلوه مما أمرهم به لايدفع عنهم شيئاً أراده الله ، ولكنما هي حاجة في نفسه قضاها - عليه السلام - وهي دفع اصابة العين عنهم. ثم أثنى الله عليه بأنه أخذ الاسباب مع علمه بأن الله قادر على كل شيء ولايغني ذلك من الله من شيء كما قال لهم في وصيته : (وما أغني عنكم من الله من شيء).. أثنى عليه بالعلم فهو ذو علم لما علمه الله ؛ اذ انه لم يغتر بتدبيره ، ولكنّ أكثر الناس لايعلمون سر القدر وأنّه لاينجي من الحذر(٤ .

---

(١) سورة يوسف : ٦٧ .
(٢) انظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٢ ص٤٨٤ .
(٣) سورة يوسف : ٦٨ .
(٤) انظر : تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٨٤ ؛ تفسير البيضاوي ج٣ ص١٢٩ .

٢- رجوعهم الى يوسف ثانية واحتجازه بنيامين :

ثم دخل الاخوة على يوسف ومعهم شقيقه بنيامين ؛ فاكرمهم وقام بضيافتهم وأفاض عليهم الصلة والالطاف والاحسان ، واختلى بشقيقه دونهم فأطلعه على شأنه وماجرى له وعرّفه أنّه هو يوسف ؛ وقال له : لاتأسف على ماصنعوا بي ولاتحزن على ذلك ، ثم امره أن يكتم ذلك عنهم وأن لايخبرهم بما أطلعه عليه من أنّه يوسف ، كما أنّه تواطأ معه أنّه سيحتال بحيلة حتى يبقيه عنده .

يقول تعالى : (ولمّا دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه قال إنّي أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون . فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ثم أذّن مؤذن ايتها العير انكم لسارقون . قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون . قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم) (١) .

وتحكي هذه الآيات أيضاً أنّه لما جهزهم وحمّل أبعرتهم طعاماً وضع السقاية في رحل أخيه بنيامين. والسقاية هي إناء من فضة في قول الاكثرين وقيل من ذهب ، وقال ابن زيد: كان يشرب فيه ويكيل للناس من عزّة الطعام إذ ذاك(٢).
ويقول القرطبي في تفسيره: "والسقاية والصواع شيء واحد إناء له رأسان في وسطه مقبض ؛ كان الملك يشرب منه من الرأس الواحد ، ويكال للطعام بالرأس الآخر، قاله النقاش عن ابن عباس ، وكل شيء يشرب به فهو صواع "(٣).
ثم تفقد أعوان يوسف المكيال فلم يجدوه ، وإذ انهم لم يكيلوا في ذلك الوقت إلا لهؤلاء الاخوة؛ فلم يترددوا حينذاك في اتّهامهم بالسرقة، ونادى مناديهم

---

(١) سورة يوسف : ٧٠ - ٧٢ .
(٢) انظر : تفسير القرآن لابن كثير ج٢ ص ٤٨٥ .
(٣) تفسير القرطبي : ج٢ ص٢٢٩ .

مخاطباً أصحاب العير (أيّتها العير إنّكم لسارقون) ، فالتفت الاخوة وسألوا المنادي : ماذا تفقدون ؟ فأخبروهم أنّهم يفقدون صواع الملك الذي يكيل به - وقد ذكرنا صفته آنفاً - واشار - ايضاً - الى أنّه قد وضعت مكافأة لمن يجده ويدل على سارقه وهي حمل جمل من الطعام ، وتكفّل المنادي بذلك لمن يجده (١) .

فحصلت للاخوة دهشة من هذه التهمة وذهلوا منها فدافعوا عن انفسهم دفاع الواثقين بأنهم لم يرتكبوا مااتهموا به : (قالوا تالله لقد علمتم ماجئنا لنفسد في الأرض وما كنّا سارقين) (٢) . فهم يقولون لهم : لقد تحققتم وعلمتم منذ عرفتمونا بأن سجايانا لاتقتضي هذه الصفة القبيحة ، فقال لهم الفتيان : ان كان السارق منكم أنتم فما هي عقوبته ؟ فأجابوا بأن من وجد الصواع في رحله فهو جزاؤه لوحده وذلك جزاء من ظلم ، وهكذا كانت شريعة ابراهيم عليه السلام أنّ السارق يدفع الى المسروق منه ويصبح عبداً له ، وهذا ماأراده يوسف عليه السلام . قال ابن عباس: كانوا في ذلك الزمان يستعبدون كل سارق بسرقته ، وكان استعباد السارق في شرعهم يجري مجرى وجوب القطع في شرعنا(٣) .

وهذا ماجاء في قوله تعالى : (قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين. قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين) (٤) .

ثم جاء دور البحث عن الصواع في رحالهم ، فبدأ يوسف يفتش في أوعية اخوته قبل وعاء أخيه بنيامين؛ تورية وحتى لايظنّ أنّ الأمر مدبّر ومبيّت من ذي قبل، ثم استخرجها من وعاء اخيه بنيامين ، فأخذ بنيامين منهم بحكم مقالتهم بما يعتقدونه في شريعتهم من جزاء السارق(٥) .

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٨٥ ؛ البحر المحيط لأبي حيان ج٥ ص٣٢٠ .

(٢) سورة يوسف : ٧٣ .

(٣) انظر : التفسير الكبير للفخر الرازي ج١٨ ص١٨٠ .

(٤) سورة يوسف : ٧٤- ٧٥ .

(٥) انظر : تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٨٥ .

وكل هذا إنّما كان بوحي من الله وأمر منه ودليله قوله تعالى :

(فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه كذلك كدنا ليوسف ماكان ليأخذ أخاه في دين الملك إلاّ أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم) (١) .

فقوله (كذلك كدنا ليوسف) دليل على أن الله دبّر له هذا التدبير الدقيق، ولو حكم بشريعة الملك ماتمكن من أخذه ؛ إنّما كان يعاقب السارق على سرقته دون أن يستولي على أخيه كما استولى عليه بتحكيم إخوته لدينهم، وهذا هو كيد الله له؛ وهو من الكيد المحبوب المراد الذي يحبه الله ويرضاه لما فيه من الحكمة والمصلحة المطلوبة ؛ فالكيد يطلق على التدبير في الخفاء للخير والشر سواء .

ويوسف - كما ذكرنا - كان عالماً بأن جزاء السارق في شريعتهم أن يأخذه من سرق منه ؛ ولهذا مدحه الله فقال (نرفع درجات من نشاء) ، كما قال هناك: (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) (٢) ، والحال أنّ فوق كل ذي علم عليم، وقال الحسن البصري : ليس عالم إلا فوقه عالم حتى ينتهي الى الله عز وجل (٢) .

* وأورد الفخر الرازي في هذا المقام سؤالاً وأجاب عليه من عدة وجوه ذكرها المفسرون فقال: "فان قيل : هل كان هذا النداء بأمر يوسف او ماكان بأمره؟ فان كان بأمره فكيف يليق بالرسول الحق من عند الله أن يتّهم أقواماً وينسبهم الى السرقة كذباً وبهتاناً ، وإن كان الثاني وهو أنّه ماكان ذلك بأمره فهلاّ أنكره وهلاّ أظهر براءتهم عن تلك التهمة .

---

(١) سورة يوسف : ٧٦ .
(٢) سورة المجادلة : ١١ .
(٢) انظر : تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٨٥ ؛ في ظلال القرآن لسيد قطب ج٤ ص(٢٠١٩ - ٢٠٢٠) .

والجواب أنّ العلماء ذكروا عدة أجوبة :

(أوّلها) أنه - عليه السلام - لما أظهر لأخيه أنّه يوسف قال له: إنّي أريد أن أحبسك ههنا ، ولاسبيل اليه الا بهذه الحيلة فان رضيت بها فالأمر لك فرضي بأن يقال في حقه ذلك .. وعلى هذا التقدير لم يتألم قلبه بسبب هذا الكلام فخرج عن كونه ذنباً .

(ثانيها) أنّ المراد انكم لسارقون يوسف من أبيه الا أنّهم ماأظهروا هذا الكلام ، والمعاريض لاتكون الا كذلك .

(ثالثها) أنّ ذلك المؤذن ربما ذكر ذلك النداء على سبيل الاستفهام ؛ وعلى هذا التقدير يخرج عن أن يكون كذباً .

(ورابعها) ليس في القرآن أنّهم نادوا بذلك النداء عن امر يوسف ، والاقرب الى ظاهر الحال أنّهم فعلوا ذلك من أنفسهم ؛ لانهم لما طلبوا السقاية وماوجدوها وماكان احد الا هم فغلب على ظنهم أنّهم هم الذين اخذوها ثم إنّ إخوة يوسف (قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون ؟ قالوا نفقد صواع الملك ..)(١).

وأضاف القرطبي اجابة اخرى على ماأورده الفخر الرازي ، فقال : " انه اراد ايتها العير حالكم حال السراق . والمعنى : ان شيئاً لغيركم صار عندكم من غير رضا الملك ولاعلمه ."(٢) .

أقول: والعصمة ليوسف مؤكدة له بكونه نبياً ، ولكنما هذه الاجوبة اجتهادات محتملة للخروج من أن يقال عنه أنّه مذنب بفعله هذا ، كما أنّه سنورد في العبر والفوائد مايدل على جواز فعله هذا من اصله ؛ دونما الاحتياج لأيّة اجتهادات تبرىء يوسف عليه السلام .

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي : ج١٨ ص١٧٩ .

(٢) تفسير القرطبي : ج٩ ص٢٢١ .

* وهناك سؤال آخر ذكره القرطبي في تفسيره وهو أنّه كيف رضي بنيامين بالعود طوعاً وفيه عقوق الاب بزيادة الحزن ووافقه على ذلك يوسف . وأجاب عنه بقوله: انّ ذلك الحزن كان قد غلب على يعقوب بحيث لايؤثر فقد بنيامين كل التأثير ، أوَلا تراه لما فقده قال : (ياأسفا على يوسف) ولم يعرّج على بنيامين ، ولعل يوسف إنّما وافقه على العود بوحي فلااعتراض(١) .
وقد قلنا من ذي قبل إنّ قوله تعالى (كذلك كدنا ليوسف) يدلّ على أنّ الأمر كان بوحي من الله ، فلااعتراض . والله أعلم .

٤ - استعطاف يوسف لترك بنيامين :

ولما رأى الاخوة أنّ الصواع قد أخرج من متاع بنيامين أخجلهم ذلك وأخذوا يتنصّلون باعتذار يبرىء جماعتهم دونه؛ فشبّهوه باخيه يوسف -ظناً منهم- أنّ يوسف قد سرق في صغره!!: (قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل) .

ومما لاشك فيه أنّ اتهامهم هذا ليوسف باطل وغير صحيح ؛ إذ أنّ الأنبياء معصومون من الذنوب في حياتهم كلها . ولكن كلامهم هذا لابد وأن يكون مرتبطاً بحادثة معينة جعلتهم يظنون انه قد سرق ، وقد اورد المفسرون عدداً من الروايات لايصدق عليها وصف يوسف بالسرقة ؛ بل هي في عداد خلقه الطيب وسيرته ونشأته الصالحة منذ صغره. فيذكر ابن كثير في تفسيره: أن سعيد بن جبير قال عن قتادة : كان يوسف عليه السلام قد سرق صنماً لجده أبي أمه فكسره . وذكر القرطبي فيها ايضاً عن سعيد: إنّما أمرته أمّه أن يسرق صنماً كان لجده أبي أمّه فسرقه وكسره وألقاه على الطريق، وكان ذلك منهما تغييراً للمنكر ، فرموه بالسرقة وعيّروه بها(٢).

---

(١) تفسير القرطبي: ج٩ ص٢٢١ .
(٢) انظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٢ ص٤٨٦ ؛ تفسير القرطبي ج٩ ص٢٢٩ .

وقيل : كان يسرق من طعام المائدة للمساكين ، فكان في البيت عناق او دجاجة فأعطاها السائل . وقيل : دخل كنيسة وأخذ تمثالاً صغيراً من الذهب فكسره (١) .

وذكر ابن كثير - ايضاً - في رواية عن محمد بن اسحاق عن عبد الله بن ابي نجيح عن مجاهد قال : كان أول مادخل على يوسف من البلاء فيما بلغني أنّ عمّته ابنة اسحاق عليه السلام وكانت اكبر ولد اسحاق وكانت عندها منطقة اسحاق ، وكانوا يتوارثونها بالكبر ، وكان من اختبأها ممن وليها كان له سلماً لاينازع فيه يصنع فيه مايشاء ، وكان يعقوب حين ولد له يوسف قد حضنته عمته وكان لها به وله؛ فلم تحبّ أحداً حبها إيّاه ، حتى اذا ترعرع وبلغ سنوات تاقت اليه نفس يعقوب عليه السلام فأتاها فقال: ياأخيه سلّمي اليّ يوسف فوالله ماأقدر على أن يغيب عني ساعة . قالت : فوالله ماأنا بتاركته. ثم قالت : فدعه عندي أياماً أنظر اليه وأمكن عنه لعل ذلك يسليني عنه، فلما خرج من عندها يعقوب عمدت الى منطقة اسحاق عليه السلام فحزمتها على يوسف من تحت ثيابه ، ثم قالت : فقدت منطقة اسحاق فانظروا من أخذها ومن اصابها ؟ فالتمست ثم قالت : اكشفوا اهل البيت فكشفوهم فوجدوها مع يوسف ، فقالت: والله إنّه لي لسلم أصنع فيه ماشئت فأتاها يعقوب فأخبرته الخبر، فقال لها: أنت وذاك، إن كان فعل ذلك فهو سلم لك، مااستطيع غير ذلك . فأمسكته فما قدر عليه يعقوب حتى ماتت(٢) .

فهذه الروايات - كما نلاحظ - ليس فيها مجال للطعن في يوسف عليه السلام ورميه بالسرقة ، ويحتمل حصول احدها او جميعها - والله اعلم بذلك - فلاننكرها ولانردها ؛ اذ لامنافاة بينها وبين ماورد في القرآن الكريم ، بل ان فيها تنزيهاً لساحة نبي الله يوسف عليه السلام وإثباتاً لعصمته، كما أنّنا لانجزم بصحتها كحال غيرها من الاسرائيليات التي لاتعارض الصحيح .

---

(١) انظر : تفسير البيضاوي ج٢ ص١٤٠ .

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ج٢ ص٤٨٦ .

وحين سمع يوسف مقالتهم هذه أكنّ في نفسه كلاماً ولم يظهره (فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم) وهذا الكلام هو قوله : (قال أنتم شرّ مكاناً والله أعلم بما تصفون) ومعنى قوله : أي أنتم أسوأ منزلة وأقل قدراً باقترانكم الكذب والله أعلم بكذب ماتدّعون .

أليسوا هم السارقين الذين سرقوه من أبيه وألقوه في الجبّ وفعلوا مافعلوا به من القبائح؟!! فهو - عليه السلام - بإسراره هذا القول وكتمه إيّاه في نفسه لم يقابل اتّهامهم بما يكرهون بل كظم غيظه وحلُم(١) .

* ثم أخذ اخوة يوسف يستعطفونه ليترك اخاهم بنيامين :(قالوا ياأيها العزيز ان له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه إنّا نراك من المحسنين)(٢) . وإنّهم ليستعطفونه بحال والدهم ذلك الشيخ الكبير الذي لايكاد يطيق فراقه لحبه الشديد له، ولأنه علالة يتعلل ويتسلى به عن شقيقه الهالك .

وبياناً لحرصهم على طلبهم وزيادة لاستعطافهم له قالوا له: خذ أحدنا بدلاً وعوضاً عنه ونحن قد عرفنا منك كل خير ومعروف وإكرام وفضل ؛ فلسنا عند أبينا بمنزلته من المحبة والشفقة(٣) .

ولكن هذا الاستعطاف لايقف أمام أمر الله سبحانه ، وماأراده الله عز وجل من هذه القضية فقال لهم يوسف : (قال معاذ الله أن نأخذ إلاّ من وجدنا متاعنا عنده انا اذاً لظالمون)(٤) اي لانأخذ الا من وجد عنده المكيال ؛ وإذا اخذنا غيره فانا ظالمون لهذا البديل ، وأنتم قد حكمتم بذلك واعترفتم فلا مجال للتراجع .

---

(١) انظر : مع الانبياء لطبارة ص١٧٩ ؛ تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي ج٤ ص٩٤.

(٢) سورة يوسف : ٧٨ .

(٣) انظر : تفسير ابي السعود ج٤ ص٢٩٩ ؛ تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٢ ص٤٨٦ ؛ تفسير البيضاوي ج٣ ص١٤٠ .

(٤) سورة يوسف : ٧٩ .

* وبعد إذ لم ينفع شيء مع يوسف عليه السلام بدأ الاخوة يفكرون فيما يفعلون مع ابيهم ؛ وقد وعدوه ان يردوا اليه بنيامين ، وتبين لنا الآيات التالية ماذهبوا اليه في تفكيرهم :

(فلما استيئسوا منه خلصوا نجيّا قال كبيرهم ألم تعلموا انّ أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ومن قبل مافرطتم في يوسف فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين . ارجعوا الى أبيكم فقولوا ياأبانا انّ ابنك سرق وما شهدنا الا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين . وسئل القرية التي كنّا فيها والعير التي أقبلنا فيها وإنّا لصادقون) (١) .

وبيان هذه الآيات كما يلي :

إنّهم لما يئسوا من يوسف وإقناعه وإجابته لطلبهم ؛ انفردوا عن الناس واختلوا بانفسهم وأخذوا يتناجون فيما بينهم ويتشاورون في موقفهم مع ابيهم ، فانتهى الرأي الى اخيهم الاكبر فقال لهم : ماينبغي لكم ان تنسوا ماعاهدتم الله عليه امام والدكم من انكم ستحافظون على بنيامين وترجعونه اليه سالماً ، هذا وقد فرطتم في يوسف من قبل فأحزنتموه بفراقه ، وإنّي لاأستطيع الرجوع معكم ومقابلة أبي فسأمكث هنا في مصر ولن أترك أرضها حتى يأذن لي أبي في الرجوع اليه راضياً عني؛ أو يقضي الله لي بالرجوع الكريم بان يأتي أخي معي وهو أحكم الحاكمين .

ثم أمرهم أن يخبروا أباهم بصورة ماوقع حتى يكون لهم عذراً عنده ويتنصّلوا اليه ويبرؤا مما وقع بقولهم: انّ بنيامين قد سرق ونفذ فيه حكم الاسترقاق، وقد رأينا ذلك كله رأي العين، ولو كنّا نعلم بأنه سيسرق وسيحصل ما حصل لما أخذناه ، معنا.

---

(١) سورة يوسف : ٨٠ -٨٢ .

وامرهم أيضاً أن يقولوا له : إن كنت شاكاً فيما بلغناك به فارسل أنت من شئت ليأتوك بشهادة من أهل مصر ، واستجوب بنفسك رفاقنا الذين عدنا معهم في القافلة لينبؤوك عن صدقنا وأمانتنا وحفظنا وحراستنا ؛ وإنا لصادقون كل الصدق فيما أخبرناك به من أنه سرق وأخذ بسرقته(١) .

---

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٢ ص٤٨٧ ؛ مع الانبياء في القرآن لطبارة ص١٧٩ .

المطلب الثاني : العبر والفوائـــد

١ - العبر والفوائد من قدومهم لمصر :

* إنّ وصول يوسف عليه السلام الى مكانة مرموقة في مصر ؛ والى عيشة طيبة فيها ليدلنا على حسن عاقبة الصبر ، فما مرت به محنة الا وصبر عليها وزاد ايمانه بسببها ، ومن ثم أخرجه الله منها مخرجاً مباركاً ، حتى وصل الى مرتبة كريمة عند الله وعند الناس ...وتلك هي نتيجة الصبر . وكما يقولون : " الصبر مفتاح الفرج ". وحقاً هو مفتاحه(١) .

* وكذلك نرى فائدة الاحسان جلية واضحة في قصة يوسف عليه السلام ففيها ترغيب بفضيلة الاحسان ، وبيان آثارها في نيل سعادة الدنيا والآخرة. وأول مايطالعنا من فوائده ماقاله تعالى: (ولمّا بلغ أشدّه آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين) فيوسف لم يؤت الحكمة والعلم محاباة بل لسابق إحسانه، ولاشكّ أنّ نعمة العلم والحكمة افضل نعم الحياة على ذوي النفوس الكبيرة ولاتقاس بها نعمة المال . واعطاه الله كذلك السلطة والنفوذ والجاه جزاء احسانه : (ولقد مكنّا ليوسف في الارض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولانضيع أجر المحسنين). فهذه الآية وعد من الله بأن من كان محسناً مكّنه الله في الأرض وأصابه برحمته، فليس هذا العطاء مرتبط بذات الشخص انما بما اتصف به . ولنتأمل قوله تعالى: (ولانضيع أجر المحسنين) فما أعظم وقعها على النفس ، وإنّها لبلسم لأصحاب النفوس السامية المحسنة الصابرة؛ وإنّها لحافزة لهم في الاستمرار في كفاحهم في سبيل الاحسان(٢) .

* وإنّه لمن تدبير الله العظيم لسير القصة ووصولها الى مايريده أن جعل يوسف عليه السلام يعرف اخوته من البداية وجعلهم لايعرفونه ؛ ولو عرفوه لتغيّر مجرى القصة ولحصلت أمور اخرى. وهكذا إذا أراد الله أمراً هيّأ له في كلّ خطوة

---

(١) انظر : مع الانبياء في القرآن الكريم لعفيف طبارة ص(١٩٢) .
(٢) انظر : المرجع السابق ص(١٩٢) .

سبباً موصلاً له . وهذا ماشاهدناه وسنشاهده في مجريات القصة : فمهما عزّت الامور فليس شيء على الله بعزيز ، ومهما ذكر المفسرون من تعليلات تسوّغ معرفته لهم وعدم معرفتهم له : فلن تكون هي السبب الحقيقي في ذلك خصوصاً وأنّ الآيات تشير الى أنّهم قد جلسوا معه ، وقد استضافهم وتحدث كل منهما مع الآخر ومع ذلك لم يعرفوه : بل لم يخطر في بالهم انه قد يكون هذا هو يوسف أخوهم. فلنعتبر!!!

* ومن البلاغة القرآنية في الآيات مايلي :

- قوله : (فعرفهم وهم له منكرون) فيه : طباق بين عرف وأنكر(١) .
- وقوله: (ولما جهزهم بجهازهم) فيه : جناس الاشتقاق(٢) .

٢- العبر والفوائد من عودتهم الى أبيهم :

* تتجلى لنا عاطفة الابوّة الحقة - مرة اخرى - في شخص يعقوب - عليه السلام - تجاه بنيامين : فانّه حين طلب منه أبناؤه أن يسمح لهم باصطحاب بنيامين معهم في الرحلة القادمة الى مصر خاف أن يصيبه مثل ماأصاب يوسف منهم ، فأشفق عليه ليصرف عنه السوء المحتمل .

وهكذا ينبغي أن يكون الآباء في حرصهم على ابنائهم بقطع كل الاسباب المؤدية الى احتمال اصابتهم بسوء : إذ أن هذا من واجبات الأبوة المطلوبة .

* انّ سوء الظن مع وجود القرائن الدالة عليه غير ممنوع ولامحرم ، فإنّ يعقوب قال لأبنائه بعد ماامتنع من ارسال يوسف معهم حتى عالجوه أشدّ المعالجة، ثم قال لهم بعد ماأتوه وزعموا انّ الذئب أكله: (بل سولت لكم أنفسكم أمراً) ، وهنا

---

(١) صفوة التفاسير للصابوني : ج٢ ص٦٠ .
(٢) المرجع السابق : ج٢ ص٦٦ .

قال لهم في بنيامين : (هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل) ، ثم لما احتبسه يوسف عنده وجاء إخوته لأبيهم معتذرين قال لهم : (بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً) فهم في الأخيرة هذه وإن لم يكونوا مفرطين فقد جرى منهم ماأوجب لأبيهم أن قال ماقال من غير إثم ولاحرج (١) .

* إن للايمان بالله والثقة واليقين به اكبر الاثر في النفس البشرية ؛ اذ بذلك يكون لها العزاء عند حلول المصائب والحوادث ، وتكون لها الطمأنينة والرضا عندها أيضاً ، وبها يشمخ المؤمن الى قمة الايمان ، فهذا يعقوب عليه السلام نشهد موقفه الايماني العميق بلطف العناية الالهية ، وبالثقة بما يقدره الله وباليقين بأن ماسيكون هو الخير من الله ، وإنا لنشهد ذلك في قوله - عند طلب أبنائه أخذ بنيامين معهم وهو لايريد ذلك ولكنه مضطر لحاجتهم الى الميرة - : (فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين) (٢) .

* وفي وصية يعقوب لأبنائه بقوله : (يابَنيّ لاتدخلوا من باب واحد وادخلوا من ابواب متفرقة) نرى - ايضاً - حرصه وشفقته عليهم من أن يصيبهم شر وسوء من اعين الناس .

ونستدل من هنا على أنّ استعمال الاسباب الدافعة للعين وغيرها من المكاره ، أو الرافعة لها بعد نزولها جائز ؛ وإن كان لايقع شيء الا بقضاء الله وقدره ، فان الأسباب أيضاً من قضاء الله وقدره .

ومما لاشك فيه أنّ العين حق وقد ثبت ذلك عن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، فروي عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : " أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أمر أن يسترقى من العين " (٣) .

---

(١) تفسير الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي : ج٤ ص٧٩ .
(٢) انظر : مع الانبياء في القرآن الكريم لطبارة ص١٨٧ .
(٣) رواه البخاري : كتاب الطب ، باب رقية العين ، حديث (٥٢) .

وعن أمّ سلمة - رضي الله عنها - ان النبي صلى الله عليه وسلم رأى في بيتها جارية في وجهها سفعة (صفرة) فقال : " استرقوا لها فإن بها النظرة " (١) .
وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : " العين حق ... الحديث " (٢) ، وفي صحيح مسلم - ايضاً - قوله صلى الله عليه وسلم : " العين حق ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين " (٣) .
وعن عائشة - رضي الله عنها - انها قالت : كان اذا اشتكى رسول الله صلى الله عليه وسلم رقاه جبريل فقال : " باسم الله يبريك ومن كل داء يشفيك ومن شر حاسد اذا حسد وشر كل ذي عين " (٤) .

فما ذكرناه من هذه الاحاديث الشريفة يدلنا على ان العين حق ، ومن ثم فإنه لابد ان يأخذ الانسان بالاسباب التي تدفعها او تفسدها ، كما روي عن ابن عباس قال:
كان النبي صلى الله عليه وسلم يعوّذ الحسن والحسين ويقول: "إنّ أباكما كان يعوذ بهما اسماعيل واسحاق ، أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامّة" (٥) .
وقد أوصى صلى الله عليه وسلم العائن أن يتوضأ ثم يغسل من وضوئه المعين الذي أصيب بالعين. إلى غير ذلك ممّا يكون سبباً دافعاً أو مفسداً للاصابة بالعين(٦) ، فعلى الآباء ان يستفيدوا من هذا الهدي النبوي ويأخذوا بكل الاسباب التي تبعد العين عن أبنائهم، أو التي تدفعها بعد حلولها وإصابتها وليتوكلوا على الله في ذلك.

---

(١) رواه البخاري : كتاب الطب ، باب رقية العين ، حديث (٥٤) .
(٢) رواه البخاري : كتاب الطب ، باب العين حق ، حديث (٥٥) .
(٣) رواه مسلم : كتاب السلام ، حديث (٤٠) .
(٤) رواه مسلم : كتاب السلام ، حديث (٣٧) .
(٥) رواه البخاري : كتاب الانبياء ، حديث (١٧٢) .
(٦) انظر : التفسير الكبير للفخر الرازي ج١٨ ص(١٧٠-١٧٢) .

* إنّ التوكل على الله يورث المؤمن الراحة والطمأنينة والرضا بما يكتبه الله، والتوكل - بلاشك -هو صفة عباد الله الصادقين في ايمانهم ؛ فهذا يعقوب - عليه السلام - نراه في سورة المتوكل بالله ، فانه بعد وصيته لأبنائه بأن يدخلوا من أبواب متفرقة قال لهم : (وما أغني عنكم من الله من شيء)، وإنّ حيطته واحترامه لاتنافي قوله هذا ، فتجعل هذه الوصية كل الطمأنينة في نفسه، بحيث إنّه وإن أصاب أولاده شيئ فانه لايتحسر ولايندم لقيامه بالواجب واخذه بالاسباب وتوكله على الله أولاً وأخيراً.

وهذا ماينبغي أن تكون عليه حالة المؤمن في أخذه بالاسباب ثم ربطها بخالقها سبحانه والتوكل عليه حق التوكل .

وبمناسبة ذكرنا للتوكل فانه يجدر بنا أن نبيّن بعض الحقائق عنه لأهميته العظمى فنقول: إنّ التوكل يعتبر نصف الدين ، والنصف الثاني : الانابة؛ فالدين استعانة وعبادة، والتوكل هو الاستعانة والانابة هي العبادة. بل هو محض العبودية وخالص التوحيد .

وللتوكل درجات :

أولها - معرفة بالرب وصفاته : من قدرته وكفايته وقيوميته ، وانتهاء الامور الى علمه وصدورها عن مشيئته وقدرته . وهذه المعرفة أول درجة يضع بها العبد قدمه في مقام التوكل.

ثانيها - اثبات في الاسباب والمسببات : فالتوكل من أعظم الأسباب التي يحصل بها المطلوب ويندفع بها المكروه . فمن أنكر الأسباب لم يستقم منه التوكل . ولكن من تمام التوكل : عدم الركون الى الأسباب ، وقطع العلاقة بها فيكون حال قلبه قيامه بالله لا بها، وحال بدنه قيامه بها ؛ فالاسباب محل حكمة الله وأمره ودينه. والتوكل متعلق بربوبيته وقضائه وقدره . فلاتقوم عبودية الاسباب الا على ساق التوكل. ولايقوم ساق التوكل الا على قدم العبودية، بل إن التجرد من الاسباب جملة ممتنع عقلاً وشرعاً وحساً.

وما أخلّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء من الأسباب وقد ظاهر بين درعين يوم أحد، ولم يحضر الصف قط عرياناً، واستأجر دليلاً مشركاً على دين قومه

يدله على طريق الهجرة ... الخ ، وجميع أصحابه كانوا كذلك وهم أولوا التوكل حقاً، وأكمل المتوكلين بعدهم : هو من اشتمّ رائحة توكلهم من مسيرة بعيدة أو لحق أثراً من غبارهم.

ثالثها - رسوخ القلب في مقام توحيد التوكل ؛ فانه لايستقيم توكل العبد حتى يصح له توحيده ، وعلى قدر تجريد التوحيد تكون صحة التوكل ، فان العبد متى التفت الى غير الله اخذ ذلك الالتفات شعبة من شعب قلبه ؛ فنقص من توكله بقدر ذهاب تلك الشعبة، ومن ههنا ظن من ظنّ أنّ التوكل لايصحّ الا برفض الاسباب، وهذا حق، لكن رفضها عن القلب لاعن الجوارح ، فالتوكل لايتم الا برفض الاسباب عن القلب وتعلق الجوارح بها فيكون منقطعاً منها متصلاً بها.

رابعها - اعتماد القلب على الله ، واستناده وسكونه اليه بحيث لايبقى فيه اضطراب من تشويش الاسباب ، ولاسكون إليها ، بل يخلع السكون اليها من قلبه ويلبسه السكون الى مسببها .

خامسها - حسن الظن بالله . فعلى قدر حسن ظنه بالله ورجائه له يكون توكله عليه ، ولذلك فسر بعضهم التوكل بحسن الظن بالله . والتحقيق : أنّ حسن الظن به يدعوه الى التوكل عليه ؛ إذ لايتصور التوكل على من ساء الظن به، ولا التوكّل على من لايرجى.

سادسها - استسلام القلب له ، وانجذاب دواعيه كلها اليه ، وقطع منازعاته، وهذا معنى قول بعضهم : التوكل اسقاط التدبير . يعني الاستسلام لتدبير الله لك وهذا في غير باب الامر والمنهي بل فيما يفعله بك لا فيما أمرك بفعله. فان توكل العبد هذا التوكل : اورثه علماً بأنه لايملك قبل عمله استطاعة ويعود لايأمن مكر الله، فاستطاعته بيد الله لابيده . فهو مالكها دونه . فانه إن لم يعطه الاستطاعة فهو عاجز، فهو لايتحرك الا بالله ، لابنفسه . فكيف يأمن المكر ، وهو محرّك لامحرِك؟ يحركه من حركته بيده ..

سابعها - التفويض : وهو روح التوكل ولبه وحقيقته . وهو القاء اموره كلها الى الله ، وانزالها به طلباً واختياراً لاكرهاً واضطراراً . بل كتفويض الابن العاجز الضعيف المغلوب على أمره كل أموره الى أبيه العالم بشفقته عليه ورحمته وتمام

كفايته وحسن ولايته له وتدبيره له . فهو يرى أنّ تدبير أبيه له خير من تدبيره لنفسه - ولله المثل الاعلى - ، والمفوّض لايفوض أمره الى الله إلا لإرادته أن يقضي له ماهو خير له في معاشه ومعاده ، وان كان المقضي له خلاف مايظنه خيراً فهو راض به؛ لأنه يعلم أنّه خير له وإن خفيت عليه جهة المصلحة فيه ، فلايستقيم مقام التوكل الا بالتفويض ، فانه اذا فوّض امره اليه اعتمد بقلبه كله عليه بعد تفويضه .

وثامنها(آخرها) - الرضا بما يفعله وكيله سبحانه : فإنه اذا توكل حق التوكل رضي بما يفعله وكيله وباستكمال هذه الدرجات الثمان يستكمل العبد مقام التوكل وتثبت قدمه فيه . وهذا معنى قول بشر الحافي : يقول احدهم : توكلت على الله، يكذب على الله . لو توكل على الله لرضي بما يفعله الله به(١) .

* ومن البلاغة القرآنية في قوله تعالى : (لاتدخلوا من باب واحد وادخلوا من ابواب متفرقة) مايلي :

- الاطناب : وهو زيادة اللفظ على المعنى . وفائدته : تمكين المعنى من النفس؛ إذ أنّه كان يكفي في كلامه ان يقول : لاتدخلوا من باب واحد دون بقية كلامه (٢) .

- طباق السلب : بين قوله (لاتدخلوا - وادخلوا)(٣) .

---

(١) انظر : مدارج السالكين لابن قيم الجوزية ج٢ ص(١١٣ - ١٢٢) ؛ تهذيب المدارج للعزي ص (٢٣٦ - ٢٤٢) .

(٢) صفوة التفاسير للصابوني : ج٢ ص٦٠ .

(٣) المرجع السابق : ج٢ ص٦٠ . وطباق السلب : هو أن يجمع بين فعلي مصدر واحد مثبت ومنفي أو أمر ونهي . (انظر : احمد مصطفى المراغي، علوم البلاغة، راجعه وأشرف على تصحيحه : ابو الوفا مصطفى المراغي ، الطبعة الخامسة (القاهرة: المكتبة المحمودية التجارية) ص٣٢١) .

٢- العبر والفوائد من رجوعهم الى يوسف ثانية واحتجازه بنيامين :

* في قوله تعالى : (... ولمن جاء به حمل بعير وانا به زعيم) حكمان:
الاول : جواز الجعل . وقد أجيز للضرورة؛ إذ أنّه يجوز فيه من الجهالة مالا يجوز في غيره. فإذا قال الرجل : من فعل كذا فله كذا صح . وشأن الجعل أن يكون أحد الطرفين معلوماً والآخر مجهولاً للضرورة اليه، بخلاف الاجارة فانه يتقدر فيها العوض والمعوض من الجهتين ، وهو من العقود الجائزة التي لايجوز لأحد فسخه؛ الا أنّ المجعول له يجوز أن يفسخه قبل الشروع وبعده، إذا رضي بإسقاط حقه. وليس للجاعل أن يفسخه إذا شرع المجعول له في العمل. ولايشترط في عقد الجعل حضور المتعاقدين كسائر العقود لقوله: (ولمن جاء به حمل بعير).
الثاني : جواز الكفالة على الرجل ، لأن المؤذن الضامن هو غير يوسف عليه السلام (١) .
واختلف الفقهاء فيمن تكفل بالنفس او بالوجه هل يلزمه ضمان المال أم لا؟ فقال الكوفيون : من تكفل بنفس رجل لم يلزمه الحق الذي على المطلوب إن مات، وهو أحد قولي الشافعي في المشهور عنه .
وقال مالك والليث والاوزاعي : اذا تكفل بنفسه وعليه مال فإن لم يأت به غرم المال ويرجع به على المطلوب ، فإن اشترط ضمان نفسه او وجهه وقال لاأضمن المال فلاشيء عليه من المال .
والحجة لمن اوجب غرم المال ان الكفيل قد علم ان المضمون وجهه لايطلب بدم ؛ وانما يطلب بمال ، فاذا ضمنه له ولم يأت به فكأنه فوّته عليه وعزّه منه فلذلك لزمه المال(٢).

---

(١) انظر : الجامع لاحكام القرآن للقرطبي ج٩ ص(٢٣٢) .
(٢) انظر : المرجع السابق ج٩ ص (٢٣٢) .

* ومن قوله تعالى (كذلك كدنا ليوسف) ، ومما شاهدناه في الآيات من الحيل التي قام بها يوسف عليه السلام يستدل على جواز التوصل الى الاغراض والحقوق بالمكايد والحيل التي لاتخالف شريعة ولاتهدم اصلاً من الاصول(١) .

ويستدل كذلك: أنّ العلم بالطرق الخفية الموصلة الى مقاصدها مما يحمد عليه العبد؛ لأنّ الله مدح يوسف فقال : (نرفع درجات من نشاء.. الآية) ، وإنّما الممنوع هو التحايل على إسقاط واجب أو فعل محرم(٢).

* ويستفاد من تحايل يوسف - أيضاً - أنّه ينبغي لمن أراد أن يوهم غيره بأمر لايحبّ أن يطلع عليه أن يستعمل المعاريض القولية والفعلية المانعة من الكذب، كما فعل يوسف حيث ألقى الصواع في رحل أخيه ثم استخرجها منه موهماً أنّه سارق وليس فيه الا القرينة الموهمة لاخوته ، وقال بعد ذلك : (معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده) ولم يقل : من سرق متاعنا ، وكذلك لم يقل : إنّا وجدنا متاعنا عنده ، بل أتى بكلام عام يصلح له ولغيره . وليس في ذلك محذور وإنّما فيه إيهام أنّه سارق ليحصل المقصود الحاضر وأن يبقى عنده أخوه، وقد زال عن الأخ هذا الايهام بعدما تبينت له الحال(٢).

* ونلاحظ أنّ الله سبحانه حين مدح يوسف بما آتاه من علم فقال: (نرفع درجات من نشاء) لم يكتف بذلك ولكن اتبع هذا المدح بقوله : (وفوق كل ذي علم عليم)؛ حتى لايظن أحد أنه وصل للعلم كله ، بل كل إنسان مهما بلغ من العلم فانّ هناك من هو أعلى درجة في العلم منه حتى ينتهي الأمر إلى الله سبحانه وتعالى وهو العليم بكل شيء سبحانه وتعالى.

---

(١) انظر : الجامع لاحكام القرآن للقرطبي ج٩ ص٢٣٦ .
(٢) انظر : تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي ج٤ ص (٧٩ - ٨٠) .
(٢) تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي : ج٤ ص٨٠ .

وفي هذا اشارة إلى كل عالم بأن لايغتر بما لديه من علم ، وليعلم أنّما ذلك العلم هو هبة من الله له ونعمة يمنها عليه وأنّ هناك الكثير الكثير ممن هو أعلم منه، فليتواضع وليتخلق بخلق العلماء المؤمنين الصادقين ، والا فإن غرور العلم أهلك كل مغترّ؛ ومن قال قد علم فقد جهل .

* ومن البلاغة القرآنية في الآيات مايلي :

- في قوله : (وأذّن مؤذّن) جناس الاشتقاق(١) .
- في قوله : (نرفع درجات من نشاء) مجاز؛ لأن الفوقية هنا المراد بها شرف الحال وشرف الحال يشبه الارتفاع(٢) .

٤- العبر والفوائد من استعطافهم ليوسف :

* إنّ فيما عزموا عليه لانقاذ أخيهم من حكم الاسترقاق الذي قضي به عليه؛ مايدلنا على حسن طويتهم ووفائهم بوعدهم ، وما يعرب عن أمانتهم وصدقهم وبرهم وشدة تمسكهم بموثق أبيهم محافظة على رضاه وإكرامه وهذه الأمور تعطينا فكرة جديدة وهي أنّ إخوة يوسف قد صلح حالهم عما كانوا عليه من قبل ، ولعلهم قد ندموا على ما قد كان منهم في شأن يوسف واتضح لهم أنّ ذلك كان طيشاً وبعداً عن الصواب ولايفكر به عاقل(٣) .

* وفي محاولاتهم العديدة مع يوسف لترك بنيامين ارضاء لوالدهم وخوفاً من ادخال الحزن عليه: إرشاد للأبناء أن يسعوا في حياتهم جاهدين باذلين مايستطيعون في

---

(١) صفوة التفاسير للصابوني : ج٢ ص٦٦ .
(٢) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور : ج١٣ ص ٣٢ .
(٣) انظر : محاسن التأويل للقاسمي ج٩ ص٢٦١ .

سبيل إرضاء آبائهم ؛ فإن رضا الوالدين من رضا الله سبحانه كما هو معلوم(١).

* ومن قولهم في استعطاف يوسف : (إنّ له أباً شيخاً كبيراً) استفاد البعض على أنّ للكبير حقاً واحتراماً خاصاً يتوسل به ، كما توسلوا هنا بكبر يعقوب ، وقد ورد في الاستسقاء إخراج الشيوخ مما يدل على خصوصية لحقهم ومنزلتهم(٢).

* وفي تشاورهم فيما يقولون لأبيهم عن ابنه بنيامين ، ومن ثم اتفاقهم على أن يقولوا له الصدق دونما أيّة حيلة أخرى ، وكذلك في قول كبيرهم: إنه سيمكث في مصر حتى يأذن له أبوه أو يحكم الله له ؛ مايدل - ايضاً - على ماذكرناه آنفاً من حسن طويتهم وصدقهم وصلاح حالهم عن ذي قبل.
وماأجمل أن يرجع الأبناء الى رضا آبائهم بعد عقوق ، والى طاعة الله بعد معصيته والى حسن سريرتهم بعد سوئها ، فذلك أمر مفروض ومحبب الى النفوس ومقر للعيون. وما أعظم فرحة الاباء عند اهتداء أبنائهم!!
وانّي لأتصوّر انّ في أسلوب يعقوب -عليه السلام - الحكيم معهم سبباً في رجوعهم الى الجادة ؛ فانه لو نهرهم بشدة أو هجرهم أو طردهم أو أساء إليهم منذ تفريطهم في يوسف ومافعلوا به فقد يؤدي ذلك الى عنادهم ومكابرتهم وزيادة عقوتهم له، ولكنه تحلى بالصبر وحلم عليهم تربية لهم وأملاً في صلاحهم وقد كان ماأراد والحمد لله.
ومن هنا نستفيد فائدة أخرى وهي أنّ على الآباء أن يتخذوا طريق الحكمة في معالجة أخطاء أبنائهم وأن لايتسرّعوا في تصرفاتهم وعلاجهم حتى لايخسروا أبناءهم. والله أعلم.

* ومن الفقه في الآيات مايلي :
- إنّ في إخبارهم الحقيقة لأبيهم وقولهم : (وما شهدنا إلاّ بماعلمنا) دليل على جواز الشهادة بأي وجه حصل العلم بها ؛ فإن الشــهادة مرتبطة بالعلم عقلاً

---

(١) انظر : محاسن التأويل للقاسمي ج٩ ص٢٦١ .
(٢) انظر : المرجع السابق ج٩ ص٢٦١ .

وشرعاً ، فلا تُسمع إلا ممن علم ، ولاتقبل إلا منهم . وهذا هو الأصل في الشهادات(١) .

وبالتالي فانه لايجوز للانسان أن يشهد الا بما علمه وتحققه مشاهدة أو خبر من يثق به وتطمئن النفس لقولهم(٢) .

- ومن قولهم : (واسأل القرية التي كنّا فيها والعير التي أقبلنا فيها..) لتأكيد صدقهم ونفي تهمة الكذب عنهم استنبط القرطبي فائدة فقال : في هذه الآية من الفقه: أنّ كل من كان على حق ، وعلم أنه قد يظن به أنه على خلاف ماهو عليه او يتوهم ذلك؛ أن يرفع التهمة وكل ريبة عن نفسه ، ويصرح بالحق الذي هو عليه حتى لايبقى لأحد متكلم، وقد فعل هذا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بقوله للرجلين اللذين مرّا وهو قد خرج مع صفية يقلبها (يردها) من المسجد : " على رسلكما إنّما هي صفية بنت حيي " فقالا : سبحان الله ! وكبر عليهما فقال صلى الله عليه وسلم: ، "إنّ الشيطان يبلغ من الانسان مبلغ الدم وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً" وفي رواية " ... يجري من ابن آدم مجرى الدم .." الحديث(٣) .

* ومن البلاغة القرآنية في الآيات مايلي :

- قوله : (فأسرّها - ولم يبدها) بينهما طباق(٤) .
- قوله : (شيخاً كبيراً) فيه اطناب للاستعطاف(٥) .

---

(١) انظر : تفسير القرطبي (الجامع لاحكام القرآن) ج٩ ص٢٤٥ .

(٢) انظر : تفسير عبد الرحمن السعدي ج٤ ص٨٠ .

(٣) تفسير القرطبي : ج٩ ص٢٤٦ ، والحديث رواه البخاري: كتاب الاعتكاف، باب زيارة المرأة زوجها في اعتكافه ، حديثا (١٤٢ ، ١٤٣) ج٣ ص١٠٧ - ١٠٨.

(٤) صفوة التفاسير للصابوني : ج٢ ص٦٦ .

(٥) المرجع السابق : ج٢ ص٦٦ .

- قوله : (واسأل القرية) فيه مجاز مرسل علاقته المحلية ، والمراد: واسأل أهل القرية(١).

-قوله : (فلما استيئسوا منه خلصوا نجياً) يقول القاسمي في تفسيره لهذه الآية : " ذكر القاضي عياض في (الشفاء) في بحث إعجاز القرآن: أنّ أعرابياً سمع رجلاً يقرأ : (فلما استيئسوا منه خلصوا نجياً) فقال: أشهد أنّ مخلوقاً لايقدر على مثل هذا الكلام. وقال الثعالبي في كتابه (الايجاز والاعجاز) في الباب الاول: من أراد أن يعرف جوامع الكلم ويتنبه لفضل الاختصار ويحيط ببلاغة الايماء، ويفطن لكناية الاعجاز فليتدبر القرآن وليتأمل علوّه على سائر الكلام فمن ذلك قوله: (فلما استيئسوا منه خلصوا نجياً) وهذه صفة اعتزالهم جميع الناس وتقليبهم الآراء ظهراً لبطن وأخذهم في تزوير مايلقون به أباهم عند عودهم إليه، وما يوردون عليه من ذكر الحادث، فتضمّنت تلك الكلمات القصيرة معاني القصة الطويلة"(٢) .

---

(١) صفوة التفاسير للصابوني: ج٢ ص٦٦ .

(٢) محاسن التأويل للقاسمي : ج٩ ص(٢٦٢ - ٢٦٣) .

المبحث الثالث : اجتماع الشمل

المطلب الاول : بيان القصــة

وتقترب القصة من نهايتها ويقرب معها اجتماع الشمل بعد التفرق والشتات ، وبيان هذه النهاية الجميلة كمايلي :

١- أمر يعقوب لأبنائه بالبحث عن يوسف وأخيه :

رجع بقية الابناء من مصر الى أبيهم فقصوا عليه ماحدث لهم ، فاتهمهم وظن أنّها كفعلتهم بيوسف وقال لهم : (بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل) ثم ترجى من الله أن يرد عليه أبناءه الثلاثة : يوسف وبنيامين وابنه الأكبر (روبيل) الذي أقام في مصر ينتظر أمر الله فيه ، ويظهر لنا رجاؤه هذا في قوله : (عسى الله ان يأتيني بهم جميعاً إنه هو العليم الحكيم)(١) .

ويتجدد الحزن على يوسف ، ويعرض الاب عن ابنائه : (وتولى عنهم وقال ياأسفى على يوسف) أي ياأسفاً تعال فهذا أوانك . والأسف هو أشد الحزن والحسرة وهو يشبه قوله : ياحسرتاه ويامصيبتاه . وإنما تأسف على يوسف دون أخويه والحادث رزؤهما ؛ لأن رزأه كان قاعدة المصائب ، وكان غضاً آخذاً بمجامع قلبه ، ولأنه كان واثقاً بحياتهما دون حياته(٢) .

ويضيف الفخر الرازي وجهين آخرين غير ماذكر :

---

(١) سورة يوسف : ٨٢ .

(٢) انظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٢ ص٤٨٧ ؛ تفسير البيضاوي ج٢ ص١٤١ .

أولهما : أن الحزن الجديد يقوي الحزن القديم الكامن . والقدح اذا وقع على القدح كان أوجع . ومن ذلك ماقاله متمم بن نويرة :

وقد لامني عند القبور على البكا ... رفيقي لتذارف الدموع السوافك
فقال أتبكي كل قبر رأيته ... لقبر ثوى بين اللوى والدكادك
فقلت له إنّ الأسى يبعث الأسى ... فدعني فهذا كله قبر مالك

وذلك لأنه اذا رأى قبراً تجدد حزنه على اخيه مالك ، فلاموه ، فأجاب بأن الأسى يبعث الأسى .

وثانيهما : قوله: إن بنيامين ويوسف كانا من أم واحدة ، وكانت المشابهة بينهما في الصورة والصفة أكمل ، فكان يعقوب يتسلى برؤيته عن رؤية يوسف ، فلما وقع زال ما يوجب السلوة فعظم الألم والوجد(١) .

ويصف الله حاله التي بلغها آنذاك نتيجة شدة حزنه : (..وابيضت عيناه من الحزن وهو كظيم) (٢) .

يقول القرطبي : قال مقاتل : لم يبصر بعينيه مدة ست سنين وأنه عمي ، وقيل: قد تبيض العين ويبقى شيء من الرؤية(٣) . والعلة التي من أجلها ابيضت عيناه نتيجة الحزن يبينها لنا العلم ، ومن ذلك مايقوله صاحب التحرير والتنوير: "إنّ الحزن قد يسبب عدم الابصار ؛ فإن توالي إحساس الحزن على الدماغ قد يفضي إلى تعطيل عمل الابصار(٤)" .

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي : ج١٨ ص(١٩٢-١٩٣) .
(٢) سورة يوسف : ٨٤ .
(٣) تفسير القرطبي : ج٩ ص٢٥٢ .
(٤) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور : ج١٣ ص٤٢ .

ومن ناحية أخرى يقول عفيف طبارة : " ينشأ عن الحزن العميق حالة نفسية يزداد بسببها الضغط على العينين ، وتحدث الجلوكوما أو مايسمى بالمياه الزرقاء، فيزول صفاء القرنية وبريقها ويضعف البصر شيئاً فشيئاً حتى يزول نهائياً وتبدو العين بيضاء" (١).

(وهو كظيم) أي هو طوال هذه الفترة ساكت لايشكو أمره الى مخلوق ، ممسك حزنه فلايظهره لأحد(٢) ، وقيل معناه : أنّه مملوء من الغيظ على ابنائه ممسك له في قلبه لايظهر لهم مايسوؤهم(٣) ، وذلك من صبره وحلمه عليه السلام وهذا على حدّ قوله تعالى: (والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس) " آل عمران : ١٢٤" .

* وعند ذلك رقّ له بنوه وقالوا له على سبيل الرفق به والشفقة عليه: (تالله تفتؤا تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين) (٤) أي لاتفارق ذكر يوسف حتى ينتهي بك حالك الى ضعف قوتك او تهلك وتتلف وتموت .

فأجابهم إجابة تنمّ عن تفويض أمره وما هو فيه من الشدة الى الله سبحانه الذي بيده كل شيء : (قال إنما أشكو بثي وحزني الى الله وأعلم من الله مالاتعلمون) (٥) فهو لايشكوهم فيطلب السلوى منهم والاعانة على ذلك انما يشكو الله ويطلب منه العون والرحمة والرأفة بحاله .. يشكو بثه وهو الهم الشديد الصعب الذي لايقدر الصبر عليه احد فينشره عند الناس(٦) ، ولكن بثه هو عليه السلام لاينشره لأحد سوى الله سبحانه .

أمّا قوله: (وأعلم من الله مالاتعلمون) بمعنى أنّه يرجو عليه السلام من الله كل

---

(١) مع الانبياء في القرآن الكريم لعفيف طبارة : ص١٨٢ .
(٢) انظر : تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٨٧ ؛ التفسير الكبير للفخر الرازي ج١٨ ص١٩٦ .
(٣) انظر : تفسير البيضاوي ج٢ ص١٤١ .
(٤) سورة يوسف : ٨٥ .
(٥) سورة يوسف : ٨٦ .
(٦) انظر : تفسير البيضاوي ج٢ ص١٤١ ؛ تفسير ابي السعود ج٤ ص٣٠٢ .

خير، وهو يعلم من الله مالم يعلم أبناؤه .يقول ابن عباس : يعني رؤيا يوسف التي أخبره عنها في صغره وأنها صدق وأن الله لابد وأن يظهرها.

فهو إذاً بكلامه هذا يُشعِر بأن لديه أملاً في رجوع يوسف وكذلك بنيامين لعلمه بصدق الرؤيا ووجوب تحقيقها وأن ذلك كائن باذن الله ، وهذا مانلمحه ايضاً من قوله السابق: (عسى الله ان ياتيني بهم جميعاً). وقد قال البعض: إن الله أوحى الى يعقوب أن يوسف على قيد الحياة.

وأقول : إن هذا الكلام يحتاج الى سند صحيح ولاسند صحيح بذلك ، كما أن الايحاء الى يعقوب واعلامه بذلك أمر ممكن لكن الابتلاء لن يتحقق ، وكذلك فان حالة يعقوب تشير الى أنه لم يوح إليه ؛ إذ لو أوحي إليه لكان فرحاً شديد الفرح ولأعلمهم بمكانه وأرسلهم اليه مباشرة . والله أعلم.

ولهذا الامل الموجود في نفس يعقوب أمر أبناءه بالبحث عن يوسف عليه السلام وأخيه فقال لهم : (يابنيّ اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولاتيأسوا من روْح الله إنه لاييأس من روْح الله الا القوم الكافرون)(١) . وما توجيهه هذا اليهم الا لعلمه بصدق حالهم وصلاحهم ؛ فهو استعان بهم هنا ولم يستعن بهم آنذاك عند فقد يوسف .

انه طلب منهم أن يستعلموا أخبار يوسف وأخيه. والتحسس: يكون في الخير، بخلاف التجسس فانه يكون في الشر . كما أنه حثهم على القيام بطلبه ونهضهم وبشرهم وأوصاهم بأن لاييأسوا من روح الله ، بمعنى: أن لايقطعوا رجاءهم وأملهم من الله فيما يقصدونه ولايقنطوا من رحمته .

وروح الله : فرجه وتنفيسه ، ورحمته التي يحي بها العباد ؛ فانه لايقنط ويترك الأمل في الله الا من جحده وكفر به سبحانه(٢) .

---

(١) سورة يوسف :٨٧ .

(٢) انظر : تفسير البيضاوي ج٢ ص١٤١ ؛ تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٨٨ .

٢ - تعرّف الاخوة على يوسف :

استجاب الأبناء لطلب أبيهم في البحث عن يوسف وبنيامين ، وذهبوا الى مصر فدخلوا على يوسف في ديوانه وبدؤا في شرح حالهم استعطافاً له في سبيل اخلاء سراح أخيهم بنيامين ، فمهدوا لطلبهم هذا بالاستعطاف عسى ان يحملوه على مايريدون :

(فلما دخلوا عليه قالوا يأيها العزيز مسّنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدّق علينا إن الله يجزي المتصدقين)(١) .

ومعنى كلامهم هذا: أنّهم يشكون اليه ماأصابهم من الجدب والقحط وقلة الطعام ، وفوق ذلك انهم جاؤوا اليه بثمن قليل ليمتاروا به وهذا كناية عن حالة الفقر التي يعيشونها وشظف العيش (وجئنا ببضاعة مزجاة) والاجزاء في اللغة : الدفع قليلاً قليلاً ومثله التزجية يقال : الريح يزجي السحاب (ألم تر أنّ الله يزجي سحاباً..) والمعنى : أنها بضاعة رديئة أو قليلة تردّ وتدفع رغبة عنها . ومع هذه البضاعة الرديئة يرجون منه أن يوف لهم الكيل كما كان يعطيهم قبل ذلك بالبضاعة الحسنة.
وقولهم : (وتصدّق علينا) آي بردّ أخينا ، وإنما سمّوا رد أخيهم تصدقاً تواضعاً .
وقيل: أي بالمسامحة وقبول المزجاة أو بالزيادة على مايساويها.
ثمّ حثّوه على هذا العمل بقولهم : إن الله يثيب المتصدقين بأحسن الثواب(٢) .

---

(١) سورة يوسف : ٨٨ .
(٢) انظر : تفسير ابن كثير ج٢ ص(٤٨٨-٤٨٩) ؛ تفسير البيضاوي ج٢ ص١٤١ ؛ التفسير الكبير للفخر الرازي ج١٨ ص٢٠١ ؛ تفسير ابي السعود ج٤ ص٢٠٢ .

وفي هذه اللحظات يأذن الله عز وجلّ بأن يفصح يوسف عن نفسه وأن يعرف نفسه اليهم فيقال : إنه رفع التاج عن جبهته وكان فيها شامة بيضاء وكانت لسارة ويعقوب مثلها وقال لهم : (قال هل علمتم مافعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون) (١) .

واستفهامه هنا بمعنى التذكير والتوبيخ ، وهو الذي قال الله له حين اوحى اليه في البئر : (لتنبئنّهم بأمرهم هذا وهم لايشعرون) وكأنه يقول لهم : هل تذكرون أنكم شردتم يوسف عن أبيه وألقيتموه في غيابت الجب ؟ وأما بنيامين فقد أحزنتم قلبه على فقد شقيقه وسلبتم منه لذة الحياة حتى صار شريكه في هذا المصاب، وحالكم آنذاك حال الجاهلين ، فما حملكم على ذلك إلا الجهل . كما قال بعض السلف: كل من عصى الله فهو جاهل ويوضحه قوله تعالى : (ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة... الآية) (٢) " النحل :١١٩ " .

وسمع الاخوة كلام يوسف فأمعنوا فكرهم في مغزى خطابه ودققوا نظرهم في ملامح وجهه ورنّة صوته ، فانتقلوا من حال الانكار له الى حال الشك في أنه يوسف: (قالوا أإنك(٢) لأنت يوسف) ؟!! فضمّ يوسف أخاه اليه وأجابهم : (قال أنا يوسف وهذا أخي قد منّ الله علينا إنه من يتق ويصبر(٤) فإنّ الله لايضيع أجر المحسنين) (٥) .

---

(١) سورة يوسف : ٨٩ .

(٢) انظر : تفسير القرطبي : ج٩ ص٢٥٥ .

(٣) قرأ ابن كثير وورش (إانك) بكسر الألف على الخبر ، وقرأ نافع وابو عمرو (آانك) بالاستفهام بهمزة مطولة ، وقرأ القاضي عن قالون: (أانك) بهمزة واحدة من غير مدّ ، وقرأ أهل الشام والكوفة (أءنك) بهمزتين على الأصل (حجة القراءات لابن زنجلة : ص٣٦٢) .

(٤) قرأ ابن كثير : (من يتقي ويصبر) بإثبات الياء ، وقرأ الباقون بغير ياء مجزوماً بالشرط (حجة القراءات لابن زنجلة : ص(٢٦٤ - ٢٦٥).

(٥) سورة يوسف : ٩٠ .

واستفهامهم (أإنك لأنت يوسف) يدلّ على الاستعظام . أي أنهم تعجبوا من ذلك : فهم يترددون إليه من ستين أو أكثر ولم يعرفوه وهو يعرفهم ويكتم نفسه ! ثم إن قوله مجيباً لهم : (قد منّ الله علينا) يريد جمع الله بينه وبين أخيه بعد التفرّق والمدة الطويلة وهو في هذه المكانة الرفيعة .

ولم يفته عليه السلام أن يقرر لهم أن هذا نتيجة التقوى والصبر .

فحين ذلك قالوا له معترفين له بالفضل والاثرة عليهم في الخَلق والخُلق والسعة والملك والتصرّف والنبوة ايضاً . واقروا له بأنهم قد أساؤوا اليه وأخطأوا في حقه: (قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين) (١) وفي كلامهم هذا إشعار بتوبتهم واستغفارهم ، فما لبث يوسف عليه السلام - بعد ما سمع كلامهم وشهد صدق حالهم وصلاح أمرهم وعودتهم عن الخطأ - إلا أن سامحهم وعفا عنهم : (قال لاتثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين) (٢) . أي لاتأنيب ولاعتب عليكم بعد اليوم ولن أعيد عليكم ذكر ذنبكم في حقي بعد اليوم .

والتثريب : أصله من الثرب وهو الشحم الذي يغشى الكرش للازالة ، كالتجليد وهو إزالة الجلد ، فاستعير للتقريع الذي يمزّق العرض ويذهب ماء الوجه.

ثم زادهم عفواً بأن دعا لهم بالمغفرة كما هو مذكور في نهاية الآية(٣) .

وكل ماسبق إنما هو بأمر الله - كما ذكرنا من قبل - فهو عرّف بنفسه هنا ولم يعرف من ذي قبل بأمر الله . فلما ضاق الحال واشتد الامر فرّج الله من ذلك الضيق ويسّر (إن مع العسر يسراً) (٤) " سورة الانشراح : ٦ " .

---

(١) سورة يوسف : ٩١ .
(٢) سورة يوسف : ٩٢ .
(٣) انظر : التفسير الكبير للفخر الرازي ج١٨ ص٢٠٥ ؛ تفسير البيضاوي ج٢ ص١٤٢ ؛ تفسير أبي السعود ج٤ ص٣٠٤ .
(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ج٢ ص٤٨٩ .

* وبعد أن استفسر يوسف عن والده وعلم أنه قد فقد بصره لشدة حزنه؛ أعطاهم قميصه وأمرهم أن يطرحوه على وجهه فانه سيرتد بصره ، ودعاهم أن يأتوا بعد ذلك إلى مصر مع آل يعقوب أجمعين وذلك قوله : (اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً وأتوني بأهلكم أجمعين) (١) وفي هذا قال المحققون: إنما عرف أن إلقاء ذلك القميص على وجهه يوجب قوة البصر بوحي من الله تعالى، ولولا الوحي لما عرف ذلك لأن العقل لايدل عليه(٢) .

٢- تلقي يعقوب خبر سلامة يوسف :

لبّى الاخوة ما أمرهم به يوسف وركبوا دوابّهم وساروا سيراً حثيثاً يقصدون فلسطين لتبشير أبيهم الذي ينتظر نتائج البحث الذي كلّفهم به .
وحين خرجت القافلة من مصر أخبر يعقوب من معه من أبنائه بأنه يشمّ رائحة يوسف: (ولما فصلت العير قال أبوهم إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفنّدون) (٣) .
قال ابن عباس - رضي الله عنهما - : لما خرجت العير هاجت ريح فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف فقال : إني لأجد ريح يوسف ، وقال : فوجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام ، وروي هذا الكلام من طرق متعددة عنه رضي الله عنه(٤) .
وهذا الأمر ليس بعزيز ومعجز على الله ، فالله قادر على ذلك والريح جند من جنوده يسخرها كيف يشاء وبما يشاء سبحانه .
فكأنّ يعقوب عليه السلام يقول : إني أشم برائحة يوسف تغمرني ، ولولا خشية أن تتهموني في قولي بالخرف لأنبأتكم عن يوسف بأكثر من هذا وهو أنه حيّ وقد قرب موعد لقائه وذلك قوله (لولا أن تفنّدون) .

---

(١) سورة يوسف : ٩٣ .
(٢) التفسير الكبير للفخر الرازي : ج١٨ ص٢٠٦ .
(٣) سورة يوسف : ٩٤ .
(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ج٢ ص٤٨٩ .

والفند في الأصل هو الكذب . ثم قالوا للشيخ إذا كبر وهرم : قد أفند لأنه يتكلم بالمحرّف من الكلام عن سنن الصحة وهو خرافه . وقال الفرّاء : يقول لولا أن تكذبوني وتعجزوني وتضعفوني . وقال الأصمعي : الفند اذا كثر كلام الرجل من خرف ، وقيل : إن التفنيد هو اللوم وتضعيف الرأي . ولامنافاة بين الاقوال وكلها تدور حول كلام الفراء(١) .

وما كاد يعقوب عليه السلام ينطق بهذه الكلمات التي أحس بحقيقتها حتى بادره من حوله بما كان يتوقعه وهو لومه وتضعيف رأيه : (قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم)(٢) ونلاحظ في آلاية أنهم أقسموا بالله على ذلك، وهذا زيادة في تجهيله وبعده عن الصواب ؛ وذلك بأنه مازال هائماً في خياله بسبب إفراطه في حبه ليوسف ولهجه بذكره على الدوام(٣) . قال قتادة : أي من حب يوسف لاتنساه ولاتسلاه ، وقالوا لوالدهم كلمة غليظة لم يكن ينبغي لهم أن يقولوها لوالدهم ولا لنبيّ الله. وكذا قال السدّي وغيره(٤) .

ولكن ماظنوه خرفاً وضلالاً إنما هو صدق وحق ؛ وهاهو ذا البشير يأتي يعقوب بقميص يوسف فيثبت لهم كلامه عليه السلام : (فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله مالاتعلمون)(٥) .

وقال مجاهد والسدي : كان البشير يهوذا بن يعقوب ، وقال السدّي: إنما جاء بالقميص لأنه هو الذي جاء بالقميص وهو ملطّخ بدم كذب ؛ فأحب أن يغسل ذلك بهذا فجاء بالقميص فألقاه على وجه أبيه فرجع بصيراً(٦) .

---

(١) لسان العرب لابن منظور : ج٢ ص(٢٢٨ - ٢٢٩) .
(٢) سورة يوسف : ٩٥ .
(٣) انظر : مع الانبياء في القرآن الكريم لطبارة ص١٨٤ .
(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ج٢ ص٤٩٠ .
(٥) سورة يوسف : ٩٦ .
(٦) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ج٢ ص٤٩٠ .

وعند ذلك قال الأبناء مترققين بأبيهم معتذرين عما بدر منهم : (قالوا ياأبانا استغفر لنا ذنوبنا إنّا كنّا خاطئين) (١) . ومن حق المعترف بالذنب أن يصفح عنه وتسأل له المغفرة ، فوعدهم أبوهم بانه سيستغفر لهم وأخر الاستغفار الى السحر أو الى صلاة الليل او الى ليلة الجمعة تحرياً لوقت الاجابة ، أو الى أن يستحل لهم من يوسف ويعلم أنه عفا عنهم فان عفو المظلوم شرط المغفرة (٢) : (قال سوف أستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم) (٣) .

٤- تحقق رؤيا يوسف :

وبعد أن عمّت السعادة أرجاء البيت ببشرى حياة يوسف : أخذ إخوة يوسف يقصون على أبيهم ماحصل من أمرهم مع يوسف ، ومن ثم أخبروه بانه طلب أن يرحلوا اليه جميعهم . فوافق الأب على طلب ابنه وحبيبه الذي طالما انتظر رؤيته واشتاق الى لقائه ، واستعد الجميع للارتحال من فلسطين الى مصر .

ولما أخبر يوسف باقترابهم خرج لتلقيهم واستقبالهم ، وأمر الملك أمراءه وأكابر الناس بالخروج مع يوسف لاستقبال نبي الله يعقوب عليه السلام ، ويقال: إن الملك خرج معهم ايضاً .
وقص علينا القرآن الكريم ماحدث عند قدوم يعقوب عليه السلام وآله في الآيتين التاليتين:

(فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله

---

(١) سورة يوسف : ٩٧ .
(٢) تفسير البيضاوي : ج٢ ص١٤٢ .
(٣) سورة يوسف : ٩٨ .

آمنين . ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً وقال ياأبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم) (١) .

وبيان هاتين الآيتين كما يلي :

الظاهر من الآية الأولى أن يوسف أعدّ مكاناً خارج مصر كخيمة أو غيرها ينتظر فيه أبويه واخوته وجميع آله؛ ليستقبلهم خير استقبال ، فاستقبلهم فيه ولما دخل عليه أبواه ضمهما واعتنقهما، وحقّ له ذلك لطول الفرقة وعظم الاشتياق .
ثم طلب منهم أن يقيموا بمصر ، وسمى الاقامة دخولاً لاقتران أحدهما بالآخر. وحثهم وشجعهم على الاقامة بأنهم سيجدون كل الأمن فيها (وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين) آمنين على أنفسكم وأموالكم وأهليكم لاتخافون أحداً . وكانوا فيما مضى يخافون ملوك مصر ، وقيل: أي آمنين من القحط والشدة والفاقة(٢).
أقول: ولامنافاة بين المعنيين فان الأمن يشمل ماذكر فيهما .

ثم سار الركب الى داخل مصر حتى بلغ منزل يوسف ودار وزارته فدخل الجميع، ثم أجلس يوسف أبويه معه على سريره .

واختلف في المراد بأبويه هنا ، حيث قال السدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: انما كان أبوه وخالته ، وكانت أمّه قد ماتت قديماً .
وقال محمد بن اسحاق وابن جرير الطبري : كان أبوه وأمه يعيشان . وقال ابن جرير : لم يقم دليل على موت أمه وظاهر القرآن يدل على حياتهما . وقال ابن

---

(١) سورة يوسف : ٩٩ - ١٠٠ .
(٢) انظر : مع الأنبياء في القرآن الكريم لطبارة ص١٨٥؛ التفسير الكبير للفخر الرازي ج١٨ ص٢١١ .

كثير: هذا الذي نصره ابن جرير هو المتصور الذي يدّل عليه السياق(١) .
أقول: وماذهب اليه ابن اسحاق وابن جرير وابن كثير هو الراجح لما ذكروه من علل. والله أعلم .

* وبيّن الله عز وجل في هذه الآية أن أبويه وإخوته خرّوا له سجداً: (وخرّوا له سجداً) ، والواو - كما هو معلوم - لاتقتضي الترتيب إنما هي لمجرد العطف؛ فقد يكون سجودهم له قبل أن يجلس أبويه على سريره، وهذا هو الظاهر والمناسب؛ إذ أنهم حيّوه بهذه التحية وهي السجود له وقد كان هذا السائغ في شريعتهم أنهم إذا حيّوا الكبير او صاحب المنزلة سجدوا له ، ولم يزل هذا جائزاً من لدن آدم الى شريعة عيسى عليه السلام ، ثم حرّم في شريعتنا وجعل السجود مختصاً بجناب الرب سبحانه وتعالى(٢) .

وفي هذا الحين أثار هذا المنظر - الذي يراه يوسف عياناً أمامه - في نفسه ذكرى رؤياه التي رآها في صغره وقصها على أبيه : (وقال ياأبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً ..) فقد حققها الله وجعلها صحيحة وصدقاً .
وقد اختلف المفسرون في الفترة التي بين الرؤيا وتحقيقها فبعضهم قال : ثمانون سنة ، وقال بعضهم غير ذلك ، والجمهور على أنها أربعون سنة . وقول الجمهور هو الراجح . يقول ابن كثير - رحمه الله - : " وظاهر سياق القصة يرشد الى تحديد المدة تقريباً ؛ فان المرأة راودته وهو شاب ابن سبع عشرة سنة - فيما قاله غير واحد - فامتنع ، فكان في السجن بضع سنين وهي سبع عند عكرمة وغيره ، ثم أخرج منه فكانت سنوات الخصب وهي سبع ، وتلتها السبع القحط ، فجاءه إخوته يمتارون في السنة الاولى وحدهم ؛ وفي الثانية ومعهم أخوهم بنيامين ، وفي الثالثة عرّف نفسه إليهم وأمرهم باحضار أهليهم أجمعين فجاؤوا إليه "(٣) .

---

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٢ ص٤٩٢ .
(٢) انظر : المرجع السابق ج٢ ص٤٩١ .
(٣) قصص الأنبياء لابن كثير : ج١ ص٢٢٦ .

* وأمام هذه النعمة العظمى وهي اجتماعه بأبيه وأمه وإخوته بدأ عليه السلام يذكر نعم الله عليه وعلى أبيه وأمه وإخوته شكراً لله عليها فقال :

(وقد أحسن بي اذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد ان نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم).

فمن نعم الله عليه ان أخرجه من السجن وأمكنه بعد ذلك في الارض - ولم يذكر نعمة خروجه من الجبّ إكراماً لإخوته حيث قال لهم: (لاتثريب عليكم اليوم) -، ومن نعمه أيضاً أن الله أتى بأهله من البادية . قال ابن جرير وغيره : كانوا من أهل بادية وماشية؛ حيث كانوا يسكنون بالعربات من أرض فلسطين من غور الشام (١) .

وذلك كان من أجل أن يلتقي في مصر - من بعد أن أفسد الشيطان بينه وبين إخوته- مع أبيه وإخوته ، وما كان هذا كله يتمّ إلا بتيسير الله وإرادته فهو سبحانه رفيق بعباده وهو المحيط علماً بكل شيء الحكيم في تصرفاته .

ويقول الفخر الرازي - أيضاً - حول قوله (إن ربي لطيف لما يشاء) :

"أي أن حصول الاجتماع بين يوسف وأبويه وإخوته مع الألفة والمحبة وطيب العيش وفراغ البال كان في غاية البعد عن العقول إلا أنه تعالى لطيف فإذا قضى وأراد شيئاً سهّل أسبابه فحصل وإن كان في غاية البعد عن الحصول" (٢) .

* ثم أخذ يوسف عليه السلام يعدد نعم الله عليه خاصة فقال : (رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث) فهو يشكر الله على ماآتاه من ملك مصر، وعلى ما علّمه من تعبير الرؤيا .

و(من) هنا للتبعيض إذ أنه لم يؤت الا بعض ملك الدنيا وبعض التأويل .

ثم يناجي ربه ويدعوه بكل خضوع وخشوع وهو في هذا المقام والموقف

---

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٢ ص٤٩١ .

(٢) التفسير الكبير للفخر الرازي : ج١٨ ص٢١٦ .

العظيم فقال: (فاطر السموات والأرض أنت وليّي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً والحقني بالصالحين) .

فهو يدعو ربّه؛ لأنه هو الذي يتولاه بالنعمة في الدارين ولامنعم غيره.. يدعوه بأن يتوفاه على حال الاسلام وأن يلحقه بالصالحين . فهو أراد : أنّه كما أتمّ الله عليه نعمته في الدنيا بالنعم السابقة أن يستمرّ بها عليه في الآخرة وأن يتوفاه مسلماً ، وأن يلحقه بالصالحين؛ وهم إخوانه من الأنبياء والمرسلين(١) .

وبهذا الدعاء الخاشع ، وفي حضور هذا المشهد العظيم ، وباجتماع الشمل الكريم تنتهي حلقات هذه القصة . والحمد لله .

---

(١) انظر : تفسير النسفي ج٢ ص٢٢٨ .

المطلب الثاني : العبر والفوائـــد

١- العبر والفوائد من أمر يعقوب لأبنائه بالبحث عن يوسف وأخيه :

* ومرة أخرى نقف أمام مثل لقوة الايمان وعمق اليقين برب العالمين .. موقف يعقوب عليه السلام الذي أخبر ثانية بفقد ابنه الثاني ؛ بل واسترقاقه ، ولكن هذه المرة مع الصبر الجميل كان الرجاء والأمل في قمته : (عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً) ، إذ هو شعور المؤمن برحمة الله وتيسيره بعد الشدة والضيق والعسر؛ فانه متى اشتدت المحن والابتلاءات وتعسرت الامور وكان الصبر عليها شعر المؤمن بأن فرج الله قريب ورحمته قادمة فكان الأمل والرجاء في عظيم رحمة الله وشفقته بعباده المخلصين الصابرين . يقول الشهيد سيد قطب : " هذا الشعاع من أين جاء الى قلب هذا الرجل الشيخ ؟ إنه الرجاء في الله والاتصال الوثيق به ، والشعور بوجوده ورحمته ، ذلك الشعور الذي يتجلّى في قلوب الصفوة المختارة ، فيصبح عندها أصدق وأعمق من الواقع المحسوس الذي تلمسه الأيدي وتراه الأبصار "(١).

* إن شدة حزن يعقوب عليه السلام لدرجة أنه ابيضت عيناه ليعطينا إشارة قوية على فضل الآباء وعظم قدرهم وجليل حقهم على الأبناء ؛ فإن قلب يعقوب عليه السلام يمثّل لنا قلب كل أب سليم الفطرة يشعر بأبنائه فيما وضعه الله فيه من هذه الطبيعة البشرية وهي حب الولد وهذا - بلاشك -من الاسباب التي دعت الى تكرار الوصايا ببر الوالدين وتأكيدها . ويصور لنا سيد قطب حالة يعقوب وهو في هذه المحنة - التي قد تتكرر في غيره - فيقول :" وهي صورة مؤثرة للوالد المفجوع يحسّ أنه منفرد بهمّه ، وحيد بمصابه ، لاتشاركه هذه القلوب التي حوله ولاتجاوبه فينفرد في معزل يندب فجيعته في ولده الحبيب .. "(٢) .

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب : ج٤ ص٢٠٢٥ .
(٢) المرجع السابق : ج٤ ص٢٠٢٥ .

ألا فليعرف الأبناء عظم حق الآباء وفضلهم عسى أن يسعوا في برّهم وأداء حقهم عليهم .

* وإذا عرفنا أن موقف يعقوب هو هذا من شدة الحزن ، فما تتصور أن يكون موقف أم يوسف ؟!! فالله أعلم أن موقفها لايقلّ عن موقف ابيه إن لم يكن أكثر؛ لأن الأم - كما هو معلوم - أكثر عاطفة من الأب نحو أبنائها .

وقد يسأل سائل لِمَ لمْ يذكر في القصة موقف أم يوسف حتى تكتمل الصورة ؟ ومالحكمة في ذلك ؟

والجواب على مثل هذا السؤال - والله أعلم - كمايلي :

إن المراد من ذكر القصة هنا هو وصف لحالة النبي يعقوب عليه السلام عند ابتلائه ، وكيف كان في قمة صبره وايمانه وهو يلاقي هذه الابتلاءات ، ويتبين بهذا فضله عليه السلام ؛ وكون أنه نبي لايمنع أن يكون صاحب إحساس مرهف وعاطفة أبوية تجاه ماقد يصيبه من ابتلاءات في أولاده ؛ بل إن الانبياء أرق شعوراً من غيرهم لأنها لم تدنّس فطرهم بأي عارض من العوارض .

ويحضرني في هذا المقام موقف نبينا محمد صلى الله عليه وسلم حين وفاة ابنه إبراهيم . فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : دخلنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبي سيف القين وكان ظئراً(١) لإبراهيم فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم إبراهيم فقبّله وشمّه ، ثم دخلنا عليه بعد ذلك وإبراهيم يجود بنفسه فجعلت عينا رسول الله تذرفان ، فقال له عبد الرحمن بن عوف - رضي الله عنه-: وأنت يارسول الله! فقال : ياابن عوف إنها رحمة ثم أتبعها بأخرى فقال صلى الله عليه وسلم : إن العين تدمع والقلب يحزن ولانقول الا مايرضي ربنا وإنّا

---

(١) الظئر : هو زوج المرضعة التي ترضع من ليس بابنه .

بفراقك ياإبراهيم لمحزونون(١) .

فنرى هنا ماخالج النبي صلى الله عليه وسلم من الشعور الطبيعي عند فقد ولده إبراهيم .. وكيف أنه استغرب الصحابي عبد الرحمن بن عوف من بكائه وظنّ أن الأنبياء ينبغي أن لايتأثروا بذلك ! ولكنّ الحق هو ماذكره النبي صلى الله عليه وسلم من أنها رحمة وأن العين تدمع والقلب يحزن ..

ونعود الى حديثنا : فذكر موقف الأم ليس شرطاً في اكتمال القصة ، فالقصة مكتملة بهدفها الذي جاءت من أجله . خصوصاً وأن القضية هنا قضية يعقوب مع أبنائه في أنهم شعروا بحبه الزائد ليوسف وأخيه الى نهايتها ، وليست هي قضية أم يوسف إذ أن غير يوسف وبنيامين ليسوا بأبنائها ومن الطبيعي أن يكون ميلها إليهما أكثر ولاتلام على ذلك الشعور . والله أعلم .

* ودل قوله تعالى : (وتولى عنهم وقال ياأسفا على يوسف وابيضت عيناه من الحزن) على جواز التأسف والبكاء عند المصيبة ؛ لأن ذلك مما لايملكه الانسان ، وانما الممنوع المذموم مايقع من النياح والصياح ولطم الصدور والوجوه وتمزيق الثياب .

وعن الحسن : أنه بكى على ولد او غيره . فقيل له في ذلك شيء ؟ فقال : مارأيت الله جعل الحزن عاراً على يعقوب(٢) .

* وفي هذه الآية يروى أن سعيد بن جبير قال : لم يعط أحد غير هـذه

---

(١) رواه البخاري : كتاب الجنائز ، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم " وإنا بك لمحزونون " وقوله " إن العين تدمع " ، حديث (٦١) ، ج٢ ص١٧٩ .

(٢) انظر : محاسن التأويل للقاسمي ج٩ ص٢٦٨ ؛ تفسير البيضاوي ج٢ ص١٤١ .

الأمة الاسترجاع . ألا تسمعون الى قول يعقوب : (ياأسفا) (١) ، والاسترجاع -كما هو معلوم - هو قولنا : إنا لله وإنا إليه راجعون .

وهذه من مزايا أمة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أن أعطوا أفضل مايكون وأكمل ، وقد جاء ذكر ذلك في قوله تعالى : (الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون) (٢) .

* ويستفاد من قولهم لأبيهم حين رأوه في غاية الحزن : (قالوا تالله تفتأو تذكر يوسف حتى تكون حرضاً او تكون من الهالكين) أنه ينبغي للأبناء أن يرفقوا بآبائهم وأن يهوّنوا عليهم مايحل بهم من مصائب وابتلاءات ، وأن يسعَوا جاهدين في تخليصهم من الهموم والأحزان ما استطاعوا الى ذلك سبيلاً ؛ فإن هذا من البر بهم وحسن مصاحبتهم .

والأبناء هم أفضل من يهوّن على الآباء ويزيل عنهم الأحزان كما هو الواقع؛ وذلك لأن الله عز وجل جعل مكانة خاصة للولد في قلب أبويه ، فإذا قام الولد بتهوين المصاب عن أحدهما كان لذلك أكبر الأثر ، إذ يجد الأب او الام أن أقرب الناس بجوارهما فيزول الهم والحزن ، وبالتالي يكسب الأبناء رضا آبائهم وازدياد حبهم لهم .

* وإنا لنشهد في قوله تعالى على لسان يعقوب : (قال إنما أشكو بثي وحزني الى الله وأعلم من الله مالاتعلمون) ماعليه يعقوب - عليه السلام - من قوة صلته بالله ، وإرجاع أمره كله إليه .

وحول هذه المعاني يقول سيد قطب : " وفي هذه الكلمات يتجلى الشعور بحقيقة الألوهية في هذا القلب الموصول ، كما تتجلى هذه الحقيقة ذاتها بجلالـها

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ج٢ ص٤٨٧ .

(٢) سورة البقرة : ١٥٦ .

القاهر ولالائها الباهر . إن هذا الواقع الظاهر الميئس من يوسف ، وهذا المدى الطويل الذي يقطع الرجاء من حياته فضلاً على عودته لأبيه واستنكار بنيه لهذا التطلع بعد هذا الأمد الطويل في وجه هذا الواقع الثقيل.. إن هذا كله لايؤثر شيئاً في شعور الرجل الصالح بربه . فهو يعلم من حقيقة ربه ومن شأنه مالايعلم هؤلاء المحجوبون عن تلك الحقيقة بذلك الواقع الصغير المنظور! وهذه قيمة الايمان بالله ومعرفته سبحانه هذا اللون من المعرفة معرفة التجلي والشهود وملامسة قدرته وقدره وملامسة رحمته ورعايته وادراك شأن الألوهية مع العبيد الصالحين "(١).

* كما أنه يستفاد من أمر يعقوب - عليه السلام - لأبنائه بالبحث عن يوسف وأخيه : أن الرجاء يوجب للعبد السعي والاجتهاد فيما رجاه ؛ فيعقوب ترجى الله من قبل أن يرجع إليه أبناءه في قوله : (عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً) ثم بذل جهده في البحث عنهم وتقصي أخبارهم بإرسال أبنائه في هذا الشأن .

فهناك فرق بين الرجاء والتمني ، فالتمني يكون مع الكسل ، ولايسلك بصاحبه طريق الجد والاجتهاد ، أما الرجاء فيكون مع بذل الجهد وحسن التوكل . ، والأول كحال من يتمنى أن يكون له أرض يبذرها ويأخذ زرعها ، والثاني : كحال من يشق أرضه ويفلحها ويبذرها ويرجو طلوع الزرع . ولهذا أجمع العارفون على أن الرجاء لايصح الا مع العمل(٢) .

وفي مقابل الرجاء يأتي اليأس الذي يوجب التثاقل والتباطؤ ، ولذلك نهاهم عن اليأس من رحمة الله : (ولاتيأسوا من روح الله إنه لاييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) بل دفعهم الى العمل الذي يتبع الرجاء(٣) .

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب : ج٤ ص٢٠٢٦ .
(٢) انظر : تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي ج٤ ص٥٢ ؛ مدارج السالكين لابن القيم ج٢ ص٣٥ ، تهذيب المدارج للعزي ص٢٩٧ .
(٣) تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي : ج٤ ص٥٢ .

يقول سيد قطب : " تحسسوا بحواسكم في لطف وصبر ويصر على البحث ودون يأس من الله وفرجه ورحمته ، وكلمة (روح) أدق دلالة وأكثر شفافية. ففيها ظل الاسترواح من الكرب الخانق بما ينسم على الأرواح من رَوْح الله الندي (انه لاييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) فأما المؤمنون الموصولة قلوبهم بالله الندية أرواحهم بروحه الشاعرون بنفحاته المحيية الرّخية ، فانهم لاييأسون من روح الله ولو أحاط بهم الكرب واشتد بهم الضيق . وإن المؤمن لفي روح من ظلال إيمانه، وفي أنس من صلته بربه وفي طمأنينة من ثقته بمولاه وهو في مضايق الشدة ومخانق الكروب "(١).

* ومن البلاغة القرآنية في الآيات مايلي :

- قوله تعالى : (ياأسفا على يوسف) فيه : أن بين لفظتي الأسف ويوسف جناس الاشتقاق(٢) .
- قوله تعالى : (تالله تفتؤ تذكر يوسف) فيه : ايجاز بالحذف . أي: تالله لاتفتؤ ، فحذفت (لا) كما في قوله : فقلت يمين الله أبرح قاعداً . لأنه لايلتبس بالاثبات؛ فان القسم إذا لم يكن معه علامة الاثبات كان على النفي(٣) .
- قوله تعالى : (ولاتيأسوا من روح الله) فيه : استعارة ، حيث استعير الروح وهو تنسيم الريح التي يلذّ شميمها ويطيب نسيمها للفَرَج الذي يأتي بعد الكربة، واليسر الذي يأتي بعد الشدة(٤) .

٢- العبر والفوائد من تعرّف الاخوة على يوسف :

* يستفاد من قوله تعالى : (قالوا ياأيها العزيز مسنا وأهلنا الضرّ وجئنا

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب : ج٤ ص٢٠٢٦ .
(٢) صفوة التفاسير للصابوني : ج٢ ص٦٦ .
(٣) تفسير البيضاوي : ج٣ ص١٤١ .
(٤) صفوة التفاسير للصابوني : ج٢ ص٦٦ .

ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين) مايلي:

- إنّ في هذه الآية إرشاداً الى ادب جليل وهو تقديم الوسائل امام المآرب، فانها أنجح لها ، وهذا مافعله اخوة يوسف هنا فانهم قدّموا ماذكر من رقة الحال والتمسكن وتصغير العوض ولم يفجؤوه بحاجتهم ليكون ذريعة الى اسعاف مرامهم ببعث الشفقة والعطف والرحمة ..(١)

- جواز الشكوى عند الضر لمن يرجى منه إزالتها ، بل واجب على من أصابه ذلك إذا خاف على نفسه الضر من الفقر وغيره ، وذلك كالذي يجب عليه أن يشكو مابه من مرض الى الطبيب ليعالجه . ولايكون ذلك قدحاً في التوكل على الله ، وهذا مالم يكن التشكي على سبيل التسخط . والصبر والتجلد في النوائب أحسن ، والتعفف عن المسألة أفضل ، وأحسن الكلام في الشكوى سؤال المولى زوال البلوى وذلك قول يعقوب : (إنما أشكو بثّي وحزني إلى الله ..) . فأما الشكوى على غير مُشْك فهو السفه إلا أن يكون على وجه البث والتسلي(٢) .

- استدل مالك وغيره من العلماء بقوله : (فأوف لنا الكيل) على أن أجرة الكيّال على البائع ، حيث كان يوسف هو الذي يكيل ، وكذلك الوزان والعداد وغيرهم؛ لأن الرجل إذا باع عدة معلومة من طعامه وأوجب العقد عليه وجب عليه أن يبرزها ويميّز حق المشتري من حقه(٣) . وبعبارة أخرى مختصرة : لأنه إذا كان عليه توفية الكيل فعليه مؤنته ومايتمّ به(٤) .

- وقولهم : (وتصدّق علينا) نشير فيه الى أنه يكره للرجل أن يقول في دعائه: اللهم تصدق عليّ ؛ لأن الصدقة إنما تكون ممن يبغي الثواب والله تعالى هو

---

(١) انظر : محاسن التأويل للقاسمي ج٩ ص٢٧٠

(٢) المرجع السابق: ج٩ ص٢٧٠؛ تفسير القرطبي ج٩ ص٢٥٤ .

(٣) تفسير القرطبي : ج٩ ص٢٥٥ .

(٤) محاسن التأويل للقاسمي ج٩ ص٢٧٠ .

المتفضل بالثواب بجميع النعم لاربّ غيره ، ويدل عليه قوله تعالى: (إنّ الله يجزي المتصدقين).

والذي ينبغي أن يقال : اللهم أعطني وتفضل عليّ . " قاله الحسن "(١).

- وكذلك فان في قوله تعالى : (إنّ الله يجزي المتصدقين) حثّ على الاحسان، وإشارة إلى أن المحسن يُجزى بأحسن جزاء من الله تعالى ؛ وإن لم يجزه المحسن إليه(٢) .

* وفي قوله تعالى على لسان يوسف : (هل علمتم مافعلتم بيوسف وأخيه من قبل..) مايدل على حرصه في إبقاء روح الأخوة حسنة بينه وبينهم ؛ حيث أراد باستفهامه هذا التذكير والتوبيخ ، ولم يستخدم أيّة ألفاظ نابية جارحة .

* كما أنه أراد بكلامه هذا أن يعرف حالهم الذي هم عليه الآن ، فرأى منهم كل مايشير الى توبتهم الصادقة ، واعترفوا أمامه بخطئهم الذي ارتكبوه، والاعتراف بالخطأ هو خلق طيب يحمد عليه الانسان ، ولمس يوسف - عليه السلام- حسن حالهم فاطمأنّ واستراح ، وقام بما ينبغي أن يكون فسامحهم بكلّ طيبة نفس ووعدهم بأنه لن يذكر لهم مافعلوه أبداً بعد اليوم ؛ إشعاراً منه بطيب معدنه وأن مافعلوه معه لم يغير قلبه تجاههم ، بل هم في قلبه إخوة وأحباب .

وإن هذا لخلق عظيم تحلى به يوسف عليه السلام .. خلق العفو والتسامح.. الخلق الذي جعل إخوته يحبونه ويجلّونه ويحترمونه .

وما أجمل أن يقتدي بيوسف عليه السلام جميع الاخوة في تسامحهم وعفوهم لاخوانهم إن أساؤا إليهم حتى تتآلف القلوب وتخيّم السعادة على الجميع ، وبذلك تحفظ القرابات وتبقى الوشائج الأخوية كما أرادها الاسلام قوية متينة .

---

(١) تفسير القرطبي : ج٩ ص٢٥٥ .
(٢) محاسن التأويل للقاسمي : ج٩ ص٢٧٠ .

* ومن قوله تعالى على لسان يوسف : (قال أنا يوسف وهذا أخي قد منّ الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لايضيع أجر المحسنين) يستفاد مايلي :

- الاشارة الى فضيلة التقوى والصبر ، والى ان كل خير في الدنيا والآخرة هو من آثار التقوى والصبر ، وأن عاقبة أهلهما أحسن العواقب(١) .

- وقوله : (إنه من يتق ويصبر ..) هو من أفانين الخطابة ، وهو ان يغتنم الواعظ الفرصة لالقاء الموعظة ؛ وهي فرصة تأثر السامع وانفعاله وظهور شواهد صدق الواعظ في موعظته(٢) . وهذه فائدة يستفيد منها كل داعية الى الله عز وجل في دعوته للآخرين ، وذلك بأن يغتنم الفرص والمناسبات التي يكون فيها مدعوّيه أدعى للتأثر والاستجابة فيعظهم فيها ليحظى على قبولهم واستجابتهم المطلوبة .

* وأن في إرسال يوسف قميصه لأبيه مع إخوته تعجيلاً لمسرته وإنهاءً لمحنته وتفريج لهمه وغمه . وذلك لأنه حين يُلقى على وجهه القميص يرتد بصره فهذه مسرة بذاتها ، ثم يثق بحياته وهذه مسرة أعظم من الأولى ، وهي المطلوبة المحبوبة .

وانه لبر عظيم من يوسف لأبيه اذ أنه لم ينتظر حتى يأتيه بل ساق اليه البشرى وادخل عليه السرور قبل ذلك .

الا قليبادر الأبناء الى ادخال السرور على آبائهم خصوصاً في المواطن التي يغلب عليها حال الحزن فان ذلك من البر وحسن الصلة . كما أن فيه تفريجاً للكرب، وقد قال صلى الله عليه وسلم : " من فرّج عن مسلم كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة " (٢) .

---

(١) تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي : ج٤ ص٨٢ .

(٢) انظر : التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ج١٢ ص٤٩ .

(٢) رواه مسلم : كتاب البر والصلة ، باب تحريم الظلم ، حديث(٥٨) .

٢- العبر والفوائد من تلقي يعقوب خبر سلامة يوسف :

* إن قوله تعالى : (فلمّا أن جاء البشير ... الآية) فيه دلالة على جواز التبشير ببشائر الدنيا واستحبابه، وجواز السرور بحصول النعم الحاصلة في الدنيا(١) .

* وفي قوله تعالى : (قالوا يأبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين . قال سأستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم) يقول المهايمي : صرحوا بالذنوب دون الله لمزيد اهتمامهم بها ، وكأنهم غلب عليهم النظر الى قهره . وصرح يعقوب بذكر الرب سبحانه دون الذنوب إذ لامقدار لها بالنظر الى رحمته التي ربّى بها الكل(٢) .

* وقوله تعالى : (سأستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم) فيه دلالة - ايضا- على استحباب إرجاء الاستغفار والدعاء لوقت يرى فيه العبد أنه أحضر قلباً من غيره ، أو أنه يتحرّى أفضل الأوقات وأقربها للاجابة . وقد ذكرنا سابقاً أن يعقوب أخّر الاستغفار الى وقت السحر أو إلى غيره من الأوقات الفاضلة..
وقد عُرف في السنة النبوية تخصيص الأوقات الفاضلة للاستغفار والدعاء كوقت السحر وعقب الصلوات وعقب قضاء الحج ، وكذلك في السجود وعند الاذان وبين الاقامة وعند الافطار من الصيام(٢) . والله أعلم .

---

(١) محاسن التأويل للقاسمي : ج٩ ص٢٧٨ .
(٢) علي بن احمد بن ابراهيم المهايمي ، تبصير الرحمن وتيسير المنان، الطبعة الثانية ، ٢ج (بيروت : عالم الكتب ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م) ج١ ص٢٧٤.
(٢) انظر : محاسن التأويل للقاسمي : ج٩ ص٢٧٨ .

* ويستفاد - كذلك - من هذه الآيات : ان العبرة في حال العبد بكمال النهاية لابنقص البداية ؛ فإن اولاد يعقوب جرى منهم ماجرى في اول الأمر مما هو اكبر اسباب النقص واللوم ، ثم انتهى أمرهم الى التوبة النصوح والسماح التامّ من يوسف وأبيهم والدعاء لهم بالمغفرة والرحمة(١) ..

٤- العبر والفوائد من تحقق رؤيا يوسف :

* يستدل مما روي أنّ يوسف خرج للقاء أبيه وخرج معه من خرج: على حسن التعظيم باللقاء(٢) ، ولاشك ان هذا مطلوب في مثل حادثة يوسف. فهو خرج ليلتقي بأبيه الذي لم يره منذ أربعين عاماً على التقريب ، وقد علم ماعلم من حاله لفراقه. فخروجه لاستقباله مع من يشاء من الناس فيه تقدير واحترام وبرّ لأبيه.

وهكذا ينبغي ان يكون حال الابناء مع آبائهم بأن يظهروا لهم كل التقدير والاحترام والبر ؛ فإن هذا مما يثلج صدور الآباء ويقر أعينهم بأبنائهم، إذ يرون أبناءهم يسعون دائماً لأرضائهم بكل الوجوه سواء كانت حسية أو معنوية.

* ومن إكرامه وتقديره واحترامه لأبويه - كذلك - أن أجلسهما على سريره المخصص له : (ورفع أبويه على العرش) ، إذ لايفوق الأبوين شيء من أمور الدنيا فهما أغلى مالدى الانسان في هذه الحياة ولايعلو على حقهما سوى حق الله عز وجلّ.

* وانا لنلاحظ أنّ يوسف - عليه السلام - كان في غاية الشكر لله؛ فإنّه بعد أن حقق الله له رؤياه وأتم نعمته عليه بالتقائه بأبويه واجتماعه بإخوته وغير ذلك من

---

(١) تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي : ج٤ ص٧٠ .
(٢) محاسن التأويل للقاسمي : ج٩ ص٢٨٢ .

النعم قال :

(ياأبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي انّ ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم . رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث ..الآية) .

فهذا شكر منه - عليه السلام - بتحدثه واعترافه بنعم الله عليه.

* وبمناسبة ذكرنا لشكر يوسف عليه السلام يجدر بنا أن نشير الى شيء عن حقيقة الشكر وفضائله عسى أن نحذو حذو الشاكرين ونصل الى منزلتهم ؛ فنقول:

إنّ الشكر نصف الايمان؛ إذ أنّ الايمان نصفان : نصف شكر ، ونصف صبر.

وقد أمر الله به ونهى عن ضده ، وأثنى على أهله ، ووصف به خواصّ خلقه، وجعله غاية خلقه وأمره.

وحقيقة الشكر : ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده : ثناء واعترافاً . وعلى قلبه : شهوداً ومحبة . وعلى جوارحه : انقياداً وطاعة .

والشكر مبني على خمس قواعد : خضوع الشاكر للمشكور ، وحبه له ، واعترافه بنعمه ، وثناؤه عليه بها ، وأن لايستعملها فيما لايكره .

وهذا الخلق عزيز في الناس (وقليل من عبادي الشكور) " سبأ :١٣ ".

وسمّى الله نفسه شاكراً ومشكوراً ، وسمى الشاكرين بهذين الاسمين فأعطاهم من وصفه وسماهم باسمه ، وحسبك بهذا محبة للشاكرين وفضلاً ، وقلة أهله في العالمين تدل على أنهم خواصه .

وقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قام حتى تورمت قدماه . فقيل له: تفعل هذا وقد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : " أفلا أكون عبداً شكوراً "(١).

---

(١) انظر : مدارج السالكين لابن قيم الجوزية : ج٢ ص(٢٤٢ - ٢٤٤)، تهذيب المدارج من ٢٨٢ - ٢٨٤ . والحديث رواه البخاري : كتاب الوتر، باب التهجد في الليل، حديث (١٥٩) ، ج٢ ص١١٧ .

وقد استثنى الله تعالى في خمسة اشياء ولم يستثن في الشكر ، فاستثنى في الاغناء وفي الاجابة وفي الرزق وفي المغفرة وفي التوبة . فقال : (فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء) ، وقال : (فيكشف ماتدعون إليه إن شاء) ، وقال : (ويرزق من يشاء بغير حساب) ، وقال : (ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) ، وقال : (ويتوب الله على من يشاء) . وأما الشكر فقال : (لئن شكرتم لأزيدنكم) ولم يستثن(١) .

* ومما نلاحظه كذلك أنّ يوسف - عليه السلام - كان في غاية الادب في كلامه؛ إذ أنه لم يقل : أخرجني من الجبّ ، حفظاً للأدب مع إخوته بأن لايخجلهم بما جرى في الجبّ.
ثم قال : (إذ أحسن بي) ولم يقل : أحسن بكم تأدباً مع الجميع وتواضعاً.
وقال : (وجاء بكم من البدو) ولم يقل : رفع عنكم جهد الجوع والحاجة. وذلك تأدباً معهم ايضاً . كما أنه أضاف ماجرى الى السبب ، ولم يضفه الى المباشر الذي هو أقرب إليه منه فقال : (من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي) .
وهذا الادب الذي تحلّى به يوسف عليه السلام هو كذلك سمت جميع الأنبياء ورسل الله .

وبمناسبة ذكرنا لأدب يوسف عليه السلام يقودنا الحديث عن خلق الادب بصفة عامة حتى تكمل الفائدة وتحصل العبرة ؛ ولابن القيم كلام حول هذا الخلق خلاصته مايلي:
إنّ الأدب ثلاثة أنواع : أدب مع الله سبحانه ، وأدب مع رسوله وشرعه، وأدب مع خلقه.
أمّا الأدب مع الله فثلاثة أنواع :

---

(١) قصص الانبياء لعبد الوهاب النجار : ص١٧٩ .

أحدها : صيانة معاملته : أن يشوبها بنقيصة .
الثاني : صيانة قلبه : أن يلتفت الى غيره .
الثالث : صيانة إرادته : أن تتعلق بما يمقتك عليه .

ومن أمثلة الادب مع الله قول ابراهيم عليه السلام : (الذي خلقني فهو يهدين . والذي هو يطعمني ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين) "الشعراء: ٧٨-٨٠" ولم يقل : وإذا أمرضني : حفظاً للأدب مع الله ، والمتأمل في أحوال الرسل مع الله وخطابهم وسؤالهم إياه يجدها مشحونة بالأدب قائمة به .
وأما الأدب مع رسوله فرأسه : كمال التسليم له والانقياد لأمره ، وتلقي خبره بالقبول والتصديق دونما التفات الى سواه ، ومن الادب معه أن لايتقدم الانسان بين يديه بأمر ولانهي ولاإذن ولاتصرف حتى يأمر هو وينهى ويأذن كما قال تعالى: (ياأيها الذين آمنوا لاتقدموا بين يدَيْ الله ورسوله) "الحجرات :١" وهذا باق الى يوم القيامة ولم ينسخ ؛ فالتقدم بين يدي سنته بعد وفاته كالتقدم بين يديه في حياته ولافرق . ومن الادب معه عدم رفع الصوت فوق صوته، ولايُجعل دعاؤه كدعاء غيره ، ومن الادب استئذانه ..الخ .
وآخرها : هو مايسمى بالأدب مع الخلق ، فالادب مع الخلق هو معاملتهم على اختلاف مراتبهم بما يليق بهم ، فلكل مرتبة ادب . والمراتب فيها أدب خاص وأخصّ، فمع الوالدين : أدب خاص وللأم منهما : أدب هو أخص منه ، ومع العالم: أدب آخر، ومع السلطان أدب يليق به ، وله مع الأقران أدب يليق بهم، ومع الأجانب: أدب غير أدبه مع أصحابه وذوي أنسه. ومع الضيف : أدب غير أدبه مع أهل بيته..
وأدب المرء عنوان سعادته وفلاحه ، وقلّة أدبه: عنوان شقاوته وبواره. فلننظر الى الأدب مع الوالدين : كيف نجّى صاحبه من حبس الغار حين انطبقت عليهم الصخرة؟ والإخلال به مع الأم - تأويلاً وإقبالاً على الصلاة - كيف امتحن به جُريج الراهب بهدم صومعته وضرب الناس له ورميه بالفاحشة ؟ .. ولنتأمل أحوال كل

شقي ومقتر ومدّبر فإننا نجد إنّ قلّة الأدب هي التي ساقته إلى الحرمان(١) .

* وللامام البيضاوي - رحمه الله - سؤال حول قول يوسف وهو يدعو الله: (توفني مسلماً والحقني بالصالحين) فيقول : كيف قال يوسف ذلك مع علمه بأنّ كلّ نبيّ لايموت إلا مسلماً ؟ .
ويجيب عليه بقوله : قاله إظهاراً للعبودية والافتقار وشدة الرغبة في طلب سعادة الخاتمة ، وتعليماً للأمة وطلباً للثواب(٢) .
وفيه اشارة الى أنه ينبغي للعبد أن يدعو الله دائماً بتثبيت إيمانه، وأن يعمل بالاسباب الموجبة لذلك ، وأن يسأل الله - كذلك - حسن الخاتمة وبها تمام النعم(٣) .

* فائدة لغوية :
في قوله تعالى : (فاطر السموات والارض) ورد عن ابن عباس في تفسير كلمة (فاطر) قوله: ماكنت أدري معنى الفاطر ؛ حتى احتكم إليّ أعرابيان في بئر. فقال أحدهما: أنا فطرتها ، وأنا ابتدأت حفرها .
قال أهل اللغة : أصل الفطر في اللغة : الشق . يقال : فطر ناب البعير إذا بدا ، وفطرت الشيء فانفطر أي شققته فانشق ، وتفطر الارض بالنبات والشجر بالورق إذا تصدعت . هذا أصله في اللغة ، ثم صار عبارة عن الايجاد لأن ذلك الشيء حال عدمه كأنه في ظلمة وخفاء فلما دخل في الوجود صار كأنه انشق عن العدم وخرج ذلك الشيء منه(٤) .

---

(١) انظر : مدارج السالكين لابن القيم ج٢ ص(٢٧٦ - ٢٩٢) ؛ تهذيب المدارج للعزي ص(٤٤٥ - ٤٥٦) .
(٢) تفسير البيضاوي: ج٢ ص٢٨٤.
(٣) انظر: تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي ج٤ ص٨٢.
(٤) التفسير الكبير للفخر الرازي : ج١٨ ص٢١٧ .

* ومن البلاغة القرآنية في الآيات مايلي :

- في قوله : (ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين) . جملة : (إن شاء الله) دعائية جيء بها للتبرك . وفي الآية تقديم وتأخير تقديره : ادخلوا مصر آمنين إن شاء الله(١) .

وقوله : (ورفع أبويه على العرش وخرو له سجداً) فيه : أن لفظ: (أبويه) المراد به الأب والأم ولكن أطلق هذا اللفظ عليهما من باب "التغليب ".

كما أن الرفع هنا مؤخر عن الخرور وإن تقدم لفظاً للاهتمام بتعظيمه لهما، أي سجدوا له ثم أجلس أبويه على سريره(٢) .

* وفي ختام كلامنا حول العبر والفوائد في هذا المبحث نورد فوائد وعبراً عامة لاتختص بحدث معين في قصة يعقوب عليه السلام مع يوسف وإخوته وهي كما يلي:

- يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي: "إن هذه القصة من أحسن القصص وأوضحها وأبينها ؛ لما فيها من أنواع التنقلات من حال الى حال ، من محنة الى منحة ومن محنة الى منحة ومنّة ، ومن ذل الى عز ومن رق الى ملك ، ومن فرقة وشتات الى اجتماع وائتلاف ، ومن حزن الى سرور ، ومن رخاء الى جدب ، ومن جدب الى رخاء، ومن ضيق الى سعة ، ومن إنكار الى اقرار فتبارك من قصها فأحسنها ووضحها وبينها(٢) ".

- وإن قصة يوسف الذي تربى في مصر ونشأ فيها ولم تبهجه زخارف تلك المدنية وتجره الى الرذيلة جاءت عبرة للناس كافة بهذه الأخلاق.. اعتلى يوسف عرش مصر فساس بعد أن كان مسوساً ، وملك بعد أن كان مملوكاً! وليس الجزاء على الاخلاق والكمال خاصاً بالآخرة بل في الدارين (وكذلك مكنا ليوسف) في الأرض يتبوأ

---

(١) صفوة التفاسير للصابوني ج٢ ص٧١ .
(٢) المرجع السابق : ج٢ ص٧١ .
(٢) تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي : ج٤ ص٦٦ .

منها حيث نشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولانضيع أجر المحسنين . ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون) "يوسف : ٥٦-٥٧" هذه هي الاخلاق الفاضلة ذكرت في التنزيل نموذجاً في غضون هذه السيرة للأمم الاسلامية ليأخذوا ثمرتها .

قال علماء الاخلاق : لاينتظم أمر الأمة إلا بمصلحين ورجال أعمال قائمين وفضلاء مرشدين هادين لهم شروط معلومة وأخلاق معهودة(١) .

- ووجه الاعتبار - ايضاً - من هذه القصة حينذاك للرسول محمد صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين من اصحابه : أن الذي قدر على إخراج يوسف من الجب بعد إلقائه فيه وإخراجه من السجن ، وتمليكه مصر بعد العبودية ، وجمع شمله بأبيه وإخوته بعد المدة الطويلة واليأس من الاجتماع هو قادر على إعزاز محمد صلى الله عليه وسلم وإعلاء كلمته وإظهار دينه(٢) .

وكان هذا وجاءت هذه القصة أشبه شيء بحال المؤمنين في مكابدتهم في اول الأمر وهجرهم ، وتشتتهم مع قومهم وقلة ذات أيديهم الى أن جمع الله شملهم ، وأورثهم الأرض ونصرهم وأيدهم وذلك بجليل ايمانهم وعظيم صبرهم .

ثم إن حال يعقوب ويوسف في صبرهما ، ورؤية حسن عاقبة الصبر في الدنيا وماأعد الله لهما من عظيم الثواب أنسب بحال نبينا في مكابدة قريش ومفارقة وطنه ثم تعقيب ذلك بظفره بعدوه وإعزاز دينه وإظهار كلمته ورجوعه الى بلده على حالة قرت بها عيون المؤمنين وما فتح الله عليه وعلى أصحابه(٢) .

وفي هذه القصة عبرة لأمتنا إن أرادت الرجوع الى عزها ومجدها بأن تسلك طريق ربها ، ولتجاهد ولتصابر عليه حتى يأتيها الله بنصره وتستعيد بذلك مكانتها المطلوبة لها وماذلك على الله بعزيز ..

---

(١) انظر : محاسن التأويل للقاسمي ج٩ ص٢٠٩ .
(٢) انظر : المرجع السابق ج٩ ص٢٠٢ .
(٢) انظر : المرجع السابق ج٩ ص٢٠٤ .

الفصل الثاني

"وصية يعقوب عليه السلام لأبنائه عند احتضاره"

المبحث الأول : بيان الوصية

يبيّن الله عزّ وجلّ حال يعقوب عليه السلام مع أبنائه عند احتضاره في قوله:

(أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ماتعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون) (١) .

ومن قبل هذه الآية ذكر الله وصيته لأبنائه في قوله :

(ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابنيّ إن الله اصطفى لكم الدين فلاتموتن إلا وأنتم مسلمون) (٢) .

وقد تكلمنا عن هذه الوصية في وصية إبراهيم عليه السلام لأبنائه في الباب السابق ، وهنا سنتكلم عن وصية يعقوب عليه السلام خاصة لأبنائه في وقت احتضاره :

* يبدأ الله عز وجل في بيان هذه الوصية بقوله : (أم كنتم) . و(أم) عاطفة لجملة (كنتم شهداء) على جملة (ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب) ؛ فإن (أم) من حروف العطف كيفما وقعت .

ولما كانت (أم) يلازمها الاستفهام ، فالاستفهام هنا غير حقيقي لظهور أن عدم شهودهم احتضار يعقوب محقق ؛ فتعيّن أن الاستفهام مجازي ، ومحمله على الانكار لأنه أشهر محامل الاستفهام المجازي ، ولأن مثل هذا المستفهم عنه مألوف في الاستفهام الانكاري.

---

(١) سورة البقرة : ١٣٣ .

(٢) سورة البقرة : ١٣٢ .

ثم إن كون الاستفهام إنكارياً فذلك يمنع أن يكون الخطاب فيه للمسلمين؛ لأنهم ليسوا بمظنة حال من يدعي خلاف الواقع حتى ينكر عليهم ، فالخطاب هنا في هذا الاستفهام الانكاري متوجه الى اليهود ؛ إذ أن الله ينكر عليهم اعتقاداً اعتقدوه ويدعونه وهو أن يعقوب مات على اليهودية وأوصى بها فلزمت ذريته وصيته هذه. والمعنى: ماكنتم شهداء احتضار يعقوب حتى تعلمون هذا وتنسبون إليه ذلك افتراء وبهتاناً.

ثم أكمل الله القصة تعليماً وتفصيلاً واستقصاء في الحجة بأن ذكر ماقاله يعقوب حين احتضاره وماأجابه أبناؤه وليس ذلك بداخل في حيّز الانكار ، فالانكار ينتهي عند قوله: (الموت) ، والبقية تتمة للقصة .

والشهداء : جمع (شهيد) بمعنى الشاهد أي الحاضر للأمر والشأن .

ووجه دلالة نفي المشاهدة على نفي مانسبوه الى يعقوب : أن تنبيههم الى أنهم لم يشهدوا ذلك يثير في نفوسهم الشك في معتقدهم الباطل .

وجاءت هذه الوصية عند احتضاره ، وهذا يدل على أهميتها ؛ لأن ذاك وقت الحرص بتعجيل إبلاغ أهم النصائح الى الموصين إذ أنها آخر كلام الذي يحتضر، وفي المقابل تكون هذه الكلمات لها أكبر الأثر في نفوس من يوصيهم ، إذ الموصى يكون أشد اهتماماً وانتباهاً وحرصاً على تلبية مايطلبه ويوصيه به موصيه خصوصاً إن كان الموصي أحد الوالدين فذلك من برهما والوفاء بحقهما .

ووصية يعقوب - كما نلاحظ - جاءت بطريقة غير مباشرة ؛ إذ كانت بأسلوب الاستفهام، وذلك لينظر عليه السلام مقدار ثباتهم على الدين ، وليطلع ويطمئن على اخلاص قلوبهم لهذا الدين .

وأتى في سؤاله ب(ما) الاستفهامية دون (من) ؛ لأن (ما) هي الأصل عند قصد العموم فهو سألهم عما يمكن أن يعبده العابدون فقال لهم: (ماتعبدون من بعدي؟). واقترن الظرف (بعد) بحرف (من) لقصد التوكيد .

* ثم يجيب الأبناء على هذا السؤال فيقولون وملء قلوبهم الايمان : (نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون) .

وجوابهم هذا يطمئن قلب يعقوب ويقرّ عينيه بأبنائه وهو في هذه اللحظة الخاتمة الأخيرة .

كما أن جوابهم عما أتوا به معرفاً بالاضافة إذ قالوا : (نعبد إلهك وإله آبائك..) ولم يذكروا الاسم العلم بأن يقولوا : نعبد الله ؛ لأن إضافة لفظة (إله) الى ضمير يعقوب وإلى آبائه تفيد جميع الصفات التي كان يعقوب وآباؤه يصفون الله بها، ففيه إيماء إذاً الى أنهم مقتدون بسلفهم ، ليزيد اطمئنانه عليه السلام ويتيقن أنهم على الصراط المستقيم في دين الله ، ولن يبتدعوا شيئاً في هذا الدين بل هم متبعون لامبتدعون(١) .

ومع عبادة الله عز وجل فانهم خاضعون له كل الخضوع ومطيعون له لايخالفون شرعه وهديه كما قال تعالى : (.. وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون) (٢) .

والاسلام هو ملة الانبياء قاطبة وإن تنوعت شرائعهم واختلفت مناهجهم: (إنّ الدين عند الله الاسلام ..) (٣) .

وبتلك الاجابة الممتازة الوافية تمت وصيته عليه السلام بهذا الأسلوب، وتحقق له ماكان يريد الايصاء به وهو الالتزام بتوحيد الله ودينه والخضوع له سبحانه(٤) .

---

(١) انظر : التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ج١ ص٧٢٠ - ٧٢٢.

(٢) سورة آل عمران : ٨٣ .

(٣) سورة آل عمران : ١٩ .

(٤) انظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ج١ ص١٨٦ .

المبحث الثاني : العبر والفوائـد

* يقول الشهيد سيد قطب - رحمه الله - واصفاً هذا المشهد : " إن هذا المشهد بين يعقوب وبنيه في لحظة الموت والاحتضار لمشهد عظيم الدلالة ، قوي الايحاء، عميق التأثير.. ميت يحتضر . فما هي القضية التي تشغل باله في ساعة الاحتضار؟ ماهو الشاغل الذي يعني خاطره وهو في سكرات الموت ؟ ماهو الأمر الجلل الذي يريد أن يطمئن عليه ويستوثق منه ؟ ماهي التركة التي يريد أن يخلفها لأبنائه ويحرص على سلامة وصولها اليهم فيسلمها لهم في محضر يسجل فيه كل التفصيلات؟ إنها العقيدة.. هي التركة.. وهي الذخر ، وهي القضية الكبرى وهي الشغل الشاغل، وهي الأمر الجلل الذي لاتشغل عنه سكرات الموت وصرعاته (ماتعبدون من بعدي ؟) هذا هو الامر الذي جمعتكم من أجله . وهذه هي القضية التي أردت الاطمئنان عليها، وهذه هي الأمانة والذخر والتراث . (قالوا نعبد إلهك..) إنهم يعرفون دينهم ويذكرونه. إنهم يتسلمون التراث ويصونونه. إنهم يطمئنون الوالد المحتضر ويريحونه. وكذلك ظلت وصية إبراهيم لبنيه مرعية في أبناء يعقوب، وكذلك هم ينصون نصاً صريحاً على أنهم (مسلمون) ."(١).

* أقول : وهذه التركة الحقيقية الأصيلة ذات القيمة العالية التي ينبغي أن يهتم لها الآباء ويلاحظوها في أبنائهم والى آخر ساعة من حياتهم؛ لأنها القضية التي تضمن لهم سعادة الدنيا والآخرة ، وماذا يريد الآباء غير السعادة لأبنائهم؟!

فلابد إذاً أن يكون الشاغل هي هذه القضية لاغيرها من قضايا الدنيا الزائلة التي لاتساوي شيئاً في ميزان الله ؛ بل وقد تكون وبالاً على الأبناء إن لم يكونوا أصحاب عقيدة صحيحة ومسلك مستقيم .

وانه لدرس عظيم مفيد يعطيه يعقوب عليه السلام لكل أب يحرص على سلامة عقائد أبنائه ويرجو بذلك السعادة لهم .

---

(١)في ظلال القرآن لسيد قطب : ج١ ص١١٦ .

وكان لزاماً ونحن في عصر قد كثرت فيه المذاهب الضالة وأفكارها الهدامة الملحدة أن يكون جلّ اهتمام الآباء بملاحظة الجانب العقدي والايماني في حياة أبنائهم حتى تسلم لهم عقائدهم من كل زيغ وضلال.. ملاحظة دقيقة ومتابعة في مناح أربعة يذكرها لنا الشيخ عبد الله علوان -حفظه الله- وخلاصتها مايلي:

- ان يلاحظ المربي مايتلقنه الولد من مبادئ وأفكار ومعتقدات ، على يد من يشرفون على توجيهه وتعليمه في المدرسة او في غيرها ، وليقم بمهمته في غرس مبادئ التوحيد وترسيخ قواعد الايمان ليكون الولد بمنجاة من التلقين الالحادي الآثم والتوجيه العلماني الخطير .
- أن يلاحظ مايطالعه الولد من كتب ومجلات ونشرات ، فان وجد أنّها تحمل في طياتها افكار الزيغ ومبادئ الالحاد ودسائس التبشير فليقم بمصادرتها ثم ليقنع الولد أنّ هذه الكتب تفسد عليه ايمانه الصافي وإسلامه العظيم .
- ان يلاحظ من يصاحب الولد من رفقاء وقرناء ، فان وجد ان الرفقة التي يصحبها هي رفقة إلحاد وقرناء زيغ وضلال فعليه أن يقطع الصلة بينه وبينهم وأن يهيء له رفقة صالحة.
- ان يلاحظ ماينتمي اليه من احزاب وغيرها فان وجد أنها إلحادية في مبادئها وتوجيهها ، وأنها لادينية في أهدافها واتجاهاتها ؛ فليجزم في منعه ويكثر من مراقبته وان ينتهز الفرص في اقناعه وتوجيهه حتى يراه قد مال الى الحق ورجع الى الهدى ومشى على الصراط المستقيم(١) .

فبهذه الملاحظة - إن شاء الله - نضمن سلامة عقائد أبنائنا ونطمئن إلى مافي قلوبهم ، وعندها تقرّ أعيننا بهم .. أولاداً صالحين يحملون العقيدة الاسلامية

---

(١) انظر : تربية الاولاد في الاسلام لعبد الله علوان ج٢ ص(٧٢٥-٧٢٦) .

الصافية .. يعبدون الله بها ويدعون خلقه إليها . وهذا الجيل الذي نريده ونطلبه.. جيل به يعاد لهذه الأمة عزتها ومجدها وقيادتها للأمم .

* ومن البلاغة القرآنية في الآية مايلي :

- في قوله : (أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت) يقول أبو حيان فيما معناه كنى بالموت عن مقدماته ؛ لأنه إذا حضر الموت نفسه لايقول المحتضر شيئاً.
كما أنّ قوله : (حضر الموت) كناية غريبة : وهو أنّه غائب ولابدّ أن يقدم ولذلك يقال في الدعاء : واجعل الموت خير غائب ننتظره (١) .
- وأعيد المضاف في قوله : (وإله آبائك) لأن إعادة المضاف مع المعطوف على المضاف اليه أفصح في الكلام (٢) .
- وإن اطلاق الآباء على مايشمل العمّ والأب والجد هو من باب التغليب ، وهو من المجازات المعهودة في فصيح الكلام (٣) . فالعم هو إسماعيل ، والأب إسحاق، والجد إبراهيم ، وأطلق عليهم تغليباً الآباء وذلك في قوله : (وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق) .
- وفي الاتيان بعطف البيان في قوله: (إبراهيم وإسماعيل وإسحاق) ضرب من محسّن الاطراد تنويهاً بأسماء هؤلاء الأسلاف (٤) .

---

(١) انظر : البحر المحيط لابي حيان ج١ص٤٠١ .
(٢) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور : ج١ ص٧٣٢ .
(٣) صفوة التفاسير للصابوني : ج١ ص٩٧ .
(٤) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور : ج١ ص٧٣٢ .
والاطراد هو: أن يذكر اسم الممدوح واسم من يمكن من آبائه على ترتيب الولادة ليزداد إبانة وتوضيحاً على ترتيب صحيح ونسق مستقيم من غير تكلف ولاتعسف.
(انظر: علوم البلاغة لأحمد مصطفى المراغي ص٣٦٠).

- وقوله (إلهاً واحداً): توضيح لصفة الإله الذي يعبدونه ، فقوله: (إلهاً) حال من (إلهك) ، ووقوع (إلهاً) حالاً من (إلهك) مع أنه مرادف له في لفظه ومعناه ، إنما هو باعتبار إجراء الوصف عليه ب(واحداً) ، فالحال في الحقيقة هو ذلك الوصف ، وإنما أعيد لفظ (إلهاً) ولم يقتصر على وصف (واحداً) لزيادة الايضاح؛ لأن المقام مقام إطناب ففي الاعادة تنويه بالمعاد وتوكيد لما قبله.
وهذا أسلوب من الفصاحة إذ يعاد اللفظ ليبنى عليه وصف أو متعلق ويحصل مع ذلك توكيد اللفظ السابق تبعاً(١) .
- وقوله : (ونحن له مسلمون) هو جملة في موضع الحال من ضمير (نعبد) ، أو معطوفة على جملة (نعبد) ، جيء بها إسمية لإفادة ثبات الوصف لهم ودوامه بعد أن أفيد بالجملة الفعلية المعطوفة عليها معنى التجدد والاستمرار(٢) .

وبهذه العبر والفوائد المستخلصة من وصية يعقوب لأبنائه عند موته نختم هذا الباب (يعقوب عليه السلام مع أبنائه) .

والحمد لله رب العالمين

---

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور : ج١ ص٧٢٤ .
(٢) المرجع السابق : ج١ ص٧٢٤ .

الباب الرابـــع

" قصة موسى عليـه الســـلام مع أمـه "

وفيه تمهيد وفصـــلان :

الفصل الأول : بيان القصـــة
والفصل الثاني : العبر والفوائد

" تمهيـــد "

في هذا الباب سنتعرض بالحديث عما ورد في القرآن الكريم عن قصة موسى(١) عليه السلام مع أمه(٢) حين وضعته وما كان بعد ذلك من أحداث تناولها القرآن وبينها .

ولابد لهذه القصة من تمهيد ، وأفضل تمهيد - كما أعتقد - هو بيان الظروف الموجودة في تلك الأيام التي حملت فيها أمّ موسى بابنها وحين وضعته ، ليحسن بنا الدخول في الكلام حول هذه القصة .

ونستطيع أن نتعرّف على هذه الظروف من خلال ماذكره الله عزّ وجلّ في الآيات التالية :

(طسم . تلك آيات الكتاب المبين . نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحقّ لقوم يؤمنون . إنّ فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين . ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين . ونمكّن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ماكانوا يحذرون)(٣) .

فيتضح لنا من هذه الآيات الكريمة أنّ في هذه الفترة الزمنية فرعون مصر قد تجبّر وطغى وعتا وأعرض كل الإعراض عن دين الله. كما أنّه قسّم من يحكمهم إلى عدّة

---

(١) اسمه : موسى بن عمران بن قاهث بن عازر بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام (البداية والنهاية لابن كثير : ج١ ص٢٢٢).

(٢) اسمها : قال السهيلي : اسم أمّ موسى أيارخا، وقيل: أيا ذخت (البداية والنهاية لابن كثير : ج١ ص٢٢٤) ، وقيل : اسمها يوحانذ ، وقيل يوكابد، وهي من نسل لاوي بن يعقوب . (تفسير الخازن : ج٥ ص١٦٢) .

(٣) سورة القصص : ١ - ٥ .

أقسام وفرق وأنواع ، وإنه ليستذل ويستضعف طائفة منهم وهم شعب بني إسرائيل الذين هم من سلالة نبيّ الله يعقوب ، وكانوا آنذاك خيار أهل الأرض، فكان يستعبدهم ويستخدمهم في أخسّ الصنائع والحرف .

وإضافة الى هذا الاستعباد والاستذلال فإنه - عليه لعنة الله - كان يُذبّح أبناءهم ويستحي نساءهم . ولقد حمله على هذا الصنيع البشع اللاإنساني أنه سمع ببشارة مشهورة في بني إسرائيل أخذوها مما أثروه عن إبراهيم - عليه السلام - وهي أنه سيخرج من ذريته غلام يكون هلاك ملك مصر على يديه ، ومن حين سماعه بهذه البشارة أمر بقتل أبناء بني إسرائيل من الذكور حذراً من وجود هذا الغلام .

وذكر السدّي عن أبي صالح وأبي مالك عن ابن عباس، وعن مرّة عن ابن مسعود وعن أناس من الصحابة : أن فرعون رأى في منامه كأن ناراً قد أقبلت من نحو بيت المقدس فأحرقت دور مصر وجميع القبط ولم تضرّ بني إسرائيل . فلما استيقظ هاله ذلك فجمع الكهنة والسحرة وسألهم عن ذلك فقالوا : هذا غلام يولد من هؤلاء يكون سبب هلاك أهل مصر على يديه ..

والمقصود أن فرعون احترز كل الاحتراز أن لايوجد موسى، حتى جعل رجالاً وقوابل يدورون على الحبالى من نساء بني إسرائيل ، ويعلمون ميقات وضعهنّ فلا يولدهنّ إلا هؤلاء القوابل ، وإذا كان المولود ذكراً ذبحه أولئك الذبّاحون من ساعته .

ومرّت الأيام ثم اشتكى القبط إلى فرعون قلّة بني إسرائيل بسبب قتل ولدانهم الذكور وخُشي أن تذهب وتموت الكبار مع قتل الصغار فيصيرون هم الذين يلون ماكان بنو إسرائيل يعملون من الأعمال الشاقّة ، فأمر فرعون بقتل الذكور عاماً وتركهم عاماً .

وذكر أن هارون - عليه السلام - ولد في عام المسامحة عن القتل ؛ وأن موسى ولد في العام الذي يقتل فيه الذكور .

وقيل : إنّ أمّ موسى لما حملت به لم تظهر عليها مخايل الحمل كغيرها، فلم تفطن لها القوابل .

وهكذا وفي هذه الظروف والأحوال جاء موسى - عليه السلام - إلى الدنيا. ولن يغني حذر من قدر(١) .

وبهذا القدر نكون قد مهّدنا للكلام في قصة موسى عليه السلام مع أمّه .

والله المستعان .

---

(١) انظر : البداية والنهاية لابن كثير ج١ ص(٢٢٢ - ٢٢٣) ؛ تفسير ابن كثير ج٢ ص(٢٨٠ - ٢٨١) .

الفصل الأول : بيان القصة

تحدّث القرآن عن هذه القصة في موضعين : في سورة طه ، وفي سورة القصص ، ولكن آيات سورة القصص فصلت القصة بأكثر مما في سورة طه .
أما الآيات التي في سورة القصص فهي كما يلي :

(وأوحينا إلى أمّ موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليمّ ولاتخافي ولاتحزني إنّا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين . فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوّاً وحزناً إنّ فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين . وقالت امرأة فرعون قرّة عين لي ولك لاتقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وهم لايشعرون . وأصبح فؤاد أمّ موسى فارغاً إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين. وقالت لأخته قصّيه فبصرت به عن جنُب وهم لايشعرون . وحرّمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون . فرددناه إلى أمّه كي تقرّ عينها ولاتحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكنّ أكثرهم لايعلمون)(١) .

وأما آيات سورة طه فهي قوله تعالى :

(ولقد مننّا عليك مرّة أخرى . إذ أوحينا إلى أمّك مايوحى . أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليمّ فليلقه اليمّ بالساحل يأخذه عدوّ لي وعدوّ له وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني إذ تمشي أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك إلى أمّك كي تقرّ عينها ولاتحزن ..الآية)(٢)

---

(١) سورة القصص : ٧ - ١٢ .
(٢) سورة طه : ٢٧ - ٤٠ .

وسنبين هذه القصة من خلال هذه الآيات كما يلي :

١- وحي الله إلى أمّ موسى :

وبعد أن وضعت أمّ موسى به خافت عليه ، ولم تدر ماتصنع به حتى لايقتله الذبّاحون ؛ فحارت وقلقت واضطربت . وفي هذه اللحظات يوحي الله إليها ماتصنع.
ويصف الشهيد سيد قطب حالتها وكيف أن الله طمأنها بقوله: "لقد ولد موسى في ظلّ الأوضاع القاسية ، ولد والخطر محدق به والموت يتلفت عليه ، والشفرة مشرعة على عنقه ، تهمّ أن تحتز رأسه ، وها هي ذي أمه حائرة به خائفة عليه ، تخشى أن يصل نبؤه إلى الجلاّدين ، وترجف أن تتناول عنقه السكين . ها هي ذي بطفلها الصغير في قلب المخافة ، عاجزة عن حمايته، عاجزة عن إخفائه ، عاجزة عن حجز صوته الفطري أن ينمّ عليه ، عاجزة عن تلقينه حيلة أو وسيلة .. ها هي ذي وحدها ضعيفة عاجزة مسكينة.. هنا تتدخّل يد القدرة، فتتصل بالأم الوجلة القلقة المذعورة ، وتلقي في روعها كيف تعمل، وتوحي إليها بالتصرف : (وأوحينا إلى أمّ موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليمّ ولاتخافي ولاتحزني إنا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين) (١) ".

فالله بهذا الوحي علّمها ماذا تصنع ، فأمرها أن تأخذ في رضاعته ، حتى إذا خافت عليه فعليها أن تلقيه في اليمّ ، - واليمّ هو نهر النيل - وأمرها أن لاتخاف عليه من الغرق أو الضياع ، وأمرها كذلك أن لاتحزن على فراقه .
وأمام هذه الأوامر بشّرها بما يطمئنها وزيادة .. بشرها بأنه -سبحانه - سيرده لها كي ترضعه ، وسيجعله في مستقبله من رسله وأنبيائه . وليس هناك أرفع من هذه البشارة وأعظم .

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب : ج٥ ص(٢٦٧٨ - ٢٦٧٩) .

مسألة :

ان الوحي المذكور - هنا - إنّما هو بواسطة الملك ، ولكن ليس على وجه النبوة ؛ إذ الكل مجمع على أنها ليست بنبيّة لأنّ النساء لايكنّ أنبياء . يقول تعالى: (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم ..الآية)(١) وإنّه كوحي الله إلى مريم بنت عمران .

وهذا هو القول الراجح : إذ أنّ ظاهر الخطاب بما فيه من الأوامر المتعددة، وماختم به من البشرى بردّه إليها وبنبوّته في غده ، كلّ ذلك يُشير إلى أنّ الوحي المراد به هنا ماكان بواسطة الملك ، وليس هذا الذي يكون بالإلهام أو في المنام، ويؤكد ذلك قوله تعالى في سورة طه : (إذ أوحينا إلى أمّك مايوحى . أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليمّ فليلقه اليمّ بالساحل يأخذه عدوّ لي وعدوّ له.. الآية) .

فهل من المعقول أن ترمي أمّ ابنها في النهر من أجل خاطر خطر لها في نفسها، أو رؤيا رأتها في نومها ؛ وهي لاتضمن أن يردّ إليها ، فلابدّ هنا من وحي أكيد يؤكّد لها أن لاتخاف ولاتحزن إذا هي رمته وهذا لايملكه إلا الله عزّ وجلّ .

وقد قيل - أيضاً - أن المراد بالوحي هنا : أي على لسان نبيّ في وقتها(٢) ، وهذا القول كذلك مستبعد لكون ظاهر النصّ القرآني يُشير إلى أن الوحي كان متوجّهاً إلى أمّ موسى بالذات . والله أعلم .

٢-إلقاء موسى في اليمّ :

وحين خافت عليه اتّبعت أمر الله وألقته في اليمّ ، وإنّ الله قد فصّل لها ذلك

---

(١) سورة يوسف : ١٠٩ .
(٢) انظر : تفسير البيضاوي ج٤ ص٢١ .

الأمر في قوله: (أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليمّ فليلقه اليمّ بالساحل يأخذه عدوّ لي وعدوّ له) .

وهكذا فعلت كما أمرها الله : جعلته في تابوت - وهو الصندوق - ثم قذفت بالتابوت في نهر النيل .

ثم تولّى اليمّ وظيفته وهو أن يلقي هذا الصندوق بالساحل (فليلقه اليمّ بالساحل) وهو جزاء أخرج مخرج الأمر كأنّ اليمّ هو المأمور ، والساحل هو مشرعة آل فرعون التي أمام القصر(١) .

وإنها للحظة عجيبة تلك التي ألقت فيها ابنها في النيل دون خوف عليه ولاحزن ، وماذاك إلا لأنّ الله طمأنها ووعدها وبشّرها؛ وهي واثقة بوعد الله متوكّلة عليه حقّ التوكل (ومن يتوكل على الله فهو حسبه)(٢) .

٣- التقاط آل فرعون لموسى :

وكما قال تعالى : (يأخذه عدوّ لي وعدوّ له) وتحقق ماأراد الله: (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوّاً وحزناً(٣) إنّ فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين).

وهاهو ذا عدوّ الله وعدوّ موسى فرعون المتجبّر، الذي احترز كل الاحتراز من الذي يكون هلاكه على يده، هاهو ذا يلتقطه ويأخذه عنده.-الالتقاط: أصله من اللقطة وهو ماوجد ضالاً فأخذ، والعرب تقول لما وردت عليه فجأة من غير طلب له؛

---

(١) انظر : تفسير ابن جرير الطبري ج١٦ ص(١٢٢ - ١٢٣) .

(٢) سورة الطلاق : ٢ .

(٣) قرأ حمزة والكسائي وخلف : (حُزْنا) بضم الحاء وإسكان الزاي ، وقرأ الباقون بفتحها (النشر في القراءات العشر لابن الجزري ج٢ ص٣٤١) .

ولاارادة أصابته التقاطاً(١) - فالتقطه خدمه وأعوانه وما علموا أنّ هلاكهم على يديه (ليكون لهم عدوّاً وحزناً) عدواً لهم في دينهم وحزناً لما يأتيهم، وجعل - عليه السلام - نفس الحزن إيذاناً بقوّة سببيّته لحزنهم(٢).
وقد بيّن الله عزّ وجلّ أنّ ذلك إنّما كان بسبب ذنوبهم وأخطائهم العظيمة: (إنّ فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين) فعاقبهم الله بأن ربّى من تكون نهايتهم على يديه بينهم وفي رعايتهم .

قال العلماء : " الخاطئ من تعمّد الذنب والاثم ، والمخطئ من فعل الذنب من غير تعمّد " . ولذلك عبّر الله عن فرعون وهامان وجنودهما بأنّهم كانوا خاطئين ؛ إذ كانوا متعمّدين مايفعلونه من ذنوب وآثام(٣) .

ويصف سيد قطب هذا المشهد من القصة بقوله : " أهذا هو الأمن ؟ أهذا هو الوعد ؟ أهذه هي البشارة ؟ وهل كانت المسكينة أمّه تخشى عليه إلاّ من فرعون ، وهل كانت ترجف إلاّ أن ينكشف أمره لآل فرعون وهل كانت تخاف إلاّ أن يقع في أيدي آل فرعون ؟ نعم . ولكنها القدرة تتحدّى . تتحدّى بطريقة سافرة مكشوفة . تتحدّى فرعون وهامان وجنودهما . إنهم ليتتبعون الذكور من مواليد بني إسرائيل خوفاً على ملكهم وعرشهم وذواتهم ويبثّون العيون والأرصاد على قوم موسى كي لايفلت منهم طفل ذكر .. فها هي ذي يد القدرة تلقي في أيديهم بلابحث ولاكدّ بطفل ذكر، وأيّ طفل ؟ إنّه الطفل الذي على يده هلاكهم أجمعين! هاهي ذي تلقيه في أيديهم

---

(١) انظر : تفسير ابن جرير الطبري ج٢٠ ص(٢١ - ٢٢) .
(٢) انظر : تفسير أبي السعود ج٧ ص٤ .
(٣) انظر : تفسير ابن جرير الطبري ج٢٠ ص(٢١ - ٢٢) ؛ التفسير الكبير للفخر الرازي ج٢٤ ص٢٣٠ .

مجرّداً من كلّ قوّة ومن كلّ حيلة ، عاجزاً أن يدفع عن نفسه أو حتى يستنجد! ها هي ذي تقتحم به على فرعون حصنه وهو الطاغية السفاح المتجبّر، ولاتتعبه في البحث في بيوت بني إسرائيل ، وفي أحضان نسائهم الوالدات ليكون لهم عدوّاً يتحدّاهم وحزناً يدخل إليهم في قلوبهم "(١).

٤- موقف زوجة فرعون من الطفل الملتقط :

وفي هذه الفقرة من القصة يتضح لنا قوله تعالى : (وألقيت عليك محبّة منّي ولتصنع على عيني) فنشهد آثار هذه المحبة التي ألقاها الله على موسى ، والرعاية التي تكفّل له بها سبحانه ؛ فإنّه لما التقطه آل فرعون ورآه فرعون وهمّ بقتله خشية أن يكون من بني إسرائيل - فألقوه في النيل علامة على أنه من بني إسرائيل - جاءته امرأته آسية بنت مزاحم تخاصم عنه وتذبّ دونه ، وتحبّب فرعون فيه : (وقالت امرأة فرعون قرّة عين لي ولك لاتقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وهم لايشعرون). فما أن رآته إلاّ أحبّته وأشفقت عليه وذلك قوله تعالى: (وألقيت عليك محبّة منّي). قال ابن عباس : أحبّه وحبّبه إلى خلقه ، فلا يلقاه أحد إلاّ أحبّه من مؤمن وكافر.

وقال قتادة : كانت في عينيه ملاحة فما رآه أحد إلاّ أحبّه(٢) .

ويروى أنها قالت لفرعون : قرّة عين لي ولك يافرعون وسألته أن لايقتله . فقال لها فرعون أمّا لك فنعم وأمّا لي فلا . فكان كذلك .

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب : ج٥ ص٢٦٧٩ .

(٢) انظر : أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي ، زاد المسير في علم التفسير ، الطبعة الثالثة ، ٩ج (بيروت ، دمشق : المكتب الاسلامي ، ١٤٠٤ هـ/١٩٨٤م) ج٥ ص٢٨٤ .

وقولها : (عسى أن ينفعنا) وقد حصل لها ذلك وهداها الله به وأسكنها الجنة(١) .

قال ابن عباس : لو أنّ عدوّ الله فرعون قال كما قالت آسية : عسى أن ينفعنا، لنفعه الله ولكنّه أبى إلاّ الشقاء الذي كتبه الله عليه(٢) .

ويذكر أبو السعود لطيفة في قول امرأة فرعون : (لاتقتلوه) فيقول: "خاطبته بلفظ الجمع تعظيماً ليساعدها فيما تريده "(٣) .

وأقول : قد يكون الخطاب موجّهاً إلى فرعون ومن معه من الجنود ، وكأنّها بذلك تستعطفهم ليكونوا معها ضدّ فرعون في عدم قتله للطفل (موسى) . والله أعلم.

وقولها : (أو نتخذه ولداً) أرادت به أن تتبنّاه ؛ وذلك أنّه لم يكن لها ولد من فرعون .

ثم يأتي التعقيب بقوله تعالى : (وهم لايشعرون) ومعناه : أي لايدرون ماأراد الله من التقاطهم إيّاه من الحكمة العظيمة والحجّة القاطعة ؛ وأنّ هلاك فرعون سيكون على يديه(٤) .

ويقول سيد قطب : " قد اقتحمت به يد القدرة على فرعون قلب امرأته، بعد أن اقتحمت به عليه حصنه ، لقد حمته بالمحبّة . ذلك الستار الرقيق الشفيف. لابالسلاح ولابالجاه ولابالمال . حمته بالحبّ الحاني في قلب امرأة وتحدّت به قسوة فرعون وغلظته وحرصه وحذره . وهان فرعون على الله أن يحمي منه الطفل الضعيف بغير

---

(١) انظر : تفسير ابن جرير الطبري ج٢٠ ص(٢٢ - ٢٣) ؛ تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٣ ص٣٨١ .

(٢) تفسير الخازن : ج٥ ص١٦٥ .

(٣) تفسير أبي السعود : ج٧ ص٤ .

(٤) انظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٣ ص٣٨١ .

هذا الستار الشفيف .. فيا للقدرة القادرة التي تتحداهم وتسخر منهم وهم لايشعرون" (١).

وكذلك يقول في موضع آخر : " يالقدرة القادرة التي تجعل من المحبة الهيّنة الليّنة درعاً تتكسّر عليها الضربات وتتحطّم عليه الأمواج ، وتعجز قوى الشرّ والطغيان كلّها أن تمسّ حاملها بسوء ، ولو كان طفلاً رضيعاً لايصول ولايجول بل لايملك أن يقول .. إنها مقابلة عجيبة في تصوير المشهد . مقابلة بين القوى الجبّارة الطاغية التي تتربّص بالطفل الصغير ، والخشونة القاسية فيما يحيط به من ملابسات وظروف .. والرحمة الليّنة اللطيفة تحرسه من المخاوف وتقيه من الشدائد وتلفه، من الخشونة ممثلة في الحبّ لافي صيال ولانزال .. "(٢) .

٥- حزن أمّ موسى على فراق ابنها :

وبعدأن قذفت به في اليمّ ، ولم تعرف ماحصل له ؛ وإلى أيّ شيء انتهى أمره ، باتت حالتها شديدة من فرط حزنها على فراقه وعدم معرفة حاله .

ولايعني حزنها وألمها أنّها غير واثقة بوعد الله لها ، ولكنها عاطفة الأمومة ونداء الفطرة.. حتى أنه يصل بها الحال إلى أن تكاد تفصح عن أمرها وأنها فقدت ولدها، ولكنّ الله الذي وعدها بأنّه سيرجعه إليها لم يتركها هكذا، بل ثبّتها وربط على قلبها.

يقول تعالى مصوّراً حالتها : (وأصبح فؤاد أمّ موسى فارغاً إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين) ، وليس هناك تصوير أحسن من هذا وأبلغ ؛ فإنّ قلبها أصبح فارغاً من كلّ شيء من أمور الدنيا إلاّ من ابنها موسى لفرط حزنها عليه(٣).

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب : ج٥ ص(٢٦٧٩ - ٢٦٨٠) .

(٢) المرجع السابق : ج٤ ص(٢٢٢٤ - ٢٢٢٥) .

(٣) انظر : تفسير ابن جرير الطبري ج٢٠ ص(٢٤ - ٢٥) ؛ تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٣ ص٣٨١ .

ويذكر الزمخشري في تفسيره الكشاف معنى آخر لقوله تعالى : (وأصبح فؤاد أمّ موسى فارغاً) فيقول فيما خلاصته : أي صفراً من العقل . كقوله: (وأفئدتهم هواء) " إبراهيم : ٤٣ " أي جوف لاعقول فيها ؛ وذلك أنّ القلوب هي مراكز العقول . يقول تعالى : (..فتكون لهم قلوب يعقلون بها ..) "الحج:٤٦"(١).

أقول : وما ذكرناه من المعنى أولاً هو أنسب بحال المؤمنين كأمّ موسى؛ إذ لايناسبها أن يقال : إنّ قلبها قد أصبح صفراً من العقل فيشابه حالها حال من ذمّهم الله من الكفرة وغيرهم ، وكذلك فإنّ الله قد وضّح أنه ربط على قلبها؛ ولايكون الربط لمن ليس في قلبه عقل . والله أعلم .

وربط الله على قلبها بأن ألهمها الصبر فثبتها وطمأنها وصبّرها لتكون من الموقنين بوعد الله الصابرين على ابتلائه والسائرين على هداه(٢) .

٦- إرسال أخته للبحث عنه :

يقول أبو السعود رحمه الله : " يروى أنّه فشا الخبر بمصر بأنّ آل فرعون أخذوا غلاماً في النيل لايرتضع ثدي امرأة واضطروا إلى تتبّع النساء .."(٣) .

يظهر لنا من هذا الكلام أنه بعد أن وضع الله الصبر في قلب أمّ موسى ، بدأ سبحانه في إظهار أسباب ماأراده من إرجاعه لها ، فحرّم عليه المراضع: (وحرّمنا عليه المراضع من قبل..الآية) والتحريم هنا : المنع . وهو تحريم تكويني ، أي قدّر الله في نفس الطفل الامتناع من التقام أثداء المراضع وكراهتها ، وذلك ليضطر آل فرعون إلى البحث عن مرضع يقبل ثديها ؛ لحرصهم على حياته .

---

(١) انظر : الكشاف للزمخشري ج٣ ص١٦٧ .
(٢) انظر : تفسير ابن جرير الطبري ج٢٠ ص٢٥ .
(٣) تفسير أبي السعود : ج٧ ص٥ .

فكان ذلك ، وقد علمت أمّ موسى أنّهم يبحثون له عن مرضع ، فأرسلت أخته تتبع أثره ، وتأخذ خبره وتطلب شأنه من نواحي البلد لعلّها تعثر عليه فتشير لهم بأنّ لديها من ترضعه ولعلّه يلتقم ثديها : (وقالت لأخته قصّيه) فذهبت أخته تبحث عنه - والتعبير بأخته دون بنتها للاشعار والتصريح بمدار المحبّة الموجبة للامتثال بالأمر(١) - (فبصرت به عن جنب وهم لايشعرون) . قال قتادة: جعلت تنظر إليه وكأنّها لاتريده ؛ وذلك أنّه لما استقرّ موسى بدار فرعون وأحبته امرأته واستطلقته منه ؛ عرضوا عليه المراضع التي في دارهم ، فأبى أن يقبل شيئاً منها، فخرجوا به إلى السوق لعلّهم يجدون امرأة تصلح لرضاعته، فلما رأته بأيديهم عرفته ولم تظهر ذلك ولم يشعروا بها(٢) . وبمعنى آخر أنها -كما قيل- كانت تمشي جانباً، وتنظره اختلاساً ترى أنها لاتنظره وهم لايشعرون أنها أخته وأنها ترقبه(٣).

٧- عودة موسى إلى أمّـه :

وبعد أن عثرت عليه أخته وعرفته ، جاءت لمن هو بأيديهم : (فقالت هل أدلّكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون) أي على من يضمنونه لكم ويحفظونه ويرعونه حق رعايته بإرضاعه وبما يحتاج إليه من مقوّمات الحياة وهم ناصحون له؛ لمنزلته عندكم وحرصهم على مسرّة الملك .

وقال ابن عباس : فلمّا قالت ذلك أخذوها وشكّوا في أمرها وقالوا لها: وما يدريك بنصحهم له وشفقتهم عليه ؟ فقالت لهم : نصحهم له وشفقتهم عليه لرغبتهم في سرور الملك ورجاء منفعته . فأرسلوها أي تركوها(٤) .

---

(١) تفسير أبي السعود : ج٧ ص٥ .
(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ج٢ ص٢٨١ .
(٣) انظر : تفسير الخازن ج٥ ص١٦٥ .
(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ج٢ ص٢٨٢ .

ولما اطمأنوا إلى كلامها ذهبوا معها إلى منزلهم فدخلوا به على أمّه فأعطته ثديها فالتقمه ، ففرحوا بذلك فرحاً شديداً . وذهب البشير إلى امرأة فرعون مبشراً لها بموافقة المرضع لموسى فطلبتها وأحسنت إليها وأكرمتها وهي لاتعلم أنها أمّه في الحقيقة ، وقيل : إنّها دعتها لتقيم عندها لترضعه ، ولكنّها رفضت ذلك وقالت : إنّ لي بعلاً وأولاداً ولاأقدر على المقام عندك ، ولكن إن أحببت أن أرضعه في بيتي ، فوافقت على ذلك وأجرت عليها النفقة . فرجعت أمّ موسى بولدها راضية مرضية ، قد أبدلها الله بعد خوفها أمناً ، وفي عزّ وجاه ورزق دارّ(١) . وذلك قوله تعالى : (فرددناه إلى أمّه كي تقرّ عينها ولاتحزن ولتعلم أنّ وعد الله حق ولكنّ أكثرهم لايعلمون) ، وقوله - أيضاً- هناك: (فرجعناك إلى أمك كي تقرّ عينها ولاتحزن.. الآية).

وهكذا عاد موسى إلى أمّه ، من أجل أن تقرّ عيناها به ولاتحزن على فراقه بعد ذلك .

وقوله تعالى : (تقرّ عينها) قيل : أصله من القرار لأنّ مايحبّه الانسان تسكن عينه عليه ، ولاتنظر إلى غيره ، وقيل : أصله من القُرّ - بضمّ القاف - وهو البرد ، وعلى هذا القول فقرّة العين من بردها ، لأن عين السرور باردة ، ودمع البكاء من السرور بارد جداً بخلاف عين المحزون فانّها حارّة ودمع البكاء من الحزن حارّ جداً(٢).

ومن ثمّ يتحقق وعد الله فتعلم أن وعده حقّ ولامحالة واقع ، وليس هناك من هو أوفى بوعده من الله عزّ وجلّ .

---

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٢ ص٢٨٢ .
(٢) انظر : تفسير أضواء البيان لمحمد الأمين الشنقيطي ج٤ ص٤٠٩ .

ثم يختم الله هذه الآيات التي ذكرت هذه القصة بقوله : (ولكنّ أكثرهم لايعلمون) أي أكثر الناس لايعلمون حِكَم الله في أفعاله ، وعواقبها المحمودة التي هو المحمود عليها في الدنيا والآخرة ، ولربما يقع الأمر كريهاً إلى النفوس وتكون عاقبته محمودة في نفس الأمر وكما قال تعالى : (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبّوا شيئاً وهو شرّ لكم ..) " البقرة : ٢١٦ " وكقوله -أيضاً- : (.. فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً) "النساء:١٩"(١).

وبهذا تمّت هذه القصة التي أراد الله منها ماأراد بعد ذلك من تمكين شرعه وتبليغ رسالته ونصر جنده وإغراق أعدائه وإظهار أحكامه في خلقه .

والحمد لله رب العالمين .

---

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٢ ص٢٨٢ .

الفصل الثاني : العبر والفوائد

١- العبر والفوائد من تمهيد القصة :

* إن تمهيد القصة بذكر علوّ فرعون وفساده وطغيانه ، يشير إلى أنّ ذلك هو سبب انتقام الله منه ، والاخذ بناصر المستضعفين من بني اسرائيل الذين استذلهم وذبح ابناءهم واستحيى نساءهم .

وفي هذا تحذير لكل من يسلك مسلك فرعون في أنّه سيصير حتماً إلى ماصار إليه فرعون من انتقام الله منه .

وفيه كذلك إشارة إلى أنّ الصابرين على الظلم والطغيان ستكون العاقبة لهم والنصر من الله حليفهم (ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين) (١) .

* وفي هذا التمهيد إشارة إلى حكمة من حكم الله تعالى في قوله: (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم) في جانب بني اسرائيل ؛ إذ أنّ استضعافهم الذي كانوا يكرهونه جعل سبباً لنصرتهم من الله وإزاحة هذا الظلم عليهم . كما أنّ قوله: (وعسى أن تحبوا شيئا وهو شرّ لكم) في جانب فرعون وأعوانه إذ كانوا فرحين باستذلالهم بني اسرائيل وتذبيح أبنائهم واستحياء نسائهم ، ولكن كان هذا سبباً في إهلاك الله لهم في الدنيا وعذابه لهم في الآخرة(٢) .

* كما أنّ الله أظهر في تمهيده أنّ ماعلمه وقدره فهو كائن لا محالة ويدل

---

(١) انظر : التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ج٢٠ ص٨٥ .
(٢) انظر : المرجع السابق ج٢٠ ص(٨٥ - ٨٦) .

عليه قوله تعالى: (ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين . ونمكّن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ماكانوا يحذرون) .

وكذلك فإنّ الحذر مهما بلغ لاينجي من القدر الذي قدره الله وقضاه(١) .

* وفيه عبرة - أيضاً - بأنّ ما يصل إليه أهل الطغيان والفساد من علوّ في الأرض أو فساد بغير الحق ؛ مايلبث أن يزول إن وجد الحق وأهله القائمون به ؛ لانه في حقيقته انتفاشة مابداخلها واهٍ وضعيف : (فقاتلوا أولياء الشيطان إنّ كيد الشيطان كان ضعيفاً) " النساء: ٧٦ " والحقيقة أنّ العلوّ الحق إنّما هو لله تعالى وأهل دينه القائمين به ، ودليله أنّ علوّ فرعون لم يغنه شيئاً في دفع سوء العاقبة عنه. وفي هذا عبرة وانذار لكل طاغية متجبر ، كما انه تثبيت للمؤمنين إذ أنّ العلوّ والعزة لله ولهم : (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ..) " المنافقون : ٨ " ، (ولاتهنوا ولاتحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين) "آل عمران:١٣٩".

٢- العبر والفوائد من وحي الله إلى أمّ موسى :

* إنّ من صفات الله العظيمة لطفه بعباده ، وخاصة الصالحين منهم، فلطفه بهم أكبر؛ لدرجتهم عنده . وهذا مانلاحظه في لطفه سبحانه بأمّ موسى وهي حائرة مضطربة خائفة.. أين تذهب بابنها الذي قد وضعته والمخاوف تحوطه ؛ فيأتيها الله بالمدد العلوي .. بوحي منه سبحانه يعلمها كيف تتصرف ، فيأمرها بالقائه في اليم ويطمئنها ومن ثم يبشّرها ببشارتين تخففان وتهوّنان كل المصائب والآلام.. بردّه إليها ويجعله في مستقبله رسولاً من عند الله .. وهذا - بلاشك - دلالة واضحة على عظم لطفه سبحانه.
وهذه الصفة (اللطف) يدركها الصالحون فيزدادون بها تسليماً وانقياداً

---

(١) انظر : التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ج٢٠ ص٨٥ .

وخشية لله ، وبها يزدادون تقرباً إليه . وهذا والله أعلم على حد قوله: (فإنّ مع العسر يسراً إنّ مع العسر يسراً)(١) .

* وفي أمر الله لأم موسى بأن ترضع ابنها يقابلنا أمران :

الأوّل : يرى السيوطي - في كتابه الإكليل - " أنه يجب سقي الولد اللبأ وهو اللبن أول الولادة لأنه لايعيش بدونه غالباً "(٢) واستنتج هذا الحكم من قوله تعالى: (أن أرضعيه) .

وأقول : إن رأي الامام السيوطي - هذا - مرجوح ؛ لأن الواقع لايشير إلى ماقاله ، إذ أننا نرى كثيراً من الأمهات في هذا العصر لايرضعن أولادهنّ لضعفهنّ أو لأسباب أخرى ، ومن ثم يعيش الأولاد على اللبن الصناعي .

وقديماً - أيضاً - كان الأمّهات يعطين أولادهنّ للمرضعات ليرضعن أولادهن ، دون أن ترضع أم الطفل طفلها شيئاً .

ولكن - لاشك - أن إرضاع الأم لطفلها هو الأفضل لفوائد عديدة منها: وقايته من كثير من الأمراض ، وشعوره برابطة الأمومة وحنانها .. إلى غير ذلك مما اشتهر من الفوائد التي تعود على الطفل وأمه من أثر الرضاع .

والأولى أن يقال : إن قوله تعالى :(أن أرضعيه) فيه إرشاد للأمهات أن لايهملن إرضاع أولادهن لأقل الأسباب - كابتغاء الراحة وغيرها - واستحباب ذلك لأهميته وفوائده .

والثاني :السؤال الذي يورده أبو يحيى زكريا الأنصارى وهو أنه : مافائدة وحي الله تعالى إلى أم موسى بإرضاعه مع أنها ترضعه طبعاً وإن لم تؤمر بذلك ؟

ويجيب عليه بقوله : "أمرها الله بإرضاعه ليألف لبنها، فلا يقبل ثدي غيرها بعد

---

(١) سورة الانشراح : ٥- ٦ .

(٢) جلال الدين السيوطي ، الاكليل في استنباط التنزيل (بيروت- لبنان: دار الكتب العلمية) ص١٧٢ .

وقوعه في يد فرعون، فلو لم يأمرها به ربما كانت تسترضع له مرضعة؛ فيفوت المقصود."(١) .

ومما نلاحظه - هنا - دقة التدبير الإلهي للأمور ، والاهتمام برعاية الأسباب والأخذ بها ؛ مما يجعل كل أمر يسير بطبيعته ، وهذا ما كان بشأن موسى عليه السلام فإنه حين التقم ثدي أمه وذاقه لم يَرُق له غيره فكان سبباً لعودته الى أمه بعد ذلك. فسبحان الله !!

* ومن قوله تعالى :(فإذا خفت عليه) يستدل على أن الخوف الطبيعي من الخلق لاينافي الإيمان ولايزيله(٢) . إذ أنه أمر فطري ؛ مع ضرورة الإعتقاد أن المخوف ليس بيده شيء، وأن ماقدره الله هو النافذ ، فالله علم أن أم موسى قد خافت على ولدها من فرعون أن يقتله؛ ولم ينهها عن ذلك ، بل هذا الخوف الطبيعي الذي ينتج الحذر والأخذ بالأسباب للبعد عن الأذى والسوء ؛ وهذا أمر طبيعي .

* ومن البلاغة القرآنية في الآيات مايلي :

- إنّ قوله تعالى :(وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليمّ ولاتخافي ولاتحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين). حوى إيجازاً بليغاً ؛ وذلك لاشتماله على أمرين :(أن أرضعيه - فألقيه) ، ونهيين: (ولاتخافي- ولاتحزني) ، وخبرين متضمنين بشارتين: (إنّا رادّوه إليك- وجاعلوه من المرسلين). وفي أسهل نظم وأسلس لفظ وأوجز عبارة(٢).

---

(١) فتح الرحمن بكشف مايلتبس في القرآن لأبي يحيى زكريا الأنصاري:ص٤٢٧.

(٢) انظر : تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي ج٦ ص٣٥ .

(٢) فتح الرحمن بكشف مايلتبس في القرآن لأبي يحيى زكريا الأنصاري:ص٤٢٧.

- إيثار الجملة الاسمية على الفعلية في قوله :(إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين) ولم يقل سنرده ونجعله رسولاً ؛ وذلك للاعتناء بالبشارة ، إذ أن الجملة الاسمية تفيد الثبوت والاستمرار(١) .

- وقوله تعالى :(يأخذه عدوٌ لي وعدوٌ له) كرّر فيه كلمة (العدو) للمبالغة والتصريح بالأمر ، والاشعار بأنّ عداوته له مع تحققها لا تؤثر فيه ولاتضره بل تؤدي الى المحبة ، فان الأمر بما هو سبب للهلاك صورة من قذفه في اليمّ ، ووقوعه في يد عدوّ الله وعدوّه مشعر بأن هناك لطفاً خفياً مندرجاً تحت قهر صوريّ(٢) .

---

(١) صفوة التفاسير للصابوني : ج٢ ص٤٢٨ .
(٢) انظر : تفسير أبي السعود ج٦ ص(١٤ - ١٥) .

٢- العبر والفوائد من إلقاء موسى في اليمّ :

* نستدلّ من تنفيذ أمّ موسى لأمر الله لها بأن تلقي ابنها في النهر -الذي يغرق فيه الكبير قبل الصغير- على ماوصلت إليه من درجة عالية في طاعتها لله تبارك وتعالى، وعلى قوة ثقتها به.

يقول الامام ابن القيّم في كلامه عن منزلة الثقة: "وهي التي لقنها الله تعالى لأمّ موسى بقوله لها: (فإذا خفت عليه فألقيه في اليمّ.....الآية) فانّ فعلها هذا هو عين ثقتها بالله، إذ لولا كمال ثقتها بربّها لما ألقت بولدها وفلذة كبدها في تيّار الماء، تتلاعب به أمواجه، وجريانه إلى حيث ينتهي أو يقف" (١).

ونورد بالمناسبة كلاماً له حول حقيقة الثقة حيث يقول: "ومدار التفويض عليها، وهي في وسطه كحال النقطة من الدائرة. فانّ النقطة هي المركز الذي عليه استدارة المحيط. ونسبة جهات المحيط إليها نسبة واحدة. وكلّ جزء من أجزاء المحيط مقابل لها. كذلك الثقة هي النقطة التي يدور عليها التفويض، كما أنّها سويداء قلب التسليم، فانّ القلب أشرف مافيه سويداؤه، ولو كان عيناً لكانت سوادها. ولو، كانت دائرة لكانت نقطتها، وكثير من الناس يفسّر التوكل بالثقة ويجعله حقيقتها، ومنهم من يفسّره بالتفويض ومنهم من يفسّره بالتسليم." (٢).

* كما أنّنا نشهد رحمة الأمّ بولدها؛ فانّها حينما أشفقت عليه أن يقتله فرعون وأوحى الله إليها أن تجعله في صندوق ثمّ تلقيه في اليمّ استسلمت وفعلت ماأمرت به.

---

(١) مدارج السالكين لابن قيّم الجوزيّة: ج٢ ص١٤٢، تهذيب المدارج للعزي ص٢٤٧.

(٢) مدارج السالكين لابن القيّم: ج٢ ص(١٤٢ - ١٤٤) ، تهذيب مدارج السالكين للعزي ص٢٤٧.

فارتكاب أخفّ الضررين فيه رحمة بالولد، فامّا أن يقتله فرعون وإمّا أن تلقي به في اليمّ وليكن مايكن فهو أهون عليها من أن يقتل أمامها، ومن بعد فانّ الله هو الآمر وهو المتصرّف سبحانه وقد وعدها بإرجاعه لها(١).

ألا فليقتدين الأمّهات بهذه الأمّ صاحبة القلب الرحيم، والتي جمعت مع هذه الرحمة طاعة ربّها، فلم يخيّب الله رجاءها فيه، وحفظ لها ابنها ورّده إليها، بل وبشّرها بنبوّته.

* انّ الله اختصّ أولياءه من الأنبياء وغيرهم برعاية وعناية، وإنّا لنشهد -هنا- قمّة الرعاية والعناية لنبيّ الله موسى -عليه السلام- وهو في مهده. ممّا يدّل على اصطفائه واختياره لمهمّة جسيمة وهي مهمّة التبليغ لرسالة الله إلى خلقه. يُقذف به في النهر الذي يغرق فيه الرجال والشبّان ثمّ يحفظه الله لأمّه ويردّه إليها كما وعدها.... وتلك عناية الله في أبرز صورها لعباده المصطفين. وكما، يقول أحدهم:

إذا العناية لاحظتك عيونها   نم فالمخاوف كلّهنّ أمان(٢)

أقول: وهذه العناية قد تكون من أحد الأدلّة على صدق موسى فيما يدعو إليه مستقبلاً. والله أعلم .

٤- العبر والفوائد من التقاط موسى وموقف زوجة فرعون منه :

* إن العبد مهما بلغ من القوة والجبروت فانّه لايساوي شيئاً أمام قوّة الله

---

(١) انظر : أحمد عز الدين البيانوني، منهاج التربية الصالحة (حلب-سوريا: المطبعة العصرية، مكتبة الهدى، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م) ص١١٥.
(٢) انظر : التفسير الواضح لمحمد محمود حجازي : ج٢ ص١٦٧.

وقدرته وقدره، ففرعون مع مابلغ في نظر الناظرين من القوّة والجبروت مابلغ، فانّ آله قد التقطوا موسى، ثمّ هو لم يقتله تلبية لطلب زوجته، ثمّ أدخله بيته بإرادته، كما أنّه أجرى عليه نفقة، بل وعلى أمّه وكلّ ذلك برضاه.... وهكذا لم يقف أحدٌ أمام إرادة الله، ولن يقف (إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) (١).

* وفي قوله تعالى: (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوّاً وحزناً إنّ فرعون وجنودهما كانوا خاطئين) يقول ابن كثير رحمه الله: " روي عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أنّه كتب كتاباً إلى قوم من القدريّة في تكذيبهم بكتاب الله وبأقداره النافذة في علمه السابق وفيه: إنّ موسى في علم الله السابق أنّه يكون لفرعون عدوّاً وحزناً، قال تعالى: (ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ماكانوا يحذرون)؛ وأنتم قلتم: لو شاء فرعون أن يكون لموسى وليّاً وناصراً) والله تعالى يقول: (ليكون لهم عدوّاً وحزناً) " (٢).

* ومن موقف آسية امرأة فرعون بطلبها عدم قتل موسى تؤخذ عبرة وهي: انّ وجود الصالحين من بين المفسدين يخفّف من لأواء فساد المفسدين؛ إذ أنّ منع امرأة فرعون زوجها عن قتل موسى كان سبباً في عدم ارتكابه هذا الفساد والقتل(٢).

وليعتبر الدعاة بهذا ولايحصروا دعوتهم في فئة معيّنة من الناس، بل لابدّ أن يخوضوا بدعوتهم في كلّ فئات المجتمع، ليصلحوا في كل فئة من أراد الله له الهداية والاستجابة، حتى يكون ذلك طريقاً إلى إصلاح المجتمع وذهاب الفساد عنه بإذن الله.

---

(١) سورة يس : ٨٢ .
(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ج٣ ص٣٨١.
(٢) انظر : التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ج٢٠ ص٨٦.

* وفي قوله تعالى: (وألقيت عليك محبّة منّي) نشهد عظم قدرة الله في تقليب القلوب فقد قلنا -فيما سبق- عن ابن عباس أنّ الله أحبّه وحبّبه إلى خلقه فلايراه أحدٌ إلا أحبّه من مؤمن وكافر. فالله عزّ وجلّ هو مالك القلوب فبيده تقليب قلوب عباده أيّاً كانوا وفي أية لحظة يريدها دون أيّ حائل .

وفي هذه الحقيقة يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "إنّ قلوب بني آدم كلّها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرّفه حيث يشاء.... الحديث" (١).

فالله أراد أن يحبّه الجميع فكان كما أراد. فسبحان مقلّب القلوب!

* ومن البلاغة القرآنية في الآيات مايلي:

- الاستعارة التمثيلية في قوله: (ولتصنع على عيني)، إذ فيه تمثيل لشدّة الرعاية، وفرط الحفظ والكلاءة بمن يصنع بمرأى من الناظر؛ لأنّ الحافظ للشيء في الغالب يديم النظر إليه، فمثّل لذلك بمن يصنع على عين الآخر(٢).

- صيغة التعظيم في قوله تعالى على لسان امرأة فرعون: (لاتقتلوه) فهي تخاطب فرعون ولم تقل له: لاتقتله، بل قالت: (لاتقتلوه) بلفظ الجمع تعظيماً له(٣).

وهذا على أحد الرأيين الذي يشير إلى أنّ الخطاب هو لفرعون وليس له ولجنوده.

٥- العبر والفوائد من حزن أمّ موسى على فراقه :

* تظهر لنا عاطفة الأمومة واضحة في أمّ موسى، فها هي ذي تحزن إلى درجة أنها تريد أن تبوح بأنّها فقدت ابنها؛ وذلك مع علمها وثقتها بأنّ الله سيردّه إليها، ولكن هي عاطفة الأمومة التي لاتستطيع إخفاءها أيّ امرأة مهما بلغت في إيمـانهـا

---

(١) رواه مسلم : كتاب القدر، حديث (١٨)، ج٥ ص٥٠٩.

(٢) صفوة التفاسير للصابوني : ج٢ ص٢٢٥ .

(٣) المرجع السابق : ج٢ ص٤٢٨ .

مابلغت إذ الأمّ مفطورة على هذه العاطفة تجاه أبنائها !

ألا فليعرف الأبناء عظم حقّ الأمّهات وليرعوا عواطفهنّ، فإنّ هذه العاطفة التي وضعها الله في قلب الأمّ -زيادة على ماعند الأب- لتعطي لنا دلالة كافية على وجوب مراعاة الأمّهات بصفة خاصّة، ها وقد جاء الإيصاء بالأمّهات بصورة خاصة في الكتاب والسنّة؛ وهذا يدلّ على قولنا. والله أعلم .

* إنّ الايمان يزيد وينقص، وإنّ من أعظم مايزيد به الايمان، ويتمّ به اليقين هو الصبر عند المزعجات والمصائب، والتثبيت من الله عندها، ومصداق هذا قوله تعالى: (لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين) أي ليزداد إيمانها بذلك ويطمئنّ قلبها. (١)

* إنّ الله عزّ وجلّ لايترك عباده الصالحين المتقين في أحوالهم المذهلة والمروّعة التي قدّرها عليهم، بل يمنّ عليهم بالتثبيت وربط الجأش والقلب، وهذه نعمة عظيمة تحفظ المؤمن من أن يتصرّف بقول أو فعل ينقص من إيمانه. بخلاف من استمرّ قلقه وروعه وانزعاجه فإنّه يضيع فكره ويذهل عقله، فلاينتفع بنفسه في تلك الأحوال ويتصرّف بما لايليق بالمؤمن(٢) .

* ومن البلاغة القرآنية:

- الاستعارة في قوله تعالى: (لولا أن ربطنا على قلبها)، فإنّ الله شبّه ماقذف في قلبها من الصبر بربط الشيء المنفلت خشية الضياع، واستعار لفظ الربط للصبر(٣) .

---

(١) انظر : تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي ج٦ ص٢٥ .

(٢) انظر : المرجع السابق ج٦ ص٢٥ .

(٣) صفوة التفاسير للصابوني : ج٢ ص٤٢٨ .

٦- العبر والفوائد من إرسال أخت موسى للبحث عنه :

* إنّ العبد مع معرفته بأنّ قضاء الله وقدره ووعده نافذ ولامحالة واقع، فانّه لاينبغي له أن يهمل الأسباب المطلوبة منه؛ ولايكون ذلك منافياً لإيمانه بخبر الله. وهذا ماشاهدناه من فعل أمّ موسى، فانّ الله وعدها بأن يردّه إليها؛ ومع ذلك فإنّها اجتهدت في ردّه وأرسلت أخته لتبحث عنه وتطلب خبره(١).

* ومن الأحكام الفقهية التي دلّت عليها الآيات مايلي :

- جواز خروج المرأة لقضاء حوائجها، وتكليمها الرجال؛ وذلك في حدود الالتزام بشرع الله دونما تقصير فيه، ومع أمن الفتنة من الجانبين(٢).
- وفي قوله تعالى على لسان أخت موسى: (هل أدلّكم على من يكفله) يقول الامام السيوطي: انّ هذه الآية أصل في الحضانة(٣).
- جواز أخذ الأجرة على الكفالة والرضاع؛ إذ أنّه قد ذكر انّ أمّ موسى قد أجرى لها فرعون رزقاً بسبب إرضاعها وكفالتها له(٤).
- وفي قوله: (هل أدلّكم على من يكفله) جواز أن يدلّ الواحد على من يرضع ويكفل(٥).

٧- العبر والفوائد من عودة موسى إلى أمّه :

* إنّ الله يقدّر على عبده بعض المشاقّ؛ لينيله سروراً أعظم ينسيه تلك

---

(١) انظر : تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي ج٦ ص(٢٥-٢٦).
(٢) انظر : المرجع السابق ج٦ ص٢٦ .
(٣) الاكليل في استنباط التنزيل للسيوطي : ص١٥٠ .
(٤) انظر : تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي ج٦ ص٢٦ .
(٥) انظر : المرجع السابق ج ٦ ص٢٦ .

المشاق، أو ليدفع عنه شراً أكثر منها . فإننا شاهدنا -هنا- كيف أنّ الله قدّر على أمّ موسى ذلك الحزن الشديد والهمّ البليغ، ثم أتيحه بأن ردّ ابنها إليها على وجه تطمئنّ به نفسها وتقرّ به عينها وتزداد به غبطة وسروراً(١).

* وإنّا لنلمس عظم تدبير الرحمن الرحيم بخلقه، وخاصة بأوليائه وأحبابه، حيث أنّه أعاد لأم موسى ابنها لترضعه وتربّيه أمام ناظريها، بل وتتقاضى على ذلك أجراً وهي آمنة من كيد الكائدين.

ويقول الشيخ محمد محمود حجازي ممثلاً هذه المنّة العظيمة والتدبير المحكم: إنّ الله الذي أخرج اللبن من بين الفرث والدم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين أخرج موسى من بين فرعون وهامان وجنودهما. ولاحرج على فضل الله(٢).

* وفي ردّ موسى لأمّه لترضعه فائدة في مستقبله أيضاً، حيث نجد أنّه عاد بعد أن أرضعته أمّه الى بيت فرعون وترعرع في سلطانه وركب مايركب آله، ولبس مايلبسون؛ وأمّه في هذه الفترة مطمئنّة قد استقرّ أنّها أمّه من الرضاع، ولم تُستنكر ملازمة موسى إياها وحنوّه عليها... فلنتأمّل هذا اللطف الربّاني، وقد صان الله نبيّه من الكذب في منطقه، ويسّر الأمر الذي صار به التعلّق بينه وبينها مستمراً ودونما حرج، وهو قد تنعّم بوجود أمّه معه، وأمّه قد قرّت عينها واطمأنّت(٣).

* وإنّ الله تعالى من رحمته بعبده الضعيف الذي يريد إكرامه، أن يريه من آياته ويشهده من بيّناته وإعجازه مايزيد به إيمانه، كما ردّ الله موسى إلى أمّه لتعلم أنّ وعد الله حق(٤).

---

(١) انظر : تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي ج٦ ص٢٥ .
(٢) انظر : التفسير الواضح لمحمد محمود حجازي ج٢ ص١٧٧ .
(٣) انظر : تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي ج٦ ص(١٠-١١) .
(٤) انظر : المرجع السابق ج٦ ص٢٦ .

* وختاماً للعبر والفوائد من هذه القصة نقول: إنّ الله -تبارك وتعالى- إذا أراد أمراً هيّأ الأسباب المفضية إليه(١)، بترتيب وتدرّج محكم، فانّ الله قد قضى أن يهلك فرعون ومن معه من أتباعه لظلمهم وطغيانهم؛ وكان قادراً سبحانه على أن يهلكهم في لحظة واحدة بفعل عذاب ينزل عليهم من السماء أو ما شابهه.

كما أنّه كان مقدّراً سبحانه نصرة بني إسرائيل، ولكن كلّ ذلك تمّ بخطوات مرتّبة معلومة... فكان إلقاء موسى في اليمّ إلى أن ردّه الله إلى أمّه، وبعد ذلك ممّا كان من حياة موسى مع فرعون إلى أن قتل القبطيّ وخرج هارباً من مصر إلى أرض مدين ثمّ دعوته لفرعون وبني إسرائيل إلى الايمان ثمّ أعرض فرعون ومن معه فجاء أمر الله باهلاك فرعون ومن معه بالغرق، وأنجي موسى والذين معه...

وتلك سنة الله في دعوته وإظهار كلمته وإعلاء أمره وإعزاز جنده!!

ولاشكّ أنّ في هذه القصة وماتلاها من أحداث لعبرة لكل صاحب قلب يقظ (إنّ في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) (٢).

وبهذا تمّت قصة موسى -عليه السلام- مع أمّه بعبرها وفوائدها...

والحمد لله ربّ العالمين .

---

(١) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ج٢٠ ص٨٦.

(٢) سورة ق:٣٧.

الباب الخامس

"قصة فتاتي مدين مع أبيهما"

وفيه تمهيد وفصلان :
الفصل الأول : بيان القصة
الفصل الثاني : العبر والفوائد

* تمهيـــد *

تمرّ بنا في حياة موسى عليه السلام قصة من قصص الآباء مع أبنائهم: قصة فتاتي مدين مع أبيهما الشيخ الكبير ويشاركهم في هذه القصة موسى عليه السلام.

وعن هذه المرحلة من حياة موسى -عليه السلام- تحدثنا الآيات التالية من سورة القصص:

(ولمّا بلغ أشدّه واستوى آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين. ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوّه فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوّه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان إنّه عدوّ مضلّ مبين. قال رب إنّي ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنّه هو الغفور الرحيم. قال رب بما أنعمت عليّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين. فأصبح في المدينة خائفاً يترقّب فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه قال له موسى إنّك لغوي مبين. فلمّاأنأراد أن يبطش بالذي هو عدوّ لهما قال ياموسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس إن تريد إلا أن تكون جبّاراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين. وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال ياموسى انّ الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج انّي لك من النّاصحين. فخرج منها خائفاً يترقّب قال ربّ نجّني من القوم الظالمين. ولمّا توجّه تلقاء مدين قال عسى ربّي أن يهديني سواء السبيل) (١).

فيتضح لنا من خلال هذه الآيات أنّ الله سبحانه وتعالى آتى موسى الحكم والعلم. -وهما النبوة والرسالة- وذلك عند احتكام خلقه وخلقه وهو في سنّ الأربعين على قول الأكثرين.

ثمّ شرع الله في بيان سبب خروجه من بلاد مصر إلى أرض مدين وإقامتـــه

---

(١) سورة القصص : ١٤ - ٢٢ .

هنالك، فإنّه حين دخوله المدينة في وقت غفلة أهلها -قيل: ذلك في نصف النهار وقيل: بين العشاءين- وجد رجلين يتصارعان ويتهارشان، أحدهما إسرائيلي والآخر قبطي، فطلب الاسرائيلي من موسى أن يعينه على القبطي إذ هو عدوّهما، فأقبل إليه موسى فضرب القبطيّ بجمع كفّه -على الراجح- فمات القبطي من هذه الوكزة؛ وقد كان ذلك القبطي كافراً مشركاً بالله العظيم، ولم يرد موسى قتله بالكليّة، وإنّما أراد زجره وردعه .

ويخبرنا الله -بعد هذا المشهد- أنّ موسى أصبح بمدينة مصر خائفاً من فرعون وملئه أن يعلموا أنّ هذا القتيل الذي رفع إليه أمره إنّما قتله موسى في نصرة رجل من بني إسرائيل فتقوى ظنونهم أنّ موسى منهم، ويترتب على ذلك أمر عظيم..

وفي صبيحة ذلك وبينما هو في حالته من الخوف، إذا الرجل الذي طلب منه النصرة بالأمس يستنصره على قبطي آخر، فعنّفه موسى على كثرة شره ومخاصمته: (قال له موسى إنّك لغويّ مبين)، ثم أراد أن يبطش بذلك القبطي، فلمّا أقبل عليه: (قال ياموسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس... الآية)، ولعله فهم من كلام الاسرائيلي حين استصرخه مادلّه على هذا. والله أعلم .

وقيل: إنّ القبطي أخبر فرعون واستعداء على موسى؛ فعرف فرعون أنّ قاتل ذلك الرجل هو موسى فأرسل في طلبه، ولكن سبق جنود فرعون رجل ناصح سعى إليه ليخبره إشفاقاً عليه: (قال ياموسى انّ الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنّي لك من الناصحين)، فخرج موسى من مصر خائفاً يتلفّت خشية أن يدركه أحد من قوم فرعون؛ وهو لايدري أين يتوجّه ولا إلى أين يذهب، وذلك لأنّه لم يخرج من مصر قبلها، فلمّا سلك الطريق المؤدّي إلى مدين استعان بالله وطلب منه راجياً أن يكون هذا الطريق هو الموصل إلى المقصود... وكان له ماترجّاه من ربّه(١).

ومن هنا وعند وصوله إلى مدين تبدأ قصتنا في هذا الباب التي سنتناولها بالبيان واستخراج العبر والفوائد. والله المستعان.

---

(١) انظر : قصص الأنبياء لابن كثير ج٢ ص(٢٦٢-٢٦٥) .

الفصل الأوّل
" بيان القصة "

يخبرنا الله عزّ وجلّ عن هذه القصة في الآيات التالية :

(ولمّا ورد ماء مدين وجد عليه أمّة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ماخطبكما قالتا لانسقي حتى يصدر(١) الرعاء وأبونا شيخ كبير. فسقى لهما ثمّ تولّى إلى الظلّ فقال ربّ إنّي لما أنزلت إليّ من خير فقير. فجاءته إحداهما تمشي على استحياء قالت إنّ أبي يدعوك ليجزيك أجر ماسقيت لنا فلمّا جاءه وقصّ عليه القصص قال لاتخف نجوت من القوم الظالمين. قالت إحداهما ياأبت استأجره إنّ خير من استأجرت القويّ الأمين. قال إنّي أريد أن أنكحك إحدى ابنتيّ هاتين على أن تأجرني ثماني حجج فإن أتممت عشراً فمن عندك وماأريد أن أشقّ عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين. قال ذلك بيني وبينك أيّما الأجلين قضيت فلا عدوان عليّ والله على مانقول وكيل) (٢) .

وسيكون بياننا للقصة من خلال هذه الآيات، وكما يلي :

١ - قدوم موسى إلى ماء مدين ولقاؤه بالفتاتين :

وبعد خروجه -عليه السلام- من مصر يسّر الله له ووجّهه الوجهة المقصودة، ووصل مدين التي لم تكن تحت سلطان فرعون، وبينها وبين مصر مسيرة ثمانية أيام(٣) ، وكان من عادة الناس أنّ الغريب إذا قدم بلدة ما؛ وليس لديه فيها أحد يعرفه

---

(١) قرأ أبو عمرو وابن عامر: (يَصْدُر) بفتح الياء ورفع الدال، وقرأ الباقون: (يُصْدِر) بضمّ الياء وكسر الدال (حجة القراءات لابن زنجلة ص٥٤٢).
(٢) سورة القصص : ٢٢ - ٢٨ .
(٣) انظر : تفسير أبي السعود ج٧ ص٨ .

فإنّه يتوجّه إلى المكان الذي يجتمعون فيه لسقيام، وهناك يتعرّف على أحدهم ويكون نزيلاً عنده.

قال تعالى: (ولمّا ورد ماء مدين) ولفظة الورود قد تكون بمعنى الدخول في المورود، وقد تكون بمعنى البلوغ إليه. وهذا المعنى الأخير هو المراد هنا، أي: أنّه حين بلغ الماء.

فحين بلغ الماء وجد عليه جماعة من الناس يسقون نعمهم ومواشيهم، ووجد من دونهم وفي مكان أسفل من مكانهم امرأتين تحبسان غنمهما عن الماء حتى تذهب عنه مواشي الناس ثمّ هما يسقيان ماشيتهما بعد ذلك؛ وما فعلا هذا إلا لضعفهما ووجود من هو أقوى منهما على الماء، وكذا لعدم مخالطة الرجال. وحين رآهما: (قال ماخطبكما) أي: ما شأنكما؟ ولماذا تدفعان ماشيتكما وتحبسانها عن الماء، فبيّنتا له السبب الذي ذكرناه آنفاً، وأضافتا بأنّ أباهما شيخ كبير لايستطيع أن يأتي هو ويسقي بنفسه لضعفه وكبره. وعند سماعه لهذا الكلام لم يتوان في مساعدتهما مع ماكان فيه من التعب، فكفاهما أمر السقي.

وبعد أن سقى لهما ذهب إلى ظلّ شجرة -وهذا مشير إلى أنّ الوقت كان حراً وقيظاً وأنّ سفره كان في ذلك الجوّ الحارّ- وقال مناجياً الله: (فقال ربّ إنّي لما أنزلت إليّ من خير فقير) محتاج لأمثاله. فهو تذكّر نعم الله السالفة عليه فشكر الله وأثنى عليه ثمّ دعا... قال هذا القول وهو في جهد شديد، وعرّض بقوله -هذا- للفتاتين تعريضاً لعلّهما أن يطعماه ممّا به من شدّة الجوع .. فعرّض بدعاء ولم يصرّح بسؤال، فالخير هنا إذاً بمعنى الطعام، حيث روي أنّه لم يكن ذاق طعاماً منذ سبعة أيام(١).

* ويصف لنا الشهيد سيد قطب حالته هذه فيقول: "إنّه يأوي إلى الظل

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير الطبري ج٢٠ ص(٢٧-٢٨)؛ تفسير الكشاف للزمخشري ج٣ ص١٧٠؛ تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٣ ص(٢٨٣-٢٨٤)؛ تفسير القرطبي ج١٢ ص(٢٦٩-٢٧٠).

المادي البليل بجسمه، ويأوي إلى الظل العريض الممدود... ظلّ الله الكريم المنّان بروحه وقلبه.. (ربّ إنّي لما أنزلت إليّ من خير فقير) ربّ إنّي في الهاجرة ربّ إنّي فقير. ربّ إنّي وحيد. ربّ إنّي ضعيف. ربّ إنّي إلى فضلك ومنّك وكرمك فقير محووج، ونسمع من خلال التعبير رفرفة هذا القلب والتجاءه إلى الحمى الآمن، والركن الركين، والظلّ الظليل، نسمع المناجاة القريبة والهمس الموحي والانعطاف الرقيق والاتصال العميق."(١) .

٢- إرسال الأب إحدى ابنتيه لطلب موسى :

يقول تعالى: (فجاءته إحداهما تمشي على استحياء.. الآية) ، ويظهر لنا -هنا- أنّ في الكلام حذفاً يدلّ عليه السياق. قال الزجاج: تقديره فذهبتا إلى أبيهما سريعتين، وكانت عادتهما الإبطاء في السقي، فحدّثتاه بما كان من أمر الرجل الذي سقى لهما، فأمر إحداهما أن تدعوه له فجاءته(٢) .

والفاء في قوله: (فجاءته) تشير إلى أمرين: إلى استجابة الله لدعاء موسى (ربّ إنّي لما أنزلت إليّ من خير فقير) فوفق الله له من يضيفه ويسدّ حاجته، بل ويزوجه ابنته فيضمن أنساً في دار غربة ومأوى وعشيراً صالحاً .

امّا الأمر الثاني فهو: أنّ أباهما لم يتريّث في الإرسال وراءه، فأرسل إحدى ابنتيه فجاءته وهو لم يزل في مكانه الذي تركته فيه(٣) .

واختلف في التي جاءته هل هي الصغرى أم الكبرى ؟ وهذا ليس بكبير أهمية ولاغرض منه؛ إذ لو كان فيه فائدة لدلّ عليه القرآن.

يقول الامام فخر الدين الرازي: "قال محمد بن إسحاق في البنتين: اسم الكبرى صفّورا، والصغرى ليا، وقال غيره: صفرا وصفيرا، وقال الضحّاك: صافورا. والتي جاءته هي الكبرى على قول الأكثرين، وقال الكلبي: هي الصغرى. وليس في

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب : ج٥ ص(٢٦٨٥-٢٦٨٦) .
(٢) تفسير فتح القدير للشوكاني : ج٤ ص١٦٨ .
(٣) انظر : التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ج٢٠ ص١٠٢ .

القرآن دلالة على شيء من هذه التفاصيل"(١).

وعلى كلّ فإنّ إحداهما أرسلها أبوها إلى موسى لدعوته للمجيء إليه، فأتته وهي على صفة تدل على طهرها وعفافها وحسن دينها (فجاءته إحداهما تمشي على استحياء).

وذكر (تمشي) ليبني عليه قوله: (على استحياء)، وإلا فإنّ فعل (جاءته) مغن عن ذكر (تمشي)، و (على) هنا للاستعلاء المجازي، واستعيرت للتمكّن من الوصف.

والاستحياء: مبالغة في الحياء، ونكرت للتفخيم. فهي جاءته مستحيية في مشيها، أي تمشي غير متبخترة ولا متثنية(٢). وعن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- بإسناد صحيح: أنّها كانت ساترة وجهها بثوبها مبالغة في الحياء لأنّ ستر وجهها غير واجب عليها(٣).

وجاءته قائلة له: (إنّ أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا)، وكلامها هذا يشير -أيضاً- إلى حيائها وأدبها في كلامها، إذ لم تطلبه طلباً مطلقاً، بل أسندت الدعوة إلى أبيها، وعلّلتها بالجزاء؛ وذلك لئلا يوهم كلامها ريبة فيشكّ في حالها، وفيه أيضاً إظهار لعفّتها(٤). كما أنّها بيّنت له الغرض من دعوته مبادرة إليه بالإكرام(٥).

* واستجاب موسى -عليه السلام- لهذه الدعوة، وصحب الفتاة إلى بيت أبيها، ويروى عن ابن عباس أنّه قال: إنّ موسى قال ابتداءً: كوني ورائي فإنّي رجل عبرانيّ لا أنظر في أدبار النساء ودلّيني على الطريق يميناً أو يساراً(٦).

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي : ج٢٤ ص٢٤١ .
(٢) انظر : تفسير أبي السعود ج٧ ص٩؛ التحرير والتنوير ج٢٠ص١٠٢.
(٣) انظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٣ ص٣٨٤ .
(٤) انظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٣ ص٣٨٤؛ تفسير أبي السعود ج٧ص٩.
(٥) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور : ج٢٠ ص١٠٢ .
(٦) تفسير القرطبي : ج١٣ ص٢٧١ .

وحين قدم على أبيها أخبره بخبره مع فرعون وقومه من القبط: (فلما جاءه وقص عليه القصص قال لاتخف نجوت من القوم الظالمين). ولايتصور أنه أخبره دونما سؤال منه؛ فإنه من العادة أن يفاتح الضيف بالسؤال عن حاله وشأن مقدمه.

والتعريف في (القصص) عوض عن المضاف إليه؛ أي: قصصه، أو للعهد: أي القصص المذكور آنفاً.

ولما أخبره بخبره طمأنه وأزال عنه الخوف؛ إذ أخبره بأنه أصبح في مأمن من أن يناله حكم فرعون؛ لأن بلاد مدين ليست في سلطانه فهي تابعة لملك الكنعانيين وهم أهل بأس ونجدة.

إذاً فجملة: (نجوت من القوم الظالمين) تعليل للنهي عن الخوف. وأما وصف قوم فرعون بالظالمين تصديقاً لما أخبره موسى من إرادتهم قتله قصاصاً من قتل خطأ؛ وماسبق ذلك من خبر عداوتهم لبني إسرائيل(١).

مســألة :

وقبل أن نتم القصة تعترضنا مسألة لابأس بذكرها، وقد اختلف فيها المفسرون وهي:

من هو أبو الفتاتين؟

فالقول المشهور عند كثير منهم أنه: النبي شعيب عليه السلام. ومن لم يقل بهذا اختلفوا في حقيقته ، فقيل: هو يثرون ابن أخي شعيب، وقيل: ابن عمه، وقيل: هو مؤمن من قوم شعيب. والحاصل من كلامهم أن أبا الفتاتين ليس هو شعيباً.

وهناك قول ثالث بالتوقف في أمره، فلايجزم بأنه شعيب أو ليس هو، والله أعلم بحقيقته.

---

(١) انظر : تفسير ابن جرير الطبري ج ٢٠ ص(٢٨-٢٩) ؛ تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ج٢٠ ص(١٠٤-١٠٥).

* أمّا الذين قالوا بأنّه شعيب فقد احتجّوا بما يلي :

- إنّ ظاهر القرآن يدلّ على ذلك. قال تعالى: (وإلى مدين أخاهم شعيباً) "الأعراف :٨٥" وقوله: (كذّب أصحاب الأيكة المرسلين. إذ قال لهم شعيب ألا تتقون) "الشعراء:١٧٦-١٧٧".
وقال قتادة: بعث الله شعيباً إلى أصحاب الأيكة وأصحاب مدين(١).
- ومن الحديث: مارواه الطبراني عن سلمة بن سعد العنزي أنّه وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: "مرحباً بقوم شعيب وأختان موسى هديت".
وفي رواية: أنّ النبي صلى الله عليه وسلم سئل أيّ الأجلين قضى موسى؟ قال: أبرّهما وأوفاهما. ثمّ قال: "إنّ موسى لمّا أراد فراق شعيب -عليه السلام- أمر امرأته.. الحديث"، وفي رواية أخرى: "فلمّا أراد فراق شعيب أمر امرأته أن تسأل أباها أن يعطيها من غنمه مايعيشون به... الحديث" (٢).
- وروي عن مالك بن أنس أنّه بلغه أنّ شعيباً هو الذي قصّ على موسى القصص (قال لاتخف نجوت من القوم الظالمين) (٣).

* أقول: وماإحتجّوا به ليس جازماً على أنّه شعيب؛ فقولهم: إنّ ظاهر القرآن يدل على ذلك فهو ليس دليلاً عليه، إذ أنّ غاية الأمر أنّ شعيباً قد كانت بلده مدين؛ وهذه القصة جرت في مدين. فأين الملازمة بين الأمرين؟.
وأيضاً فإنّه غير معلوم أنّ موسى -عليه السلام- قد أدرك زمان شعيب، فكيف بشخصه، وقد قيل: إنّ شعيباً كان قبل زمان موسى بمدّة طويلة، لأنّه قال لقومه: (وماقوم لوط منكم ببعيد) "هود :٨٩" وقد كان هلاك قوم لوط في زمن الخليـل

---

(١) انظر : تفسير القرطبي ج١٢ ص٢٧٠ .
(٢) انظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٣ ص(٢٨٤-٢٨٧).
(٣) انظر : المرجع السابق ج٣ ص(٢٨٤-٢٨٧) .

إبراهيم -عليه السلام- بنصّ القرآن، وقد علم أنّه كان بين الخليل وموسى -عليهما السلام- مدة طويلة تزيد على أربعمائة سنة كما ذكره غير واحد، وما قيل من أنّ شعيباً عاش مدة طويلة إنّما هو -والله أعلم- احتراز من هذا الاشكال.

ثمّ إنّ الأحاديث التي ذكروها، وقد صُرّح فيها باسم شعيب -عليه السلام- إنّما هي ضعيفة ولاتقوى على الاستدلال بها؛ إذ أنّ مدارها -كما قال ابن كثير- على عبد الله بن لهيعة المصري وفي حفظه سوء ويُخشى أنّ رفعه لها فيه خطأ.

وما روي عن مالك بن أنس فإنّه لايقتضي القطع به؛ إذ أنّه قال: بلغه ذلك، ومعلوم أنّ قوله: (بلغه) لاتفيد الجزم القاطع، فقد بلغه وبلغني وبلغ غيري ذلك(١).
وهكذا يتضح لنا مما سبق أنّه لادليل قاطع يوجب كون أبيهما هو شعيب عليه السلام .

* وأما الذين قالوا بأنّه ليس بشعيب عليه السلام استدلوا -إضافة إلى ماسبق في الرد على من قال به- بما يلي :
- إنّ الله أهلك بعض قوم شعيب وهم الذين كذّبوه ، ولم يبق إلا من آمن به؛ وقد أعاذ الله المؤمنين به أن يرضوا لبنتيّ نبيّهم بمنعهما من الماء، وصدّ ماشيتهما، حتى يأتيهما رجل غريب فيحسن إليهما ويسقي ماشيتهما.

---

(١) انظر : قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار ص(٢٠٢-٢٠٥)؛ تفسير ابن كثير ج٢ ص(٢٨٤-٢٨٥)؛ تفسير عبد الرحمن السعدي ج٦ ص(١٩-٢٠).
وعبد الله بن لهيعة: بفتح اللام وكسر الهاء، ابن عقبة الحضرمي، أبو عبد الرحمن المصري، القاضي، صدوق، من السابعة، خلط بعد احتراق كتبه، ورواية ابن المبارك وابن وهب أعدل من غيرهما، وله في مسلم بعض شيء مقرون، مات سنة أربع وسبعين وقد ناف على الثمانين. (تقريب التهذيب لابن حجر: ج١ ص٤٤٤).

- ثم كيف يسوّغ لنبي أن يرضى لابنتيه بسقي الغنم..
- وما كان شعيب ليرضى أن يرعى موسى عنده، ويكون خادماً له، وهو أفضل منه وأعلى درجة، إلا أن يقال: هذا قبل نبوّة موسى فلا منافاة.
- وأخيراً لو كان ذلك الرجل شعيباً لذكره الله تعالى ولسمّته الفتاتان(١).

* أقول: وهذه الأمور ليست بكافية للقول بأنّه ليس هو شعيباً؛ فما ذكر من أنّ المؤمنين لايُتوقّع منهم هذا مع ابنتي نبيّهم، فقد يكون العرف بين الناس آنذاك أن يسقي الرجال أوّلاً ثمّ النساء، والناس بأعرافهم ولاحرج.
وأمّا قولهم: كيف ساغ للنبيّ أن يرضى لابنتيه بسقي الغنم. فأجيب عنه: "بأنّ الأمر في نفسه ليس بمحظور فالدين لايأباه، وأمّا المروءة فالناس مختلفون في ذلك والعادات متباينة فيه، وأحوال العرب فيه خلاف أحوال العجم، ومذهب أهل البدو فيه غير مذهب أهل الحضر خصوصاً إذا كانت الحال حال ضرورة"(٢).
وكذلك فانّه لايقال إنّ موسى كان خادماً لشعيب وكيف يرضى شعيب بذلك، إذ أنّه قد رعى موسى بأجر -كما هو واضح في الآيات- فكان أجيراً عنده وليس خادماً.
ثمّ انّه ليس بواجب على الله أن يذكر اسمه إن كان هو شعيب عليه السلام، وعدم ذكر الفتاتين لاسم أبيهما -هنا- ليس دليلاً في أنّه ليس هو شعيب. والله أعلم.

فيظهر لنا أنّه ليس في كلامهم مايثبت أنّه ليس بشعيب عليه السلام .

* وبإيرادنا لهذين الرأيين وما احتجّوا به، والرد على كل منهما، يظهر لنا انّ افضل رأي في هذه المسألة هو التوقّف؛ إذ لاأرى مايرجّح به أحدهما على الآخر. وهذا مأخذ به عمدة المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- حيث قال

---

(١) تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي : ج٦ ص(١٩-٢٠) .
(٢) تفسير الألوسي : ج٢٠ ص٦١ .

"وهذا مما لايدرك علمه إلا بخبر ولاخبر بذلك تجب حجّته فلا قول في ذلك أولى بالصواب مما قاله الله جلّ ثناؤه..." (١). والله أعلم.

وبعد بيان هذه المسألة نعود إلى قصتنا بالفقرة التالية :

٢- استئجار موسى عليه السلام وزواجه :

ولقي موسى مالقيه من الجزاء باستضافته وإطعامه، وبذلك تمّ السبب من دعوته. وبعد هذا نقف أمام عرض ذكي من إحدى الفتاتين على أبيها! والعرض هو استئجار موسى -عليه السلام- وذلك ليرعى الماشية إذ لم يكن لديهم رجل يقوم بذلك؛ وقد كبر الأب وهو لايستطيع القيام بذلك، وهي قد رأت من قوّته وأمانته مارأت..!

(قالت إحداهما ياأبت استأجره إنّ خير من استأجرت القويّ الأمين).

وقولها: (إنّ خير من استأجرت القويّ الأمين) تعليل جار مجرى الدليل على أنّه حقيق بالاستئجار، وللمبالغة في ذلك جعل (خير) اسماً ل(إنّ) وذكر الفعل (استأجر) على صيغة الماضي للدلالة على أنّه أمين مجرّب(٢).

وكلامها -هذا- كلام حكيم جامع لايزاد عليه؛ لأنّه إذا اجتمعت هاتان الخصلتان (القوّة والأمانة) فقد فرغ البال وتمّ المراد، بحيث أنّه يملك القوّة على حفظ الماشية والقيام عليها في إصلاحها وصلاحها، وكذا فإنّه أمين لايخاف من خيانته فيما يؤتمن عليه.

وقيل: إنّها لمّا قالت ذلك لأبيها استنكر ذلك من وصفها إيّاه، فقال لها: وما علمك بذلك؟ فقالت: أما قوّته فما رأيت من علاجه ماعالج عند السقي على البئر، وأمّا الأمانة فما رأيت من غضّ البصر عنّي(٢).

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري: ج٢٠ ص٤٠ .

(٢) انظر : تفسير أبي السعود ج٧ ص١٠ .

(٢) انظر : تفسير ابن جرير الطبري ج٢٠ ص٤٠؛ تفسير الكشاف للزمخشري ج٣ ص١٧٢ .

ولم يرفض الأب طلب ابنته بل استجاب لها، ولكنّه قرن طلب الاستئجار بأمر آخر وهو الزواج من إحدى ابنتيه: (قال إنّي أريد أن أنكحك إحدى ابنتيّ هاتين على أن تأجرني ثماني حجج فإن أتممت عشراً فمن عندك وماأريد أن أشقّ عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين). وكانّ النكاح هو الأصل في الطلب دون الاستئجار، وهذا مشعر باهتمام الأب بموسى -عليه السلام- وإرادة الخير له.

ومعنى كلام الأب: أنه قال له أزوّجك إحدى ابنتيّ على أن تثيبني من تزويجكها رعي ماشيتي ثماني سنين -(على) من صيغ الشرط في العقود- فإن أكملت ماشرطته عليك وهي الثماني؛ فجعلتها عشر سنين فذلك إحسان من عندك وليس هو ممّا اشترطته عليك بتزويجك ابنتي، وماأريد أن أكلّفك مشقّة -المشقّة: العسر والتعب والصعوبة في العمل. والأصل أن يوصف بالشاقّ العمل المتعب، فاسناد أشقّ إلى ذاته اسناد مجازي لأنّه سبب المشقّة، أي ماأريد أن اشترط عليك مافيه مشقّتك- وستجدني إن شاء الله من الصالحين في الوفاء بما قلت لك مع حسن المعاملة ولين الجانب(١).

٤- موافقة موسى على طلب الأب :

وقابل موسى هذا الطلب مع شروطه بالموافقة والرضا به: (قال ذلك بيني وبينك أيّما الأجلين قضيتُ فلاعدوان عليّ والله على مانقول وكيل).

وقوله: (ذلك بيني وبينك) هو جواب قبوله، وبه تمّ التعاقد على النكاح والإجارة.

وإطلاق قوله: (بيني وبينك) مجاز في معنى الثبوت واللزوم والارتباط(٢). بمعنى أنّ هذا الذي قاله الأب بتزويج موسى على أن يأجره ثماني حجج هو واجب

---

(١) انظر : تفسير ابن جرير الطبري ج٢٠ ص(٤١-٤٢)؛ تفسير الكشاف للزمخشري ج٢ ص١٧٢؛ التحرير والتنوير ج٢٠ ص١٠٩ .

(٢) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، ج٢٠ ص١٠٩.

بينهما على كلّ واحد منهما حقّ الوفاء لصاحبه بما أوجبه له على نفسه(١).
وحتى يؤكّد على عدم إلزامه بالعشر ولابأكثر منها قال: (أيّما(٢) الأجلين قضيت فلا عدوان عليّ والله على مانقول وكيل) أي: أيّ الأجلين الثماني أو العشر فرغ منها، وأوفى بما عهد إليه من الرعي فيها؛ فليس له أن يعتدي عليه ويطالبه بأكثر منه. ثمّ ختم كلامه بإشهاد الله على أمرهما الذي اتفقا عليه، وأراد -أيضاً- من إشهاده: أنّه إذا أخلّ أحدهما بشيء فإنّ الله مؤاخذه بتفريطه، ولاسبيل لأحدهما إلى الخروج عن شيء من ذلك(٣).
وقد قضى موسى -عليه السلام- أطول الأجلين. ودليله مارواه البخاري في صحيحه عن سعيد بن جبير قال: "سألني يهودي من أهل الحيرة: أيّ الأجلين قضى موسى؟ قلت: لاأدري حتى أقدم على حبر العرب فأسأله. فقدمت فسألت ابن عباس فقال: قضى أكثرهما وأطيبهما إنّ رسول الله إذا قال فعل"(٤).
وأمّا ماذكر من أنّه تزوّج الصغرى واختارها فإنّه لم يصحّ حديث في هذا(٥).

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير الطبري ج٢٠ ص٤٢.
(٢) أيّما: منصوب ب(قضيت)، وأيّ اسم موصول مبهم مثل (ما)، وزيدت بعدها (ما) للتأكيد ليصير الموصول شبيهاً بأسماء الشرط لأنّ تأكيد مافي اسم الموصول من الإبهام يكسبه عموماً فيشبه الشرط، فلذلك جعل له جواب كجواب الشرط (التحرير والتنوير: ج٢٠ ص١١٠).
(٣) انظر: تفسير ابن جرير الطبري ج٢٠ ص٤٢؛ التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ج٢٠ ص١١٠.
(٤) رواه البخاري: ٥٢- كتاب الشهادات، ٢٨- باب من أمر بإنجاز الوعد، حديث(٢٦٨٤) (فتح الباري شرح صحيح البخاري: ج٥ ص٢٨٩-٢٩٠).
(٥) انظر: فتح القدير للشوكاني ج٤ ص(١٧١-١٧٢).

ثمّ إنّ في اختلافهم فيمن جاءته أهي الكبرى أم الصغرى فقد قيل: أنّه اختار التي جاءته دون الأخرى؛ لأنّها هي التي عرف أخلاقها باستحيائها وكلامها فكان ذلك ترجيحاً لها عنده (١).

وهذا الكلام نميل إليه بأنّ من جاءته هي التي اختارها لزواجه لمعرفته بحالها. والله أعلم .

---

(١) انظر : التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ج٢٠ ص١٠٦ .

الفصل الثاني
" العبـر والفوائـد "

١ - العبر والفوائد من قدوم موسى إلى مدين ولقائه بالفتاتين :

* إنّ الأخلاق الإسلامية لاتقتصر على وقت دون وقت، وحال دون حال. فحينما يكون الانسان في كامل قواه يقوم بها؛ وكذلك حين بلوغه مبلغاً من التعب. فهذا موسى -عليه السلام- مع ماكان عليه من التعب ولكن نخوته وخلقه أبى إلا وأن يساعد ويقدّم المعونة.

وهذا ماينبغي أن يكون عليه الانسان في كلّ أحواله... فالأخلاق أمر ثابت لايتغيّر بتغيّر حالات الانسان.

* إنّ الرحمة بالخلق والاحسان على من يعرف الانسان وعلى من لايعرف من أخلاق الأنبياء والصالحين... فهاهو ذا سيدنا موسى -عليه السلام- غريب على البلاد ولكن لم يمنعه ذلك من سقي الماشية الماء، وإغاثة من عجز عن ذلك ورأفته به(١).

أقول: وهذا الخلق ماينبغي أن يحرص عليه كل داعية إلى الله حتى يكون محبوباً لدى الجميع، ومن ثمّ فإنّه إذا دعاهم إلى أمر من بعد كانوا من المستجيبين.

ولربّما إنسان تقابله في حياتك مرّة واحدة فتسدي إليه آنذاك معروفاً، ثم أنت لاتذكره بعد ذلك؛ ولكن هو يذكرك، فيأتي يوم فتجده ينصرك ويؤازرك من أجل خدمة وإحسان أحسنت به إليه في لحظة حاجة... ألا فليقتد الدعاة بالأنبياء ولايبخلن على الناس -كلهم لابعضهم- بما يقدرون عليه من خدمات اجتماعية لهم، فانّ هذا ضمان لكسب قلوبهم وآرائهم في جانب الحق وأهله.

* ومن الأحكام الفقهية التي تدّل عليها الآيات مايلي :

---

(١) انظر : تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي ج٦ ص(٢٧-٢٨).

-إنّه لامانع من خروج النساء في طلب حوائجهنّ، بشرط التقيّد باللباس الشرعي، ومراعاة أدب الكلام مع الرجال فيما يعني ودونما إخضاع به.

- وفي سؤاله عليه السلام الفتاتين عن سبب عدم سقيهما دليل على جواز مخاطبة الأجنبية فيما يعني(١). مع الالتزام بآداب الشرع في مخاطبة الأجنبيّات.

- استحباب الدعاء بتبيين الحال وشرحها مع كون الله عالماً بها؛ لأنّه تعالى يحبّ تضرّع عبده، وإظهار ذلّه ومسكنته، وذلك كما قال موسى: (ربّ إنّي لما أنزلت إليّ من خير فقير) (٢).

٢- العبر والفوائد من إرسال الأب إحدى ابنتيه لطلب موسى :

* إنّ المكافأة على الاحسان لم يزل دأب الأمم السابقين(٢). وهو على حدّ قوله تعالى: (هل جزاء الاحسان إلا الاحسان) "الرحمن:٦٠"، وفيه قول الشاعر:

من يفعل الخير لايَعْدَم جوازيَه لايذهب العرف بين الله والناس

فها هو ذا الأب حين علم بإحسان موسى إلى ابنتيه قام بطلبه ليكافئه على إحسانه.

* وفي وصف الله تعالى للفتاة: (فجاءته إحداهما تمشي على استحياء..) يدلّنا على ماكانت عليه الفتاة من عظم الحياء، وهذا مدح من الله لها. وفيه إشارة إلى ماينبغي أن يكنّ عليه الفتيات من الحياء وأهمية ذلك في حفظ أنفسهنّ عند لقاء الرجال..

وحتى في حديثها لموسى كانت بكلّ أدب ووضوح وطهر وعفاف.

---

(١) انظر : تفسير الألوسي ج٢٠ ص٦٠ .
(٢) تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي: ج٦ ص٢٨ .
(٢) تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي: ج٦ ص٢٨ .

يقول الشهيد سيد قطب مصوراً حالها الذي ينبغي أن يكنّ عليه كلّ الفتيات:
"... دعوة تحملها إحداهما وقد جاءته (تمشي على استحياء) مشية الفتاة الطاهرة الفاضلة العفيفة النظيفة حين تلقى الرجال على استحياء، في غير ما تبذّل ولاتبرّج ولاتبجّح ولاإغراء. جاءته لتنهي إليه دعوة في أقصر لفظ وأخصره وأدلّه يحكيه القرآن بقوله: (إنّ أبي يدعوك ليجزيك أجر ماسقيت لنا)، فمع الحياء الإبانة والدقّة والوضوح، لاالتلجلج والتعثّر والربكة، وذلك كذلك من إيحاء الفطرة النظيفة السليمة المستقيمة، فالفتاة القويمة تستحي بفطرتها عند لقاء الرجال والحديث معهم، ولكنّها لثقتها بطهارتها واستقامتها لاتضطرب.. الاضطراب الذي يطمع ويغري ويهيّج، إنّما تتحدّث في وضوح بالقدر المطلوب ولاتزيد."(١). وكما يقولون : جمال النساء بحيائهنّ وعفافهنّ وطهرهنّ.
ألا فلتتمسك الفتيات بالجمال الحقيقي....

* وممّا لاشك فيه أنّ هذا الحياء الذي تخلّقت به الفتاة، إنّما هو أثر ونتيجة للتربية الصالحة التي وجدتها من أبويها.
وممّا هو معلوم أنّ خطر النساء عظيم إذا تركن بلاتربية صالحة، وإنّ لأعظم الفتن وأوّلها تأثيراً في المجتمعات خروج النساء عن حيائهنّ وعفافهنّ..
ولذلك أرشد ديننا الحنيف إلى وجوب الاهتمام بتربية البنات وتنشئتهنّ النشأة الصالحة، وجعل لمن قام بتربية بناته على الالتزام بدين الله وشرعه أجراً عظيماً، فعن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو -وضمّ أصابعه-..."(٢).
فليحرص الآباء على حسن تربيتهم لبناتهم حتى يكونوا عنصر إصلاح في المجتمع لاعامل هدم وفساد .

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج٥ ص(٢٦٨٦-٢٦٨٧) .
(٢) رواه مسلم: كتاب البرّ والصلة، باب فضل الاحسان إلى البنات، حديث(١٤٦)، ج٥ ص٤٨٦ .

* ويستفاد من قبول موسى -عليه السلام- للذهاب إلى أبي الفتاتين: أنّ العبد إذا عمل عملاً لله تعالى ثمّ حصلت له مكافأة عليه من غير قصد؛ فإنّه لايُلام على ذلك ولايؤاخذ(١).

٢- العبر والفوائد من طلب استئجار موسى وزواجه :

* إنّ في عرض الفتاة -على أبيها- أمر استئجار موسى له دلالة واضحة إلى حرصها على عدم الاختلاط مع الرجال ومزاحمتهم لتعفّفها هي وأختها عن ذلك.

يقول سيد قطب -رحمه الله- في ذلك: "إنّها وأختها تعانيان من رعي الغنم، ومن مزاحمة الرجال على الماء، ومن الاحتكاك الذي لابدّ منه للمرأة التي تزاول أعمال الرجال. وهي تتأذى واختها من هذا كلّه، وتريد أن تكون امرأة تأوي إلى بيت، امرأة عفيفة مستورة لاتحتكّ بالرجال الغرباء في المرعى والمسقى. والمرأة العفيفة الروح النظيفة القلب السليمة الفطرة لاتستريح لمزاحمة الرجال ولا للتبذّل الناشئ من هذه المزاحمة... وها هو ذا شابّ غريب طريد وهو في الوقت ذاته قويّ أمين."(٢).

* يدل إبداء الرأي من قِبَل الفتاة على حسن طريقة التربية التي كان يتمتّع بها ذلك الأب الصالح؛ فهو لايحرم ابنته من حقّ إبداء رأيها فيما فيه وجه لإبداء الرأي.

وإنّنا لنلاحظ أنّ هذا الجانب من التربية قد يفقده بعض الآباء؛ إذ أنّهم لايعطون لبناتهم فرصة لإبداء آرائهنّ ويعتبرون أنّ المرأة -وخصوصاً- إذا لم تتزوّج بعد- ليس لها رأي أمام أبيها. وهذا الأسلوب ممّا يؤثّر تأثيراً واضحاً على شخصيّة الفتاة، فتكون شخصيتها مضطربة غير قادرة على اتخاذ الرأي المناسب في مواجهة ظروف الحياة المتغيّرة، غير واثقة بنفسها تخشى اللائمة إن هي أبدت رأيها أو فعلت ماتراه.. إذاً فلابدّ أن تعطى الفتاة حق إبداء رأيها فيما فيه وجه للرأي، وفي

---

(١) انظر : تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي ج٦ ص٢٨ .
(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب : ج٥ ص٢٦٨٧ .

حدود عدم الخروج على قول الشرع الحنيف .

ويصف لنا سيد قطب موقف تلك الفتاة -التي أعطيت هذا الحق وتربّت على هذا الأسلوب الحكيم- قائلاً: "وهي لاتتلعثم في هذه الاشارة ولاتضطرب ولاتخشى سوء الظنّ والتهمة. فهي بريئة النفس، نظيفة الحسّ، ومن ثمّ لاتخشى شيئاً ولاتتمتم ولاتجمجم وهي تعرض اقتراحها على أبيها..."(١).

* ثم إنّ في استنتاج الفتاة أنّ موسى -عليه السلام- يتمتع بصفتي القوّة والأمانة: مايدلّ على ذكائها وفطنتها ورجاحة عقلها. فقوّته بَيّنتها على مارأت فيه من قدرته على السقي ومعالجته لفم البئر، أمّا أمانته فلِما رأت من غضّ بصره عنها؛فما دام هو أمين على العرض، فإذاً هو أمين على المال وعلى غيره. وهكذا فإنّها لم تقل: استأجره وفقط، بل بَيّنت كلامها هذا على مااعتقدته ورأته منه.

وكذلك فإنّ اختيارها لهذين الوصفين (القوّة والأمانة) بالذات، ليدلّ على معرفتها بما يقوم به العمل ويصلح له -وهذه ميزة لاتوجد في كثير من الفتيات- فهذان الوصفان لازمان في كلّ من يتولّى عملاً بإجارة أو غيرها؛ إذ أنّ الخلل لايكون إلا بفقدهما أو فقد أحدهما، وباجتماعهما فإنّ العمل يتمّ ويكمل ويتحقق الغرض الذي أريد منه.

وممّا ذُكر في هذا الشأن قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "أشكو إلى الله ضعف الأمين وخيانة القويّ"، ففي مضمون الشكاية سؤال الله تعالى أن يعطيه من الولاة من جمع وصفَيْ القوة والأمانة.

كما أنّ في مدحها له بهاتين الصفتين دون غيرها بقاء لحشمتها، فهذا أجمل شيء في مدح النساء للرجال من المدح الخاصّ الذي قد تدخل فيه بعض الكلمات التي لاتليق بمقام فتاة عفيفة(٢).

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب : ج٥ ص٢٦٨٧ .

(٢) انظر : محاسن التأويل للقاسمي ج١٢ ص١٠٢ .

* وفيما روي من أنّ أباها لما قالت له (استأجره..) دخلته الغيرة فقال لها: وما علمك بقوّته وأمانته؟ دلالة على ماينبغي أن يكون عليه الآباء من الغيرة والحرص على بناتهم حتى يحفظوهم من غوائل الشيطان وأوليائه.
ومن المؤسف أن نجد في عصرنا من الآباء من لايأبه بمخالطة بناته للرجال والتحدّث معهم، بل والذهاب والمجيء معهم، وهؤلاء -بلاشك- أناس قد نزعت الغيرة من قلوبهم، وذهب الحياء عنهم، ولم يؤدّوا حقّ الله عليهم في بناتهم، وخدعوا بمظاهر الغرب المنحلّ، ونفّذوا خطط اليهود وأعوانهم المفسدين الذين يريدون إفساد المجتمعات الاسلامية وانحلالها وبالتالي سيكون ضعفها وسقوطها في الهاوية...
ألا فليرجع هؤلاء الآباء إلى دينهم الحقّ وليحفظوا أبناءهم وليقدّروا عظم مسؤوليتهم أمام الله.

* وفي قبول أبي الفتاتين رأي ابنته في استئجار موسى: دليل على حرصه واهتمامه بحفظ بناته وعلى أن لايخالطن الرجال. وهذا يشير إلى أنّه كان يسمح لهما بالخروج للضرورة.
وهذا ماينبغي أن يكون عليه كلّ أب تجاه بناته بأن يأخذ بكلّ سبب يبعد به بناته عن الاحتكاك بالرجال حتى يصونهنّ من الفتن، وفي المقابل -أيضاً- حتى لايفتتن بهنّ أحد من الرجال.. ومن المعلوم أنّ أكثر المشاكل الاجتماعية والمفاسد إنّما سببها هو الاختلاط بين الجنسين.

* وقول الأب لموسى: (وما أريد أن أشقّ عليك) فيه دلالة على أنّ من مكارم الأخلاق أن يحسن الانسان خلقه لأجيره وخادمه ولايشقّ عليه بالعمل(١).

* ثمّ انّ قوله -أيضاً- له: (ستجدني إن شاء الله من الصالحين) ليس هو من تزكية النفس المنهيّ عنها في قوله تعالى: (فلاتزكّوا أنفسكم هو أعلم بمن اتّقى)

---

(١) تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي: ج٦ ص٢٨ .

"النجم: ٣٢"، لأنه قصد بذلك تعريف خلقه لصاحبه حتى يطمئن إليه، ولم يقصد الفخر والتمدّح، فضلاً عن أنه تقدّم المشيئة. فما كان لغرض في الدين أو المعاملة فذلك حاصل لداع حسن ولاشيء فيه كما قال يوسف: (اجعلني على خزائن الأرض إنّي حفيظ عليم) "يوسف: ٥٥"(١).

* ومن الأحكام الفقهية التي دلّت عليها الآيات مايلي :

- في قوله تعالى: (ياأبت استأجره...) يقول الامام القرطبي: "فيه دليل على أنّ الاجارة كانت عندهم مشروعة معلومة، وكذلك كانت في كلّ ملّة، وهي من ضرورة الخليقة ومصلحة الخلطة بين الناس"(٢).

- وفي قوله: (إنّي أريد أن أنكحك إحدى ابنتيّ هاتين) يظهر لنا جواز عرض الوليّ ابنته على الرجل. فهذا أمر لاشيء فيه، وهو مقرّر في سنّة النبي صلى الله عليه وسلم. فانّه متى مارأى الوليّ رجلاً صالحاً لأن يكون زوجاً لابنته فله أن يتخيّره ويطلب منه الزواج بابنته ولايلام على هذا.

وقد أفرد الامام البخاري باباً في كتاب النكاح أسماه: "باب عرض الانسان ابنته أو أخته على أهل الخير". وذكر فيه: أنّ سالم بن عبد الله سمع عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يُحدّث أنّ عمر بن الخطاب حين تأيّمت حفصة بنت عمر من خنيس بن حذافة السهمي، وكان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فتوفّي بالمدينة. فقال عمر بن الخطاب: أتيت عثمان بن عفّان فعرضت عليه حفصة فقال: سأنظر في أمري، فلبث ليالي ثم لقيني فقال: قد بدا لي أن لاأتزوّج يومي هذا، قال عمر: فلقيت أبابكر الصدّيق فقلت: ان شئت زوّجتك حفصة بنت عمر، فصمت أبوبكر فلم يرجع إليّ شيئاً وكنت أوجد عليه منّي على عثمان، فلبثت ليالي ثمّ خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنكحتها إيّاه، فلقيني أبوبكر فقال: لعلّك وَجَدْتَ عليّ حين عرضْتَ عليّ حفصة

---

(١) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ج٢٠ ص١٠٩.
(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ج١٣ ص٢٧١ .

فلم أرجع إليك شيئاً. قال عمر: قلت: نعم. قال أبوبكر: فإنّه لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضت عليّ إلاّ أنّي كنت علمت أنّ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قد ذكرها فلم أكن لأفشي سرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ولو تركها رسول الله لقبلتها(١).

وكذلك فإنّه يجوز أن تعرض المرأة نفسها على الرجل الصالح، وقد أفرد -أيضاً- الامام البخاري باباً أسماه: "عرض المرأة نفسها على الرجل الصالح"، وذكر فيه: "أنّ امرأة عرضت نفسها على النبيّ -صلى الله عليه وسلم- فقال له رجل: يارسول الله زوّجنيها... الحديث"(٢).

إذاً فهذا أمر مقرّر في الشرع، ولاشكّ أنّ له إيجابيات عديدة أهمّها: أن في هذه الطريقة ضمانٌ لزواج الصالحين بالصالحات، وما يتبع هذا من قلّة الخلافات الأسرية والمشاكل الاجتماعية، وكذلك يتبعه إنشاء جيل صالح... إلى غير ذلك من الفوائد الاجتماعية...

وللشهيد سيد قطب كلام ممتاز حول هذا الموضوع فيقول: " وهكذا في بساطة وصراحة عرض الرجل إحدى ابنتيه من غير تحديد، عرضها في غير تحرّج ولاالتواء، فهو يعرض نكاحاً لايخجل منه، يعرض بناء أسرة وإقامة بيت وليس في هذا مايخجل، ولا مايدعو إلى التحرّج والتردّد والايماء من بعيد، والتصنّع والتكلّف مما يشاهد في البيئة التي تنحرف عن سواء الفطرة، وتخضع لتقاليد مصطنعة باطلة سخيفة، تمنع الوالد أو وليّ الأمر من التقدّم لمن يرتضي خلقه ودينه وكفايته لابنته أو أخته أو قريبته، وتحتّم أن يكون الزوج أو وليّه أو وكيله هو الذي يتقدّم، أو لايليق أن

---

(١) رواه البخاري: كتاب النكاح، باب عرض الانسان ابنته أو أخته على أهل الخير، حديث(٥٦)، ج٧ ص(٢٢-٢٤).

(٢) رواه البخاري: كتاب النكاح، باب عرض المرأة نفسها على الرجل الصالح، حديث(٥٥،٢٥)، ج٧ ص(١٠، ٢٢-٢٢).

يجيء العرض من الجانب الذي فيه المرأة! ومن مفارقات مثل هذه البيئة المنحرفة أنّ الفتيان والفتيات يلتقون ويتحدّثون ويختلطون ويتكشّفون بعضهم لبعض في غير ما، خطبة ولانيّة نكاح. فأمّا حين تعرض الخطبة أو يذكر النكاح فيهبط الخجل المصطنع وتقوم الحوائل المتكلّفة وتمتنع المصارحة والبساطة والابانة! ولقد كان الآباء يعرضون بناتهم على الرجال في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل كانت النساء تعرض نفسها على النبي صلى الله عليه وسلم، أو من يرغب في تزويجهنّ منهم، كان يتمّ هذا في صراحة ونظافة وأدب جميل، لاتخدش معه كرامة أو حياء" (١).

- واستدلّ الشافعية والحنابلة بقوله: (إنّي أريد أن أنكحك) على أنّ الزواج لاينعقد إلاّ بلفظ التزويج والانكاح، وكذا استدلّوا بقوله: (زوّجناكها) "الاحزاب:٣٧"، وقوله: (ولاتنكحوا مانكح آباؤكم) "النساء:٢٢" وقالوا: لورودهما في القرآن، فيلزم الاقتصار عليهما، ولايصحّ أن ينعقد بغيرهما من الألفاظ: لأنّ الزواج عقد يعتبر فيه النيّة مع اللفظ الخاصّ به. وأجابوا عن قوله: (إن وهبت نفسها للنبيّ) "الاحزاب:٥٠" أنّها من خصوصيات النبي صلى الله عليه وسلم، وأجابوا عن حديث الموهوبة وفيه (ملكتكها) قالوا: إنّ هذا إمّا وهم من الراوي أو أنّ الراوي رواه بالمعنى ظنّاً منه ترادف هذا اللفظ مع لفظ الزواج، وبتقدير صحّة الرواية فهي معارضة برواية الجمهور (زوّجتكها).

وقول الشافعية والحنابلة -هذا- مرجوح، إذ الراجح أنّ الزواج ينعقد بكل لفظ يدلّ على تمليك في الحال، وبقاء الملك مدى الحياة. كلفظ البيع والهبة والصدقة أو العطيّةونحوها وهذا هو ماعليه الحنفيّة والمالكية على الراجح، بشرط نية أو قرينة تدلّ على الزواج كبيان المهر وإحضار الناس وفهم الشهود للمقصود؛ لأنّ المطلوب التعرّف على ارادة العاقدين، وليس للّفظ اعتبار، فالعبرة في العقود للمعاني، لا للألفاظ والمباني. وأمّا الخصوصية للنبيّ صلى الله عليه وسلم في قوله: (وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي..الآية) في صحة الزواج من دون مهر؛ لاباستعمال لفظ الهبة.

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج٥ ص٢٦٨٨.

وكذلك فانّه وردت الرواية في الصحيحين بلفظ (ملكتكها)، وفي البخاري: (أمكنّاكها)؛ ولامسوّغ لردهما.

وإضافة إلى ماتقدّم -نذكر للفائدة- أنّ الألفاظ التي اتّفق الفقهاء على عدم انعقاد الزواج بها: فهي التي لاتدلّ على تمليك العين في الحال ولا على بقاء الملك مدّة الحياة، وهي:

الاباحة، والاعارة، والاجارة، والمتعة، والوصيّة، والرهن، والوديعة. وغيرها(١).

- إنّ ابتداءه بالرجل قبل المرأة في قوله: (أنكحك)؛ لأنّ الرجل هو المقدّم في العقد والملتزم للصداق والنفقة، القيّم على المرأة، وصاحب الدرجة عليها في حق النكاح، ويؤكّد هذا قوله تعالى: (فلمّا قضى زيد منها وطراً زوّجناكها..) فبدأ بالنبي -صلى الله عليه وسلم- قبل زينب.. وهذا هو شرعنا الذي لاخلاف في وجوب الاقتداء به(٢).

- وفي قوله: (إني أريد..) دليل -أيضاً- على أنّ النكاح لايكون إلاّ بوليّ؛ لأنّ صالح مدين تولاّه(٣).

وهذا شرط من شروط صحة عقد الزواج عند الجمهور، وخالف الأحناف. واستدلّ الجمهور بقوله تعالى: (فلاتعضلوهنّ أن ينكحن أزواجهنّ... الآية) "البقرة:٢٣٢". قال الشافعي: هي أصرح آية في اعتبار الوليّ. وإلاّ لما كان لعضله معنى. واستدلّوا -أيضاً- بقوله صلى الله عليه وسلم: "لانكاح إلاّ بوليّ"(٤) وهو

---

(١) انظر: الفقه الاسلامي وأدلته لوهبة الزحيلي ج٧ ص(٣٧-٤٠)؛ الجامع لأحكام القران للقرطبي ج١٣ ص٢٧٢.

(٢) انظر: أحكام القرآن لابن العربي ج٣ ص١٤٦٩.

(٣) انظر: المرجع السابق ج٣ ص١٤٧٠.

(٤) رواه الخمسة (أحمد وأصحاب السنن) عن أبي موسى الأشعري، =

لنفي الحقيقة الشرعية، بدليل حديث عائشة رضي الله عنها: "أيّما امرأة نكحت بغير إذن وليّها فنكاحها باطل، باطل، باطل، فإن دخل بها فلها المهر بما استحلّ من فرجها، فإن اشتجروا فالسلطان وليّ من لا وليّ له"(١).
ومذهب الجمهور هو الصحيح(٢)؛ إذ أنّ الأحناف قاسوا على البيع، فقالوا: إنّ المرأة تستقلّ ببيع سلعتها. وهو قياس فاسد الاعتبار إذ هو قياس مع نصّ(٣).

- وقوله: (إنّي أريد أن أنكحك إحدى ابنتيّ) يدلّ على أنّه عرض لاعقد؛ لأنّه لو كان عقداً لعيّن المعقود عليها له؛ إذ أنّ العلماء وإن كانوا قد اختلفوا في جواز البيع إذا قال: بعتك أحد عبديّ هذين بثمن كذا، فإنّهم اتفقوا على أنّ ذلك لايجوز في النكاح لأنّه خيار وشيء من الخيار لايلصق بالنكاح(٤).

- وفي نكاحه بالاجارة (إنّي أريد أن انكحك إحدى ابنتيّ هاتين على أن تأجرني ثماني حجج.. الآية) مايدلّ على جواز جعل منافع الحرّ صداقاً شرعاً كالخياطة والبناء وتعليم القرآن، وهنا الرعي والسّقي وغير ذلك. ويدلّ على هذا ماروي في حديث الموهوبة التي زوّجها النبي صلى الله عليه وسلم للذي لم يكن عنده شيء سوى

= وصححه ابن المديني والترمذي وابن حبّان وأعلّه بإرساله (انظر: محمد بن اسماعيل الأمير اليمني الصنعاني، سبل السلام شرح بلوغ المرام، ٤ج (القاهرة: مكتبة عاطف) ج٣ص٩٨٧).

(١) رواه أحمد والأربعة إلاّ النّسائي، وصحّحه الترمذي وأبوعوانة، وابن حبّان والحاكم وابن معين وغيره من الحفّاظ (سبل السلام للصنعاني ج٢ ص٩٨٨).

(٢) انظر: الفقه الاسلامي وأدلّته لوهبة الزحيلي ج٧ ص(٨٢-٨٤).

(٣) سبل السلام للصنعاني: ج٢ ص٩٨٨.

(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ج١٢ ص٢٧٢.

القرآن(١).

٤- العبر والفوائد من موافقة موسى -عليه السلام- على طلب الأب :

* إنّ في موافقة موسى عليه السلام على رعي الغنم ماقد دلّ عليه الحديث الصحيح: فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: "مابعث الله نبياً إلا رعى الغنم. فقال أصحابه. وأنت فقال: نعم. كنت أرعاها على قراريط لأهل مكّة"(٢).

والحكمة في رعي الغنم من جهة الأنبياء والمرسلين -والله أعلم- هي : ليتعوّدوا على السكينة والتواضع، وليكون ذلك مقدّمة لسياسة الأمّة وقيادتها كما يقود الراعي غنمه، ويتعهّدها بما يصلح شأنها. وهكذا الأنبياء الكرام انتقلوا من رعاية الغنم الى قيادة الأمم صلوات الله عليهم أجمعين(٢). وكذلك فانّ الغنم ضعيفة بطبعها فهي تحتاج لرقّة وعطف ورحمة، وهذا تعويد عملي للأنبياء على الرحمة والعطف والرقّة في معاملة مدعوّيهم.

* يقول القرطبي -رحمه الله- في قوله تعالى: (والله على مانقول وكيل): "فاكتفى الصالحان في الاشهاد عليهما بالله ولم يُشهدا أحداً من الخلق"(٤).

---

(١) انظر : الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج١٢ ص(٢٧٢-٢٧٤)؛ أحكام القرآن للكيا الهراسي ج٤ ص٢٢٥.

(٢) رواه البخاري: كتاب الاجارة، باب رعي الغنم على قراريط، حديث(٢)، ج٢ص١٨٠.

(٣) انظر: محمد علي الصابوني، النبوّة والأنبياء، الطبعة الثانية، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ص١٧٥.

(٤) تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن): ج١٢ ص٢٨٠.

أقول: هذا لايدلّ على أنّهما اكتفيا بهذا القول؛ لأنّ القرآن لم يفصّل بعد ذلك فيما حدث، ولعلّه تبع ذلك إشهاد الشهود على هذا النكاح، أو لعلّه لم تكن الشهادة آنذاك من شروط صحة عقد الزواج. والله أعلم.

والراجح أنّ الشهادة شرط في صحّة عقد الزواج، فلايصحّ بلاشهادة اثنين غير الوليّ. وذلك لأهمّيتها إذ فيها حفاظ على حقوق الزوجة والولد، ولئلاّ يجحده أبوه فيضيع نسبه، وفيها درء للتهمة عن الزوجين، وبيان لخطورة الزواج وأهمّيته(١).

وبهذه العبر والفوائد نكون قد انتهينا من الكلام حول هذا الباب.

والحمد لله ربّ العالمين

---

(١) انظر : الفقه الاسلامي وأدلّته لوهبة الزحيلي ج٧ ص(٧٠-٧١).

الباب السادس

"داود وسليمان عليهما السلام"

وفيه تمهيد: وأربعة فصول:

"تمهيـــــــد"

في هذا الباب ستكلّم عن داود(١) وسليمان عليهما السلام -اللّذيْن هما من أنبياء الله لبني إسرائيل بعد موسى عليه السلام- فيما ورد مشتركاً بينهما في آيات القرآن العزيز، إذ أنّ القرآن تحدّث عنهما في عدد من المواضع منها ماشتمل على خصوصيات كلّ واحد منهما، ومنها ماكانت تربط بينهما في آية أو حدث معيّن، والأخير هو مايناسب موضوع بحثنا في إبراز العلاقة والمواقف التي كانت بينهما.

ولكن لايفوتنا في هذا التمهيد أن نشير دونما استطراد إلى خصوصيات كلّ منهما:

أمّا داود عليه السلام -وهو أوّل من جمعت له النبوّة والملك من أنبياء بني إسرائيل- فما ذكر خاصاً بشأنه كالآتي:

١- تشديد ملكه، وإيتاؤه الحكم وفصل الخطاب. يقول تعالى: (وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب) "ص:٢٠".

٢- جعله الله خليفة في الأرض وحاكماً. قال تعالى: (ياداود إنّا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحقّ) "ص:٢٦".

٣- تسخير الجبال معه يسبّحن. قال تعالى: (إنّا سخّرنا الجبال معه يسبّحن بالعشيّ والإشراق) "ص:١٨".

٤- الانة الحديد له. قال تعالى: (...وألنّا له الحديد. أن اعمل سابغات وقدّر في السرْد..الآية) "سبأ:١٠-١١" فلان الله له الحديد وأعانه على عمل الدروع ليحصّن المقاتلة من الأعداء وأرشده إلى صنعها وكيفيّتها (وعلّمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم..) "الأنبياء:٨٠".

---

(١) نسبه: هو داود بن إشار بن عويد بن عابر بن سلمون بن نحشون بن عويناذب بن أرم بن خصرون بن فارض بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام. (البداية والنهاية لابن كثير: ج٢ ص٩).

٥- أعطاه الله الزبور، وهو أحد الكتب السماوية. قال تعالى: (وآتينا داود زبوراً) "النساء: ١٦٣".

وأمّا سليمان عليه السلام فمع ماورثه من أبيه في الملك والنبوّة والحكمة والعلم فانّه قد ورد بشأنه خواصّ له لم تذكر لأبيه داود وهي كالآتي:

١- فهمه لكلام النمل. قال تعالى: (حتى اذا أتوا على واد النمل قالت نملة يأيها النمل ادخلوا مساكنكم لايحطمنّكم سليمان وجنوده وهم لايشعرون. فتبسّم ضاحكاً من قولها وقال ربّ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ.. الآية) "النمل: ١٨-١٩".

٢- ماسخّر له من الخيل الكثيرة. قال تعالى: (إذ عرض عليه بالعشيّ الصافنات الجياد. فقال إنّي أحببت حبّ الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب. ردّوها عليّ فطفق مسحاً بالسوق والأعناق) "ص: ٣١-٣٣".

٣- أعطاه الله سلطاناً على الريح وقدرة عليها فجعلها تجري بأمره الى المكان الذي يريده. قال تعالى: (فسخّرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب) "ص: ٣٦".

٤- سخّرت له الشياطين والجنّ. قال تعالى: (والشياطين كلّ بنّاء وغوّاص. وآخرين مقرّنين في الأصفاد) "ص: ٣٧-٣٨"، وقال تعالى: (وحشر لسليمان جنوده من الجنّ والانس والطير فهم يوزعون) "النمل: ١٧"، وقال تعالى: (.. ومن الجنّ من يعمل بين يديه باذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير. يعملون له مايشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات.. الآية) "سبأ: ١٢-١٣".

٥- قصّته مع ملكة سبأ في سورة النمل، وكذلك حواره مع الهدهد. "النمل: ٢٠-٤٤".

٦- اسالة عين القطر له وهو النحاس المذاب حيث تقذفه العين نحاساً مذاباً. قال تعالى: (وأسلنا له عين القطر. الآية) "سبأ: ١٢" فسخّر الله له عيناً من الأرض يخرج منها النحاس المصهور(١).

---

(١) انظر: قصص الأنبياء لعبد الوهّاب النجار ص(٢٠٩-٢٢٦).

فهذه الأمور الخاصّة لكلّ منهما، أمّا المشتركة وهي موضوع بحثنا في هذا الباب فستكون في أربعة فصول:

الأوّل : هبة سليمان من الله لداود.

والثاني: إيتاؤهما العلم.

والثالث: حكمهما في قضيّة الزرع.

والرابع: وراثة سليمان لداود.

وسنتناول هذه الأربع بالبيان واستخراج العبر والفوائد. والله نسأل التوفيق وبه نستعين.

الفصل الأوّل

"هبة سليمان من الله لداود"

المبحث الأول - بيان الآية:

يبيّن الله عزّ وجلّ هذه الهبة في قوله: (ووهبنا لداود سليمان نِعم العبد إنّه أوّاب) (١).

فالله تبارك وتعالى يذكر في هذه الآية أنّ من نعمه على نبيّه داود -عليه السلام- أن رزقه ولداً صالحاً (نِعم العبد إنّه أوّاب).

وكلمة أوّاب: أي رجّاع إلى الله في جميع أحواله، بالتألّه والإنابة، والمحبة والذكر والدعاء والتضرّع والاجتهاد في مرضاة الله وتقديمها على كلّ شيء(٢).

فكان عليه السلام قرّة عين لأبيه. بل كان نبياً من الله وهذه أعظم درجة ينالها العبد. وقد قال ابن كثير في تفسير هذه الآية أنّ المراد هو: أي وهبنا لداود سليمان نبياً(٣). وقد كان لداود عليه السلام بنون غيره. قال الكلبي: كان لداود تسعة عشر ولداً، وقيل أحد وعشرون ولداً(٤).

والحاصل أنّه كان لداود أبناء غير سليمان؛ ولكن تميّز سليمان من بينهم، بالنبوّة والمكانة الرفيعة عند الله عزّ وجلّ.

---

(١) سورة ص: ٣٠ .

(٢) تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي: ج٦ ص٤١٩.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ج٤ ص٣٢ .

(٤) انظر : تفسير القرطبي ج١٢ ص١٦٤؛ التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ج١٩ص٢٢٥.

المبحث الثاني - العبر والفوائـد :

نستفيد من امتنان الله على داود بهبته له ابناً صالحاً؛ على أنّ من نعم الله العظيمة على عباده أن يهب لهم أولاداً صالحين؛ فيكونوا قرّة أعين لهم.
ولذلك كان من دعاء عباد الرحمن: (ربّنا هب لنا من أزواجنا وذرّيّاتنا قرّة أعين واجعلنا للمتقين إماماً) (١). وما تقرّ أعين الآباء إلاّ بصلاح أبنائهم، فيسعد الآباء بأبنائهم هؤلاء في حياتهم برؤيتهم على الاستقامة في دين الله، وبعد مماتهم يدعو الأبناء لهم بالمغفرة والرضوان فينفعهم الله بدعائهم.
وأمّا في الآخرة فانّ الله يكرم الجميع بسبب الصلاح بأن يجمعهم في جنات عدن. يقول تعالى: (جنّات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرّيّاتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب. سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) (٢).
ونقف هنا مع هذه الآية الكريمة: فانّهم في الجنّات يأتلف شملهم مع الصالحين من آبائهم وأزواجهم وذرّياتهم.. وهؤلاء يدخلون الجنة بصلاحهم واستحقاقهم ولكنّهم يكرمون بتجمّع شتاتهم وتلاقي أحبابهم؛ وهي لذّة أخرى تضاعف لذّة الشعور بالجنان... وفي جوّ التجمّع والتلاقي يشترك الملائكة في التأهيل والتكريم في حركة رائحة غادية (يدخلون عليهم من كل باب) سلام عليكم... فهو مهرجان حافل باللقاء والسلام والحركة الدائبة والإكرام.. (٣)
ماأجمله من مشهد عظيم يلتقي فيه الآباء والأبناء الصالحون في جنات عدن بعد فراق طويل، وأين!! في الجنات وعند الله العظيم... ومايملك القلم أن يكتب شيئاً إلاّ أن يقول: حرصاً أيها الآباء على صلاح أبنائكم حتى تكرموا عند الله كرماً عظيماً.

* ويقول صاحب التحرير والتنوير: والواو في (ومن صلح من آبائـهم) واو

---

(١) سورة الفرقان :٧٤ .
(٢) سورة الرعد : ٢٢ - ٢٤ .
(٣) انظر : في ظلال القرآن لسيد قطب ج٤ ص٢٠٥٨ .

المعيّة، وذلك زيادة الاكرام بأن جعل أصولهم وفروعهم وأزواجهم المتأهّلين لدخول الجنة لصلاحهم في الدرجة التي هم فيها، فمن كانت مرتبته دون مراتبهم لحق بهم، ومن كانت مرتبته فوق مراتبهم لحقوا هم به، فلهم الفضل في الحالين. وهذا كعكسه في قوله تعالى: (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم.. الآية) "الصافات:٢٢" لأنّ مشاهدة عذاب الأقارب عذاب مضاعف.

وفي هذه الآية بشرى لمن كان له سلف صالح أو خلف صالح أو زوج صالح أنّه اذا صار الى الجنّة لحق بصالح أصوله أو فروعه أو زوجه. وماذكر الله هذا الاّ لهذه البشرى كما قال تعالى: (والذين آمنوا واتّبعتهم ذرّيتهم بإيمان ألحقنا بهم ذرّيتم وماألتناهم من عملهم من شيء... الآية) "الطور:٢١"(١).

واعظم بها من نعمة وهبة، وما أعظمها وأرفعها من بشرى يبشّر الله بها عباده المؤمنين ليحثّهم وينشّطهم على بذل الجهد تلو الجهد في إصلاح ذرّياتهم، والكرم الإلهي ينتظرهم فهنيئاً للعاملين.

---

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور: ج١٢ص١٢١.

الفصل الثاني

"إيتاؤهما العلم"

المبحث الأوّل - بيان الآية :

يذكر الله لنا ذلك في قوله: (ولقد آتينا داود وسليمان علماً وقالا الحمد لله الذي فضّلنا على كثير من عباده المؤمنين) (١).

ونلاحظ أنّ في هذه الآية الكريمة يخبرنا الله عمّا أنعم به على داود وابنه سليمان -عليهما السلام- من العلم.

وقوله: (آتينا) يدلّ بأنّه علم مقاّض من عند الله؛ لأنّ الإيتاء أخصّ من (علمناه)، ولذلك استغنى هاهنا عن كلمة (من لدنّا) (٢).

والمقصود بهذا العلم كما يقول الامام ابن جرير الطبري: "وذلك علم كلام الطير والدوابّ وغير ذلك ممّا خصّهما الله بعلمه" (٣) كعلم النبوّة والشريعة والحكمة.

ثمّ يذكر الله شكرهما على هذه النعمة العظيمة التي استحقّاها، فيأتي ذكر هذا الشكر بعد ذكر النعمة مباشرة؛ ليدلّ على ماهما فيه من حال الشكر الدائم لله عزّ وجلّ، والعمل بعلمهما، فدلّ هذا على شكرهما قولاً وعملاً. وذلك قوله تعالى: (وقالا الحمد لله الذي فضّلنا على كثير من عباده المؤمنين). فهما هنا يحمدان الله عزّ وجلّ على أن فضّلهما وآثرهما عن بقيّة كثيرة من عباده المؤمنين في دهرهما الذي يعيشان فيه (٤).

---

(١) سورة النمل : ١٥ .

(٢) انظر : التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ج١٩ص٢٢٤.

(٣) تفسير ابن جرير الطبري: ج١٩ص٨٧.

(٤) المرجع السابق : ج١٩ ص٨٧.

المبحث الثاني - العبر والفوائد :

* في الآية الكريمة دليل على علوّ مرتبة العلم؛ وذلك لامتنان الله عليهما بأن آتاهما إيّاه، ولشكرهما عليه الله عزّ وجلّ، وتفضيلهما على كثير من الناس بسببه.

وإنّ هذه المنزلة ليؤكدها الله عزّ وجلّ في قوله: (... يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات.. الآية)(١). وحول هذه المنزلة العظيمة يحدّثنا الامام ابن القيّم في كتابه مدارج السالكين فيقول رحمه الله: "العلم هاد والحال الصحيح مهتد به. والعلم تركة الأنبياء وتراثهم. وأهله عصبتهم ووراثهم، وهو حياة القلوب. ونور البصائر. وشفاء الصدور. ورياض العقول. ولذة الأرواح. وأنس المستوحشين. ودليل المتحيّرين. وهو الميزان الذي به توزن الأقوال والأعمال والأحوال. وهو الحاكم المفرّق بين الشك واليقين، والغيّ والرشاد، والهدى والضلال.

به يعرف الله ويعبد، ويذكر ويُوحّد، ويحمد ويمجّد. وبه اهتدى إليه السالكون. ومن طريقه وصل إليه الواصلون. ومن بابه دخل عليه القاصدون.

به تعرف الشرائع والأحكام، ويتميّز الحلال من الحرام. وبه توصل الأرحام، وبه تعرف مراضي الحبيب، وبمعرفتها ومتابعتها يوصل إليه من قريب.

وهو إمام والعمل مأموم. وهو قائد، والعمل تابع. وهو الصاحب في الغربة والمحدّث في الخلوة، والأنيس في الوحشة. والكاشف عن الشبهة. والغنى الذي لافقر على من ظفر بكنزه. والكنف الذي لاضيعة على من آوى إلى حرزه.

مذاكرته تسبيح. والبحث عنه جهاد. وطلبه قربة. وبذله صدقة. ومدارسته تعدل بالصيام والقيام. والحاجة إليه أعظم منها إلى الشراب والطعام.

قال الامام أحمد رضي الله عنه: الناس إلى العلم أحوج منهم إلى الطعام والشراب. لأنّ الرجل يحتاج إلى الطعام والشراب في اليوم مرّة أو مرّتين. وحاجته إلى العلم بعدد أنفاسه.

---

(١) سورة المجادلة : ١١ .

وروينا عن الشافعي رضي الله عنه أنّه قال: طلب العلم أفضل من صلاة النافلة.

ونصّ على ذلك أبوحنيفة رضي الله عنه.

وقال ابن وهب: كنت بين يدي مالك بن أنس رضي الله عنه. فوضعت ألواحي وقمت أصلي. فقال: ماالذي قمت اليه بأفضل ممّا قمت عنه. ذكره ابن عبد البرّ وغيره.

واستشهد الله عزّ وجلّ بأهل العلم على أجلّ مشهود به وهو "التوحيد" وقرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته. وفي ضمن ذلك تعديلهم. فانّه سبحانه وتعالى لايستشهد بمجروح.

والعلم هو حجّة الله في أرضه. ونوره بين عباده. وقائدهم ودليلهم إلى جنته. ومدنيهم من كرامته.

ويكفي في شرفه: أنّ فضل أهله على العباد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب. وإنّ الملائكة لتضع لهم أجنحتها، وتظلّهم بها.

ولقد رحل كليم الرحمن موسى بن عمران -عليه الصلاة والسلام- في طلب العلم هو وفتاه، حتى مسّهما النصب في سفرهما في طلب العلم. حتى ظفر بثلاث مسائل. وهو من أكرم الخلق على الله وأعلمهم به.

وأمر الله رسوله أن يسأله المزيد منه فقال: (وقل ربّ زدني علماً) "طه: ١١٤" (١).

* إنّ من أعظم ثمرات هذه النعمة وآثارها: خشية الله عزّ وجلّ، فما يساوي العلم شيئاً ولايرفع بصاحبه إلى منزلته الرفيعة إذا لم تصحبه الخشية من الله. ودليله قوله تعالى: (إنّما يخشى الله من عباده العلماء.) (٢) ولن يكون الانسان العالم في محلّ ثناء الله عليه ورضوانه إذا لم يكن ممّن يخشى الله. وكما يقول أحدهم: ليس العلم بكثرة الرواية إنما العلم بالخشية.

ولم يحز داود وابنه على هذا الثناء من الله إلاّ لأنّهما كانا ممّن أوتي العلم وازداد به خشية من الله ويظهر لنا هذا واضحاً في شكرهم لله.

---

(١) مدارج السالكين لابن قيّم الجوزية: ج٢ ص٤٦٩-٤٧١.

(٢) سورة فاطر : ٢٨.

ألا فليوطّن العلماء أنفسهم على خشية الله حتى يكونوا أهلاً لهذه المنزلة العظيمة.

وللشهيد سيد قطب -رحمه الله- كلام حول هذه الفائدة فيقول: "... ولايذكر هنا نوع العلم وموضوعه؛ لأنّ جنس العلم هو المقصود بالإبراز والإظهار. وللإيحاء بأنّ العلم كلّه هبة من الله، وبأنّ اللائق بكلّ ذي علم أن يعرف مصدره، وأن يتوجّه إلى الله بالحمد عليه، وأن ينفقه فيما يرضي الله الذي أنعم به وأعطاه. فلايكون العلم مبعداً لصاحبه عن الله ولامنسياً له إيّاه وهو بعض منته وعطاياه. والعلم الذي يبعد عن ربّه علم فاسد، زائغ عن مصدره وهدفه، لايثمر سعادة لصاحبه ولاللناس، إنّما يثمر الشقاء والخوف والقلق والدمار، لأنّه انقطع عن مصدره، وانحرف عن وجهته، وضلّ طريقه إلى الله. ولقد انتهت البشريّة اليوم إلى مرحلة جديدة من مراحل العلم، بتحطيم الذرّة واستخدامها. ولكن ماذا جنت البشرية حتى اليوم من مثل هذا العلم الذي لايذكر أصحابه الله، ولايخشونه ولايحمدون له، ولايتوجّهون بعلمهم إليه؟ ماذا جنت غير الضحايا الوحشية في قنبلتي (هيروشيما) و (ناجازاكي) وغير الخوف والقلق الذي يؤرّق جفون الشرق والغرب ويتهدّدها بالتحطّم والدمار والفناء؟" (١).

فالعلم إذا ماوجّه في غايته المطلوبة الإيجابية كان نقمة لانعمة وخراباً لاعماراً وهدماً لابناءً ... ألا فليعتبر العلماء!!

* انّ إيتاء الله العلم لداود وسليمان -عليهما السلام- وهما من رسله إلى الناس، ليعطينا دلالة قويّة على ضرورة العلم لمن يدعو إلى الله عزّ وجلّ، فالعلم بالنسبة للداعية إلى الله كالروح بالنسبة للجسد. فبه يستطيع الداعية أن يدعو إلى الله على بصيرة، إذ الجاهل يضلّ الناس بجهله. وكما هو معلوم أنّ فاقد الشيء لايعطيه.

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج٥ص(٢٦٢٢-٢٦٢٤).

فلابد من كل داعية إلى الله أن يجتهد في تحصيل العلم في جوانبه المتعددة، فلايقتصر على جانب دون آخر؛ بل يحاول الالمام بشتى الجوانب. وهل يكون الداعية إلاّ عالماً!

* ونستفيد من قولهما: (الحمد لله الذي فضّلنا على كثير من عباده المؤمنين) على أنّه ينبغي للعالم وإن كان على قدر عظيم من العلم أن يتواضع، فإنّهما لم يقولا: فضّلنا على الكلّ؛ بل قالوا على كثير من العباد مع أنّهما في ذلك العهد كانا أفضل الناس(١).

* وإنّه لمن أعظم الأمور وأجملها أن يرى الانسان الأب وأبناءه في درجة رفيعة من العلم، فكلّهم علماء.. وهذا ماشاهدناه في داود وابنه سليمان عليهما السلام.

فليسع الأب في توجيه أبنائه إلى طلب العلم وتشجيعهم على ذلك، كما أنّه ينبغي أن لاينسى ذلك الفضل لنفسه؛ وليسع هو في طلب العلم أيضاً. فما أجمل الحياة في رحاب العلم! وقد كان كثير من السلف هذا شأنهم مع أبنائهم... يتوارثون العلم بينهم، وحسبه أنّه أفضل إرث؛ إذ هو إرث الأنبياء.

* مسألة فقهية :

في هذه الآية حجّة على أنّه يجوز للعالم أن يذكر مرتبته في العلم لفوائد شرعيّة ترجع إلى أن يحذّر الناس من الاغترار بمن ليست له أهلية من أهل الدعوى الكاذبة والجعجعة الجالبة(٢).

---

(١) انظر : التفسير الكبير للفخر الرازي: ج٢٤ ص١٨٥.
(٢) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور: ج١٩ ص٢٢٥.

الفصل الثالث

"حكمهما في قضيّة الزرع"

المبحث الأوّل - بيان القصـــة :

إنّ هذه القضيّة التي اشترك فيها الأب داود والابن سليمان -عليهما السلام- يشير الله إليها عزّ وجلّ في كتابه قائلاً: (وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت(١) فيه غنم القوم وكنّا لحكمهم شاهدين. ففهّمناها سليمان وكلاًّ آتينا حكماً وعلماً... الآية) (٢).

فالقرآن قد أشار إليها إشارة دونما تفصيل لها، وقد ذكرت هذه القصّة بتفصيل في كتب التفسير وخلاصتها: إنّ داود جلس للقضاء بين الناس، وكان ابنه سليمان حينئذ يافعاً، فكان يجلس خارج بيت القضاء. فاختصم إلى داود رجلان أحدهما عامل في حرث لجماعة في زرع أو كرم، والآخر راعي غنم لجماعة، فدخلت الغنم الحرث ليلاً فأفسدت مافيه، فقضى داود أن تعطى الغنم لأصحاب الحرث إذ كان ثمن تلك الغنم يساوي ثمن ماتلف من ذلك الحرث، فلمّا حكم بذلك؛ وخرج الخصمان فقصّ أمرهما على سليمان، فقال: لوكنت أنا قاضياً لحكمت بغير هذا. فبلغ ذلك داود فأحضره وقال له: بماذا كنت تقضي؟ قال: إنّي رأيت ماهو أرفق بالجميع. قال: وماهو؟ قال: أن يأخذ أصحاب الغنم الحرث يقوم عليه عاملهم ويصلحه عاماً كاملاً حتى يعود كما كان ويردّه إلى أصحابه، وأن يأخذ أصحاب الحرث الغنم تُسلّم لراعيهم فينتفعوا من ألبانها وأصوافها ونسلها في تلك المدّة، فإذا كمل الحرث وعاد إلى حاله الأول صرف إلى كلّ فريق

---

(١) نفشت : قال ابن السكيت في معناها: النفش أن تنتشر الغنم بالليل ترعى بلا راع. وهذا قول جمهور المفسّرين. (انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ج٢٢ص١٩٥).

(٢) سورة الأنبياء : ٧٨ - ٧٩ .

ماكان له. فقال داود: وقّت يابنيّ. وقضى بينهما بذلك(١).

* ومن خلال هذه القصة وماأشار إليه القرآن يتبيّن لنا مايلي:

- إنّ مقتضى وقوع الحكمين في قضيّة واحدة وفي وقت واحد (إذ يحكمان في الحرث..) يدلّ على أنّ الحكمين لم يكونا عن وحي من الله، وأنّهما إنّما كانا عن علم أوتيه داود وسليمان عليهما السلام، فحكمهما إذاً كان عن اجتهاد كلّ منهما(٢). ويدلّ على هذا أنّه قال سليمان لداود: إنّي رأيت ماهو أرفق بالجميع. فرأيه هذا صريح في أنّه ليس بطريق الوحي وإلّا لبتّ القول بذلك؛ ولما ناشده داود -عليه السلام- لاظهار ماعنده، بل وجب عليه أن يظهره بدءاً وحرّم عليه كتمه، وأيضاً لو كان حكم داود عن طريق الوحي لكان نصّاً ولايجوز أن ينقض النصّ بالاجتهاد(٣).

- إنّ قوله: (ففهّمناها سليمان) يدلّ على أنّ الله ألهمه وجهاً آخر في القضاء هو أرجح؛ وذلك لما تقتضيه صيغة التفهيم، فدلّ على أنّ فهم سليمان في القصّة أعمق. وبالتالي فانّ حكم داود ليس بخطأ؛ لأنّه عليه السلام استند في قضائه إلى غرم الأضرار على المتسبّبين في إهمال الغنم، وأصل الغرم أن يكون تعويضاً ناجزاً فكان ذلك القضاء

---

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور : ج١٧ ص١١٦. وانظر: تفسير ابن جرير الطبري ج١٧ ص٣٨؛ تفسير أبي السعود ج٦ ص٧٩؛ التفسير الكبير للفخر الرازي ج٢٢ص١٩٥.

(٢) وهذا قول جمهور المفسّرين. وهو الأولى (انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي: ج٢٢ص١٩٨؛ تفسير القرطبي ج١١ ص٢٠٩).

(٣) انظر : تفسير أبي السعود ج٦ ص٧٩؛ التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ج١٧ص١١٧.

حقاً. أمّا حكم سليمان وهو الأرجح؛ لأنّه مستند إلى إعطاء الحقّ لذويه مع الرفق بالمحقوقين باستيفاء مالهم إلى حين، كما أنّ فيه شبهاً من الصلح أيضاً(١).

يقول الشهيد سيد قطب: "لقد اتّجه داود في حكمه إلى مجرّد التعويض لصاحب الحرث، وهذا عدل فحسب. ولكن حكم سليمان تضمّن مع العدل البناء والتعمير، وجعل العدل دافعاً إلى البناء والتعمير، وهذا هو العدل الحيّ الايجابي في صورته البانية الدافعة."(٢).

- ثمّ إنّ قوله: (وكلاً آتينا حكماً وعلماً) فيه دفع لما يوهمه تخصيص سليمان بالتّفهم من عدم كون حكم داود حكماً شرعياً صحيحاً. أي وكلّ واحد منهما آتاه الله حكماً وعلماً كثيراً لاسليمان وحده؛ فلا انتقاص لمقام داود عليه السلام(٣).

- ويتّضح لنا ممّا ذكره القرآن، ومن رواية القصّة أنّ الخصمين قد رضيا بحكم سليمان؛ وذلك لكونهما من أهل الانصاف لامن أهل الاعتساف، ولو لم يرضيا لكان المصير إلى حكم داود إذ ليس الارفاق بواجب(٤). والله أعلم.

---

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور : ج١٧ ص(١١٧-١١٨).
(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج٤ص(٢٢٨٩-٢٢٩٠).
(٣) تفسير أبي السعود : ج٦ ص٧٩.
(٤) انظر : التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ج١٧ص١١٧.

المبحث الثاني - العبر والفوائـــد :

* إنّ هذه القصّة لتدلّنا على أنّه ليس هناك مايمنع الولد إن كان يعرف الحكم الأصوب بأن يقوله، ولو مع علمه بأنّ أباه حكم بغيره؛ وذلك لأنّ أمر الدين والوصول الى ماهو أفضل لامجال فيه للخجل أو المجاملة، فالحقّ والكمال هو المطلوب خصوصاً إذا كان الأمر يتعلّق بمصالح الناس.
فهذا سليمان -عليه السلام- لم تمنعه معرفته بحكم أبيه وقد علم هو الحكم الأصوب أن يقدّمه.

* ومن أساليب التربية الصحيحة أنّ الأب إذا علم أنّ ابنه قد رأى رأياً غير رأيه، فانّ ذلك لايمنعه مع كونه أباً من سماع رأي ابنه واستشارته، بل ينبغي عليه أن يسعى لاستشارته ومعرفة رأيه. بل وقد يسرّ الأب لذلك وهذا الأسلوب ليعطي الولد ثقة بنفسه ويهبه استقلالاً لشخصيّته، كما يمنحه القدرة على اتّخاذ القرار وقول الحق دائماً والبعد عن التردّد والعفويّة.
وهذا الأسلوب شاهدناه في موقف داود -عليه السلام- حين عرف أنّ سليمان قد رأى رأياً غير رأيه؛ فانّه سعى لاستشارته..
ويؤيّد ماذكرناه تلك المواقف التي ذكرها التاريخ للأولاد الذين تربّوا على هذا الأسلوب الناجح وتلك المعاني السامية فكانوا في أوج الثقة بأنفسهم والقول بالحقّ والبعد عن التردد. فمن هذه المواقف نذكر موقفين وهما كما يلي:

الأوّل: يروى أنّه دخل على عمر بن عبد العزيز -رضي الله عنه- في أوّل خلافته وفود المهنّئين من كلّ جهة، فتقدّم من وفد الحجازيين للكلام غلام صغير لم تبلغ سنّه إحدى عشرة سنة.
فقال له عمر: ارجع أنت، وليتقدّم من هو أسنّ منك!!
فقال الغلام له: أيّد الله أمير المؤمنين، المرء بأصغريه قلبه ولسانه، فاذا منح الله العبد لساناً لافظاً وقلباً حافظاً؛ فقد استحقّ الكلام، ولو أنّ الأمر ياأمير المؤمنين بالسنّ لكان في الأمّة من هو أحقّ منك بمجلسك هذا!!! فتعجّب عمر من كلامه وأنشد:

والصراحة إلى قلّة أدب مع الآخرين(١)

* وهنا -كذلك- نشهد الأدب في مخاطبة الابن لأبيه؛ إذ هو لم يبيّن له حكمه ورأيه في بداية كلامه، بل إنّه مهّد له بأن ذكر العلّة في اختياره لهذا الحكم. فقال: إنّي رأيت ماهو أرفق بالجميع. وحتى يكون بذلك مبرراً لحكمه وقوله على قول أبيه واستدراكه عليه؛ فانّما هو الرفق وكلاهما بل وجميع الناس قد اتفق على فضيلة الرفق. فكان عليه السلام في غاية الأدب في مخاطبة أبيه. وهكذا يجب أن يكون الأبناء.

* ينبغي على الأب المربّي أن يعطي القدوة لأبنائه في رجوعه إلى الحقّ دائماً بل إلى الأفضل والأولى، ولو كان ذلك على لسان أحدهم، ومع أنّهم أقلّ خبرة منه وسنّاً. ولكن قد يجعل الله الحقّ على لسان أحدهم... فهذا نبي الله داود يأخذ بقول ابنه ويقول له: وفّقت يابنيّ. حين علم أنّ حكمه أصوب، ولاحرج فالغاية الوصول إلى الحقّ والكمال.

* وممّا لاشكّ فيه أنّ هناك حكمة إلهية من إظهار الحكم الأصوب على لسان سليمان، والله قادر على أن يظهره على لسان نبيّه داود دونما الرجوع إلى قضاء ابنه! والله أعلم أنّ الحكمة في هذا أنّ الله أراد أن يظهر علم سليمان وحكمته عند أبيه ليزداد سروره به ويقرّ عينه به(٢). فيكون ذلك ممّا يسعده في حياته ويطمئنه أنّ بعد وفاته سيكون هناك خير وريث له في حكمه وعلمه. وقد شاء الله ذلك.

* تدلّنا هذه القصّة على بعض الأحكام الخاصّة بمسألة الاجتهاد وهي كما يلي:
- يقول الامام القرطبي : "اختلف العلماء في جواز الاجتهاد على الأنبياء،

---

(١) انظر : تربية الأولاد في الاسلام لعبد الله علوان ج١ص٢٠٦.
(٢) انظر : التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ج١٧ ص١١٨.

فمنعه قوم، وجوّزه المحققون. وذلك لأنّه ليس فيه استحالة عقلية لأنّه دليل شرعيّ فلا احالة أن يستدلّ به الأنبياء، كما لو قال الرب سبحانه وتعالى: إذا غلب على ظنّك كذا فاقطع بأنّ ماغلب على ظنّك هو حكمي فبلّغه الأمّة. فهذا غير مستحيل عقلاً. فان قيل: انّما يكون دليلاً إذا عدم النّص وهم لايعدمونه. قلنا: إذا لم ينزل الملك فقد عدم النّص عندهم، وصاروا في البحث كغيرهم من المجتهدين عن معاني النصوص التي عندهم. والفرق بينهم وبين غيرهم من المجتهدين أنّهم معصومون عن الخطأ والغلط، وعن التقصير في اجتهادهم، وغيرهم ليس كذلك. كما ذهب الجمهور في أنّ جميع الأنبياء معصومون عن الخطأ والغلط في اجتهادهم." (١).

- جواز رجوع الحاكم بعد قضائه من اجتهاده إلى اجتهاد آخر أرجح من الأوّل (٢).

- انّ خطأ المجتهد لايقدح في كونه مجتهداً (٣)، فصفة الاجتهاد باقية فيه وان أخطأ مادام قد حوى صفات المجتهد المطلوبة. وذلك مأخوذ من قوله تعالى: (وكلّاً آتينا حكماً وعلماً).

* ويوضّح لنا أبو السعود -رحمه الله- هذه القضيّة من ناحية أصولية فيقول: "رأي سليمان استحسان كما ينبىء عنه قوله: أرفق بالفريقين، ورأي داود -عليه السلام- قياس، كما أنّ العبد إذا جنى على النفس يدفعه المولى عند أبي حنيفة إلى المجني عليه أو يفديه ويبيعه في ذلك أو يفديه عند الشافعي، وقد روي أنّه لم يكن بين قيمة الحرث وقيمة الغنم تفاوت، وأمّا سليمان فقد استحسن(٤) حيث جعل الانتفاع

---

(١) تفسير القرطبي: ج١١ ص٣٠٩ .

(٢) المرجع السابق : ج١١ ص٣١٢ .

(٣) تفسير أبي السعود : ج٦ ص٧٩.

(٤) الاستحسان كما يعرّفه الامام الكرخي: "هو أن يعدل المجتهد عن أن يحكم في المسألة بمثل ماحكم به في نظائرها لوجه أقوى يقتضي العدول عن الأوّل" .
ويقول الامام السرخسي في توضيحه أيضاً: "والاستحسان في الحقيقة قياسان=

بالغنم بإزاء مافات من الانتفاع بالحرث من غير أن يزول ملك المالك عن الغنم، وأوجب على صاحب الغنم أن يعمل في الحرث إلى أن يزول الضرر الذي أتاه من قِبَلِه"(١).

* وأمّا حكم هذه القضية في شرعنا: فانّه يسقط ضمان ماأتلفت الماشية إذا كان ذلك نهاراً، وأمّا ليلاً فلا، فانّ صاحبها يضمن. وهذا هو قول الجمهور، وخالفت الحنفية والظاهرية، وقالوا: إنّ صاحبها لايضمن سواء في الليل أو النهار.

ورأي الجمهور هو الصحيح والراجح.

واستدلّ الجمهور بما روي من أنّ ناقة للبراء بن عازب -رضي الله عنه- دخلت حائط قوم فأفسدته عليهم، فقضى رسول الله- صلى الله عليه وسلم- على أهل الأموال حفظها بالنهار؛ وعلى أهل المواشي حفظها بالليل.(٢).

أمّا الحنفيّة والظاهرية فاحتجّوا بقول النبيّ صلى الله عليه وسلم: "العجماء جرحها جبار... الحديث"(٢).

= أحدهما جليّ ضعيف الأثر يسمّى قياساً، والآخر خفيّ قويّ الأثر فيسمّى استحساناً، أي قياساً مستحسناً، فالترجيح بالأثر لابالخفاء والوضوح".

وانّ قوّة الأثر وضعفه أساسه التيسير ورفع الحرج، فالاستحسان القياسيّ أساسه رفع الحرج، ولذلك يقول السرخسي بعد ذكره تعريفات الاستحسان: "وحاصل هذه العبارات أنّه ترك العسر لليسر، وهو أصل في الدين".

(انظر: محمد أبو زهرة، أصول الفقه (القاهرة: دار الفكر العربي) ص٢٠٧-٢١٠).

(١) تفسير أبي السعود: ج٦ ص٧٩ .

(٢) الحديث رواه أبو داود في سننه: كتاب البيوع والإجارات، باب(٩٢)، حديث(٣٥٦٩)، ج٢ ص(٨٢٨-٨٢٩)؛ ورواه ابن ماجه: كتاب الأحكام، باب(١٣) حكم ماأفسدت المواشي، حديث(٢٣٣٢)؛ ورواه مالك في الموطأ: كتاب الأقضية، باب(٢٨)، حديث (٣٧). وطريق أبي داود روي فيه موصولاً، والحديث صحيح ورجاله ثقات.

(٢) رواه البخاري: كتاب الديات، حديث(٥٠). ج٩ص٢١.

ولكن ردّ على احتجاجهم -هذا- بأنّ هذا الحديث عام ويخصصه حديث الجمهور.

وللامام الخطّابي كلام حول هذه المسألة فيقول: "وهذه سنّة لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- خاصّة في هذا الباب، ويشبه أن يكون إنّما فرق بين الليل والنهار في هذا؛ لأنّ في العرف أنّ أصحاب الحوائط والبساتين يحفظونها بالنهار ويوكلون بها الحفاظ والنواطير، ومن عادة أصحاب المواشي أن يسرحوها بالنهار ويردونها بالليل الى المراح، فمن خالف هذه العادة كان به خارجاً عن رسوم الحفظ إلى حدود التقصير والتضييع. وحديث (العجماء جبار) عامّ وهذا حكم خاصّ، والعامّ ينبىء على الخاصّ ويردّ إليه، فالمصير في هذا إلى حديث البراء. والله أعلم" (١).

ويقول الحافظ ابن حجر: "وأمّا إشارة الطحاوي إلى أنّه منسوخ بحديث الباب فقد تعقّبوه بأنّ النسخ لايثبت بالاحتمال مع الجهل بالتاريخ. (الطحاوي أشار إلى أنّ حديث البراء منسوخ بحديث "العجماء جبار").

وأقوى من ذلك قول الامام الشافعي: "أخذنا بحديث البراء لثبوته ومعرفة رجاله، ولايخالفه حديث (العجماء جبار) لأنّه من العامّ المراد به الخاصّ" (٢).

* ومن البلاغة القرآنية مايلي :

- في قوله تعالى: (وكنّا لحكمهم شاهدين) يقول أبو السعود فيما معناه: إنّ هذه الجملة اعتراضية، والهدف منها تقرير للحكم وزيادة الاعتناء بشأنه(٣).

وبهذه الفائدة البلاغية ينتهي كلامنا حول هذا الفصل. والحمد لله.

---

(١) أبو سليمان الخطّابي، معالم السنن، ٨ج (بيروت-لبنان: دار المعرفة، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م) ج٢ ص٨٢٨.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني: ج١٢ص٢٥٨.

(٣) انظر : تفسير أبي السعود ج٦ ص٧٩.

الفصل الرابع

"وراثة سليمان لداود"

المبحث الأوّل - بيان الآيـة :

يذكر لنا تعالى هذه الوراثة في قوله: (وورث سليمان داود وقال ياأيّها الناس علّمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إنّ هذا لهو الفضل المبين) (١).

والوراثة المقصودة هنا: هي وراثة الملك والعلم والنبوّة (٢)، وليست وراثة المال، إذ لوكانت كذلك لما خصّ به سليمان وحده دون سائر أولاده، وقد روي أنّ له تسعة عشر ولداً وقيل: أحد عشر ولداً. كما أنّه يمنع هذا أنّ الأنبياء لاتورث أموالهم وماتركوه فهو صدقة وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "نحن لانورث وما تركناه فهو صدقة" (٣).

فالوراثة -إذاً- هنا مجازية على حدّ قوله صلى الله عليه وسلم: "...وإنّ العلماء ورثة الأنبياء وإنّ الأنبياء لم يورّثوا ديناراً ولادرهماً، إنّما ورّثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظّ وافر" (٤).

فهو بمعنى: أنّه قد صار إليه ذلك بعد موت أبيه فسمّي ميراثاً تجوّزاً.

ولعلّ الحكمة في عدم إرث المال من الأنبياء هي سدّ ذريعة خطور تمنّي موت

---

(١) سورة النمل : ١٦ .

(٢) انظر : تفسير ابن جرير الطبري ج١٩ ص٨٧؛ تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٣ ص٢٥٨.

(٣) رواه البخاري: كتاب الخمس، حديث(٢)؛ ورواه مسلم: كتاب الجهاد، الأحاديث(٤٨-٥٢).

(٤) رواه أبو داود: كتاب العلم، حديث(١) ج٤ ص(٥٧-٥٨)؛ رواه ابن ماجه: المقدمة، باب(١٧)، حديث(٢٢٢)؛ ورواه الترمذي، كتاب العلم، باب=

النبي في نفس بعض ورثته(١). والله أعلم.

* ثمّ يحكي الله لنا في هذه الآية الكريمة -بعد أن بيّن وراثة سليمان لأبيه- قول سليمان: (وقال ياأيها الناس علّمنا منطق الطير وأوتينا من كلّ شيء إنّ هذا لهو الفضل المبين) ...يقول ذلك -عليه السلام- تشهيراً لنعمة الله عليهما والتنويه بها، ودعاء الناس إلى التصديق بذكر المعجزة التي هي علم منطق الطير(٢).

وقيل: إنّه يقصد في قوله هذا نفسه فقط دون أبيه، وإنّما جاء بقوله: (علّمنا- أوتينا) بصيغة الجمع للمتكلّم؛ إمّا لقصد التواضع فكأنّ جماعة علموا وأوتوا وليس هو وحده، وإمّا لأنّه المناسب لإظهار عظمة الملك، وفيه تهويل لأمر السلطان عند الرعية، وقد يكون ذلك من مقتضى السياسة في بعض الأحوال. وقيل: بأنّ المراد بقوله هو وأبيه داود(٣).

والرأي الذي أميل إليه أنّه يقصد بذلك نفسه وأباه لوجوه:

أوّلها: إنّ الله حكى عن داود قوله: (ياجبال أوّبي معه والطير) "سبأ: ١٠".

ثانيها: قوله كذلك عن داود: (والطير محشورة كلّ له أوّاب) "ص: ١٩".

وآخرها: ماذكرناه من وراثة سليمان لعلم داود، وهذا يدخل فيه بطبيعة الحال(٤).

ولاشك أنّ هذا -أيضاً- من باب الاعتراف منه لمنزلة أبيه داود. والله أعلم.

* ويقول ابن كثير في قوله تعالى: (علّمنا منطق الطير) : "كان يعرف لغة

=فضل الفقه على العبادة(١٩)، حديث(٢٦٨٢).

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور: ج١٩ ص٢٢٦.

(٢) انظر : التفسير الكبير للفخر الرازي ج٢٤ ص١٨٥.

(٣) انظر : تفسير البيضاوي ج٤ ص١١٤؛ التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ج١٩ص٢٢٨.

(٤) انظر : قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار ص٢١٠.

الطير والحيوان أيضاً، وهذا شيء لم يعطه أحد من البشر فيما علمناه ممّا أخبر الله به ورسوله، ومن زعم من الجهلة والرّعاع أنّ الحيوانات كانت تنطق كنطق بني آدم قبل سليمان بن داود كما قد يتفوه به كثير من الناس فهو قول بلا علم، ولو كان الأمر كذلك لم يكن لتخصيص سليمان بذلك فائدة؛ إذ كلّهم يسمع كلام الطيور والبهائم ويعرف ماتقول، وليس الأمر كما زعموا ولا كما قالوا، بل لم تزل البهائم والطيور وسائر المخلوقات من وقت خلقت إلى زماننا هذا على هذا الشكل والمنوال، ولكنّ الله سبحانه كان قد أفهم سليمان مايخاطب به الطيور في الهواء وماتنطق به الحيوانات على اختلاف أصنافها ولهذا قال تعالى: (علّمنا منطق الطير وأوتينا من كلّ شيء) "(١).

فاذاً نعلم من كلام ابن كثير أنّه لم يقتصر العلم على منطق الطير فقط بل على معرفة منطق كلّ الأصناف.

ويدلّ على هذا كلام للطاهر بن عاشور فيقول: "في قوله: (علّمنا منطق الطير) ايجاز لأنّه إذا علّم منطق الطير وهي أبعد الحيوان عن الركون إلى الانسان وأسرعها نفوراً منه، علم أنّ منطق ماهو أكثر اختلاطاً بالانسان حاصل له بالأحرى كما يدلّ عليه قوله تعالى (فتبسّم ضاحكاً من قولها) "النمل:١٩" فتدلّ هذه الآية على أنّه علم منطق كل صنف من أصناف الحيوان" (٢).

ويبيّن لنا القرطبي عن سبب ذكر الطير هنا دون غيره مع علمه بلغة الجميع فيقول: "وإنّما ذكر الطير لأنّه كان جنداً من جند سليمان يحتاجه في التظليل عن الشمس وفي البعث من الأمور فخصّ بالذكر لكثرة مداخلته، ولأنّ أمر سائر الحيوان نادر وغير متردّد ترداد الطير" (٣).

* ثمّ يتمّ كلامه بزيادة الاعتراف بفضل الله عليهما بأنّ الله منّ عليهما بأن

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ج٣ ص٢٥٨.
(٢) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور: ج١٩ ص٢٢٧.
(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ج١٣ ص١٦٧.

اعطاهما من كلّ شيء من الخيرات. وهذا إنّما هو من فضل الله البيّن عليهما وليس هما أصحاب الفضل فيه(١) : (وأوتينا من كل شيء إنّ هذا لهو الفضل المبين).

---

(١) انظر : تفسير ابن جرير الطبري ج١٩ ص٨٧.

المبحث الثاني - العبر والفوائـد :

* إنّ أعظم الارث هو إرث الأنبياء؛ لأنّه العلم، فالعلماء ورثة الأنبياء. ولذلك كانت منزلة العلماء رفيعة عالية. والأحاديث -كما هو معلوم- في فضل العلم والعلماء كثيرة ومشهورة تدفع المؤمن إلى أن يقضي حياته كلها في طلب العلم ويمتثل قول الله تعالى: (وقل ربّ زدني علماً) "طه:١١٤".

وقد ذكرنا في الفصل الثاني من هذا الباب كلاماً لابن القيّم حول هذا الفضل العظيم وحسبنا ماذكرناه.

* إنّه لامانع من ذكر الانسان لنعم الله عليه لا للافتخار على الناس، وإنّما لبيان عظم المنعم سبحانه والتحديث بها، والاعتراف بفضل المنعم عزّ وجلّ وأنّ ماهو فيه إنّما هو راجع إلى فضل الله عليه. وليدلّ الناس على تصديقه، كما هو الحال في شان سليمان -هنا- في قوله: (ياأيها الناس علّمنا منطق الطير.. الآية).

* وقد يذهب بعض المفسّرين إلى تفسير ماقصّه القرآن عن سليمان بأنّه نوع من إدراك لغات الطيور على طريقة المحاولات العلميّة، وهذ -ولاشك- إخراج له عن حقيقة الاعجاز الالهي التي جعلها الله لسليمان وخصّه به.

يقول الشهيد سيد قطب: "وللطيور والحيوان والحشرات وسائل للتفاهم هي لغاتها ومنطقها فيما بينها. والله سبحانه هو خالق هذه العوالم. يقول تعالى: (وما من دابّة في الأرض ولاطائر يطير بجناحيه إلاّ أمم أمثالكم) "الأنعام:٣٨" ولاتكون أمماً حتى تكون لها روابط معيّنة تحيا بها، ووسائل معيّنة للتفاهم فيما بينها، وذلك ملحوظ في حياة أنواع كثيرة من الطيور والحيوانات والحشرات. ويجتهد علماء هذه الأنواع في إدراك شيء من لغاتها ووسائل التفاهم بينها عن طريق الحدس والظنّ لاعن الجزم واليقين. فأمّا ماوهبه الله لسليمان كان شأناً خاصّاً به على طريق الخارقة التي تخالف مألوف البشر لاعن طريق المحاولة منه، والاجتهاد لتفهم وسائل الطير وغيره في التفاهم على طريق الحدس والظنّ كما هو حال العلماء اليوم..

أحبّ أن يتأكّد هذا المعنى ويتضح لأن بعض المفسّرين ممّن تبهرهم انتصارات

العلم الحديث يحاولون تفسير ماقصّه القرآن عن سليمان في هذا الشأن بأنّه نوع من ادراك لغات الطير والحيوان والحشرات على طريقة المحاولات العلمية الحديثة. وهذا إخراج للخارقة عن طبيعتها. وأثر من آثار الهزيمة والانبهار بالعلم البشري القليل! وإنّه لأيسر وأهون شيء على الله أن يعلم عبداً من عباده لغات الطير والحيوان والحشرات هبة لدنّية منه، بلا محاولة ولا اجتهاد. وإن هي إلا إزاحة لحواجز النوع التي أقامها الله بين الأنواع، وهو خالق هذه الأنواع"(١).

* ومن البلاغة القرآنيـة مايلي :

- في قوله تعالى (.. إنّ هذا لهو الفضل المبين) نقول :
أكّدت هذه الجملة بإنّ واللام، وجيء بضمير الفصل (هو)؛ وذلك لتعظيم النعمة أداء للشكر عليها بالمستطاع من العبارة(٢).

ونصل بالانتهاء من هذا الفصل إلى نهاية بحثنا في هذا الباب (داود وسليمان عليهما السلام). والحمد لله رب العالمين .

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج٥ ص٢٦٢٤.
(٢) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور: ج١٩ ص٢٢٨.

الباب السابع

"لقمان الحكيم مع ابنه"

وفيه تمهيد، وفصلان :

الفصل الأوّل : بيان المواعظ .

الفصل الثاني : العبر والفوائد .

"تمهيـــد"

في هذا الباب سنتحدّث عن موقف عظيم من مواقف الآباء مع أبنائهم.. موقف الوعظ والإرشاد.. موقف لقمان الحكيم مع ابنه.

وفي هذا التمهيد نريد أن نبيّن حقيقة شخصية لقمان الأب من حيث:

اسمه -عصره وموطنه- عمله ومهنته -هل هو نبيّ أم لا؟- حكمته.

أولاً - اسمه:

اختلف في اسمه المؤرّخون والمفسّرون. فمنهم من ذكر أنّه: لقمان بن عنقاء بن سدون. في قول حكاه السهيلي(١).

وقيل: هو لقمان بن باعوراء بن ناحور بن تارَح، وتارح هو آزر أبوإبراهيم عليه السلام. كذا نسبه ابن اسحاق(٢).

ومن هذا الاسم سبق إلى أوهام بعض المؤلفين أنّه المسمّى في كتب اليهود (بلعام بن باعوراء) المذكور خبره في الاصحاحين (٢٢-٢٢) من سفر العدد؛ فذلك وهم لأنّ بلعاماً ذلك رجل من أهل مدين كان نبياً في زمن موسى عليه السلام، ولعلّ التوهم جاء من اتحاد اسم الأب، أو من ظنّ أنّ بلعاماً يرادف معنى لقمان؛ لأنّ بلعام من البلع ولقمان من اللقم، فيكون العرب سمّوه بما يرادف اسمه في العبرانيّة(٣).

وقيل -أيضاً- في اسمه أنّه: لقمان بن ثاران. حكاه السهيلي عن ابن جرير والقتيبي(٤).

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ج٣ص٤٤٤؛ البداية والنهاية لابن كثير: ج٢ص١١٢.

(٢) تفسير القرطبي: ج١٤ ص٥٩ .

(٣) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور: ج٢١ ص١٤٩.

(٤) البداية والنهاية لابن كثير: ج٢ ص١١٢ .

أقول: وليس الاختلاف في اسمه أمراً يجب الوقوف عنده، ولاأهمية لرجحان أحدها على الآخر. وأنه لم يذكر أي الأسماء أرجح، إلا أن ابن كثير في تفسيره وتاريخه (البداية والنهاية) كأنه يشير إلى ترجيح القول الأول: حيث أنه قال: وهو لقمان بن عنقاء بن سدون..، ثم قال: ويقال: لقمان بن ثاران...

ويدلّ كلام الامام القرطبي في تفسيره (الجامع لأحكام القرآن) على ترجيح أنه: لقمان بن باعوراء بن ناحور بن تارح.. والله أعلم بالصحيح من ذلك.

ولكن أشار صاحب التحرير والتنوير إلى أنه ليس هو لقمان بن عاد الذي قال فيه المثل المشهور: (إحدى حُظيات لقمان)؛ فإنه يعرف ذلك بلقمان صاحب النسور، وهو الذي له ابن اسمه: لقيم(١).

ثانياً - عصره وموطنه :

ذكر اهل التفسير والتاريخ أنه كان في زمن داود عليه السلام.

وبعضهم يقول: إنه كان ابن أخت أيوب عليه السلام، أو ابن خالته.

فيتعيّن لنا بهذين القولين أنه عاش في بلاد بني إسرائيل.

كما أنه قد أشارت كثير من الروايات التي يعضد بعضها بعضاً وإن كانت، أسانيدها ضعيفة إلى أن لقمان كان من السود، فقيل: إنه من بلاد النوبة، وقيل من الحبشة(٢).

ثالثاً - عمله ومهنته :

يقال إنه كان قاضياً في زمن داود عليه السلام، وقيل: كان راعياً للغنم، وقيل: كان نجاراً. وقيل: خياطاً(٢).

---

(١) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ج٢١ص١٤٩.

(٢) انظر: البداية والنهاية لابن كثير ج٢ص١١٤؛ تفسير القرطبي ج١٤ص٥٩؛ التحرير والتنوير ج٢١ ص(١٤٨-١٤٩).

(٢) انظر: البداية والنهاية لابن كثير ج٢ص١١٤؛ تفسير القرطبي =

أقول: ويحتمل أنّه مع قضائه بين الناس كان يقوم بإحدىهذه المهن وهذا لايمنع. والله أعلم.

رابعاً - هل هو نبيّ أم لا ؟

اختلف في ذلك، فالجمهور على أنّه كان رجلاً صالحاً حكيماً. واعتمد -هذا- الامام مالك بن أنس؛ إذ ذكره في جامع الموطأ مرّتين بوصف لقمان الحكيم، وذلك يقتضي شهرة هذا الأمر بين علماء المدينة. وهذا قول ابن عباس وغيره.

كما أنّه يظهر لنا من خلال الآيات القرآنية المذكورة في قصّته أنّه لم يكن نبياً؛ لأنّه لم يمتنّ عليه بوحي ولابكلام الملائكة، والاقتصار على أنّه أوتي الحكمة يومىء إلى أنّه ألهمها ونطق بها، وأيضاً فإنّه لما ذكر تعليمه لابنه قال تعالى: (وهو يعظه) وذلك مؤذن بأنّه تعليم لاتبليغ تشريع.

وممّن ذهب الى أنّه نبيّ -إذا صحّ النقل عنهم- عكرمة والشعبي.

واحتجّوا بأنّ لفظ (الحكمة) يسمح بهذا؛ لأنّ الحكمة أطلقت على النبوة في كثير من القرآن كقوله في داود: (وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب) "ص:٢٠" وقد فسّرت الحكمة هنا بالنبوة.

وقوله: (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً) "البقرة:٢٦٩" وهنا أيضاً، والحكمة هي معرفة حقائق الأشياء على ماهي عليه وأعلاها النبوة لأنّها علم بالحقائق مأمون من أن يكون مخالفاً لما هي عليه في نفس الأمر، إذ النبوة متلقاة من الله الذي لايعزب عن علمه شيء(١).

أقول: ولكن أقوالهم هذه مرجوحة ومحتملة، فالحكمة فيما ذكروه قد فسّرت بالنبوة وبغيرها، ثم إنّ ذكر الحكمة لشخص لايعني أنّه بلغ أعلاها وهي النبوة..

فرأي الجمهور هو الراجح والصواب، لما عليه قول ابن عباس رضي الله عنهما، ولما يشير إليه ظاهر هذه الآيات، ولما اشتهر عند علماء المدينة -أيضاً-؛ إذ

= ج١٤ص٥٩؛ التحرير والتنوير ج٢١ ص١٥٠.

(١) انظر: تفسير القرطبي ج١٤ص٥٩؛ التحرير والتنوير ج٢١ ص(١٤٩-١٥٠).

هو دليل على أنّه أصبح أمراً معروفاً . والله أعلم.

خامساً - حكمتـــه :

اشتهر لقمان بحكمته، ونقلت أقوال مأثورة عنه في عدد من الكتب، وقد اعتنى بها أهل التربية وغيرهم.

ولقد حكى لنا القرآن بعضها ممّا ذكر لنا في السورة المسمّاة باسمه.

وذكر لنا الامام مالك منها بلاغين في كتاب الجامع، وكذلك الامام أحمد في مسنده، وفي جامع العتبية.

وجمع له صاحب التحرير والتنوير من هذه الكتب في كتابه ثمانياً وثلاثلين حكمة(١).

وفي تفسير القرطبي روي عن وهب بن منبّه قال: قرأت من حكمة لقمان أرجح من عشرة آلاف باب(٢).

فهذا الكلام وإن صحّ فهو مبالغة عن الكثرة.

وممّا يدل على عظيم حكمته أنّ الله شهد له بها فقال: (ولقد آتينا لقمان الحكمة... الآية) "لقمان: ١٢".

وبعد هذه المعرفة بشخصية لقمان والتي أحسبها كافية -إن شاء الله- يحسن بنا الدخول إلى مواعظه وحكمه التي وجّهها لابنه والتي حكاها لنا القرآن الكريم. والله المستعان.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ج٢١ص١٥٠.

(٢) تفسير القرطبي: ج١٤ ص٦١.

الفصل الأول

"بيان المواعظ"

يذكر الله عزّ وجلّ مواعظ لقمان لابنه في الآيات التالية :

(وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يابنيّ لاتشرك بالله إنّ الشرك لظلم عظيم. ووصّينا الانسان بوالديه حملته أمّه وهناً على وهنٍ وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إليّ المصير. وإن جاهداك على أن تشرك بي ماليس لك به علم فلاتطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً واتّبع سبيل من أناب إليّ ثمّ إليّ مرجعكم فأنبّئكم بما كنتم تعملون. يابنيّ إنّها إن تك مثقال حبّة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات، أو في الأرض يأت بها الله إنّ الله لطيف خبير. يابنيّ أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ماأصابك إنّ ذلك من عزم الأمور. ولاتصعّر خدّك للناس ولاتمش في الأرض مرحاً إنّ الله لايحب كلّ مختال فخور. واقصد في مشيك واغضض من صوتك إنّ أنكر الأصوات لصوت الحمير.) (١)

وسنبيّن هذه المواعظ كلّ واحدة على حدة كما يلي:

١- الموعظة الأولى :

بدأ لقمان موعظته لابنه(٢) بأهمّ الأمور وهو أمر العقيدة والتوحيد، فنهاه عن الشرك بالله: (وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يابنيّ لاتشرك بالله إنّ الشرك لظلم عظيم) وأمّا فائدة ذكر الحال بقوله: (وهو يعظه) إشـارة إلى أنّ قوله هـذا كان

---

(١) سورة لقمان:١٢-١٩.

(٢) قال السهيلي: أسم ابنه ثاران في قول الطبري والقتبي؛ وقال الكلبي: مشكم، وقيل: أنعم. حكاه النقّاش (تفسير القرطبي: ج١٤ص٦٢).

تتلبّس ابنه بالشرك. وقد قال جمهور المفسّرين: إنّ ابن لقمان كان مشركاً فلم يزل لقمان يعظه حتى آمن بالله وحده. ويؤكّد ذلك أنّ الوعظ هو زجر مقترن بالتخويف، كقوله تعالى: (.. فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً) "النساء:٦٣" كما أنّه يعرف المزجور عنه بمتعلّق فعل الموعظة وهو الشرك بالله. فهو إذاً يعظ ابناً له قد أشرك بالله، ولعلّه يدين بدين قومه من السودان(١).

وبدأ موعظته بأسلوب لطيف -كأسلوب نوح عليه السلام مع ولده- بكلمة: (يابنيّ) مصغّرة لتنزيل المخاطب الكبير منزلة الصغير كناية عن الشفقة به والتحبّب له والاهتمام وإخلاص النصح وابتغاء الخير له؛ مما يدفعه إلى الامتثال بما يعظه به(٢).

وهو ينهاه عن الشرك بالله أولاً؛ ليخلّيه عن أصل الضلال والفساد حتى يتقبّل من بعد ذلك أصول الخير والصلاح.

وسمّى الشرك ظلماً؛ لأنّ فيه تسوية بين من يستحقّ العبادة وبين من لايستحقّها، وبذلك توضع العبادة في غير موضعها وهذا عين الظلم(٣).

وقد بيّن الله في موضع آخر من كتابه إنّ الشرك لظلم، ففي سورة الأنعام يقول تعالى: (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) "الأنعام:٨٢" وعند نزولها شقّ ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا: "أيّنا لم يظلم نفسه؟! فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "ليس كما تقولون، لم يلبسوا إيمانهم بظلم بشرك، أو لم تسمعوا إلى قول لقمان لابنه: (يابنيّ لاتشرك بالله إنّ الشرك لظلم عظيم)."(٤).

كما أنّه من الظلم في الشرك بالله -إضافة إلى الظلم لحقوق الخالق سبحانه-

---

(١) انظر: تفسير البيضاوي ج٤ ص١٥١؛ التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ج٢١ص١٥٤.

(٢) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ج٢١ ص١٥٥.

(٣) انظر: تفسير الخازن ج٦ ص٢١٦.

(٤) رواه البخاري: كتاب الأنبياء، حديث(١٦٢). ج٤ص٢٨١.

ظلم المرء لنفسه، إذ أنّه يضع نفسه في حضيض العبوديّة لأخسّ الجمادات، وكذلك فيه ظلم لأهل الايمان الحقّ؛ إذ أنّه يبعث على اضطهادهم وأذاهم لايمانهم بالله وحده دون شريك (١) .

"تعليق مهمّ" :

ويأتي بعد هذه الموعظة تعليق مهمّ من الله عزّ وجلّ وهو قوله:

(ووصّينا الانسان بوالديه حملته أمّه وهناً على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إليّ المصير. وان جاهداك على أن تشرك بي ماليس لك به علم فلاتطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً واتّبع سبيل من أناب إليّ ثمّ إليّ مرجعكم فأنبّئكم بما كنتم تعملون) .

فذكر الله هذه الوصية تعليقاً لتأكيد مافي موعظة لقمان من النهي عن الشرك بالله، وذلك بتعميم النهي في الأشخاص والأحوال لئلّا يتوهّم متوهّم أنّ النهي خاصّ بابن لقمان أو ببعض الأحوال، فقرّر الله في هذه الوصية أنّ ذلك يشمل كلّ إنسان ولاهوادة فيه ولو في أحرج الأحوال وهي حال مجاهدة الوالدين أولادهم على الاشراك.

وهناك -أيضاً- مناسبة لهذا الكلام في هذا الموضع، وهو أنّه لمّا حكى موعظة لقمان لابنه بما هو شكر لله بتنزيهه عن الشرك في الالهية بيّن أنّه تعالى أسبق منّة على عباده، إذ أوصى الأبناء ببرّ الآباء، فدخل في العموم المنّة على لقمان جزاء على رعيه لحقّ الله في ابتداء موعظة ابنه، فالله أسبق بالاحسان الى الذين أحسنوا برعي حقّه. ويقوّي هذه المناسبة اقتران شكر الوالدين في الأمر(٢) .

---

(١) انظر: التحرير والتنوير ج٢١ ص١٥٥.

(٢) انظر: المرجع السابق ج٢١ ص١٥٦.

٢- الموعظة الثانية :

وفي هذه الموعظة يحثّ لقمان ابنه على مراقبة الله، وعلى العمل بطاعته مهما أمكن؛ وإن صغرت الطاعة. كما أنّه يحذّره من عمل السيئات وإن صغرت وخفت، فإنّ الله لايغيب عنه شيء.

(يابنيّ إنّها إن تك مثقال(١) حبّة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله إنّ الله لطيف خبير).

ويكرّر نداءه بقوله: (يابنيّ) ليجدّد نشاط سماع ابنه لموعظته الثانية فيتنبه ويهتمّ بما يقوله له.

فهو يقول له: إنّ الحسنة والسيئة إن كانت في الصغر مثل حبّة الخردل، وتكون مع ذلك الصغر في موضع حريز كالصخرة فإنّها لاتخفى على الله.

فقوله: (إنّها إن تك مثقال حبّة من خردل) إشارة إلى الصغر، وقوله: (فتكن في صخرة) إشارة إلى الحجاب والخفاء، وقوله: (أو في السماوات) إشارة إلى البعد، فإنّها أبعد الأبعاد، وقوله: (أو في الأرض) إشارة إلى الظلمات؛ فإنّ جوف الأرض أظلم الأماكن، وقوله: (يأت بها الله) أبلغ من قول القائل: (يعلمها الله)؛ لأنّ من يظهر له الشيء ولايقدر على إظهاره لغيره يكون حاله في العلم دون حال من يظهر له الشيء ويظهره لغيره.

وقوله تعالى: (يأت بها الله) أي يحضر هذه الأعمال -وإن خفيت ودقّت- يوم القيامة حين يضع الموازين القسط ويجازي عليها إن خيراً فخير؛ وإن شراً فشر. كما قال تعالى: (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلاتظلم نفس شيئاً) "الأنبياء:٤٨"،

---

(١) قرأ نافع: (مثقالُ) بالرفع، وقرأ الباقون بالنصب: (مثقال). فعلى الرفع جعل (كان) بمعنى حدث ووقع. أي إن وقع مثقال حبّة. وبالنصب: فاسم كان ينبغي أن يكون المظلمة أو الحسنة. والمعنى: إن تك المظلمة أو الحسنة مثقال حبّة من خردل. (حجة القراءات لابن زنجلة: ص٥٦٥).

وكقوله تعالى: (فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره. ومن يعمل مثقال ذرّة شراً يره) "الزلزلة: ٧-٨".

ثمّ يختم هذه الموعظة بأنسب ختام: (إنّ الله لطيف خبير) أي: إنّ الله لطيف العلم لاتخفى عليه الأشياء وإن دقّت ولطفت وتضاءلت.. لطيف في استخراجها من مكانها الخافي، لأنّ علمه محيط وقدرته نافذة في كلّ شيء، وخبير بمستقرّها: عالم ببواطن الأمور ودقائقها(١).

٢- الموعظة الثالثة :

ثمّ ينتقل لقمان في موعظته لابنه من بيان أصول الاعتقاد إلى مقتضياته وهي الأعمال الصالحة، فأمره أولاً بأمّها وعمادها وهي الصلاة التي يتوجّه بها إلى الله فتخلص نفسه من كل شائبة معصية، ومن ثمّ تستقيم هذه النفس على طاعة الله: (يابنيّ أقم الصلاة) وإقامة الصلاة ليس أداءها فحسب، بل أداؤها بحدودها وفروضها وخشوعها وفي أوقاتها وبكلّ مايعين على تمام قبولها؛ لتكون ذات أثر عظيم في الخلوص من المعصية والاستقامة على الطاعة ويصدق هذا قوله تعالى: (إنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر..) "العنكبوت: ٤٥"(٢).

ومن بعد ما أمره بالصلاة لتصلح له نفسه؛ يوصيه بأن يكون آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر؛ وذلك حتى يهدي الناس ويصلحهم كما صلح، وليسلم مجتمعه من الغرق في الرذائل؛ وينعم الجميع بالسعادة في الدارين.

ومن عظيم حكمة لقمان أنّه لم يأمر ابنه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فحسب، بل أخبره عن طبيعة هذا الطريق -طريق الدعوة- ليوطّن نفسه على مشاقّه، فأخبره أنّه سيجد من الابتلاء والأذى مايجد في سبيل ذلك، فعليه بالصبر والتحمّل؛ وعدم التخلّي عن هذا الواجب: (وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ماأصابك

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير الطبري ج٢١ ص(٤٦-٤٧)؛ التفسير الكبير للفخر الرازي ج٢٥ ص(١٤٧-١٤٨)؛ تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٣ ص٤٤٦؛ التحرير والتنوير ج٢١ ص(١٦٢-١٦٤)؛ تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي ج٦ ص١٥٨.

(٢) انظر: تفسير ابن جرير الطبري ج٢١ ص٤٧؛ تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٣ص٤٤٦.

إن ذلك من عزم الأمور).

وقيل: إنّ قوله: (إنّ ذلك من عزم الأمور) راجع إلى إقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على ذلك، إذ أنّها من الأمور الواجبة التي أمر الله بها(١).

ولكنّي أميل إلى القول بأنّ هذه الجملة عائدة إلى الصبر، ويدل عليه قوله عزّ وجلّ: (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل.. الآية) "الأحقاف:٣٥" أي أرباب الثبات والحزم، لأنّ الداعية لايثبت على طريقه إلا بالصبر، وبه يحزم أمره على أن لايرجع عن أمر الدعوة. ويدل عليه أيضاً قوله تعالى: (ولمن صبر وغفر إنّ ذلك لمن عزم الأمور) "الشورى:٤٢". والله أعلم.

أمّا عن وجه تخصيص هذه الطاعات من سائر الطاعات: فلأنّها أمّهات العبادات وعماد الخير كلّه، وبها يتمّ غيرها(٢).

ونذكر هنا كلاماً لسيد قطب في ظلاله حول هذه الموعظة إذ يقول: "فأمّا الخطوة التالية فهي التوجّه إلى الله بالصلاة، والتوجّه إلى الناس بالدعوة إلى الله، والصبر على تكاليف الدعوة ومتاعبها التي لابدّ أن تكون.. وهذا هو طريق العقيدة المرسوم.. توحيد لله وشعور برقابته، وتطلّع إلى ماعنده، وثقة في عدله، وخشية من عقابه. ثم انتقال إلى دعوة الناس وإصلاح حالهم، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، والتزوّد قبل ذلك كلّه للمعركة مع الشرّ بالزاد الأصيل.. زاد العبادة لله والتوجّه إليه بالصلاة؛ ثم الصبر على مايصيب الداعية إلى الله من التواء النفوس وعنادها، وانحراف القلوب وإعراضها، ومن الأذى تمتدّ به الألسنة وتمتدّ به الأيدي، ومن الابتلاء في المال والابتلاء في النفس عند الاقتضاء. (إنّ ذلك من عزم الأمور) وعزم الأمور: قطع الطريق على التردد فيما بعد العزم والتصميم"(٣).

---

(١) انظر: تفسير الخازن ج٥ ص٢١٧.

(٢) انظر: فتح القدير للشوكاني ج٤ ص٢٢٩.

(٣) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج٥ ص٢٧٩٠.

٤- الموعظة الرابعة:

وفيها يوضّح لقمان لابنه أدب معاملة الناس بقوله: (ولاتصعّر(١) خدّك للناس ولاتمش في الأرض مرحاً إنّ الله لايحبّ كلّ مختال فخور). فانّه لمّا أمره بأن يكون مطيعاً لله داعياً إليه خشي بعدهما من أمرين: التكبّر على الغير بسبب كونه داعياً ومكمّلاً لهم، والتبختر في النفس بسبب كونه مطيعاً لله(٢).

وموعظته هذه شاملة لجميع الناس من يدعوهم ومن لايدعوهم، ولكنّه احتراز مع تعميم.

والموعظة هذه جاءت على شقّين:

الأوّل- قوله: (ولاتصعّر خدك للناس). أي لاتعرض بوجهك عمّن تكلّمه تكبّراً عليه واستحقاراً له. وأصل الصّعر: داء يأخذ الابل في أعناقها أو رؤوسها حتى تلفت أعناقها عن رؤوسها، فشبّه به الرجل المتكبّر على الناس. ومنه قول عمرو بن حيّ التغلبي:

وكنّا إذا الجبّار صعّر خدّه أقمنا له من ميله فتقوّما(٣).

إذاً فكانّه يعظه بان يقبل على الناس بكلّيته، وان يكون ليّن الجانب متواضعاً لهم.

أمّا الشقّ الثاني فهو قوله: (ولاتمش في الأرض مرحاً). والمشي مرحاً: هو النشـاط والمشـي فرحاً وازدهاءً في غير شغل، وفي غير حاجة، وأهل هذا الخلق

---

(١) قرأ ابن كثير وعاصم وابن عامر: (ولاتصعّر خدّك) بالتشديد، وقرأ الباقون: (ولاتصاعر) (حجّة القراءات لابن زنجلة: ص٥٦٥).

(٢) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ج٢٥ ص١٤٩.

(٣) انظر: تفسير ابن جرير الطبري ج٢١ص(٤٧-٤٨).

ملازمون للفخر والخيلاء(١).

والغاية: أنّه ينهاه أن يمشي بين الناس مختالاً متكبّراً جبّاراً عنيداً. وقد قال تعالى: (ولاتمش في الأرض مرحاً إنّك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً) "الاسراء:٣٧" (٢).

كما أنّه قد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن هذه المشية في قوله: "لاينظر الله إلى من جرّ ثوبه خيلاء" (٣).

ثمّ أتبع نهيه هذا بتحذيره أنّه إن تكبّر واختال وافتخر، فانّ الله سيبغضه وبذلك يكون محلاً لسخط الله: (انّ الله لايحبّ كل مختال فخور). وهذه الجملة التي ختم بها موعظته هي في محلّ التعليل لنهيه عن الاختيال والفخر. والاختيال هو العجب بالنفس، وأمّا الفخر فهو التعالي على الناس بمال أو شرف أو قوّة أو غير ذلك(٤).

ولايخفى أنّه قد ورد العديد من الآيات القرآنية التي تنهى عن التخلّق بهذه الصفات الذميمة ومنها -على سبيل المثال- قوله تعالى: (.. إنّ الله لايحبّ من كان مختالاً فخوراً) "النساء:٣٦" وماذلك إلاّ لخطر انتشار هذه الصفات في المجتمعات.

٥- الموعظة الخامسة والأخيرة:

وبعد أن نهاه عن الخلق الذميم، دلّه على مايقابله من الخلق الجميل الممدوح فقال له: (واقصد في مشيك واغضض من صوتك إنّ أنكر الأصوات لصوت الحمير).

وهذه الموعظة كسابقتها؛ فانّها تحتوي على شقّين:

الأول - قوله : (واقصد في مشيك) أي "تواضع في مشيك إذا مشيت

---

(١) انظر: تفسير القرطبي ج١٤ ص(٧٠-٧١)؛ التحرير والتنوير ج٢١ ص١٦٧.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٣ ص٤٤٦.

(٣) رواه البخاري: كتاب اللباس، باب من جرّ ثوبه خيلاء، حديث(١٠)، ج٧ ص٢٦٠. ورواه مسلم: كتاب اللباس، حديث(٤٦)، ج٤ ص٧٩٢.

(٤) انظر: فتح القدير للشوكاني ج٤ ص٢٢٩.

ولاتستكبر ولاتستعجل ولكن اتئد"(١).

وهو بهذا يريد أن يكون ابنه وسطاً بين الطرفين المذمومين: مشي الخيلاء، ومشي التماوت الذي يرى فيه الانسان ضعفه تزهّداً(٢). والمقصود أن لايسير سير الذليل المستكين ولامشي المختال المعجب بنفسه؛ ولكن قصداً وسطاً بين ذلك.

وأمّا ماروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنّه كان إذا مشى أسرع، وقول عائشة رضي الله عنها في عمر بن الخطاب: كان إذا مشى أسرع، فانّما أرادت السرعة المرتفعة عن دبيب المتماوت. وقد جاء مدح الله لمن يمشون هذه المشية المتواضعة فقال سبحانه: (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً...الآية) "الفرقان:٦٣".

والشقّ الثاني هو قوله: (واغضض من صوتك إنّ أنكر الأصوات لصوت الحمير).

والغضّ: هو نقص قوّة استعمال الشيء(٣).

فالمقصود من نصحه لابنه -هنا- أنّه يريد منه أن ينقص من صوته فلا يتكلّف في رفعه، وأن يأخذ منه مايحتاج إليه؛ إذ أنّ الجهر بأكثر من الحاجة تكلّف يؤذي. والمراد بهذا كلّه التواضع.

وللتنفير من هذه الصفة القبيحة شبّه فاعلها بالحمار في رفعه وعلوّه لصوته: (إنّ أنكر الأصوات لصوت الحمير). ولو أنّ شيئاً يهاب لصوته لكان الحمار!! فجُعلا في المثل سواء(٤).

وبهذه الموعظة يقف السياق القرآني في ذكر مواعظ لقمان لابنه، ولايقتضي ذلك أنها مقصورة عليها، ولكن هناك غيرها، وقد ذكرت الكتب غيرها كما سبق وأشرنا من قبل..

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري: ج٢١ ص٤٨.
(٢) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ج٢٥ ص١٥٠.
(٣) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور :ج٢١ ص١٦٨.
(٤) انظر: تفسير القرطبي ج١٤ ص(٧١-٧٢).

الفصل الثاني

"العبر والفوائد"

تقديم :

* من هذه المواعظ نرى دور الأب المهمّ في إصلاح أبنائه، وأنّ ذلك في الدرجة الأولى من المسؤولية الملقاة على عاتقه. يقول تعالى: (يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لايعصون الله ماأمرهم ويفعلون مايؤمرون) (١) فلايكتفي الأب بكونه صالحاً في نفسه؛ إذ أنّ من تمام صلاحه أن يعطي أبناءه حقّهم من التربية والاصلاح، فذلك واجب عليه لامندوب إليه.

ونذكر هنا كلاماً لسيد قطب -حول هذا الواجب وأهمّيته وخطورة التساهل فيه- إذ يقول: "إنّ المؤمن مكلّف بهداية أهله واصلاح بيته، كما هو مكلّف هداية نفسه واصلاح قلبه. إنّ الاسلام دين أسرة، ومن ثم يقرّر تبعة المؤمن في أسرته، وواجبه في بيته. والبيت المسلم هو نواة الجماعة المسلمة وهو الخليّة التي يتألف منها ومن الخلايا الأخرى في ذلك الجسم الحيّ.. المجتمع الاسلامي.. إنّ البيت الواحد قلعة من قلاع هذه العقيدة، ولابدّ أن تكون هذه القلعة متماسكة من داخلها حصينة في ذاتها، كلّ فرد فيها يقف على ثغرة لاينفذ إليها. وإلاّ تكن كذلك سهُل اقتحام المعسكر من داخل قلاعه، فلايصعب على طارق، ولايستعصي على مهاجم!

وواجب المؤمن أن يتجه بالدعوة أول مايتجه إلى بيته وأهله. واجبه أن يؤمّن هذه القلعة من داخلها. واجبه أن يسدّ الثغرات فيها قبل أن يذهب عنها بدعوته بعيداً.." (٢).

---

(١) سورة التحريم : ٦.

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج٦ ص٣٦١٩.

* ويقول الشيخ محمد محمود حجازي: "وهذا هو الوضع السليم بين الأب وبنيه.. يعظهم ويرشدهم ويجنّبهم المهالك، فإذا تغيّر الوضع وصار الأب مدعاة للشرك ومصدراً للعصيان فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق" (١).

وإنّا لنرى هذا الوضع غير الطبيعي عند بعض الآباء الذين انحرفوا عن جادّة الطريق، إذ نجدهم ممّن ييسّر لأبنائه سبل الفساد والشرّ.. وهذا مثل للآباء عظيم؛ إذ إنّه بدلاً من أن ينقذوهم من النار أصبحوا داعين لهم إليها؛ مع كونهم مدّعين لحبهم وإخلاصهم لهم!!!

* وفي بيان الله لموعظة لقمان لابنه بعد أن بيّن أنّه آتاه الحكمة ورزقه شكره: إشارة إلى أنّ أعلى مراتب الانسان أن يكون كاملاً في نفسه مكمّلاً لغيره (٢).

* ويقول الشيخ عبد الرحمن السعدي حول مواعظ لقمان لابنه: "وهذه الوصايا التي وصّى بها لقمان ابنه تجمع أمّهات الحكم وتستلزم مالم يذكر منها، وكلّ وصيّة يقترن بها مايدعو إلى فعلها إن كانت أمراً، وإلى تركها إن كانت نهياً.." (٣).

وبعد هذا التقديم نستأنف في ذكر العبر والفوائد، وعلى النحو التالي:

١- العبر والفوائد من الموعظة الأولى:

* بدأ لقمان مع ابنه في مواعظه له بأهمّ الأمور، وهو إصلاح عقيدته بالله، فنهاه عن الشرك به ويستتبع هذا النهي الأمر بعبادته وحده. ومع هذا النهي

---

(١) التفسير الواضح لمحمد محمود حجازي: ج٢ ص٢٢٣.
(٢) تفسير الخازن: ج٦ ص٢١٥.
(٣) تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي: ج٦ ص(١٦٠-١٦١).

المستلزم للأمر بيّن له علّة النهي وهي أنّ الشرك ظلم عظيم، وقد بيّنا فيما قبل لم سمّي الشرك ظلماً عظيماً.

وكانت نظرة لقمان أول مانظر، وموعظته أوّل ماوعظ إلى الايمان بالله. وهذا هو المطلوب حقاً.. إذ انّ أمر العقيدة أهمّ الامور، لأنّه الأساس الذي يبنى عليه مايأتي بعده من متطلبات الدين.. فهو أول مسؤولية تجاه الولد في تربيته وإصلاحه.

ولقمان الحكيم لم يعظ ابنه هنا بأمر جديد عليه، بل هو أمر قد فطر عليه فأراد رده إليه (فطرة الله التي فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله) "الروم: ٣٠" فالايمان مفطور في النفس منذ خلق الله الخلق: (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرّيتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا.. الآية) "الأعراف: ١٧٢".

وإنّها لمسؤولية التربية الايمانية العظمى، فانّ الولد إن لم يعنى به عقدياً نشأ مختلّ العقيدة ضعيف الايمان، هذا إن لم ينحلّ وينتقل من الاسلام إلى الكفر بفعل عوامل البيئة الفاسدة والمجتمعات الضالّة.

ولابأس ونحن في صدد هذه المسؤولية أن نستعرض صوراً من الواقع الاجتماعي ونماذج من بيئات الضلال والفساد؛ لتعرف العوامل التي تؤدّي إلى انحراف الولد في عقيدته، وليعلم أنّه إذا تساهل الآباء في هذه المسؤولية فانّ ذلك يؤدّي على الأغلب إلى الزيغ والضلال والانحراف واعتناق مبادىء الكفر والالحاد:

فمثلاً الأب الذي يدفع بولده إلى المدارس الأجنبية، والمعاهد التبشيرية، يرضع من لبانها، ويتلقّى التوجيه والتعليم منها، لاشكّ أنّه سينطبع على الزيغ والضلال، ويتدرّج على الكفر والالحاد، بل سترسّخ في نفسه مشاعر الكره للاسلام وأحقاد العداوة لهذا الدين.

والأب الذي يسمح لولده أن يطالع ماشاء من كتب الملحدين والماديين، ويقرأ ماأراد من مطاعن المبشّرين والمستعمرين، لاشكّ أنّ الولد سيتشكك بحقيقة عقيدته ودينه، وسيهزأ بتاريخه وأمجاده، ويكون حرباً على مبادىء الاسلام..

والأب الذي يرخي لولده العنان، ويتركه ليخالط رفقاء الزيغ والضلال، لاشكّ أنّه سيعتنق مايحمله أصدقاؤه من المبادئ الضالّة والأفكار المستوردة، وبعد ذلك سيسخر بكلّ القيم الدينية.

والأب الذي يترك المجال لولده بأن ينتمي إلى أحزاب إلحادية كافرة، وإلى منظّمات علمانية لادينيّة، وإلى هيئات لاترتبط بالاسلام عقيدة وفكراً وتاريخاً..

لاشك أنّ الولد سيتربى على عقائد ضالّةوينشأ على مبادىء إلحادية كافرة.. بل يكون حرياً على الأديان والقيم والمقدّسات..(١).

إلى غير ذلك من المظاهر الخطيرة التي قد توجد في مجتمعات عالمنا الداخلي والخارجي وتؤدّي إلى إفساد عقائد الابناء.

فالمسؤولية إذاً كبيرة وعظيمة في التنبّه لعقائد الأولاد وإصلاحها إن ظهر فيها شيء ما من نقص أو زيادة.

وهذا -هو بلاشكّ- أفضل مايمنحه الآباء لأبنائهم.

يقول ابن كثير رحمه الله: "لقمان يوصي ولده الذي هو أشفق الناس عليه وأحبّهم إليه فهو حقيق أن يمنحه أفضل مايعرف؛ ولهذا أوصاه أولاً بأن يعبد الله وحده ولايشرك به شيئاً."(٢).

٢- العبر والفوائد من الموعظة الثانية :

* إنّ هذه الموعظة ملحقة بما قبلها في إصلاح عقيدة ابنه وتربيته الايمانية العميقة؛ إذ قد بيّنا من ذي قبل أنّ المقصود منها هو إشعاره بمراقبة الله عزّ وجلّ، وأنّه لايخفى عليه شيء وإن دقّ وخفي، وأنّه مجاز عليه بعدله سبحانه.

وممّا لاشك فيه أنّ من أهمّ عناصر التربية الايمانية، هو أن يعمل الأب على بعث روح المراقبة لله عزّ وجلّ في ابنه في كلّ تصرّفاته وأحواله. وذلك لايتمّ إلاّ بترويضه على أنّ الله سبحانه يرقبه ويراه، ويعلم سرّه ونجواه، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.. وهذا الترويض يكون في ثلاث: ترويضه عليها وهو يعمل، وترويضه عليها وهو يفكّر، وترويضه عليها وهو يحسّ.

---

(١) انظر: تربية الأولاد في الاسلام لعبد الله علوان ج١ ص(١٥٢-١٥٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ج٣ ص٤٤٤.

أمّا ترويضه على مراقبة الله وهو يعمل: فليعلم الاخلاص لله رب العالمين في كلّ أقواله وأعماله وسائر تصرّفاته، وينبغي أن يشعر أنّ الله لايقبل منه أيّ عمل إلاّ إذا قصد من ورائه وجهه وابتغى به مرضاته.

وأمّا ترويضه عليها وهو يفكّر: فليعلّم الأفكار التي تقرّبه من خالقه العظيم.. والتي بها ينفع نفسه، وينفع مجتمعه، وينفع النّاس أجمعين. بل ويجب أن يروّض على أن يكون عقله وقلبه وهواه تبعاً لما جاء به خاتم الأنبياء، وكذلك يروّض نفسه على المحاسبة حتى على الخواطر السيئة والأفكار الشاردة .

وأمّا ترويضه عليها وهو يحسّ: فليعلّم كل إحساس نظيف وليربى على كلّ شعور طاهر.. فلايحسد، ولايحقد، ولاينمّ، ولايتمتّع المتاع الدنس، ولايشتهي الشهوات الباطلة.. وكلما أصابه نزغ من الشيطان أو هاجسة من النفس الأمّارة بالسوء تذكّر أنّ الله معه يسمعه ويراه فاذا هو متذكّر مبصر.

وهذا النمط من التربية والمراقبة قد وجّه إليه النبي صلى الله عليه وسلم في اجابته جبريل عليه السلام عن الاحسان فقال: "أن تخشى الله كأنّك تراه فإنّك إن لم تكن تراه فانّه يراك" (١).

وبهذه الثلاث يحقّق الأب في ابنه ماأراد أن يحقّق لقمان لابنه(٢).

*وكذلك حوت موعظته -هذه- على عنصر مهمّ من عناصر التربية الايمانية العقائدية وهي:

الاشارة إلى قدرة الله المعجزة.

وكأنّه بموعظته هذه يومىء إلى ولده بالتفكّر في إبداع الله لخلق السموات والأرض والتأمّل فيها؛ إذ أنّه يجول بخاطره في السماوات والأرض وما فيها ليتدرّج معه من الأمر المحسوس لديه إلى مايريد منه أن يعقله من المعقول ويدركه، حتى يصل إلى القضيّة الايمانية المطلوبة.. وتلك طريقة حكيمة في التربية والتأثير.

---

(١) رواه مسلم: كتاب الايمان، حديث(٧)، ج١ ص(١٣٩-١٤٠).

(٢) انظر: تربية الأولاد في الاسلام لعبد الله علوان ج١ص(١٥٩-١٦١).

*ومن البلاغة القرآنية في الآية مايلي :

- يقول الشهيد سيد قطب: "ومايبلغ تعبير مجرّد عن دقّة علم الله وشموله، وعن قدرة الله سبحانه، وعن دقّة الحساب وعدالة الميزان مايبلغه هذا التعبير المصوّر.

وهذا فضل طريقة القرآن المعجزة الجميلة الأداء الجميلة الايقاع.. حبّة من خردل.. صغيرة ضائعة لاوزن لها ولاقيمة (فتكن في صخرة) صلبة محشورة فيها لاتظهر ولايتوصّل إليها (أو في السموات).. في ذلك الكيان الهائل الشاسع الذي يبدو فيه النجم الكبير ذو الجرم العظيم نقطة سابحة أو ذرّة تائهة (أو في الأرض) ضائعة في ثراها وحصاها (يأت بها الله) فعلمه يلاحقها وقدرته لاتفلتها (إنّ الله لطيف خبير).. تعقيب يناسب المشهد الخفيّ اللطيف ويظلّ الخيال يلاحق تلك الحبّة من الخردل في مكامنها العميقة الوسيعة، ويتملّى علم الله الذي يتابعها، حتى يخشع القلب ويثيب إلى اللطيف الخبير بخفايا الغيوب. وتستقرّ من وراء ذلك تلك الحقيقة التي يريد القرآن إقرارها في القلب بهذا الأسلوب العجيب" (١).

- التمثيل في قوله تعالى: (يابنيّ إنّها إن تك.. الآية) مثّل ذلك لسعة علم الله وإحاطته بجميع الأشياء صغيرها وكبيرها، جليلها وحقيرها، فإنّه تعالى يعلم أصغر الأشياء في أخفى الأمكنة والأحوال(٢).

- التتميم في قوله: (فتكن في صخرة)، وهذا لون من ألوان البديع، فإنّه تمّم خفاءها في نفسها بخفاء مكانها من الصخرة(٣).

-وقوله: (يأت بها الله) فيه الكناية عن التمكّن منها، وفيه -أيضاً- كناية

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج٥ ص(٢٧٨٩-٢٧٩٠).
(٢) صفوة التفاسير للصابوني: ج٢ ص٤٩٤.
(٣) محاسن التأويل للقاسمي: ج١٢ ص٢٠١.

رمزية عن العلم بها، لأنّ الاتيان بادق الأجسام من أقصى الأمكنة وأعمقها وأصلبها لايكون إلاّ عن علم بكونها في ذلك المكان، ويقتضي ذلك -أيضاً- العلم بوسائل استخراجها منه(١).

٢- العبر والفوائد من الموعظة الثالثة :

* إنّ الايمان لايكفي فيه مجرّد التصديق القلبي ، بل إنّ له مقتضيات وتبعات، وهي الأعمال الصالحة بمجملها واجبة ومندوبة، فردية وجماعية.

ولاشكّ إنّ أصول الأعمال الصالحة هي الصلاة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

فالصلاة هي عماد الدين؛ إذ إقامتها تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولذلك خصّت بالذكر دون غيرها، فكلّ مايأتي بعدها من الصالحات، وكلّ مايُذر من المنكرات إنّما هو أثر لها. فقوله: (أقم الصلاة) إشارة عامّة إلى إصلاح نفسه وتقويمها.

وأمّا تخصيص الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالذكر؛ لأنّ بهما تكون حراسة الدين وبقاءه على صورته الكاملة الشاملة المطلوبة في المجتمع.. فإذاً قوله: (وأمر بالمعروف وانه عن المنكر) إنّما هو توجيه وإرشاد إلى إصلاح المجتمع. إذ أنّه لايكفي أن يكون المؤمن صالحاً في نفسه بل لابدّ أن يكون مصلحاً لمن حوله لوجوب ذلك عليه.

* ونستنتج من موعظة لقمان -هذه- لابنه أنّه يجب على الآباء والمربّين أن يربّوا أبناءهم على أن يهتمّوا بواجبين مهمّين متوازيين: إصلاح أنفسهم، وإصلاح مجتمعهم الذي يعيشون فيه. ويتبع هذا أن يوطّنوهم على تحمّل ماقد ينالهم من الأذى -القولي والفعلي- في سبيل دعوتهم وإصلاحهم للآخرين: (واصبر على ماأصابك إنّ ذلك من عزم الأمور).

---

(١) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ج٢١ ص١٦٢.

* وبمناسبة ذكر واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نقول: لابّد من تعويد الولد منذ نشأته على هذا الواجب العظيم، فيغرس فيه منذ نعومة أظفاره خلق الجرأة والشجاعة وقول الحق بالأسلوب المناسب، حتى إذا بلغ السنّ التي تؤهّله في أن ينصح قام بالنصح خير قيام، وانطلق في مجال الدعوة إلى الله بكلّ فهم ووعي وعزم وثبات لايخشى في الله لومة لائم.

وينبغي أن يعلّم الأبناء الأصول الواجب اتباعها في قيامهم بهذا التكليف الرباني. وأهمّها مايلي :

- أن يكون فعله مطابقاً لما يدعو إليه، حتى يقبل الناس قوله ويستجيبوا له ويتأثروا به.

ويروى في هذا أنّ ولداً سأل أباه: لم أرى الناس يبكون حين تعظهم ولايبكون حين يعظهم آخر غيرك. فقال له: يابنيّ ليست النائحة الثكلى كالنائحة المستأجرة.

ولاشكّ أنّ هناك فرقاً كبيراً بين داعية يتكلّم بلسانه وهو متصنّع الكلام؛ وبين آخر مؤمن مخلص عامل(١).

- تقديم الأهمّ على المهمّ: فمثلاً لاينكر على إنسان حلقه للحيته؛ وهو يعلم أنّه لايصلي ولايصوم ولايزكّي وغير ذلك من الأمثلة.

- ترك التجسّس وتتبع العورات: لأنّ التجسس يفسد الناس وينزع الثقة فيما بينهم وينشر ظنّ السوء، ممّا يجعل الطرف المتجسس عليه إذا علم بذلك حمل في نفسه الحقد والكراهية للمتجسس، وهنا تتقطع الأواصر ويفسد الناس. وهناك أربعة شروط بغيرها يكون التجسس مرفوضاً لمن أراد إنكار المنكر وهي: غلبة الظنّ على اجتماع قوم على معصية، وظهور الأمارات والآثار الدالّة على تلك المعصية، وغلبة الظنّ على تضرّر الآخرين كازهاق روح أو زنا إذا لم تنتهك حرمة، وإخبار العدل الثقة بذلك.

---

(١) تربية الأولاد في الاسلام لعبد الله علوان: ج٢ ص٧١٥.

- التثبّت والتيقّن من وجود الأمر المنكر فيمن يراد الإنكار عليه؛ حتى لايكون الانكار سبباً في ظلم الناس وعدم إنزالهم منازلهم الحقيقيّة.

- أن يكون المنكر الذي ينهى عنه مجمعاً على إنكاره لا أمراً مختلفاً فيه: مثل الانكار في الفروع الفقهية المختلف فيها بين المذاهب، فلا يجوز إنكار حنفيي المذهب على من هو شافعي مثلاً وغير ذلك؛ لأنّ كل واحد من الأئمة قد بذل أقصى جهده ليصل إلى الحكم الصحيح.

- أن يكون متدرجاً في إنكار المنكر: فيبدأ بالتعريف لصاحب المنكر أنّ مايفعله هو منكر، ثمّ النهي بالوعظ والارشاد والنصح والتخويف بالله، ثمّ التعنيف بالقول الغليظ لمن لاينفع معه النصح والارشاد، ثمّ التهديد والتخويف، ثمّ التغيير باليد ككسر آلات اللهو المحرّمة وخزق زقاق الخمر وغير ذلك..، ثمّ تغيير المنكر بجماعة من الناس إذا لم يؤدّ ذلك إلى فتنة.
وهذا جائز للآحاد للضرورة والاقتصار على الحاجة. فلايجوز أن يلجأ إلى الأشدّ إذا كان ينفع الأخفّ.

- أن يكون لطيفاً رفيقاً حسن الخلق في إنكاره بالناس؛ إذ الغلظة تنفّر الناس (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظّاً غليظ القلب لانفضّوا من حولك) "آلعمران: ١٥٩"، ويدخل في هذا اختيار الوقت المناسب، والاسرار بالنصيحة، وترك الاستفزاز، والانكار بوسائل غير مباشرة (رسالة -كتاب- مقال صحفي -شريط تسجيل- فيلم سينمائي -هاتف- ملصق حائطي وغير ذلك).
وبمعرفة الولد هذه الآداب والأصول، وتربيته عليها؛ ينشأ داعية ممتازاً يدعو إلى الله على بصيرة وبحكمة(١).

---

(١) انظر: تربية الأولاد في الاسلام لعبد الله علوان ج١ ص(٤٧٧-٤٩٠)؛ عبد الحميد البلالي، فقه الدعوة في إنكار المنكر، الطبعة الأولى (الكويـــت: =

* ونستفيد من قوله تعالى: (واصبر على ماأصابك): وجوب الصبر على مايتعرّض له الانسان في سبيل الدعوة إلى الله.

ولكن إذا خاف الداعية على نفسه فقد أبيحت له التقية مادام قلبه مطمئناً بالايمان قال تعالى: (من كفر بالله من بعد إيمانه إلاّ من أكره وقلبه مطمئنّ بالايمان ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم) "النحل:١٠٦".

وقصّة عمّار بن ياسر رضي الله عنه مشهورة في سبب نزول هذه الآية ولكن نذكرها للفائدة ولتعلّق مابعدها من الكلام بها. يقول ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في عمّار بن ياسر، وذلك انّ المشركين أخذوه وأباه ياسراً، وأمّه سمية، وصهيباً، وبلالاً، وخبّاباً، وسالماً فعذّبوهم، فأمّا سميّة فانّها ربطت بين بعيرين ووُجيء قبلها بحربة، وقيل لها: إنّك أسلمت من أجل الرجال. فقتلت، وقتل زوجها ياسر، وهما أوّل قتيلين قتلا في الاسلام.

وأمّا عمّار فانّه أعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرهاً، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلّم بأنّ عمّاراً كفر، فقال: كلاّ، انّ عمّاراً مليء إيماناً من قرنه إلى قدمه، واختلط الايمان بلحمه ودمه! فأتى عمّار رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكي، فجعل رسول الله -صلى الله عليه وسلّم- يمسح عينيه ويقول: "إن عادوا فعد لهم بما قلت" فأنزل الله هذه الآية(١).

وقوله صلى الله عليه وسلم: "فان عادوا لك فعد لهم بما قلت" إنّما هو على وجه الاباحة لا على جهة الايجاب ولا على الندب، فالأفضل أن لايعطي التقية ولايظهر الكفر حتى يقتل وإن كان غير ذلك مباحاً له، وذلك لأنّ خبيب بن عدي لمّا أراد أهل مكة أن يقتلوه لم يعطهم التقية حتى قتل فكان عند النبي صلى الله عليه وسلم وعند

= دار الدعوة، ١٤٠٦هـ) ص(٧٩-١٦٧).

(١) أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي، أسباب نزول القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، الطبعة الثانية (جدة -المملكة العربية السعودية: دار القبلة للثقافة الاسلامية، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) ص٢٨٨.

المسلمين أفضل من عمّار في إعطائه التقية، ولأنّ في ترك التقية إعزازاً للدين وغيظاً للمشركين فهو بمنزلة من قاتل العدوّ حتى قتل، فحظّ الإكراه في هذا الموضع إسقاط الإثم عن قائل هذا القول حتى يكون بمنزلة من لم يقل.

كما أنّه ينبغي الإشارة إلى أنّ الحكم يختلف باختلاف نوع المكره عليه، فمن أكره بالقتل وتلف بعض الأعضاء على شرب الخمر أو أكل الميتة لم يسعه أن لايأكل ولايشرب وإن لم يفعل حتى قتل كان آثماً؛ لأنّ الله تعالى قد أباح ذلك في حال الضرورة عند الخوف على النفس فقال: (إلاّ ماضطررتم إليه) "الأنعام:١١٩"، ومن لم يأكل الميتة عند الضرورة حتى مات جوعاً كان آثماً بمنزلة تارك أكل الخبز حتى يموت، وليس ذلك بمنزلة الإكراه على الكفر في أنّ ترك إعطاء التقية فيه أفضل؛ لأنّ أكل الميتة وشرب الخمر تحريمه عن طريق السمع فمتى أباحه السمع فقد زال الحظر وعاد إلى حكم سائر المباحات، أمّا إظهار الكفر محظور من طريق العقل لايجوز استباحته للضرورات وإنّما يجوز له إظهار اللفظ على معنى المعاريض والتورية باللفظ إلى غير معنى الكفر من غير اعتقاد لمعنى ماأكره عليه، فيصير اللفظ بمنزلة لفظ الناسي والمخطىء، فكان ترك إظهاره أولى وأفضل وإن كان موسعاً عليه إظهاره عند الخوف.

وهناك حالة فيمن أكره على قتل رجل أو على الزنا بامرأة فإنّ ذلك لايسعه الاقدام عليه؛ لأنّ ذلك من حقوق الناس وهما متساويان في الحقوق فلا يجوز إحياء نفسه بقتل غيره بغير استحقاق، وكذلك الزنا بامرأة فيه انتهاك حرمتها بمعنى لاتبيحه الضرورة وإلحاقها بالشين والعار..(١) إذاً فأحكام الإكراه مختلفة على مابيّنا. والله أعلم.

*ومن البلاغة القرآنية مايلي :

---

(١) انظر: أحكام القرآن للجصاص ج٢ ص(١٩١-١٩٤،٢٥١)؛ نفس المرجع ج٢ ص٤٨٧.

- المقابلة: إذ أنّه قال: (وأمر بالمعروف) ثمّ قال: (وانه عن المنكر) فقابل بين اللفظين(١).

- ويذكر صاحب ملاك التأويل سؤالاً ويجيب عليه فيقول: "إنّ الله عزّ وجلّ قال هنا: (واصبر على ماأصابك إنّ ذلك من عزم الأمور) وفي سورة الشورى قال: (ولمن صبر وغفر إنّ ذلك لمن عزم الأمور) "الشورى:٤٣" فما هو مقتضى توكيد الخبر في هذه الآية وسقوط التوكيد من الأولى؟ والجواب: إنّ آية الشورى لمّا دخلها معنى القسم وكانت على تقديره؛ إذ (اللام) في قوله: (ولمن صبر وغفر) توطئة له ودالّة على تضمين الآية معناه فناسب ذلك زيادة لام التوكيد في خبر إنّ، وذلك ظاهر في معنى الآية، أمّا في لقمان فهي مجرّد إخبار عن حال ماوقعت الوصيّة به ولامدخل للقسم هنا ولامعنى له."(٢).

٤- العبر والفوائد من الموعظتين الرابعة والخامسة :

* وفي هاتين الموعظتين يرشد لقمان الحكيم ابنه إلى ماينبغي أن يكون عليه حاله مع الناس، فلا يغترّ بأنّه قد رزقه الله الاهتداء والاتباع وهو يدعو إلى ذلك فيتعالى على الناس لمكانته هذه.

يقول سيد قطب: "ويستطرد لقمان في وصيّته التي يحكيها القرآن هنا إلى أدب

---

(١) انظر: صفوة التفاسير للصابوني ج٢ ص٤٩٤. والمقابلة هي أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو أكثر ثم يؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب. (علوم البلاغة للمراغي: ص٣٢٢).

(٢) أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي العاصمي الغرناطي، ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، تحقيق: سعيد الفلاح، الطبعة الأولى، ٢ج (بيروت- لبنان: دار الغرب الاسلامي، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م) ج٢ ص(٩٤٢-٩٤٣).

الداعية إلى الله. فالدعوة إلى الخير لاتجيز التعالي على الناس، والتطاول عليهم باسم قيادتهم إلى الخير. ومن باب أولى أن يكون التعالي والتطاول بغير دعوة إلى الخير أقبح." (١).

* ونستفيد من هنا على أنّ الداعية إلى الله عزّ وجلّ ينبغي أن يكون متمثلاً لصفات عديدة تجعله إنساناً محبوباً مألوفاً عند الناس، فيكون ذلك مدعاة لاستجابتهم للخير الذي جاء به.

وأنّه لابدّ أن يربّي الآباء أبناءهم على التخلّق بهذه الصفات حتى يشبّوا عليها وتصبح من طبيعتهم فيكونوا بذلك أداة خير في الدعوة إلى الاسلام، وحجّة وبرهان صدق على عظم دعوة الله ومنزلتها الرفيعة.

ومن أهمّ هذه الصفات والتي أشارت إليها موعظة لقمان لابنه صفة التواضع للمدعوّين وخفض الجناح لهم ولين الجانب معهم. فإنّه من تواضع لله رفعه الله وجعله في أعين الناس كبيراً. ويشير إلى هذا قول ابن الحاج بمدخله في تشبيه جميل: "من أراد الرفعة فليتواضع لله تعالى، فانّ العزّة لاتقع إلاّ بقدر النزول. ألا ترى أنّ الماء لمّا نزل إلى أصل الشجرة صعد إلى أعلاها، فكأنّ سائلاً سأله: ماصعد بك هنا، أعني في رأس الشجرة وأنت قد نزلت تحت أصلها؟! فكأنّ لسان حاله يقول: من تواضع لله رفعه." (٢).

ومن مظاهر التواضع -بلاشك- أن لايعرض الداعية عن الناس بوجهه، ويحتقرهم بذلك، بل عليه أن يبسط لهم وجهه ويلين جانبه معهم (ولاتصعّر خدّك للناس)..

وبعداً عن صفة الصّعر الذميمة على الداعية أن يرسم على وجهه الابتسامة وأن ينشرح وجهه عند لقاء من يدعو فانّ فيها -أيضاً- حماية أكيدة من سوء الظنون والتعرّض لسهام الوسوسة. وما اكفهرّ وجه وعبس إلاّ ترك في نفس المقابل هيبة من

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج٥ ص٢٧٩٠.

(٢) المدخل لابن الحاجّ: ج٢ ص١٢٢ (فقه الدعوة في إنكار المنكر لعبد الحميد البلالي: ص٥٢).

التصارح والتناصح، وقد قال أحدهم:

أفلا ترى أنّ الطلاقة جُنّة   من سوء ماتجني الظنون ومعقل؟

ثمّ يحرص -أيضاً- على أن يقرن هذه الابتسامة والطلاقة بحياء لتتميّز من ابتسامة الاستصغار، التي قد يزيّنها الشيطان، بل يتخلّق بخلق البهاء زهير حين فخر فقال:

إذا قلت قولاً كنت للقول فاعلاً   وكان حيائي كافلي وضميني
تبشر عني بالوفاء بشاشتي   وينطق نور الصدق فوق جبيني(١)

* ومن هذه الصفات المهمّة التي نستوحيها من قوله: (ولاتصعّر خدّك للناس): صفة حسن الاستماع للآخرين.

وفي رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة لكلّ داعية إلى الله؛ فإنّه عند ما بعثت قريش عتبة بن ربيعة للرسول -صلى الله عليه وسلم- ليعرض عليه بعض الأمور ليكفّ بزعمهم عن أذاهم جاءه وقال له: ياابن أخي إن كنت إنّما تريد به شرفاً سوّدناك علينا حتى لانقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه لاتستطيع ردّه عن نفسك طلبنا لك الطبّ. وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنّه ربّما غلب التابع على الرجل حتى يتداوى منه. حتى إذا فرغ عتبة قال له النبي صلى الله عليه وسلم: "أفرغت ياأبا الوليد؟ قال: نعم. فقال: اسمع منّي. قال: أفعل. فقرأ صلى الله عليه وسلم: (حم. تنزيل من الرحمن الرحيم. كتاب فصّلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون) فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها فلمّا سمع بها عتبة أنصت لها وألقى بيديه خلفه أو خلف ظهره معتمداً

---

(١) انظر: محمد أحمد الراشد، العوائق، الطبعة الثانية(بيروت- لبنان: مؤسسة الرسالة، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م) ص(١١٤-١١٥).

عليها ليسمع منه حتى انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السجدة فسجدها، ثمّ قال: "سمعت ياأبا الوليد"؟ قال: سمعت. قال: "فأنت وذاك" ثمّ قام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبوالوليد بغير الوجه الذي ذهب به. فلمّا جلسوا إليه قالوا: ماوراءك ياأبا الوليد؟ قال: ورائي أنّي والله قد سمعت قولاً ماسمعت مثله قطّ، والله ماهو بالشعر ولاالكهانة، يامعشر قريش أطيعوا واجعلوها بي. خلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه واعتزلوه، فوالله ليكوننّ لقوله الذي سمعت نبأ، فان تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزّه عزّكم، وكنتم أسعد الناس به. قالوا: سحرك والله ياأبا الوليد بلسانه. قال: هذا رأيي لكم فاصنعوا مابدا لكم(١).

فنلاحظ في هذه القصّة كيف أنّه صلى الله عليه وسلم أصغى لأبي الوليد حتى أكمل لآخر كلامه ودون مقاطعة منه له. مع علمه بأنّ مايتكلّم به في غاية الجهالة، وكذلك مبالغة منه في حسن الانصات قال له قبل أن يتكلّم: "أفرغت ياأبا الوليد" وإنّها لقمّة الأدب في مخاطبة الآخرين..

وما كانت النتيجة؟ كانت كما لاحظنا من تغيّر رأي أبي الوليد في النبي صلى الله عليه وسلم وفي أمر دعوته، لدرجة أنّه نصح قومه بتركه وشأنه..

إذاً فلابدّ أن يحسن الدعاة إنصاتهم لكّل صنف من أصناف المدعوّين، وعلى اختلاف درجاتهم في الايمان.

وحول هذه الصفة اللازمة يقول ابن المقفّع: "تعلم حسن الاستماع كما تتعلّم حسن الكلام، ومن حسن الاستماع إمهال المتكلّم حتى ينقضي حديثه، وقلّة التلفّت إلى الجواب، والاقبال بالوجه، والنظر إلى المتكلّم، والوعي لما يقول"(٢).

وبالعكس من هذه الصفة فانّ ذلك يؤدّي إلى إعراض المدعو عن الداعية من البداية؛ لأنّه لم يتكلّم بكلّ مايريده من الكلام، كما أنّ ذلك قد يفوّت على الداعية

---

(١) انظر: البداية والنهاية لابن كثير ج٢ ص(٦١-٦٢).

(٢) الأدب الكبير لابن المقفّع: ص١١٩. (فقه الدعوة في إنكار المنكر لعبد الحميد البلالي) ص(٥٤-٥٥).

معرفته بما في نفس المدعو وخاطره فلا يستطيع من بعد إصلاحه وتوجيهه بما يناسب؛ ويؤدّي ذلك بالتالي إلى ضياع الهدف من النصيحة الذي هو هدايته وقبوله لها. والله أعلم.

* ويرشد لقمان ابنه -أيضاً- إلى أدب آخر من آداب التواضع ومستلزماته وهو: عدم المشي في كبر ومخيلة، فيمشي قصداً معتدلاً. وذلك في قوله أيضاً: (ولاتمش في الأرض مرحاً إنّ الله لايحبّ كلّ مختال فخور.) وقوله: (واقصد في مشيك).

ويقول سيد قطب رحمه الله: "والمشي في الأرض مرحاً هو المشي في تخايل ونفخة وقلّة مبالاة بالناس. وهي حركة كريهة يمقتها الله ويمقتها الخلق. وهي تعبير عن شعور مريض بالذات يتنفّس في مشية الخيلاء. ومع النهي عن مشية المرح بيان للمشية المعتدلة القاصدة. والقصد هنا من الاقتصاد وعدم الإسراف. وعدم إضاعة الطاقة في التبختر والتثني والاختيال. ومن القصد كذلك. لأنّ المشية القاصدة إلى هدف لاتتلكأ ولا تتخايل ولا تتبختر، إنّما تمضي لقصدها في بساطة وانطلاق"(١).

وإنّ الداء أو المرض الذي أشار إليه سيد قطب في نفس هذا الذي يمشي الخيلاء إنّما هو داء العجب. ويحسن بنا أن نقف -هنا- لنتكلّم بصورة مختصرة عن خطر هذا الداء وحقيقته؛ حتى يبتعد الدعاة عنه، وليربّوا أبناءهم على ضدّه فينشؤوا دعاة يحبّهم الله ويحبّونه. ويذكر لنا الراشد في كتابه العوائق كلاماً حسناً حول هذا الداء خلاصته مايلي:

إنّ المعجب مفضوح ولاشكّ بفضيحتين: بفضيحة الزلل والسقوط أرضاً؛ إذ مازال القدماء يقولون عن المعجب: "إنّ العجب أخذ برجله فزلّ"، كمن يهمل النظر في السوق إلى موضع قدمه، فينزلق بقشر أو يعثر بحجر، فمن راث لحاله وشامت، ويقوم متّهماً، تأتيه النصائح من كلّ جانب، وما هو بحاجة إليها بعد ارتجاج عظامه.

والمعجب قد وضع نفسه في غير موضعها، وفيه قال الامام الشافعي: "من سامى

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج٥ ص٢٧٩٠.

بنفسه فوق مايساوي: ردّه الله تعالى إلى قيمته".

وسبب العجب هو: أن يستكثر المعجب عمله ويستقلّ عمل غيره، ويستصغر ماعلم من ذنوبه وينسى كثيراً منها.

وبهذا يكون العجب أصلاً لكلّ بلاء وفتنة.

وهكذا فانّ العمل الصالح ضياء ونور؛ يتحوّل إلى ظلام إذا هبّت ريح العجب عليه بهبّة واحدة. هذا أثره في النفس!

أمّا أثره في الآخرين من المدعوّين فنفورهم، وحجب الخير عنهم، وذهاب هدف إصلاحهم وهدايتهم(١). ألا فليحذر الدعاة من هذا الداء الخطير.

* وفي آخر ماذكر الله من موعظة لقمان لابنه هو وصيته بغضّ صوته، وهذه أيضاً من مستلزمات التواضع. وعنها يقول سيد قطب: "والغضّ من الصوت فيه أدب وثقة بالنفس واطمئنان إلى صدق الحديث وقوّته. وما يزعق أو يغلظ في الخطاب إلاّ سيّء الأدب أو شاكّ في قيمة قوله أو قيمة شخصه، يحاول إخفاء هذا الشكّ بالحدّة والغلظة والزعاق!"(٢).

وهذه الصفة تكون من أعظم آداب الحديث مع الآخرين، إذ لاينبغي أن يرفع الصوت بأكثر ممّا يحتاج إليه. والداعية أولى الناس بالالتزام بآداب الحديث.. عوضاً عن أنّ ذلك الرفع لصوته يشير إلى تكبّره وتعاليه على الآخرين فلا يرى الناس هذا التصرّف معهم إلاّ من باب احتقارهم وإهانتهم.

وإنّها لصورة مخزية تلك التي يشبّه بها الذي يرفع صوته عالياً.. صورة ما من شأنها أن تنفّر كلّ إنسان من الاتّصاف بها.

يقول الشهيد قطب حول هذا التصوير القرآنيّ: "والأسلوب القرآني يرذل هذا الفعل ويقبّحه في صورة منفّرة محتقرة بشعة حين يعقّب عليه بقوله: (إنّ أنكر

---

(١) انظر: العوائق لمحمد أحمد الراشد ص(٤٩-٥٠).

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج٥ ص٢٧٩٠.

الأصوات لصوت الحمير).. فيرتسم مشهد مضحك يدعو إلى الهزاء والسخرية، مع النفور والبشاعة، ولايكاد ذو حسّ يتصوّر هذا المشهد المضحك من وراء التعبير المبدع ثمّ يحاول شيئاً من صوت هذه الحمير.."(١).

* ومن البلاغة القرآنية مايلي :

- صيغ المبالغة في قوله تعالى (حميد)، (لطيف خبير)، (فخور). ففعيل وفعول هما من صيغ المبالغة، ومعناه: كثير الحمد، وكثير الفخر..(٢).

- قوله: (لاتصعّر) فيه: تمثيل كنائي، فيشمل الاحتقار بالقول والشتم وغير ذلك، فالنهي هنا عن الاحتقار عامّة(٣).

ويقول سيد قطب حول التعبير عن الاحتقار بهذا اللفظ: "والصّعر داء يصيب الابل فيلوي أعناقها، والأسلوب القرآني يختار هذا التعبير للتنفير من الحركة المشابهة للصعر. حركة الكبر والازورار وإمالة الخدّ للناس في تعال واستكبار"(٤).

- وقوله: (ولاتمش في الأرض مرحاً) فيه أيضاً تمثيل كنائي في النهي عن التكبّر والتفاخر لا عن خصوص المشي في حال المرح فيشمل الفخر عليهم بالكلام وغيره(٥).

- الاستعارة التمثيلية في قوله: (إنّ أنكر الأصوات لصوت الحمير)؛ إذ أنّه شبّه الرافعين أصواتهم بالحمير، وأصواتهم بالنهيق، ولم يذكر أداة التشبيه، بل أخرجه

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج٥ ص٢٧٩٠.
(٢) صفوة التفاسير للصابوني: ج٢ ص٤٩٢.
(٣) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور : ج٢١ ص١٦٦.
(٤) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج٥ ص٢٧٩٠.
(٥) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور: ج٢١ ص(١٦٦-١٦٧).

مخرج الاستعارة للمبالغة في الذمّ والتنفير عن رفع الصوت(١).

- ويذكر الفخر الرازي لطيفة بلاغية -نختم بها فوائدنا البلاغية- فيقول: "إنّ الله تعالى قدّم الكمال على التكميل حيث قال: (أقم الصلاة) ثمّ قال: (وأمر بالمعروف)، وفي النهي قدّم مايورثه التكميل على مايورثه الكمال حيث قال: (ولاتصعّر خدّك) ثمّ قال: (ولاتمش في الأرض مرحاً)؛ لأنّ في طرف الاثبات من لايكون كاملاً لايمكن أن يصير مكمّلاً فقدّم الكمال، وفي طرف النفي من يكون متكبراً على غيره يكون متبختراً لأنّه لايتكبّر على الغير إلا عند اعتقاده أنّه أكبر منه من وجه، وأمّا من يكون متبختراً في نفسه قد لايتكبّر، ويتوهم أنّه يتواضع للناس، فقدّم نفي التكبّر ثمّ نفي التبختر لأنّه لو قد نفى التبختر للزم منه نفي التكبّر فلا يحتاج إلى النهي عنه"(٢).

* وختاماً للعبر والفوائد من مواعظ لقمان لابنه لابدّ لنا من الاشارة إلى أنّ من أهمّ وسائل التربية المؤثرة في تكوين الأبناء إيمانياً، وإعدادهم خلقياً ونفسياً واجتماعياً: تربيتهم بالموعظة، لما لها من كبير الأثر في تبصيرهم بحقائق الأشياء ودفعهم إلى معالي الأمور، وتحليهم بمكارم الأخلاق، وتوعيتهم بمبادئ الاسلام..

وينبغي أن لاتقتصر المواعظ على جانب الارشاد بالكلام فحسب، بل ينبغي أن تنوّع الأساليب والوسائل في طرق إيصالها؛ إذ أنّ من الأبناء من يتأثر بأسلوب معين، وغيره لايتأثر بنفس الأسلوب وقد يجدي معه أسلوب آخر، كما أنّ التنوّع في الأساليب يساعد على تقبّل الموعظة ونجاحها. وإنّ هذا التنوّع لهو من الحكمة في تربية الأبناء..

ونذكر من هذه الأساليب والوسائل -على تعدّدها- ما يلي:

- الأسلوب القصصي المصحوب بالعبرة والموعظة: وهذا الأسلوب له تأثيراته

---

(١) صفوة التفاسير للصابوني: ج٢ ص٤٩٤.

(٢) التفسير الكبير للفخر الرازي: ج٢٥ ص١٤٩.

النفسية وانطباعاته الذهنية، وحججه المنطقية والعقلية.

- أسلوب الحوار والاستجواب: وذلك لإثارة الانتباه، وتحريك ذكاء الولد، ثمّ ترى الموعظة في قالب الاقناع والمحاجّاة فيكون لها كبير الأثر.

- أسلوب ضرب الأمثال: وذلك بالاستعانة بما يشاهده الولد أمام عينيه ويقع تحت حواسّه وفي متناول يديه، وذلك لاشكّ يجعل أثر الموعظة في النفس أشدّ وفي الذهن أرسخ.

- أسلوب الرسم والايضاح: كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يستخدمه مع أصحابه ليوضح لهم المفاهيم ويقرّب لهم التصوّرات. فقد روى البخاري في صحيحه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: خطّ لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطاً مربعاً، وخطّ خطاً خارجاً منه، وخطّ خطوطاً صغاراً إلى هذا الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط، فقال، هذا الانسان، وهذا أجله محيط به، وهذا الذي خارج (أي عن الخطّ) أمله، وهذه الخطوط الصغار والأعراض هي الحوادث والنوائب المفاجئة، فإن أخطأ هذا نهشه هذا، وإن أخطأ هذا نهشه هذا، وإن أخطأه كلّها أصابه الهرم" (١).

- أسلوب الفعل التطبيقي: وذلك ليرسم الأب لولده الأنموذج الحيّ أمامه، وذلك كفعل النبي صلى الله عليه وسلم أمام أصحابه في شأن الوضوء. فيروى أنّ رجلاً أتى إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يارسول الله كيف الطهور (أي الوضوء)؟، فدعا رسول الله بإناء فيه ماء فغسل كفّيه ثلاثاً حتى استوفى ثمّ قال: "فمن زاد عن هذا أو نقص فقد تعدّى وظلم" (٢).

وإضافة إلى هذه الأساليب ينبغي مراعاة الأمور التالية:

---

(١) رواه البخاري: كتاب الرقاق، حديث(٦). ج٨ ص١٦٠.
(٢) رواه أبوداود: كتاب الطهارة، باب (٥١)، حديث (١٢٥). ورواه النسائي: كتاب الطهارة، باب (١٠٥)، حديث (١٤٠).

- دمج الموعظة بالمداعبة؛ وذلك لتحريك الذهن، وإذهاب الملل، وتشويق النفس.
- الاقتصاد بالموعظة مخافة السآمة.
- انتهاز المناسبات والأحداث ليعلّق عليها بالموعظة، فذلك أبلغ في التأثير وأفضل للفهم والمعرفة.
- الالتفات إلى ماهو أهمّ في الموعظة.

وإذا سار المربّي على هذه التوجيهات فسيرى -بإذن الله- الأولاد الذين اهتمّ بهم وأشرف على تربيتهم في زمرة الصالحين الذين تعقد بهم الآمال وعلى أيديهم يتحقق نصر الإسلام(١).

وبهذه الإشارة السريعة حول أهميّة التربية بالموعظة وأساليبها نختم الكلام في هذا الباب (لقمان الحكيم مع ابنه).

والحمد لله ربّ العالمين

---

(١) انظر: تربية الأولاد في الاسلام لعبد الله علوان: ج٢ ص(٦٨٥-٧٢٦).

الباب الثامن

"زكريّا ويحيى عليهما السلام"

وفيه تمهيد ، وفصلان :

الفصل الأول : بيان القصّة .
الفصل الثاني: العبر والفوائد .

"تمهيـد"

إنّ فيما نطالعه من كتاب الله حول القصص القرآني بين الآباء والأبناء قصّة زكريّا(١) وابنه يحيى عليهما السلام.

وتذكر قصّتهما مفصّلة في سورة مريم، ويشار إليها في سورتي آل عمران والأنبياء على وجه مختصر يتضمّن بداية القصّة وخاتمتها.

أمّا الآيات التي فصّلت القصّة في سورة مريم فهي قوله تعالى:

(كهيعص. ذكر رحمت ربّك عبده زكريّا. إذ نادى ربّه نداء خفيّاً. قال ربّ إنّي وهن العظم منّي واشتعل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك ربّ شقيّاً. وإنّي خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقراً فهب لي من لدنك وليّاً. يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله ربّ رضيّاً. يازكريّا إنّا نبشّرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل من قبل سميّاً. قال ربّ أنّى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقراً وقد بلغت من الكبر عتيّاً. قال كذلك

---

(١) زكريا ويحيى نبيّان من أنبياء بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام. أمّا نسب زكريّا كما أوردته الكتب فكما يلي:

قال ابن عساكر في تاريخه: زكريا بن برخيا، ويقال: زكريا بن دان، ويقال: زكريا بن لدن بن مسلم بن صدوق بن حشبان بن داود بن سليمان بن مسلم بن صدّيقه بن برخيا بن بلعاطة بن ناحور بن شلوم بن بهناشاط بن أينامن بن رحبعام بن سليمان بن داود. (البداية والنهاية لابن كثير: ج٢ ص(٤٢-٤٤)؛ قصص الأنبياء لابن كثير ج٢ ص٤٦٧).

وممّا ينبغي الاشارة إليه إلى أنّه ليس هو زكريّا المذكور في كتب أهل الكتاب بل ذاك نبي مرسل قبله قد أوتي كتاباً سماوياً كما ورد في كتبهم وقد كان موجوداً في القرن السادس قبل المسيح، أمّا هذا فهو زوج أخت مريم، وليس له كتاب في أسفار التوراة، ولعلّهما يتشابهان في اسم الأب (برخيا). (انظر: التحرير والتنوير ج١٦ ص٦٢؛ قصص الأنبياء للنجار ص٣٦٨).

قال ربّك هو عليّ هيّن وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً. قال ربّ اجعل لي آية قال آيتك ألاّ تكلّم الناس ثلاث ليال سويّاً. فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبّحوا بكرة وعشيّاً. يايحيى خذ الكتاب بقوّة وآتيناه الحكم صبيّاً وحناناً من لدنّا وزكاة وكان تقيّاً. وبرّاً بوالديه ولم يكن جبّاراً عصيّاً. وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيّاً) (١).

وأمّا ذكرها في سورة آل عمران ففي قوله تعالى:

(هنالك دعا زكريّا ربّه قال ربّ هب لي من لدنك ذريّة طيّبة إنّك سميع الدعاء. فنادته الملائكة وهو قائم يصلّي في المحراب أنّ الله يبشّرك بيحيى مصدّقاً بكلمة من الله وسيّداً وحصوراً ونبيّاً من الصالحين. قال ربّ أنّى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر قال كذلك الله يفعل مايشاء. قال ربّ اجعل آية قال آيتك ألاّ تكلّم الناس ثلاثة أيّام إلاّ رمزاً واذكر ربّك كثيراً وسبّح بالعشيّ والإبكار) (٢).

وأمّا في الأنبياء فقوله تعالى:

(وزكريّا إذ نادى ربّه ربّ لاتذرني فرداً وأنت خير الوارثين. فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنّهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين) (٣).

ونظراً إلى أنّ القصّة جاءت مفصّلة في آيات مريم دون غيرها؛ فإنّا سـنجعل

---

(١) سورة مريم: ١-١٥.
(٢) سورة آل عمران: ٣٨-٤١.
(٣) سورة الأنبياء: ٨٩-٩٠.

محور القصّة حول آيات مريم؛ وغيرها ممّا ورد في آل عمران والأنبياء يذكر في موضعه من أحداث القصة.

وسيكون بياننا لهذه القصّة كما يلي :

١- دعاء زكريّا ربّه طلباً للولد.
٢- البشارة بيحيى.
٣- موقف زكريّا من البشارة.
٤- مكانة يحيى عند الله عزّ وجلّ.

ثمّ يتلو هذا البيان استخراج العبر والفوائد.

والله المستعان

الفصل الأوّل
"بيان القصّة"

١- دعاء زكريّا ربّه طلباً للولد :

ويمكننا بيان هذا الدعاء بما يلي:

* مناسبته: كان دعاؤه -عليه السلام- عند رؤيته كرامة الله لمريم بنت عمران الصالحة- التي كان يتردّد عليها لكونه كفيلاً لها- إذ كان يجد عندها رزقاً من الله، قيل: يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء. فعند رؤيته هذه الكرامة تمنّى من الله أن يرزقه ولداً صالحاً فتقرّ به عينه.
وهذا ماذكرته الآيات في سورة آل عمران: (كلّما دخل عليها زكريّا (١) المحراب وجد عندها رزقاً قال يامريم أنّى لك هذا قالت هو من عند الله إنّ الله يرزق من يشاء بغير حساب. هنالك دعا زكريّا ربّه.. الآية) (٢).

* كيفيّته : كان دعاؤه خفياً كما بيّنته آية مريم: (إذ نادى ربّه نداء خفيّاً) بمعنى أنّه لم يجهر بدعائه؛ لكون الجهر والإخفاء سيّان عند الله، فاستحبّ الإخفاء في دعائه، لأنّه أبعد عن الرياء وأدخل في الإخلاص، وهو بذلك يكون أحبّ إلى الله عزّ وجلّ. ويقول قتادة: إنّ الله يعلم القلب التقيّ ويسمع الصوت الخفيّ(٣).

---

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص: (زكريّا) بالقصر من غير همز في جميع القرآن، وقرأ الباقون بالمد والهمز (النشر في القراءات العشر لابن الجزري ج٢ص٢٢٩).
(٢) سورة آل عمران: ٢٧-٢٨.
(٣) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ج٢١ ص١٨٠؛ تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ج٢ ص١١٠.

* بيان حاله فيه: وزيادة في خشوعه وخلوصه ورجائه في دعائه أفصح عن حاله الذي هو عليه: (قال ربّ إنّي وهن العظم منّي واشتعل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك ربّ شقيّاً. وإنّي خفت الموالي من ورائي(١) وكانت امرأتي عاقراً.. الآية).

وكأنّه يقول لله: هذا حالي الذي لايمكن معه الولد، ولكنّي أطلب منك هذا الطلب لأنّه لايعجزك شيء -سبحانك- وأمرك ينفذ في كلّ شيء ولاحدّ لرحمتك وقدرتك.

فغايته استرحام الله عزّ وجلّ مع كون الله عليم بحاله ومطّلع عليه.

- وقوله: (قال ربّ إنّي وهن العظم منّي) معناه: أي "ضعفت وخارت قواي"؛ إذ أنّه حين يهن العظم يكون الجسم كلّه قد وهن، فالعظم هو أصلب مافي الجسم، وهو قوامه الذي يقوم به ويتجمّع عليه(٢).

وقوله: (واشتعل الرأس شيباً) بمعنى أنّه قد انتشر الشيب- وهو بياض الشعر(٣)- في رأسه انتشار النار في الهشيم. والمراد من هذين الوصفين الإخبار عن الضعف والكبر ودلائله الظاهرة والباطنة(٤).

وقيل: كان عمره آنذاك خمسة وستين عاماً، وقيل أكثر من ذلك(٥).

---

(١) قرأ ابن كثير: (من ورائي) بفتح الياء، وقرأ الباقون بسكون الياء تخفيفاً لطول الحرف مع الهمزة (حجّة القراءات لابن زنجلة ص٤٢٨).

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٢ ص١١١؛ في ظلال القرآن لسيد قطب ج٤ ص٢٢٠٢.

(٣) يعرض للشعر البياض بسبب نقصان المادّة التي تعطي اللون الأصلي للشعر، ونقصانها بسبب كبر السنّ غالباً، فلذلك كان الشيب علامة على الكبر، وقد يبيضّ الشعر من مرض. (التحرير والتنوير: ج١٦ ص٦٥).

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ج٢ ص١١١؛ في ظلال القرآن لسيد قطب ج٤ ص٢٢٠٢.

(٥) تفسير أبي السعود: ج٥ ص٢٥٢.

وقوله: (ولم أكن بدعائك ربّ شقيّاً) تمهيد للإجابة؛ وهو بطريق الحثّ على استمرار جميل صنع الله معه، وتوسل إليه بما سلف له معه من الاستجابة.
فهو قد تعوّد -عليه السلام- إجابة الله له في دعائه دائماً؛ وهو في استجابة هذا الدعاء أحوج.
ومن هذا الباب ماروي -ولله المثل الأعلى- أنّ محتاجاً سأل حاتم الطائي أو معن بن زائدة قائلاً: أنا الذي أحسنت إليّ يوم كذا. فقال: مرحباً بمن توسّل بنا إلينا(١).

* الهدف من الدعاء: أمّا هدفه من دعائه فهو أن يعطيه الله ولداً صالحاًيرث النبوّة من بعده، ويحفظ أمر الدين ولايضيّعه، وهو تراث آبائه وأجداده من الأنبياء إذ كان هو من ذريّة يعقوب عليه السلام؛ وذلك لأنّه يخشى الموالي من بعده- الذين يلونه في النسب وهم بنو عمّه وكانوا أشرار بني إسرائيل- أن لايحسنوا خلافته في أمّته ويبدّلوا عليهم دينهم، وهو لم يعقّب نسلاً لكون امرأته عاقراً، وليس هناك في ذريّته من يملك تربيته وإعداده لوراثته وخلافته(٢). وذلك قوله تعالى: (وإنّي خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقراً فهب لي من لدنك وليّاً يرثني ويرث(٢) من آل يعقوب واجعله ربّ رضيّاً).

- وقوله: (هب لي من لدنك وليّاً) أي: من عند الله، وهذا يدلّ على أنّه سأل وليّاً غير جارٍ أمره على المعتاد من إيجاد الأولاد لانعدام الأسباب المعتادة؛ فتكون هبة كرامة له، وقدّم (لي) على (من لدنك) لأنّه الأهمّ في غرضه وهو غرض

---

(١) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ج١٦ ص(٦٦-٦٧).
(٢) انظر: تفسير ابن كثير ج٣ ص١١١؛ تفسير القرطبي ج١١ ص(٧٨-٧٩)؛ تفسير أبي السعود ج٥ ص(٢٥٢-٢٥٥).
(٢) قرأ أبوعمرو والكسائي: (يرثني ويرث) جزماً جواباً للأمر، وقرأ الباقون بالرفع جعلوه صفة للولي (حجّة القراءات لابن زنجلة: ص٤٢٨).

خاصّ يقدّم على الغرض العامّ(١).

-وقوله: (واجعله ربّ رضياً) أي مرضياً عندك وعند خلقك تحبّه وتحبّبه إلى خلقك في دينه وخلقه(٢). "ولفظة رضي تلقي هذه الظلال فالرضي الذي يرضى ويرضي وينشر ظلال الرضا فيما حوله ومن حوله"(٣).

ويبيّن لنا الله هذا الهدف من دعائه -أيضاً- في سورة الأنبياء حيث يقول تعالى: (وزكريّا إذ نادى ربّه ربّ لاتذرني فرداً وأنت خير الوارثين) أي: لاتتركني بلا ولد ولا وارث يقوم في الناس بعدي. (وأنت خير الوارثين) وهذا دعاء وثناء مناسب للمسألة ذاتها(٤).

٢- البشارة بيحيى :

وترتسم هنا لحظة الاستجابة في رعاية وعطف ورضى. فالله عزّ وجلّ ينادي عبده من الملأالأعلى: (يازكريّا)، ويعجّل له البشرى بواسطة ملائكته: (إنّا نبشّرك بغلام)، كما أنّه يغمره بالعطف فيختار له اسم الغلام الذي بشّره به: (اسمه يحيى)، وهو اسمٌ لم يسمّه أحد من قبل: (لم نجعل له من قبل سمياً)(٥).

وروي عن ابن عباس أنّه قال: وإنّما سمّي يحيى؛ لأنّ الله أحيا به عقر أمّه، وعن قتادة: أنّه سمّي بذلك لأنّه أحيا قلبه بالإيمان(٦). والله أعلم.

وتأتيه الاستجابة وهو في أشرف الأماكن وأعظم الحالات.. في محرابه وهو

---

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور : ج١٦ ص٦٧.
(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ج٣ ص١١١.
(٣) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج٤ ص٢٢٠٢.
(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ج٣ ص١٩٢.
(٥) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب: ج٤ ص(٢٢٠٢-٢٢٠٣).
(٦) تفسير أبي السعود: ج٦ ص٢٢.

يدعو: (فنادته(١) الملائكة وهو قائم يصلّي في المحراب أنّ الله يبشّرك(٢) بيحيى.. الآية)، فالمراد بالصلاة هنا معناها الأصلي وهو الدعاء كقوله: (ولاتجهر بصلاتك..) "الاسراء: ١١٠"(٣) وكان المنادي له هنا هو جبريل عليه السلام لا الملائكة كلّهم كما تفصح عنه قراءة (فناداه الملائكة)، والجمع هنا كما في قولهم: فلان يركب الخيل ويلبس الثياب؛ وماله غير فرس وثوب. وقال الزجّاج: أي أتاه النداء من هذا الجنس الذين هم الملائكة، وقيل: لمّا كان جبريل رئيسهم عبّر عنه باسم الجماعة تعظيماً له، وقيل الرئيس لابد له من أتباع؛ فأسند النداء إلى الكلّ مع كونه صادراً عنه خاصّة(٤).

ويقرّر الله -أيضاً- هذه الاستجابة في آية الأنبياء مُظهراً فيها إعجازه وقدرته بأن جعل زوج زكريّا تصلح للانجاب: (فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه.. الآية) فقوله: (وأصلحنا له زوجه) قال فيه ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة: كانت عاقراً لاتلد فولدت. وهذا القول الأليق بالقصّة، وهو ماعليه جمهور المفسّرين.

وقد قيل في معناه: أنّه أصلحها في أخلاقها حيث أنّها كانت سيئة الأخلاق، وقيل: بل جعلها مصلحة في الدين لتعينه على أمر الدعوة(٥).

---

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف: (فناداه) وقرأ الباقون: (فنادته) وحجّتهم أنّ الذي ناداه جبريل والتقدير فناداه الملك (النشر: ج٢ ص٢٣٩).

(٢) قرأ حمزة وابن عامر: (إنّ الله يبشّرك) بكسر الألف وقرأ الباقون بفتحها، وقرأ حمزة والكسائي، (يَبْشُرُك) بفتح الياء وإسكان الباء وضمّ الراء والشين، وقرأ الباقون بالتشديد (انظر: حجّة القراءات لابن زنجلة ص١٦٢-١٦٣.).

(٣) فتح الرحمن بكشف مايلتبس في القرآن لأبي يحيى زكريا الأنصاري: ص(٨٤-٨٥).

(٤) انظر: تفسير أبي السعود ج٢ ص٢١.

(٥) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ج٢٢ ص٢١٧؛ تفسير القرطبي ج١١ ص٣٢٦؛ تفسير ابن كثير ج٣ ص١٩٢.

وتضمّنت هذه البشارة ذكر ماسيكون عليه أمر يحيى من نبوّته وصلاحه وقد نصّ على ذلك قول الله في آية آل عمران: (أنّ الله يبشّرك بيحيى مصدّقاً بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين).

فأوّلها : كونه مصدّقاً بعيسى عليه السلام- وهو كلمة الله ألقاها إلى مريم وسمّي بذلك لأنّه وجد بكلمة (كن) من غير أب- وتصديقه له بأنّه آمن به وصدّق بأنّه كلمة الله وروحه. قال ابن عباس: إنّ يحيى كان أكبر سنّاً من عيسى بستة أشهر، وكان يحيى أول من آمن وصدّق بأنّه كلمة الله وروحه، ثمّ قتل يحيى قبل رفع عيسى عليه السلام (١).

وثانيها: (سيداً): واختلف في معناه المفسّرون: "فقال ابن عباس: السيد الحليم. وقال الجبّائي: إنّه كان سيداً للمؤمنين، رئيساً لهم في الدين، أعني في العلم والحلم والعبادة والورع. وقال مجاهد: الكريم على الله. وقال ابن المسيّب: الفقيه العالم. وقال عكرمة: الذي لايغلبه الغضب. قال القاضي: السيد هو المتقدّم المرجوع إليه، فلمّا كان سيداً في الدين كان مرجوعاً إليه في الدين وقدوة في الدين، فيدخل فيه جميع الصفات المذكورة من العلم والحلم والكرم والعفّة والزهد والورع." (٢).

أقول: وكلام القاضي الأخير هو الذي أرجّحه وأميل إليه؛ لأنّ ماذكره غيره من المعاني كلها متوفّرة في أي نبيّ من أنبياء الله، وكلامه قد جاء شاملاً لجميع هذه المعاني والله أعلم.

وثالثها: (حصوراً) وهو الذي لايأتي النساء لاللعجز بل للعفّة والزهد.
وهذا هو قول المحققين، لا كما قال البعض من أنّه العاجز عن إتيان النساء لصغر الآلة أو لتعذّر الانزال أو لعدم القدرة، فإنّ هذا القول فاسد لايصحّ ؛ إذ

---

(١) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي: ج٨ ص٢٥.
(٢) المرجع السابق: ج٨ ص٢٦.

تكون هذه الصفة نقيصة وعيباً لاتليق بنبي من أنبياء الله، ولاتكون محلاً للمدح والبشارة، ولأنّه على هذا التقدير لايستحقّ به ثواباً ولاتعظيماً، كما أنّ كلمة (الحصور) هو الذي يكثر منه حصر النفس ومنعها: والمنع إنّما يحصل أن لو كان المقتضي قائماً، فلولا أنّ القدرة والداعية كانتا موجودتين، وإلاّ لما كان حاصراً لنفسه فضلاً عن أن يكون حصوراً، لأنّ الحاجة إلى تكثير الحصر والدفع إنّما تحصل عند قوّة الرغبة والداعية والقدرة (١).

ورابعها وأعلاها: درجة النبوّة (ونبياً) وهذه كبشارة أمّ موسى حين بشّرت بقوله تعالى: (إنّا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين) "القصص:٧"
وقوله: (نبياً من الصالحين) أي: ناشئاً منهم لأنّه كان من أصلاب الأنبياء، أو كائناً من جملة المشهورين بالصلاح؛ كما في قوله تعالى: (وإنّه في الآخرة لمن الصالحين) "البقرة:١٢٠" والمراد بالصلاح -هنا- مافوق الصلاح الذي لابدّ منه في منصب النبوّة البتّة من أقاصي مراتبه، وعليه مبنى دعاء سليمان عليه السلام في قوله تعالى: (وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين) "النمل:١٩"(٢). والله أعلم بمراده.

٢- موقف زكريّا من البشارة :

يتضح لنا موقفه -عليه السلام- من خلال آيتي آل عمران ومريم؛ ففي آل عمران يقول تعالى: (قال ربّ أنّى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر.. الآية) وفي مريم: (قال ربّ أنّى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقراً وقد بلغت من الكبر عتيّاً(٢)).

---

(١) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ج٨ ص٢٧.
(٢) انظر: الكشّاف للزمخشري ج١ ص٤٢٨؛ التفسير الكبير للفخر الرازي ج٨ ص٢٧؛ تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج١ ص٣٦٢.
(٢) قرأ حمزة والكسائي وحفص: (عتيّاً) بكسر العين، وقرأ الباقون بضمّ العين على الأصل (انظر: حجة القراءات لابن زنجلة ص٤٣٩).

وموقفه هنا ليس موقف المنكر والمنتقص لقدرة الله إنّما هو تعجّب منه حين أجيب إلى ماسأل وبشّر بالولد وفرح فرحاً شديداً فسأل عن كيفيّة مايولد له: والوجه الذي يأتيه منه الولد مع انّ امرأته كانت عاقراً لم تلد من أول عمرها فكيف وهي في حالة كبرها، ومع أنّه هو قد كبر وعتا: أي عسى عظمه ونحل ولم يبق فيه لقاح ولاجماع والمراد بلوغه النهاية في الكبر(١).

ويقول صاحب التحرير والتنوير: "هو تعجّب مكنّى به عن الشكر، فهو اعتراف بأنّها عطية عزيزة غير مألوفة لأنّه لايجوز أن يسأل الله أن يهب له ولداً ثمّ يتعجّب من استجابة الله له" (٢).

فهو وإن كان: إنّما هو تعجب فرح وسرور لااستنكار واستبعاد.

وأقول: ولامانع أن يحمل تعجبه على الشكر لله والفرح والسرور بهذه النعمة؛ وعلى أنّه يكون سؤال استفسار عن كيفيّة حصول ذلك. والله أعلم.

ومن ثمّ يأتي القول الفصل -من الحق تبارك وتعالى- الذي يقطع كلّ تعجّب ويجيب على كلّ استفسار: (قال كذلك قال ربّك هو عليّ هيّن وقد خلقتك(٢) من قبل ولم تك شيئاً) فانّما هو أمر يسير سهل على الله، وليس هناك في الخلق هيّن وصعب عليه سبحانه؛ إذ وسيلة الخلق لكل شيء واحدة (كن فيكون)، وإنّما هو أهون في اعتبار الناس. والقادر على الخلق من العدم قادر على الخلق من شيخين هرمين (كذلك الله يفعل مايشاء).

* ثم طلب زكريّا من الله سبحانه أن يجعل له علامة ودليلاً على وجود الحمل في بطن زوجته؛ وليس هذا من قبيل عدم الثقة بوعد الله فحاشا لزكريّا نبي الله من

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير الطبري ج١٦ ص٢٩؛ تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٢ ص(١١١-١١٢).

(٢) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور: ج١٦ ص٧٠.

(٢) قرأ حمزة والكسائي: (وقد خلقناك) بالنون، وقرأ الباقون: (وقد خلقتك). (انظر: حجة القراءات لابن زنجلة ص٤٢٩).

ذلك وهو من أعرف الناس بالله، ولكن هو من قبيل الاستقرار النفسي والطمأنينة القلبيّة وهو على حدّ قوله تعالى (وإذ قال إبراهيم ربّ أرني كيف تحي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئنّ قلبي.. الآية) "البقرة: ٢٦٠" (١)، "وليبادر إلى الشكر ويتعجّل السرور؛ إذ الحمل لايظهر في أول العلوق فأراد معرفته أول وجوده" (٢).

فاستجاب الله لطلبه: (قال آيتك ألاّ تكلّم الناس ثلاث ليال سويّا). والمعنى: أنّ علامة ذلك أنّك لاتستطيع التكلّم الى الناس ثلاثة أيام بلياليهنّ وأنت صحيح سويّ الخلْق ليس بك خرس ولاعلّة. قال ابن عباس ومجاهد والسدّي وعكرمة وقتادة وغير واحد: اعتقل لسانه من غير مرض ولاعلّة. وروى العوفي عن ابن عباس قوله: (سويّاً) أي أياماً متتابعات.

أقول: والقول الأول المروي عن ابن عباس؛ وعن الجمهور هو الأصحّ، كما قال تعالى في آية آل عمران: (قال ربّ اجعل لي آية قال آيتك ألاّ تكلّم الناس ثلاثة أيام إلاّ رمزاً واذكر ربّك كثيراً وسبّح بالعشيّ والإبكار) فهو مع ذلك لم ينقطع لسانه عن الذكر والتسبيح، وهو دليل على أنّه كان في غاية السلامة والقدرة على النطق إلاّ أنه يعتقل لسانه عند التكلّم مع الناس. وهذه هي العلامة(٣).

ثمّ يحكي الله عزّ وجلّ حال زكريا بعد أن أعطاه العلامة وأمره بالذكر والتسبيح واطمأنّت نفسه: (فخرج على قومه من المحراب(٤) فأوحى إليهم أن سبّحوا

---

(١) أنظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٢ ص١١٢.

(٢) فتح الرحمن بكشف مايلتبس في القرآن لأبي يحيى زكريا الأنصاري: ص٣٥١.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٢ ص١١٢.

(٤) المحراب: أرفع المواضع وأشرف المجالس، وكانوا يتخذون المحاريب فيما ارتفع من الأرض، واختلف الناس في اشتقاقه؛ فقالت فرقة: هو مأخوذ من =

بكرة وعشياً) والمعنى: أنّه خرج من المحراب الذي بشّر فيه بيحيى، فأوحى إلى من حوله من العبّاد والناس بإشارة خفيفة سريعة لأنّه منع الكلام إلاّ الرمز(١) أي الإشارة باليد أو بالرأس أو نحوهما..

وأشار إليهم بالذكر والتسبيح موافقة له فيما أمر به في هذه الأيام الثلاثة زيادة على أعماله شكراً لله على ما أولاه؛ وقد كان في منزلة عالية عندهم وهو حبرهم وإمامهم وعالمهم ونبيّهم، وذلك قوله تعالى: (أن سبّحوا بكرة وعشياً) فهو أمرهم بالتفرّغ لذكر الله في طرفي النهار، ويجوز أن يكون قد عنى بالتسبيح هنا الصلاة في الوقتين. وقد أورد الفخر الرازي هذا المعنى للتسبيح وهو أنّه المراد به الصلاة في أول النهار وهي الفجر؛ والأخرى في آخره في العشيّ وهي العصر، وقد قال بأنّ هذا القول قد اتفق عليه المفسّرون(٢)، ولكن هذا الكلام منه ليس بواقع ولاصحيح؛ إذ لم يتفق المفسّرون عليه، بل إنّ أكثر أقوالهم على المعنى الأول وهو مااختاره ابن جرير الطبري وقال بجواز القول الثاني ولم يمنعه(٣).

وعند هذا الحدث يقف القرآن في قصّ ماكان من أمر زكريا عليه السلام في طلبه ليحيى ومن ثمّ استجابة الله لدعائه وموقفه من البشارة، وينتقل من بعد السياق إلى حكاية ما كان عليه يحيى ابنه الذي وهبه الله له من المكانة عند الله سبحانه، وهذا ماخصّت به الفقرة الرابعة الآتية.

٤- مكانة يحيى عند الله عزّ وجلّ :

= الحرْب كأنّ ملازمه يحارب الشيطان والشهوات، وقالت فرقة: هو مأخوذ من الحرَب (بفتح الراء) كأنّ ملازمه يلقى منه حرباً وتعباً ونصباً. (تفسير القرطبي: ج١١ ص٨٥).

(١) الرمز: أصله التحرّك، يقال: ارتمز أي تحرّك، ومنه قيل للبحر الراموز (تفسير أبي السعود: ج٢ ص٢٤).

(٢) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ج٢١ ص(١٩٠-١٩١).

(٣) انظر: تفسير ابن جرير الطبري ج١٦ ص٤٢.

وفي بداية الحديث عن مكانته وفضله يخبر الله عمّا أمر به يحيى: (يايحيى خذ الكتاب بقوّة) وفي الكلام حذف والتقدير: فلمّا ولد يحيى وكبر وبلغ السنّ التي يؤمر فيها قال الله له: (يايحيى خذ الكتاب بقوة) والكتاب هنا التوراة التي أنزلها الله على موسى. و(بقوّة): أي خذه بجدّ وحرص واجتهاد، فالقوّة هنا معنوية وهي الجدّ والعزم والثبات. و(الباء) هنا للملابسة، أي أخذاً ملابساً للثبات على الكتاب، أي على العمل به وحمل الأمّة على اتباعه؛ إذ قد أخذ الوهن والضعف يتطرّق إلى بني إسرائيل في العمل بدينها(١).

ثمّ يحكي الله أنّه أعطاه الحكمة والفهم ورجاحة العقل منذ الصغر: (وآتيناه الحكم صبياً). وقال ابن جرير الطبري فيما معناه: أعطاه الله الفهم لكتابه في حال صباه قبل بلوغه أسنان الرجال.

وقيل: إنّ الحكم هنا النبوّة. وهذا القول بعيد؛ لأنّ النبوّة مرتبة عظيمة تعطى عند بلوغ الأشدّ، ولو أوتيها أحد في صباه لأوتيها نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم لكونه أفضل الأنبياء والمرسلين(٢).

ثمّ يصف الله عبده يحيى بما تحلّى به من صفات عظيمة: (وحناناً من لدنّا وزكاة وكان تقياً) فقوله تعالى: (وحناناً من لدنّا) أي أنّ الله جعله ذا حنان، والحنان هو المحبّة في شفقة وميل ومنه التعطّف والرحمة، والمراد: إنّ الله آتاه رحمة من عنده وتحنّناً على العباد ليدعوهم إلى طاعة ربّهم.

وأمّا قوله: (وزكاة) أي أنّه كان زكيّ النفس مطهرها من الذنوب والآثام.

وقوله: (وكان تقياً): أي من المتقين الذين لم يعملوا بذنب لوقاية أنفسهم من سخط الله، ولطلب رضاه، والإشارة إلى ماكان عليه من التقوى فيه بيان لإخلاصه. والله أعلم(٣).

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير الطبري ج١٦ ص٤٢؛ تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٣ ص١١٢.

(٢) انظر: تفسير ابن جرير الطبري ج١٦ ص(٤٢-٤٣)؛ تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٣ ص١١٢؛ التحرير والتنوير ج١٦ ص٧٥.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٣ ص١١٢؛ تفسير الخازن ج٤ ص٢٤٠.

ويشبه هذا قول الله عنه وعن والديه في آية الأنبياء: (إنّهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً(١) وكانوا لنا خاشعين) فكان هو وأبواه في قمّة طاعة الله وهي المسارعة إليها والسبق فيها، والمسارعة هي أكبر مايمدح به الإنسان؛ لأنّها تدلّ على حرص عظيم في طاعة الله وبلوغه أعلى درجات التقوى(٢).

ولمّا ذكر الله طاعته له وأنّه جعله ذا رحمة وزكاة وتقوى عطف على ذلك بذكر طاعته لوالديه وبرّه بهما وبعده عن عقوقهما قولاً وفعلاً وأمراً ونهياً؛ وذلك لأنّه لاعبادة بعد تعظيم الله تعالى أعظم من برّ الوالدين، وذلك ماجاء في قوله تعالى: (وبرّاً بوالديه ولم يكن جباراً عصياً).

وقوله: (ولم يكن جباراً) أي: ليس هو ذاك الشخص الذي يستخفّ بحقوق الناس ولايرى لأحد على نفسه حقاً؛ إذ أنّ هذا من باب تعظيم الانسان لنفسه فيرى أنّه لايلزمه قضاء لأحد، وكأنّه مشتق من الجبر وهو القسر والقصب لأنّه يغصب حقوق الناس(٣).

وقوله: (عصياً): أبلغ من العاصي، والمراد وصف يحيى بالتواضع ولين الجانب(٤).

ثمّ يذكر الله أخيراً بعد هذه الأوصاف الجميلة جزاءه عليها فيقول: (وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً) أي: أنّ له الأمان في هذه الأحوال الثلاثة.

قال سفيان بن عيينة: أوحش مايكون المرء في ثلاثة مواطن: يوم يولد فيرى نفسه خارجاً ممّا كان فيه، ويوم يموت فيرى قوماً لم يكن عاينهم من قبل، ويوم يبعث

---

(١) (رغباً ورهباً) أي يفزعون إلينا فيدعوننا في حال الرخاء والشدّة، وقيل: يدعوننا وهم في حالة رجاء وخوف لأنّهما متلازمتان (تفسير القرطبي: ج١١ ص٣٢٦).

(٢) انظر: تفسير الخازن ج٤ ص٢٢١.

(٣) انظر: تفسير الخازن ج٤ ص٢٤٠؛ التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ج١٦ص٧٧.

(٤) تفسير الخازن: ج٤ ص٢٤٠.

فيرى نفسه في محشر عظيم. فأكرم الله فيها يحيى بن زكريا وأعطاه الأمن فيها(١).

وبهذا الكلام عن يحيى ينتهي حديثنا في هذا الفصل الذي بيّنّا فيه ماورد عن زكريا ويحيى عليهما السلام في القرآن الكريم، وننتقل بذلك إلى الفصل الثاني الذي سنتحدّث فيه عن العبر والفوائد بعون الله.

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ج٢ ص١١٢.

الفصل الثاني
"العبر والفوائد"

١- العبر والفوائد من دعاء زكريا ربّه طلباً للولد :

* نستدلّ من دعائه عليه السلام مايلي :

- إنّ حب الولد فطرة في النفس البشريّة: (زيّن للناس حبّ الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضّة.. الآية) "آل عمران:١٤" ، وبالتالي فانّ الدين لايجافي الفطرة، فها هو ذا زكريا نبي الله بلغ من العمر ما بلغ؛ وفات أوانه وأوان حمل زوجته، ولكنّه طرق باب الله بالدعوات في أن يرزقه الذرّية الصالحة فدعا الله قائلاً: (ربّ هب لي من لدنك ذريّة طيّبة.. الآية)(١).

- وإنّ تلك هي سنّة المرسلين والصدّيقين. قال تعالى: (ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرّية.. الآية) "الرعد:٣٨".
وقال تعالى مخبراً عن ابراهيم عليه السلام: (واجعل لي لسان صدق في الآخرين) "الشعراء:٨٤" وقد وصف الله عباده المتقين بقوله: (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرّياتنا قرّة أعين واجعلنا للمتقين إماماً) "الفرقان:٧٤".
كما أنّ النبي صلى الله عليه وسلم حضّ على تزوّج المرأة الولود فقال: "تزوّجوا الودودالولود فانّي مكاثر بكم الأمم"(٢).
ويروى أنّه صلى الله عليه وسلم قد دعا لأنس بن مالك -رضي الله عنه- فقال:

---

(١) انظر: مع الأنبياء في القرآن الكريم لعفيف طبارة ص٣٢٠.
(٢) رواه أبوداود: كتاب النكاح ، (٤٠) باب النهي عن تزويج من لم يلد من النساء، حديث (٢٠٥٠)؛ ورواه النسائي: كتاب النكاح، (١١) باب كراهية تزويج العقيم، حديث (٣٢٢٧).

"اللهمّ أكثر ماله وولده وبارك له فيما أعطيته" (١).

وقد روي أيضاً عن سعد بن أبي وقّاص- رضي الله عنه- أنّه قال: أراد عثمان بن مظعون رضي الله عنه أن يتبتّل فنهاه النبي صلى الله عليه وسلم، ولو أجاز له ذلك لاختصينا (٢).

والأحاديث في هذا كثيرة ومستفيضة وكلّها تدلّ على الحثّ بطلب الولد والندب إليه، وأنّ هذا هو سنّة الأنبياء والصدّيقين والصالحين..

- إنّ الذي ينبغي هو طلب الولد الصالح خاصّة دون غيره؛ فإنّ زكريا حين دعا الله قال: (واجعله ربّ رضيّاً) وقال: (..ذريّة طيّبة).

فالغاية ليست هي كثرة الأولاد فحسب؛ وإنّما هي بأن يكون هؤلاء الأولاد صالحين، فتقرّ بهم أعين آبائهم؛ وينتفعون بدعائهم لهم بعد أن ينتقلوا إلى ربّهم (أو ولد صالح يدعو له)، كما أنّ في طلب الولد الصالح نظراً إلى مصلحة الدين والخوف من ضياعه؛ ولذلك قال زكريا: (وإنّي خفت الموالي من ورائي..) فإنّه خاف من يتولّى على بني إسرائيل من بعد موته ألاّ يقوموا بشأن الدين حقّ القيام ولايدعوا العباد إلى التوحيد فطلب من الله الولد الصالح(٣). وهكذا ينبغي على الآباء أن ينظروا إلى مستقبل دين الله في مجتمعاتهم وأمّتهم؛ فالأولاد الصالحون هم أساس الخير في المجتمعات وعماده، وبهم يصلح مافسد، ومنهم تنشأ الأسر الصالحة فيعمّ الخير هذه الأمّة..

* إنّ دعاء زكريّا -عليه السلام- حوى آداباً عديدة للدعاء :

(أولها) في قوله تعالى: (نداء خفيّاً) دلالة على أنّ أفضل الدعاء ماكان هذا

---

(١) رواه البخاري: كتاب الدعوات، باب الدعاء بكثرة المال مع البركة، حديثا (٧١، ٧٢).

(٢) رواه مسلم: كتاب النكاح، الأحاديث (٦، ٧، ٨).

(٣) انظر: تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي ج٥ ص(٩٠-٩١).

حاله ويؤكده قوله تعالى: (ادعوا ربكم تضرعاً وخفية.. الآية) "الأعراف:٥٥"؛ ولأنّ الصوت مشعر بالقوّة والجلادة، وإخفاء الصوت مشعر بالضعف والانكسار، وعمدة الدعاء الانكسار والتبرّي عن حول النفس وقوّتها، والاعتماد على فضل الله تعالى وإحسانه.

(وثانيها) إنّ المستحبّ أن يذكر في بداية الدعاء عجز النفس وضعفها وإظهار خضوعها لله؛ كما في قوله: (وهن العظم منّي واشتعل الرأس شيباً).

(وثالثها) إنّ من المستحبّ كذلك ذكر نعم الله على الداعي، وعادات تفضّله عليه سبحانه في إجابته لدعواه، وذلك كما في قوله: (ولم أكن بدعائك ربّ شقياً).

(ورابعها) أن يكون الدعاء لأجل شيء متعلّق بالدين لالمحض الدنيا كما قال: (وإنّي خفت الموالي من ورائي..).

(وخامسها) أن يكون الدعاء بلفظ: ياربّ؛ على مافي هذا الموضع(١).

أقول: وإضافة إلى هذه الآداب هناك آداب أخرى للدعاء يحسن أن نذكرها ومن أهمّها- تحرّي الأوقات الشريفة: كيوم عرفة من السنة، ورمضان من الشهور، والجمعة من الأسبوع، والسحر من الليل، وبين الأذان والإقامة، وعقيب الصلوات، وعند نزول الغيث، وعند القتال في سبيل الله، وعند ختم القرآن، وفي السجود، وعند الإفطار، وعند حضور القلب ووجله.

ومن الآداب -أيضاً- أن يدعو الداعي وهو مستقبل القبلة. وأن يبدأ بذكر الله عزّ وجلّ، ثمّ يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم، ولايتكلّف السجع في الدعاء، ومن أهمّ آدابه هو الأدب الباطن -وهوالأصل في الاستجابة- التوبة الصادقة وردّ المظالم إلى أهلها(٢).

---

(١) انظر: التفسير الكبيرللفخر الرازي ج٢١ ص١٩٤؛ تفسير القرطبي ج١١ ص٧٧.

(٢) أحمد بن عبد الرحمن بن قدامة المقدسي، مختصر منهاج القاصدين، تعليق: شعيب وعبد القادر الأرنؤوط (بيروت: مؤسسة علوم القرآن، دمشق: دار البيان، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م) ص٥٦.

* ومن البلاغة القرآنية في الآيات مايلي :

- يقول الجصّاص في كتابه (أحكام القرآن) حول قوله: (ربّ هب لي من لدنك ذريّة طيّبة) : "الهبة: تمليك الشيء من غير ثمن، ويقولون: قد تواهبوا الأمر بينهم، وسمّى الله تعالى ذلك هبة على وجه المجاز؛ لأنّه لم تكن هناك هبة على الحقيقة، إذ لم يكن تمليك شيء وقد كان الولد حراً لايقع فيه تمليك، ولكنّه لمّا أراد أن يخلص له الولد على ماأراد من عبادة الله ووراثته النبوة والعلم أطلق عليه لفظ الهبة، كما سمّى الله تعالى بذل النفس للجهاد في سبيل الله شراء وهو تعالى مالك الجميع من الأنفس والأموال قبل أن يجاهدوا وبعده، وسمّي ذلك شراء لما أولاهم عليه من الثواب الجزيل" (١).

- جناس الاشتقاق في قوله: (إذ نادى ربه نداء خفياً)، فالجناس في: (نادى.. نداء) (٢).

- إسناد الوهن إلى العظم دون غيره ممّا شمله الوهن في جسده؛ لأنّه أوجز في الدلالة على عموم الوهن جميع بدنه، لأنّ العظم هو قوام البدن وهو أصلب شيء فيه فلا يبلغه الوهن إلاّ وقد بلغ ما فوقه، ففي قوله: (وهن العظم منّي) كناية عن ذهاب القوة وضعف الجسم مطلقاً (٢).

- الاستعارة التبعية في قوله: (واشتعل الرأس شيباً)؛ حيث شبّه انتشار الشيب وكثرته باشتعال النار في الحطب، واستعير الاشتعال للانتشار واشتقّ من اشتعل بمعنى

---

(١) أحكام القرآن للجصّاص: ج٢ ص١١.
(٢) صفوة التفاسير للصابوني: ج٢ ص٢١٧.
(٢) انظر: صفوة التفاسير للصابوني ج٢ ص٢١٧؛ التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ج١٦ ص٦٤.

انتشر(١).

كما أنّ إسناد الاشتعال إلى الرأس مجاز عقلي؛ لأنّ الاشتعال من صفات النار المشبّه بها الشيب، فكان الظاهر إسناده إلى الشيب، فلمّا جيىء باسم الشيب تمييزاً لنسبة الاشتعال حصل بذلك خصوصية المجاز وغرابته، وخصوصية التفصيل بعد الإجمال، مع إفادة تنكير (شيباً) من التعظيم، فحصل إيجاز بديع، وأصل النظم المعتاد، واشتعل الشيب في شعر الرأس(٢).

- والخبران من قوله: (وهن العظم - اشتعل) مستعملان مجازاً في لازم الإخبار، وهو الاسترحام لحاله؛ لأنّ المخبر عالم بما تضمّنه الخبران(٣).

- وقوله: (واجعله ربّ رضياً) فيه أنّ توسيط كلمة (ربّ) بين مفعولي (اجعل) للمبالغة في الاعتناء بشأن مايستدعيه(٤).

٢- العبر والفوائد من البشارة بيحيى :

* إنّ في استجابة الله لزكريا وتبشيره بيحيى مايدلّ على طلاقة المشيئة الربانية، فلا تحدّها حدود ولاتقيّدها قوانين، فالله سبحانه لايعجزه شيء.. وحول هذه المعاني يتكلّم الشهيد سيد قطب فيقول: "وكذلك نجدنا أمام حادث غير عادي. يحمل

---

(١) صفوة التفاسير للصابوني: ج٢ ص٢١٧.
(٢) انظر: تفسير أبي السعود ج٥ ص٢٥٢؛ التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ج١٦ ص٦٤.
(٣) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور: ج١٦ ص٦٤.
(٤) تفسير أبي السعود: ج٥ ص٢٥٥.

مظهراً من مظاهر طلاقة المشيئة الالهية وعدم تقيّدها بالمألوف للبشر الذي يحسبه البشر قانوناً لاسبيل الى إخلافه، ومن ثمّ يشكّون في كل حادث لايجيء في حدود هذا القانون! فإذا لم يستطيعوا تكذيبه لأنّه واقع صاغوا حوله الخرافات والأساطير. لقد استجيبت الدعوة ولم يحل دونها مألوف البشر الذي يحسبونه قانوناً ثم يحسبون أنّ مشيئة الله سبحانه مقيدة بهذا القانون! وكلّ مايراه الانسان ويحسبه قانوناً لايخرج عن أن يكون أمراً نسبياً لامطلقاً ولانهائياً. فما يملك الانسان وهو محدود العمر والمعرفة.. وما يملك العقل وهو محكوم بطبيعة الانسان هذه أن يصل الى قانون نهائي ولا أن يدرك حقيقة مطلقة. فما أجدر الانسان أن يتأدّب في جناب الله وما أجدره أن يلتزم حدود طبيعته وحدود مجاله، فلا يخبط في التيه بلا دليل وهو يتحدّث عن الممكن والمستحيل، وهو يضع لمشيئة الله المطلقة إطاراً من تجاربه هو ومن مقرراته هو ومن عمله القليل (كذلك الله يفعل مايشاء) فالأمر مألوف مكرور معاد حين يردّ الى مشيئة الله وفعله الذي يتمّ دائماً على هذا النحو. ولكنّ الناس لايتفكّرون في الطريقة ولايتدبّرون الصنعة ولايستحضرون الحقيقة كذلك. بهذا اليسر وبهذه الطلاقة يفعل الله مايشاء. فماذا في أن يهب لزكريا غلاماً وقد بلغه الكبر وامرأته عاقر؟ إنّما هي مألوفات البشر التي يقرّرون قواعدهم عليها، ويتخذون منها قانوناً! فأمّا بالقياس الى الله فلا مألوف ولاغريب.. كلّ شيء مردّه الى توجّه المشيئة. والمشيئة مطلقة من كلّ القيود"(١).

* إنّ من كرم الله وفضله العظيم على زكريا -عليه السلام- أن سمّى له ابنه الذي بشّره به. ولايخفى أنّ هذا أمر عظيم.. الله عزّ وجلّ هو الذي يسمّي الولد بنفسه سبحانه!! إنّ الواحد منّا ليسرّ أكبر سرور حين يسمّي ولده إنسان فاضل تقي -ولله المثل الأعلى- فكيف إذا كان الذي يسمّي هو الله صاحب الجلالة والعظمة ربّ كل شيء.. إنّها منزلة عالية للأب زكريا وابنه يحيى -أيضاً- الذي سمّاه الله.

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج١ ص(٢٩٤-٢٩٥).

كما أنّ الله اختار له اسماً لم يسبق وأن سمّي من قبل، وهذا أيضاً فضل عظيم ومنّة كبرى من الله؛ "فاسم يحيى مبتكر، وللأسماء المبتكرة الفريدة الوحيدة مزايا منها: قوّة تعريف المسمّى بها لقلّة الاشتراك، إذ لايكون مثله كثيراً مدّة وجوده، وكذلك مزية اقتداء الناس به من بعد حين يسمّون أبناءهم ذلك الاسم تيمّناً واستجادة" (١).

وممّا يلاحظ أنّ تسمية الأبناء بأسماء مبتكرة جديدة فريدة يحرص عليها كثير من الآباء ويتسابقون فيها؛ وذلك لأنّ للاسم الجديد أو القليل أو النادر من مزايا جميلة، ولاحرج في هذا على الآباء.

وكأنّ في قوله: (لم نجعل له من قبل سمّياً) دلالة على امتياز الاسم الحسن الذي لم يسبق إليه من قبل. والله أعلم.

* إنّ الله سبحانه يجازي عبده المطيع الخاشع له المتوكّل عليه بما لايتوقّعه ومن حيث لايحتسب، فهذا زكريا -عليه السلام- يدعو الله عزّ وجلّ أن يهب له ولداً صالحاً؛ فتأتيه البشارة بالولد وزيادة على ذلك الإخبار بما سيكون عليه ولده -المبشّر به- في حياته من العلم والنبوة والمنزلة الرفيعة.. وهذا شأن الله مع عباده الصالحين في كلّ زمان ومكان، ولاحدّ لفضل الله ونعمه؛ وماذاك إلاّ لعظيم شكرهم لله على كلّ نعمه عليهم، ويصدق على هذا قول الله تعالى: (وإذ تأذّن ربّكم لئن شكرتم لأزيدنّكم.. الآية) "إبراهيم:٧" .

٢- العبر والفوائد من موقف زكريا من البشارة :

* إنّ تعجّب زكريا -عليه السلام- كما قلنا ليس هو من باب الانتقاص والتقليل لقدرة الله فحاشا لنبي أن يعتقد ذلك عوضاً عن أي إنسان مؤمن بأنّ الله على كلّ شيء قدير؛ ولكن هي فرحة الأب المتلهّف الذي قد حرم من الأبوّة ومشاعرها طوال ستين

---

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور: ج١٦ ص٦٩.

سنة أو أكثر!! فما ملك هذا الأب حين سمع هذا الخبر إلاّ أن تعجّب تعجّب فرح وسرور. وكأنّي أتصوّر حال زكريا -عليه السلام- بحال من مكث هو وامرأته فترة طويلة من الزمن ولم يكتب الله لهما الانجاب؛ وفجأة يبشّر -بعد هذه المدّة الطويلة- بأنّ زوجته قد حملت بمولود!!! إنّه لموقف لايستطيع القلم أن يعبّر عنه؛ لما يحتويه من المشاعر الفيّاضة واللحظات المغمورة بالسعادة.

وممّا لاشكّ فيه أنّ موقفاً كهذا إذا مرّ بالانسان المؤمن: مايلبث إلاّ وأن يزيد من إيمانه بالله تبارك وتعالى، وبقدرته المعجزة التي لايعجزها شيء، وبأمره الذي لايستطيع أحد أن يغيّره أو يبدّله..

وقد يبذل الرجل والمرأة محاولات عدّة وفحوصات متكرّرة للبحث عن سبب عدم الحمل، وقد يصف الأطبّاء عدداً من العلاجات لازالة العقم الموجود؛ ولكن ما أن تأتي المشيئة الربّانية ويقدّر الله تلك النفس المنفوسة إلاّ ويأتي الحمل بقدرة الله وبعد أن عجز الجميع! وتلك نعمة الله يهبها لمن يشاء من عباده، ويحضرني في هذا المقام قوله تعالى: (لله ملك السماوات والأرض يخلق مايشاء يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور. أو يزوّجهم ذكراناً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيماً إنّه عليم قدير) "الشورى: ٤٩-٥٠" ففي هذه الآية الكريمة يبيّن الله أنّه ماشاء كان ومالم يشأ لم يكن، وأنّه يعطي من يشاء ويمنع من يشاء، ولامانع لما أعطى ولامعطي لما منع، وأنّه يخلق مايشاء يهب لمن يشاء إناثاً، ويهب لمن يشاء الذكور، ويعطي لمن يشاء من الناس ذكراً وأنثى، كما أنّه سبحانه يجعل من يشاء عقيماً لانسل له ولا ولد؛ وهو عليم سبحانه بمن يستحقّ كل قسم من هذه الأقسام قدير على مايشاء من تفاوت الناس في ذلك.

وهذا المقام شبيه بقوله تعالى عن عيسى عليه السلام: (ولنجعله آية للناس) أي دلالة لهم على قدرته تعالى؛ حيث خلق الخلق على أربعة أقسام: فآدم -عليه السلام- مخلوق من تراب لامن ذكر ولاأنثى، وحوّاء مخلوقة من ذكر بلا أنثى، وسائر الخلق سوى عيسى من ذكر وأنثى، وعيسى من أنثى بلا ذكر؛ فتمّت الدلالة بخلق عيسى بن مريم عليه السـلام. ولهذا قال تعالى: (ولنجعله آية للناس) فهذا المقام في الآباء

والمقام الأول في الأبناء وكلّ منهما أربعة أقسام فسبحان العليم القدير(١).

* وممّا يلاحظ في إعطاء الله زكريا الآية في وجود الحمل؛ أنّه سبحانه أمره بذكره فقال: (آيتك ألّا تكلّم الناس ثلاثة أيام إلّا رمزاً. واذكر ربّك كثيراً وسبّح بالعشي والإبكار) وفي هذا يقول محمد بن كعب القرظي: لو رخّص لأحد في ترك الذكر لرخّص لزكريا، ولرخّص للرجل يكون في الحرب (ياأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً.. الآية) "الأنفال:٤٥"(٢).
وهذا ممّا يدلّ على أهميّة ذكر الله تعالى وعظم منزلته، وفيه حثّ على ذكر الله في جميع الأحوال.
وللإمام ابن قيّم الجوزيّة كلام جميل مفيد حول منزلة الذكر نذكر جزءاً منه للفائدة، يقول رحمه الله: وهي منزلة القوم الكبرى، التي منها يتزوّدون. وفيها يتّجرون. وإليها دائماً يتردّدون.
و"الذكر" منشور الولاية، الذي من أعطيه اتصل، ومن منعه عزل.
وهو قوت قلوب القوم، الذي متى فارقها صارت الأجساد لها قبوراً. وعمارة ديارهم. التي إذا تعطّلت عنه صارت بوراً. وهو سلاحهم الذي يقاتلون به قطاع الطريق. وماؤهم الذي يطفئون به التهاب الحريق. ودواء أسقامهم الذي متى فارقهم انتكست منهم القلوب. والسبب الواصل، والعلاقة التي كانت بينهم وبين علّام الغيوب.

إذا مرضنا تداوينا بذكركم فنترك الذكر أحياناً فننتكس

به يستدفعون الآفات، ويستكشفون الكربات. وتهون عليهم به المصيبات. إذا أظلّهم البلاء فإليه ملجؤهم. وإذا نزلت بهم النوازل. فإليه مفزعهم. فهو رياض جنّتهم التي فيها يتقلّبون. ورؤوس أموال سعادتهم التي بها يتّجرون. يدع القلب الحزين

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٤ ص١٢١.
(٢) تفسير القرطبي: ج٤ ص٨٢.

ضاحكاً مسروراً. ويوصل الذاكر إلى المذكور. بل يدع الذاكر مذكوراً.

وفي كلّ جارحة من الجوارح عبوديّة مؤقّتة. و"الذكر" عبودية القلب واللسان وهي غير مؤقّتة. بل هم يؤمرون بذكر معبودهم ومحبوبهم في كلّ حال: قياماً، وقعوداً، وعلى جنوبهم. فكما أنّ الجنّة قيعان، وهو غراسها. فكذلك القلوب بور خراب. وهو عمارتها، وأساسها.

وهو جلاء القلوب وصقالها. ودواؤها إذا غشيها اعتلالها. وكلّما ازداد الذاكر في ذكره استغراقاً: ازداد المذكور محبّة إلى لقائه واشتياقاً. وإذا واطأ في ذكره قلبه للسانه: نسي في جنب ذكره كلّ شيء. وحفظ الله عليه كلّ شيء وكان له عوضاً من كلّ شيء.

به يزول الوقر من الأسماع، والبكم عن الألسن، وتنقشع الظلمة عن الأبصار. زيّن الله به ألسنة الذاكرين. كما زيّن بالنور أبصار الناظرين. فاللسان الغافل: كالعين العمياء، والأذن الصمّاء، واليد الشلاء.

وهو باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده، مالم يغلقه العبد بغفلته.

قال الحسن البصري رحمه الله: تفقّدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء: في الصلاة. وفي الذكر. وقراءة القرآن. فان وجدتم... وإلاّ فاعلموا أنّ الباب مغلق.

وبالذكر: يصرع العبد الشيطان. كما يصرع الشيطان أهل الغفلة والنسيان.

وهو روح الأعمال الصالحة. فإذا خلا العمل عن الذكر كان كالجسد الذي لاروح فيه. والله أعلم.

وهو في القرآن على عشرة أوجه:

الأول : الأمر به مطلقاً ومقيّداً.

الثاني: النهي عن ضدّه من الغفلة والنسيان.

الثالث: تعليق الفلاح باستدامته وكثرته.

الرابع: الثناء على أهله، والإخبار بما أعدّ الله لهم من الجنّة والمغفرة.

الخامس: الإخبار عن خسران من لها عنه بغيره.

السادس: أنّه سبحانه جعل ذكره لهم جزاء لذكرهم له.

السابع : الإخبار أنّه أكبر من كلّ شيء.

الثامن : أنّه جعله خاتمة الأعمال الصالحة، كما كان مفتاحها.
التاسع : الإخبار عن أهله بأنّهم هم أهل الانتفاع بآياته. وأنّهم أولوا الألباب دون غيرهم.
العاشر : أنّه جعله قرين جميع الأعمال الصالحة وروحها. فمتى عدمته كانت كالجسد بلا روح(١).

ولايسعنا المقام بأن نفصّل بأكثر من هذا، وحسب ماذكرنا دالاّ على عظم الذكر واهميّته؛ وحاثّا ودافعاً إليه.

* ومن البلاغة القرآنية مايلي :

- قوله: (وكانت امرأتي عاقراً) حال منه مؤكّدة للاستبعاد إثر تأكيد. أي كانت امرأتي عاقراً لم تلد في شبابها وشبابي وهي الآن عجوز وقد بلغت أنا من الكبر مابلغت(٢).

- قوله: (وقد بلغت من الكبر عتيّا) فيه: أنّه شبّه عظامه هنا بالأعواد اليابسة على طريق المكنية، وإثبات وصف العُتيّ لها استعارة تخييلية(٣).

---

(١) مدارج السالكين لابن قيّم الجوزية: ج٢ ص(٤٢٢-٤٢٥)؛ تهذيب المدارج للعزي، ص(٤٦٣-٤٦٤).
(٢) تفسير أبي السعود: ج٥ ص٢٥٦.
(٣) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور: ج١٦ ص٧١.
والاستعارة التخييلية: هي ماكان المستعار له فيها غير محقّق لاحسّاً ولاعقلاً، بل هو صورة وهمية محضة لايشوبها شيء من التحقيق. (انظر: علوم البلاغة للمراغي ص(٢٨١-٢٨٢).).

٤ - العبر والفوائد من مكانة يحيى عند الله :

* يتكلّم الشهيد سيد قطب حول هذا المقام فيقول: "هاهو ذا أول موقف ليحيى.. هو موقف انتدابه ليحمل الأمانة الكبرى (يايحيى خذ الكتاب بقوة) نودي ليحمل العبء وينهض بالأمانة في قوّة وعزم لايضعف ولايتهاون ولايتراجع عن تكاليف الوراثة.

(وآتيناه الحكم صبياً. وحناناً من لدنّا وزكاة وكان تقيّا) هذه هي المؤهّلات التي زوّده الله بها وأعدّه على احتمال ماكلّفه إيّاه عندما ناداه. آتاه الحكمة: فكان فذّاً في زاده كما كان فذّاً في اسمه وميلاده. فالحكمة تأتي متأخرة ولكن يحيى زوّد بها وهو صبيّ. وآتاه الحنان هبة لدنّية لايتكلّفه ولايتعلّمه، إنّما هو مطبوع عليه ومطبوع به، والحنان صفة ضروريّة للنبيّ المكلّف رعاية القلوب والنفوس وتألّفها واجتذابها إلى الخير في رفق. وآتاه الطهارة والعفّة ونظافة القلب والطبع يواجه بها أدران القلوب ودنس النفوس فيطهّرها ويزكّيها (وكان تقيّا) موصولاً بالله متحرجاً معه مراقباً له. يخشاه ويستشعر رقابته عليه في سرّه ونجواه."(١).

أقول: وفي ذكر الله لما كان عليه يحيى من صفات أهّلته لحمل الأمانة لإشارة إلى كلّ داعية يحمل أمانة الدين وتبليغه بأنّ عليه أن يحمل في نفسه ماحمله يحيى من العلم والحكمة، والشفقة والحنان على الناس، والنظر إلى إصلاح نفسه وتزكيتها، مع إصلاح عيوب الآخرين وتزكيتهم: مع مراقبة الله وخشيته في السرّ والعلن.. والداعية قدوة للآخرين في كلّ شيء، فليكن قدوة حسنة.

ألا فليعتبر الدعاة إلى الله وليحملوا ماحمله الأنبياء من مؤهّلات الدعوة والتبليغ.

* ولأهميّة صفة المراقبة لله عند الداعية وعظيم أثرها في سلوكه العام والخاصّ نودّ أن نتكلّم عن حقيقة هذه الصفة: "فالمراقبة هي: دوام علم العبد، وتيقّنه باطّلاع

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج٤ ص٢٣٠٤.

الحقّ سبحانه وتعالى على ظاهره وباطنه. فاستدامته لهذا العلم واليقين: هي "المراقبة" وهي ثمرة علمه بأنّ الله سبحانه رقيب عليه، ناظر إليه، سامع لقوله. وهو مطّلع على عمله كلّ وقت وكلّ لحظة، وكلّ نفس وكلّ طرفة عين.

وقد قيل: من راقب الله في خواطره، عصمه في حركات جوارحه.

وقال الجنيد: من تحقّق في المراقبة خاف على فوات لحظة من ربّه لاغير.

وقال ذو النّون: علامة المراقبة إيثار ماأنزل الله، وتعظيم ماعظّم الله، وتصغير ماصغّر الله.

وقال إبراهيم الخوّاص: المراقبة خلوص السرّ والعلانية لله عزّ وجلّ.

وقيل: أفضل مايلزم الانسان نفسه في هذه الطريق: المحاسبة والمراقبة، وسياسة عمله بالعلم.

وقال أبو حفص لأبي عثمان النيسابوري: إذا جلست للنّاس فكن واعظاً لقلبك ونفسك، ولايغرّنّك اجتماعهم عليك، فإنّهم يراقبون ظاهرك، والله يراقب باطنك.

وأرباب الطريق مجمعون على أنّ مراقبة الله تعالى في الخواطر: سبب لحفظها في حركات الظواهر. فمن راقب الله في سرّه، حفظه الله في حركته في سرّه وعلانيته.

و"المراقبة" هي التعبّد بأسمائه "الرقيب، الحفيظ، العليم، السميع، البصير" فمن عقل هذه الأسماء، وتعبّد بمقتضاها: حصلت له المراقبة.

ومن ألطف ماوصفت به المراقبة أنّها:

مراقبة الحقّ تعالى في السير إليه على الدوام، بين تعظيم مُذهل ومداناة حاملة، وسرور باعث.

فأمّا التعظيم المذهل فهو: امتلاء القلب من عظمة الله عزّ وجلّ، بحيث يذهله ذلك عن تعظيم غيره، وعن الالتفات إليه. فلاينسى هذا التعظيم عند حضور قلبه مع الله. بل يستصحبه دائماً. فانّ الحضور مع الله يوجب أنساً ومحبّة، إن لم يقارنهما تعظيم، أورثاه خروجاً عن حدود العبوديّة ورعونة. فكلّ حبّ لايقارنه تعظيم المحبوب: فهو سبب للبعد عنه، والسقوط من عينه.

وبذلك تضمّن الوصف خمسة أمور: سير إلى الله، واستدامة هذا السير، وحضور القلب معه وتعظيمه، والذهول بعظمته عن غيره.

وأمّا المداناة الحاملة فهي: الدنوّ الحامل له على هذه الأمور الخمسة، وهذا الدنو يحمله على التعظيم الذي يذهله عن نفسه. وعن غيره. فإنّه كلّما ازداد قرباً من الحقّ ازداد له تعظيماً، وذهولاً عن سواه، وبعداً عن الخلق.

وأمّا السرور الباعث فهو الفرحة والتعظيم، واللذّة التي يجدها في تلك المداناة فإنّ سرور القلب بالله وفرحه به، وقرة العين به. لايشبهه شيء من نعيم الدنيا ألبتة. وليس له نظير يقاس به. وهو حال من أحوال أهل الجنّة. حتى قال بعض العارفين: إنّه لتمرّ بي أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنّة في مثل هذا، إنّهم لفي عيش طيب.

ولاريب أنّ هذا السرور يبعثه على دوام السير إلى الله عزّ وجلّ، وبذل الجهد في طلبه، وابتغاء مرضاته. ومن لم يجد هذا السرور، ولاشيئاً منه، فليتّهم إيمانه وأعماله. فإنّ للايمان حلاوة، من لم يذقها فليرجع، وليقتبس نوراً يجد به حلاوة الايمان"(١).

ألا فليتصف الدعاة بالمراقبة حتى يكونوا من الأتقياء..

* ثمّ إنّ ذكر صفة برّ الوالدين من ضمن فضائله -عليه السلام- فيه إشارة إلى أنّ الانسان مهما بلغ من المنزلة والمكانة الدينية؛ فإنّه يبقى أساس خلقه وخيره برّه لوالديه. فمن كان فيه خير لوالديه كان فيه الخير للناس، ومن لم يكن فيه خير وبرّ لوالديه لم يكن فيه خير للناس ولاأهمّية لما يقدّمه للناس إنْ كان أقرب الناس إليه وأحقّهم بالبرّ لايبرّهما ويؤدّي لهما حقّهما! وإنّه لمن جهل بعض من يتصدّى للدعوة إلى الله أن يعتذر بانشغاله بالدعوة عن برّه لوالديه.

ألا فليع الدعاة حقيقة دورهم وواجبهم، وليعطوا كلّ ذي حقّ حقّه، وليكن التوازن عنواناً لهم في حياتهم كلّها.

---

(١) انظر مدارج السالكين لابن قيّم الجوزية ج٢ ص(٦٥-٦٧)، تهذيب المدارج للعزي ص(٢١١-٢١٢).

* إنّ من نعمة الله عزّ وجلّ العظيمة على عبده يحيى أن أعطاه السلامة والأمان في يوم ولادته ويوم موته ويوم بعثه.

وحول هذه الأحوال يقول ابن كثير: "هذه الأوقات الثلاثة أشدّ ماتكون على الانسان؛ فانّه ينتقل في كلّ منها من عالم إلى عالم آخر، فيفقد الأوّل بعد ماكان ألفه وعرفه، ويصير إلى الآخر ولايدري مابين يديه، ولهذا يستهلّ صارخاً إذا خرج من بين الأحشاء وفارق لينها وضمّها وينتقل إلى هذه الدار ليكابد همومها وغمّها. وكذلك إذا فارق هذه الدار وانتقل إلى عالم البرزخ بينها وبين دار القرار وصار بعد الدور والقصور إلى عرصة الأموات سكّان القبور، وانتظر هناك النفخة في الصور ليوم البعث والنّشور، فمن مسرور ومحبور ومن محزون ومثبور، ومابين جبير وكسير وفريق في الجنّة وفريق في السعير.

ولقد أحسن أحد الشعراء حيث يقول:

ولدتك أمّك باكياً مستصرخاً ... والناس حولك يضحكون سروراً

فاحرص لنفسك أن تكون إذا بكوا ... في يوم موتك ضاحكاً مسروراً(١)

وإنّه ليكفينا التفكّر فيما صوّره ابن كثير من شدائد هذه الأهوال الثلاثة لنعلم عظم نعمة الله على عبده الذي يعطيه السلامة فيها.

* ومن البلاغة القرآنية في الآيات مايلي:

- يقول أبو السعود حول قوله تعالى: (وحناناً من لدنّا): "عُطِفَ على (الحكم) وتنوينه للتفخيم وهو التحنّن والاشتياق، و(من) متعلّقة بمحذوف وقع صفة له مؤكّدة لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتيّة بالفخامة الاضافية، أي: وآتيناه رحمة عظيمة عليه كائنة من جنابنا، أو رحمة في قلبه وشفقة على أبويه وغيرهما"(٢).

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير: ج٢ ص٤٧٠.

(٢) تفسير أبي السعود: ج٥ ص٢٥٩.

- وفي قوله تعالى: (يايحيى خذ الكتاب بقوّة) الأخذ هنا استعارة للتّفهم والتدبّر والعمل بما فيه وإرشاد الناس إلى تعاليمه وحملهم عليها؛ كما يقال: أخذت العلم عن فلان؛ لأنّ المقتني بالشيء يشبه الآخذ(١).

- الطباق بين (ولد - يموت) في قوله: (وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت... الآية) (٢).

وبهذه العبر والفوائد يكمل حديثنا حول قصّة زكريّا ويحيى عليهما السلام.

والحمد لله ربّ العالمين

---

(١) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ج١٦ ص٧٦.
(٢) صفوة التفاسير للصابوني: ج٢ ص٢١٧.

الباب التاسع

"مريم بنت عمران مع أمّها وابنها عيسى عليهم السلام"

وفيه تمهيد وفصلان:

الفصل الأول: مريم بنت عمران مع أمّها. وفيه مبحثان:
المبحث الأول: بيان القصــة.
المبحث الثاني: العبر والفوائد.

الفصل الثاني: مريم بنت عمران مع ابنها عيسى عليهما السلام.
وفيه تقديم ومبحثان:
المبحث الأول: بيان القصّــة.
المبحث الثاني: العبر والفوائد.

"تمهـــــيد"

إنّ الله عزّ وجلّ أنزل ثلاثة وثمانين آية في أوائل سورة آل عمران؛ للردّ على النصارى الذين زعموا أنّ لله ولداً تعالى الله عمّا يقولون علوّاً كبيراً.

وقد روي في سبب نزولها مايلي: " أنّه قدم وفد نجران، وكانوا ستّين راكباً؛ على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفيهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم، وفي الأربعة عشر ثلاثة نفر إليهم يؤول أمرهم: العاقب وهو أمير القوم وصاحب مشورتهم الذي لايصدرون إلاّ عن رأيه، واسمه عبد المسيح. والسيّد ثمالهم (إمامهم) وصاحب رحلهم، واسمه الأيهم. وأبو حارثة بن علقمة أسقفهم وحبرهم، وإمامهم وصاحب مدراسهم، وكان قد شرف فيهم ودرس كتبهم؛ حتى حسن علمه في دينهم، وكانت ملوك الروم قد شرّفوه وموّلوه وبنوا له الكنائس لعلمه واجتهاده. فقدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودخلوا مسجده حين صلى العصر، عليهم ثياب الحِبَرات جِبابٌ وأردية، في جمال رجال بني الحارث بن كعب، يقول بعض من رآهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: مارأينا وفداً مثلهم، وقد حانت صلاتهم، فقاموا فصلّوا في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال صلى الله عليه وسلم: دعوهم . فصلّوا إلى المشرق. فكلّم السيد والعاقب رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقال لهما رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: أسلما. فقالا: قد أسلمنا قبلك، قال: كذبتما؛ منعكما من الاسلام دعاؤكما لله ولداً، وعبادتكما الصليب، وأكلكما الخنزير. قالا: إن لم يكن عيسى ولداً لله فمن أبوه؟ وخاصموه جميعاً في عيسى، فقال لهما النبي صلى الله عليه وسلم: ألستم تعلمون أنّه لايكون ولد إلا وهو يشبه أباه؟ قالوا: بلى، قال: ألستم تعلمون أنّ ربّنا حيّ لايموت، وأنّ عيسى يأتي عليه الفناء؟ قالوا: بلى، قال: ألستم تعلمون أنّ ربّنا قيّم على كلّ شيء يحفظه ويرزقه؟ قالوا: بلى، قال: فهل يملك عيسى من ذلك شيئاً؟ قالوا: لا، قال: فإنّ ربّنا صوّر عيسى في الرّحم كيف شاء، وربّنا لايأكل ولايشرب ولايحدث. قالوا: بلى، قال: ألستم تعلمون أنّ عيسى حملته أمّه كما تحمل المرأة، ثمّ وضعته كما تضع المرأة ولدها، ثمّ غذّي كما يغذّى الصبيّ، ثمّ كان يطعم ويشرب ويحدث؟ قالوا: بلى، قال: فكيف يكون هذا كما زعمتم؟

فسكتوا. فأنزل الله عزّ وجلّ صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية فيها"(١).

وإنّه لفي مطالعتنا لهذه الآيات الكريمة نجد أنّه سبحانه بيّن فيها أنّ عيسى عبد من عباده خلقه وصوّره في الرحم كما صوّر غيره من المخلوقات؛ وأنّه خلقه من غير أب كما خلق آدم من غير أب ولا أمّ وقال له كن فكان، وكذلك قد بيّن الله فيها أصل ميلاد أمّه مريم(٢)؛ وما كان من أمرها بعد ذلك، ثمّ كيف حملت بولدها عيسى.. كما جاء بسط هذا في سورة مريم أيضاً(٣).

---

(١) أسباب نزول القرآن للواحدي: ص(٩٠-٩١)؛ لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي: ص(٥١-٥٢).

(٢) قال محمد بن إسحاق: هي مريم بنت عمران بن باشم بن أمون بن ميشا بن حزقيا بن أحريق بن موثم بن عزازيا بن أمصيا بن ياوش بن أحريهو بن يازم بن يهفا شاط بن إيشا بن إيان.

وقال أبو القاسم بن عساكر: مريم بنت عمران بن ماثان بن العازر بن اليود بن أخنز بن صادق بن عيازوز بن إلياقيم بن آبيود بن زر بابيل بن شالتال بن يوحينا بن برشا بن أمون بن ميشا بن حزقيا بن أحاز بن موثام بن عزريا بن يورام بن يوشافاط بن إيشا بن إيبا بن رحبعام بن سليمان بن داود عليه السلام. وفيه مخالفة لما ذكره ابن إسحاق، ولكن لاخلاف في أنّها من سلالة داود عليه السلام.

وكان أبوها عمران صاحب بني إسرائيل في زمانه، وكانت أمّها وهي: حنّة بنت فاقود بن قبيل من العابدات. وكان زكريا نبيّ ذلك الزمان زوج أخت مريم "أشياع" في قول الجمهور، وقيل زوج خالتها أشياع. والأول هو الصحيح والثابت. والله أعلم (انظر: قصص الأنبياء لابن كثير ج٢ ص(٤٧٨-٤٧٩).

(٣) انظر: قصص الأنبياء لابن كثير: ج٢ ص٤٧٨.

ففي بابنا هذا نجد أنفسنا أمام قصّتين: قصّة عيسى عليه السلام مع أمّه مريم، وقصّة مريم مع أمّها. وحسب الترتيب التاريخي يحسن بنا أن نبدأ بقصة مريم بنت عمران مع أمّها، ثمّ نتناول قصّة عيسى مع أمّه. فيكون بذلك:

الفصل الأول: قصّة مريم مع أمّها. وفيه مبحثان:
المبحث الأول: بيان القصّة.
المبحث الثاني: العبر والفوائد.

ثمّ يليه الفصل الثاني: قصّة عيسى مع أمّه. وفيه مبحثان:
المبحث الأول: بيان القصة.
المبحث الثاني: العبر والفوائد.

ونسأله سبحانه التوفيق والسداد وهو المستعان.

الفصل الأول
"قصة مريم بنت عمران مع أمّها"

المبحث الأوّل: بيان القصّـــة

يقصّ الله علينا هذه القصّة في قوله:

(إذ قالت امرأة عمران ربّ إنّي نذرت لك مافي بطني محرّراً فتقبّل منّي إنّك أنت السميع العليم. فلمّا وضعتها قالت ربّ إنّي وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإنّي سمّيتها مريم وإنّي أعيذها بك وذريّتها من الشيطان الرجيم. فتقبّلها ربّها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً وكفّلها زكريّا كلّما دخل عيها زكريّا المحراب وجد عندها رزقاً قال يامريم أنّى لك هذا قالت هو من عند الله إنّ الله يرزق من يشاء بغير حساب) (١).

ويذكر الله -كذلك- حول قضيّة كفالتها قوله: (ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيّهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون) (٢).

وسيكون بياننا للقصّة من خلال الآيات السابقة على النحو التالي:

١- حقيقة النذر :

يروي محمد بن إسحاق وغيره: أنّ امرأة عمران كانت لاتحمل فرأت يوماً طائراً يزق فرخه، فاشتهت الولد، فدعت الله تعالى أن يهبها ولداً فاستجاب الله دعاءها،

---

(١) سورة آل عمران: ٢٥-٢٧.
(٢) سورة آل عمران: ٤٤.

فحاضت من فورها، فلمّا طهرت واقعها زوجها فحملت منه. ولمّا تحققت الحمل نذرت أن يكون محرّراً (خالصاً) مفرّغاً للعبادة ولخدمة بيت المقدس. فقالت: (ربّ إنّي نذرت لك مافي بطني محرّراً فتقبّل منّي إنّك أنت السميع العليم) أي السميع لدعائي العليم بنيّتي(١).

وإطلاق المحرّر على هذا المعنى الذي ذكرناه إطلاق تشريف؛ لأنّه لمّا خلص لخدمة بيت المقدس فكأنّه حُرّر من أسر الدنيا وقيودها إلى حريّة عبادة الله تعالى(٢).

وهي بهذا النذر كانت تظنّ أنّ ماسيكون في بطنها ذكراً، إذ لم يكن في شرعهم أن تحرّر أنثى لخدمة بيت المقدس، وإنّما يختصّ بهذا الذكور دون الإناث.

٢- ولادة حنّة بأنثى :

كانت تتوقّع أنّ ماستلده سيكون ذكراً، حتى يصحّ نذرها لخدمة بيت المقدس، ولكنّ الله يصرّف الأمور كيف يشاء وكما يريد؛ ففوجئت حين وضعت وليدها أنّه أنثى (فلمّا وضعتها قالت ربّ إنّي وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت(٣) وليس الذكر كالأنثى).

وهي لم تشترط ذلك في نذرها؛ فقالت خائفة أنّ نذرها لم يقع الموقع الذي يعتدّ به، ومعتذرة من إطلاقها النذر المتقدّم: (ربّ إنّي وضعتها أنثى). فقولها هذا ليس على سبيل الإعلام لله تعالى، فالله لايحتاج إلى إعلام؛ بل قالته على سبيل الاعتذار.

وقوله تعالى: (والله أعلم بما وضعت) على قراءة (وضعتُ) بضمّ التاء، فهو على تقدير أنّه حكاية لكلامها، وتفيد أنّها لمّا قالت: (إنّي وضعتها أنثى) خافت أن

---

(١) انظر: قصص الأنبياء لابن كثير ج٢ ص٤٧٩؛ تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج١ ص٢٥٩.

(٢) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ج٣ ص٢٣٢.

(٣) قرأ ابن عامر وأبوبكر: (وضعتُ) بضمّ التاء، جعلوها من كلام أمّ مريم، وقرأ الباقون: (وضعتْ) بسكون التاء على أنّه من كلام الله تعالى. (حجة القراءات لابن زنجلة: ص١٦٠).

يظنّ بها أنّها تخبر الله تعالى فأزالت الشبهة بقولها هذا، وقد ثبت آنفاً أنّها قالت ذلك للاعتذار لاللاعلام. وأمّا على قراءة الجمهور بالجزم أي بسكون التاء في (وضعتْ) فعلى أنّه كلام الله، وتفيد أنّ الله قال ذلك تعظيماً لولدها، وتجهيلاً لها بقدر ذلك الولد، ومعناه: أنّ الله أعلم بالشيء الذي وضعت وبما علّق به من عظائم الأمور وأن يجعله وولده آية للعالمين.

وهي جاهلة بما في علم الله ولذلك تحسّرت بقولها: (وليس الذكر كالأنثى)، وكلامها هذا هو خبر مستعمل في التحسّر لفوات ماقصدته من أن يكون المولود ذكراً فتحرّره لبيت المقدس.

ويذكر الفخر الرازي -رحمه الله- معنيين لهذا القول:

الأول: أنّ مرادها تفضيل الولد الذكر على الأنثى، وسبب هذا التفضيل من وجوه:

- أنّ شرعهم لايجوّز تحرير الاناث.
- أنّ الذكر يصحّ أن يستمرّ على خدمة موضع العبادة، ولايصحّ ذلك في الأنثى لمكان الحيض وسائر عوارض النساء.
- الذكر يصلح لقوّته وشدّته للخدمة دون الأنثى فانّها ضعيفة لاتقوى على الخدمة.
- أنّ الذكر لايلحقه عيب في الخدمة والاختلاط بالناس وليس كذلك الأنثى.
- أنّ الذكر لايلحقه من التهمة عند الاختلاط مايلحق بالأنثى.

والمعنى الثاني: هو أنّها قصدت ترجيح هذه الأنثى على الذكر، كأنّها قالت: الذكر مطلوبي، وهذه الأنثى موهوبة لله تعالى؛ وليس الذكر الذي يكون مطلوبي كالأنثى التي هي موهوبة لله. وهذا الكلام يدلّ على أنّها مستغرقة في معرفة جلال الله عالمة بأنّ مايفعله الربّ بالعبد خير ممّا يريده لنفسه(١).

---

(١) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ج٨ ص(٢٦-٢٧).

أقول: والمعنى الأول هو الراجح؛ لأنّه هو المناسب لحالها وشأنها في ذلك الوقت من الحدث، ولما ذكرناه من أنّ الذكر ليس كالأنثى من عدّة وجوه، وكما قال بهذا جمهور المفسّرين. والله أعلم.

٢- تسمية المولودة وتعويذها :

ولكي تظهر -أمّ مريم- أنّها غير راجعة عن نيّتها؛ وإن كان ماوضعته أنثى، وأنّها وإن لم تكن خليقة بخدمة بيت المقدس فلتكن من العابدات فيه إذاً (وإنّي سمّيتها مريم) ومريم في لغتهم العابدة، فأرادت بهذه التسمية أن تطلب من الله تعالى أن يعصمها من آفات الدين والدنيا، والذي يؤكّد هذا قولها بعد ذلك: (وإنّي أعيذها بك وذريّتها من الشيطان الرجيم)(١).
ونلاحظ أنّها قد كرّرت قولها (إنّي) في كلامها: (وإنّي سمّيتها مريم وإنّي أعيذها..)، وهذا التكرار إنّما هو للتأكيد؛ لأنّه قد يشعر كلامها السابق أنّها كارهة ماجاءتها فستعرض عنها ولاتشتغل بها، فأكّدت في كلامها -هذا- إظهاراً لرضاها بما قدّر الله تعالى، ولذلك انتقلت للدعاء لها الدالّ على الرضا والمحبّة(٢).

وقد استدلّ الفخر الرازي من تسميتها لبنتها بأنّ أباها عمران كان قد مات في حال حملها بها؛ إذ تولّت هي تسميتها، والعادة أنّ ذلك يتولّاه الآباء(٣).
وأقول: إنّ هذا ليس سبباً صريحاً في عدم حياة الأب؛ فقد تتولّى الأمّ تسمية مولودها ولامانع، ولكن ذكر الله لكفالة زكريّا- عليه السلام- لمريم يدلّ بوضوح على أنّ أباها لم يكن موجوداً آنذاك.

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود ج٢ ص٢٩؛ التفسير الكبير للفخر الرازي ج٨ ص٢٧.
(٢) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ج٢ ص٢٢٤.
(٣) التفسير الكبير للفخر الرازي: ج٨ ص٢٧.

* وفي تعويذها لمريم يروى عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: "مامن مولود إلاّ والشيطان يمسّه حين يولد فيستهلّ صارخاً من مسّة الشيطان إلاّ مريم وابنها" ثمّ يقول أبو هريرة: واقرؤا إن شئتم (وإنّي أعيذها بك وذريّتها من الشيطان الرجيم) (١).
وتعويذها بالله يعني أنّها استجارت والتجأت بالله عزّ وجلّ من شرّ الشيطان.
وذريّتها هو ولدها عيسى عليه السلام، وهذا مادلّ عليه الحديث الشريف أيضاً.

٤- كفالة زكريّا -عليه السلام- لمريم :

وتأتي الإجابة سريعة من الله عزّ وجلّ لدعاء أمّ مريم: (فتقبّلها ربّها بقبول حسن) فقبل الله مريم ورضي بها في النذر مكان الذكر؛ ولم يكن ذلك مشروعاً من قبل.
وقد عرف هذا القول بوحي من الله لزكريا عليه السلام؛ لأنّ هذا الكلام ليس له طريق إلاّ من الوحي عن الله(٢).
ومع تقبّلها الحسن أنبتها نباتاً حسناً. أي: انشاها نشأة صالحة بعيدة عن سبيل الشيطان.
كما أنّ الله يسّر لها أسباب صلاحها بأن كفّلها زكريا -(وكفّلها(٣) زكريا)- وكان نبيّ ذلك الزمن.
وفي شأن كفالتها قال محمد بن إسحاق: وما ذلك إلاّ أنّها كانت يتيمة(٤).

---

(١) رواه البخاري: (٦٠) كتاب أحاديث الانبياء، (٤٤) باب قول الله تعالى (واذكر في الكتاب مريم..)، حديث(٣٤٣١) (فتح الباري).
(٢) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ج٣ ص٢٢٥.
(٣) قرأ عاصم وحمزة والكسائي: (وكفّلها) بالتشديد، وقرأ الباقون: (وكفلها) بالتخفيف (انظر: حجة القراءات لابن زنجلة ص١٦١).
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج١ ص(٢٥٩-٢٦٠).

وقد ذكر البعض أنّ أباها عمران قد توفّي وهي في بطن أمّها، وقال آخرون: أنّه توفّي وهي طفلة صغيرة محتاجة إلى من يكفلها ويقوم بشأنها(١).

أقول: والخلاف في هذا بسيط وليس له أثر يذكر، والله أعلم بالصحيح من ذلك؛ إذ ليس هناك خبر صحيح يؤكّد أحد القولين، والمهمّ أنّ الله جعل كفيلها زكريا -عليه السلام- لما أراده لها من النشأة الصالحة والتربية الحسنة المبنيّة على العلم النافع والعمل الصالح.

وكان زكريا -عليه السلام- زوجاً لأخت مريم، ويدلّ على هذا ماجاء في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم -بحديث الإسراء- أنّه قال: "..ففتح لنا فإذا أنا بابني الخالة عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا عليهم صلوات الله... الحديث" (٢).

وقد ذكر الله سبحانه أنّ العبّاد في بيت المقدس قد تنازعوا في كفالة مريم واختصموا حتى أنّهم احتكموا إلى القرعة فاقترعوا: (ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيّهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون) "آل عمران:٤٤" وما هذا إلاّ لمقام أبيها عندهم من الامامة، ولابتغاء الأجر والمثوبة بكفالتها كذلك.. وقد ذكر عكرمة والسدّي وقتادة والربيع بن أنس وغيرهم: أنّهم ذهبوا إلى نهر الأردن واقترعوا هنالك على أن يلقوا أقلامهم فأيّهم يثبت مع جرية الماء فهو كافلها، فألقوا أقلامهم فاحتملها الماء إلاّ قلم زكريا فإنّه ثبت، ويقال: إنّه ذهب صاعداً يشقّ جرية الماء، وكان مع ذلك هو كبيرهم وإمامهم ونبيّهم(٢).

---

(١) قال بذلك محمد علي الصابوني في النبوة والأنبياء ص١٨٩، وكذلك عبد الوهاب النجار في قصصه ص٤٤٨، وطبارة ص٢١٦. وخالفهم محمد أحمد جاد المولى في قصصه ص٢٠٨ وذكر أنّها ولدت وأبوها قد مات.

(٢) رواه مسلم: كتاب الايمان، حديث(٢٤٦).

(٢) انظر: قصص الأنبياء لابن كثير ج٢ ص٤٨٠؛ تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج١ ص٢٦٢.

وهكذا فإنّ زكريا -عليه السلام- هو الذي كفلها بإذن الله ومشيئته ولذلك قال سبحانه: (وكفّلها زكريا)، وقد أوحى إليه الله أن يجعلها مقيمة في المسجد بعد ذلك للعبادة والخدمة ولم يكن ذلك للنساء قبلها.

ويستنتج الطاهر بن عاشور استنتاجاً حسناً فيقول: ولعلّ هذا إرهاص بأنّه سيكون منها رسول ناسخ لأحكام كثيرة من التوراة؛ لأنّ خدمة النساء للمسجد لم تكن مشروعة(١).

٥- كرامة الله لمريم :

وكانت مريم محلاً لكرامة الله، والكرامة لاتكون إلاّ لأوليائه الذين بلغوا غاية الصلاح والتقوى، وحقّت لها الكرامة وقد اصطفاها الله على نساء العالمين ممّن كان قبلها وفي زمانها. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "خير نسائها مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة بنت خويلد"(٢)، وقال عليه الصلاة والسلام أيضاً: "فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام، كَمُل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلاّ مريم بنت عمران وآسيا امرأة فرعون"(٣).

ومن كرامة الله لها ماحكته لنا الآية: (كلّما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يامريم أنّى لك هذا قالت هو من عند الله إنّ الله يرزق من يشاء بغير حساب). فانّه كلّما يدخل زكريا -عليه السلام- عليها المحراب الذي تتعبّد فيه؛ يجد عندها رزقاً ليس هو ممّا يعهد في هذا الوقت من الزمن. قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والنخعي والضحاك وقتادة وغيرهم: "أي وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف"(٤).

---

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور: ج٣ ص٢٣٥.
(٢) رواه البخاري: كتاب الأنبياء، حديث(٢٢٠)، ج٤ ص٢١٨.
(٣) رواه البخاري: كتاب الأنبياء، حديث(٢٢١)، ج٤ ص٢١٨.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج١ ص٣٦٠.

وحين يرى زكريا ذلك يسألها مستفسراً عن المكان الذي جاءتها منه هذه الفاكهة (أنّى لك هذا)؟ فتجيبه: (قالت هو من عند الله) فمصدره من الله، ثمّ دلّت على امكانية ذلك بقولها: (انّ الله يرزق من يشاء بغير حساب).. إنّه كرامة من كرامات الله لعباده الصالحين، فالله يرزق من يريد رزقه بما لايُعرف مقداره؛ لأنّ ذلك موكول إلى فضل الله سبحانه.

وأمام هذا المشهد العظيم من الكرامة لمريم؛ ورؤية خارق العادة، يدعو زكريا متأثّراً وقد اشتاق إلى ولد صالح مثلها -وقد تكلّمنا فيما سبق عن هذا الموقف- (هنالك دعا زكريا ربّه قال ربّ هب لي من لدنك ذريّة طيبة إنّك سميع الدعاء).

وبهذا المشهد تمّت قصة مريم مع أمّها حنّة.. مشهد كرامة الله لأوليائه الصالحين المتّقين.

المبحث الثاني: العبر والفوائد

١- العبر والفوائد من أمر النذر :

* إنّ من فضل الله على أمّ مريم؛ ومن معجزة الله فيها أن جعلها تحبل وهي قد بلغت من الكبر ما بلغت وقد كانت عاقراً في أيام حياتها السابقة، وما ذاك إلاّ لمنزلتها..

ومن ذلك -أيضاً- أنّ ابنتها التي وهبها الله لها ولدت هي -أيضاً- ولداً وحملت به من غير أب، ففي كلّ من مريم وأمّها عبرة ومعجزة.

* ويدلّ نذرها مولودها لله -بأن يكون خالصاً لعبادته وخدمة بيت المقدس- على ماتحلّت به من صدق الايمان وقوّة المحبّة لله عزّ وجلّ. يقول الشهيد سيد قطب: "وقصّة النذر تكشف لنا عن قلب امرأة عمران -أمّ مريم- وما يعمره من ايمان، ومن توجّه الى ربّها بأعزّ ماتملك. وهو الجنين الذي تحمله في بطنها. خالصاً لربّها، محرّراً من كلّ قيد ومن كلّ شرك، ومن كلّ حقّ لأحد غير الله سبحانه" (١).

* وبمناسبة قولها: "محرّراً" يحضرني ماصطلح عليه بعض الناس من دعوى التحرّر على أنّها التفلّت من تعاليم الاسلام الحنيف، ولكن هذه هي العبودية للدنيا وشهواتها، وعبودية الجري وراء كلّ داعية شرّ. ولسيد قطب رحمه الله كلاماً حول هذه الحقيقة فيقول: "والتعبير عن الخلوص المطلق بأنّه تحرّر تعبير موح، فما يتحرّر حقّاً إلاّ من يخلص لله كلّه؛ ويفرّ إلى الله بجملته وينجو من العبودية لكلّ أحد ولكلّ شيء ولكلّ قيمة، فلاتكون عبوديته إلاّ لله وحده.. فهذا هو التحرّر إذن.. وماعداه عبوديّة وإن تراءت في صورة الحريّة! ومن هنا يبدو التوحيد هو الصورة المثلى

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج١ ص٢٩٢.

للتحرّر. فما يتحرّر إنسان وهو يدين لأحد غير الله بشيء ما في ذات نفسه، أو في مجريات حياته، أو في الأوضاع والقيم والموازين والقوانين والشرائع التي تصرّف هذه الحياة.. لاتحرّر وفي قلب الانسان تعلّق أو تطلّع أو عبوديّة لغير الله. وفي حياته شريعة أو قيم أو موازين مستمدّة من غير الله. وحين جاء الاسلام بالتوحيد جاء بالصورة الوحيدة للتحرّر في عالم الانسان" (١).

ألا فليع الذين ينعقون بدعوى الحرية -المحرّفة- حقيقة الحريّة!!

* إنّ العمل الصالح لايقبل إلاّ إذا كان خالصاً لوجه الله وفي ابتغاء مرضاته.. وبهذه المعاني اتّجهت امرأة عمران إلى ربّها حين نذرت ولدها: (فتقبّل منّي إنّك أنت السميع العليم).. وتقبّل الله نذرها: (فتقبّلها ربّها بقبول حسن..).. وحول هذا المعنى يقول سيد قطب أيضاً: "وهذا الدعاء الخاشع من امرأة عمران بأن يتقبّل ربّها منها نذرها- وهو فلذة كبدها- ينمّ عن ذلك الاسلام الخالص لله والتوجّه إليه كليّة، والتحرّر من كلّ قيد والتجرّد إلاّ من ابتغاء قبوله ورضاه" (٢).

* وعلى سبيل ذكر النذر نذكر الأمور التالية :

- إنّ النذر في حقيقته هو التزام الفعل بالقول، ممّا يكون طاعة لله عزّ وجلّ، ومن الأعمال قربة.

وحول الالتزام به نذكر أنّه لايلزم نذر المباح. والدليل عليه ماروي عن ابن عباس قال: بينا النبي صلى الله عليه وسلم يخطب إذا هو برجل قائم فسأل عنه فقالوا: أبو إسرائيل نذر أن يقوم ولايقعد ولايستظلّ ولايتكلّم ويصوم. فقال صلى الله عليه

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج١ ص٢٩٢.
(٢) المرجع السابق: ج١ ص٢٩٢.

وسلم: "مروه فليتكلّم وليستظلّ وليقعد وليتمّ صومه"(١). فأخبره بإتمام العبادة ونهاه عن فعل المباح. وأمّا المعصية فهي ساقطة إجماعاً؛ فقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنّه قال: "من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصه فلايعصه(٢)"(٣).

- والنذر في مثل مانذرت به أمّ مريم صحيح في الشريعة الاسلامية، فللانسان أن ينذر أن ينشىء ابنه الصغير على عبادة الله وطاعته، وأن لايشغله بغيرهما وأن يعلّمه القرآن والفقه وعلوم الدين، وجميع ذلك نذور صحيحة؛ لأنّ فيها قربة إلى الله تعالى(٤).

- وفي قولها: (نذرت لك) دلالة على أنّه يقتضي الايجاب، وأنّ من نذر لله تعالى طاعة يلزمه الوفاء بها، ويدلّ كلامها هذا -أيضاً- على أنّ النذور تتعلّق على الأخطار وعلى أوقات مستقبلة؛ لأنّه معلوم أنّ قولها: (نذرت لك مافي بطني محرّراً) أرادت به بعد الولادة وبلوغ الوقت الذي يجوز في مثله أن يخلص لعبادة الله تعالى(٥).

- ويدلّ نذرها بهذه الصورة على جواز النذر بالمجهول؛ لأنّها نذرته ولم تكن تعلم أذكر هو أم أنثى(٦).

---

(١) رواه البخاري: كتاب الايمان والنذور، باب النذر فيما لايملك وفي معصية، حديث(٧٨)، ج٨ ص٢٥٦.
(٢) رواه البخاري: كتاب الأيمان والنذور، باب النذر في الطاعة، حديث(٧٠)، ج٨ ص٢٥٤.
(٣) انظر: أحكام القرآن لابن العربي ج١ ص(٢٦٨-٢٦٩).
(٤)، (٥)، (٦) انظر: أحكام القرآن للجصّاص ج٢ ص١١.

- ويدلّ نذرها -أيضاً- على أنّ للأمّ شأناً في الولاية على ولدها في تأديبه وتعليمه وإمساكه وتربيته، ولولا ذلك لما نذرته لله(١).

* أقول: وهذا ماينبغي أن تحرص عليه كلّ أمّ تجاه أبنائها، فخير الأمّهات من اهتمّت بجانب تربية أبنائها وتنشئتهم على طاعة الله.. والأمّهات -كما هو معلوم- هنّ منشئات الأجيال، فإن كنّ صالحات وأصلحن أولادهنّ، كان ماأخرجن من الأجيال صالحاً وأداة خير ورفعة للأمّة. وكما يقول أحدهم:

الأمّ مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق.

وكم ذخر تاريخنا الاسلامي لنماذج من هؤلاء الأمّهات الصالحات اللاتي ضربن أروع الأمثلة في تربية الأولاد على الاسلام والقيام بأمره والدعوة إليه؛ فكان لأولادهنّ عظيم الأثر في نهوض الأمّة ورفعتها..

* وعلى ماذكرناه: ينبغي أن تأخذ الأمّ قسطاً وافراً من التعليم، ومعرفة دين الله على وجهه الصحيح، وكذا لابدّ أن تتعلّم طرق التربية الاسلامية الصحيحة؛ حتى تستطيع القيام بمهمّتها كما يجب.

٢- العبر والفوائد من ولادة حنّة بأنثى :

* حول قوله تعالى: (فلمّا وضعتها قالت ربّ إنّي وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى..) يقول سيد قطب: "كلامها على هذا النحو فيه شكل المناجاة القريبة. مناجاة من يشعر أنّه منفرد بربّه، يحدث بما في نفسه، وبما بين يديه، ويقدّم له مايملك تقديماً مباشراً لطيفاً. وهي الحال التي يكون فيها هؤلاء

---

(١) أحكام القرآن للجصاص: ج٢ ص١١.

العبّاد المختارون مع ربّهم. حال الودّ والقرب والمباشرة والمناجاة البسيطة العبارة، التي لاتكلّف فيها ولاتعقيد.. مناجاة من يحسّ أنّه يحدّث قريباً وودوداً سميعاً مجيباً" (١).

وهذه الحالة تؤيّد ماذكرناه سابقاً عن صدق إيمانها وحبّها لله وقوّة صلتها به..

* ومن البلاغة القرآنية مايلي :

- قوله تعالى: (انّي وضعتها أنثى) خبر يستعمل في إنشاء التحذير، لظهور كون المخاطب وهو الله عليماً بكل شيء(٢).

- وقوله: (والله أعلم بما وضعتُ) على قراءة الضمّ في التاء، فانّ ذكرها لاسم الجلالة فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة، فيكون قرينة لفظية على أنّ الخبر مستعمل في التحسّر(٣).

- وقوله: (وليس الذكر كالأنثى) خبر مستعمل -أيضاً- في التحسّر؛ لفوات ماقصدته من أن يكون المولود ذكراً فتحرّره لخدمة بيت المقدس.

وتعريف الذكر تعريف الجنس لما هو مرتكز في نفوس الناس من الرغبة في مواليد الذكور، أي ليس جنس الذكر مساوياً لجنس الأنثى(٤).

- وأخيراً فانّ جملتي (والله أعلم بما وضعت)، (وليس الذكر كالأنثى) جملتان معترضتان لتعظيم الموضوع ورفع منزلة المولود(٥).

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج١ ص٣٩٢.

(٢) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور: ج٣ ص٢٣٢.

(٣) المرجع السابق: ج٣ ص٢٣٢.

(٤) المرجع السابق: ج٣ ص٢٣٢.

(٥) صفوة التفاسير للصابوني: ج١ ص٢٠٠.

٢- العبر والفوائد من تسمية المولودة وتعويذها :

* انّ من فضل أمّ مريم -أيضاً- بلوغها منزلة الرضا بما قدّره الله: فهي قد كانت ترجو أنْ ترزق ذكراً، ولكن قدّر الله أن يكون مولودها أنثى، فرضيت بذلك.
وقد ذكرنا من قبل أنّ تسميتها بمريم وانتقالها إلى الدعاء بتعويذها هو ممّا يظهر كمال رضاها بما قدّر الله..
وهذا ماينبغي أن يكون عليه حال المؤمنين، فالمؤمن الحقّ واقف مع اختيار الله له: معرض عن اختياره لنفسه. وهذا من قوّة معرفته بربّه تعالى، ومعرفته بنفسه..
وعلى سبيل ذكر الرضا نذكر قصّة اجتماع لبعض السلف الصالح أوردها الامام ابن القيّم في كتابه (مدارج السالكين) ليرينا حال المؤمن الصادق في رضاه.
يقول رحمه الله: "وقد اجتمع وهيب بن الورد، وسفيان الثوري، ويوسف بن أسباط. فقال الثوري: قد كنت أكره موت الفجاءة قبل اليوم. وأمّا اليوم: فوددت انّي ميّت.
فقال له يوسف بن أسباط: ولم؟
فقال: لما أتخوّف من الفتنة.
فقال يوسف: لكنّي لاأكره طول البقاء.
فقال الثوري: ولم تكره الموت؟
قال: لعلي أصادف يوماً أتوب فيه وأعمل صالحاً.
فقيل لوهيب: أيّ شيء تقول أنت؟
فقال: أنا لاأختار شيأً، أحبّ ذلك إليّ أحبّه الى الله.
فقبّله الثوري بين عينيه. وقال: روحانيّة وربّ الكعبة" (١).

---

(١) مدارج السالكين لابن قيّم الجوزيّة: ج٢ ص٢١٥.

* إنّ المطلب الحقيقي الذي ينبغي أن يطلبه الآباء لأبنائهم هو أن يحصّنهم الله من الشيطان وغوائله. وهذا ماطلبته أمّ مريم لبنتها حيث قالت: (وإنّي أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم). وقد أشار سيد قطب -رحمه الله- إلى هذا في قوله: "وهي الكلمة الأخيرة التي تودّع الأمّ هديّتها بين يدي ربّها، وتدعها لحمايته ورعايته، وتعيذها به وذريّتها من الشيطان الرجيم. وهذه كلمة القلب الخالص، ورغبة القلب الخالص. فما تودّ لوليدتها أمراً خيراً من أن تكون في حياطة الله من الشيطان الرجيم" (١).

* ومن تسميتها لبنتها مريم استدلّ على بعض الأحكام وهي كالتالي :

- إنّ للأمّ تسمية ولدها، وتكون تسمية صحيحة؛ وإن لم يسمّها الأب، فالله عزّ وجلّ أثبت هذا الاسم لمولودها ولم ينكره (٢).
ولكنّه في حالة عدم اتفاق الأبوين على تسمية الوليد فالتسمية من حقّ الأب، وقد دلّت الأحاديث الواردة في التسمية على ذلك، والقرآن قد صرّح بأنّ الولد ينسب لأبيه لا لأمّه. قال تعالى: (أدعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله) "الأحزاب:٥" وفي هذا إشارة إلى أولوية الأب في التسمية(٣).

- جواز التسمية في يوم الولادة. وقد دلّ عليه قوله: (وإنّي سمّيتها مريم) وذلك حين وضعها إيّاه. كما أنّه قد ثبت في السنّة جواز ذلك فعن أبي موسى قال: ولد لي غلام فأتيت به النبي صلى الله عليه وسلم فسمّاه إبراهيم وحنّكه بتمرة(٤).

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج١ ص٣٩٢.
(٢) أحكام القرآن للجصّاص: ج٢ ص١١.
(٣) تربية الأولاد في الاسلام لعبد الله علوان: ج١ ص٨٣.
(٤) رواه مسلم: كتاب الآداب، حديث(٢٥)، ج٤ ص٨٥٤.

وقد ورد في السنّة -أيضاً- ما يدلّ على جواز التسمية يوم سابعه. قال النبي صلى الله عليه وسلم: "كل غلام رهين بعقيقته تذبح عنه يوم سابعه، ويسمّى فيه، ويحلق رأسه" (١).

وممّا سبق يتضح لنا بأنّ في الأمر سعة، فجازت تسميته في يوم ولادته، وجاز تأخيره إلى يوم سابعه وجاز قبل هذا وبعده. والله أعلم.

- ينبغي أن يختار الآباء لأبنائهم أفضل الأسماء، فانّ أمّ مريم قد سمّت ابنتها مريم وهو من أفضل الأسماء عندهم وكما ذكرنا أنّ معناه العابدة. فعلى الآباء أن يتخيّروا لأبنائهم أحسن الأسماء وأجملها وأفضلها، وينبغي -بالتالي- تجنّب التسمية بما يلي:

- الاسم القبيح الذي يمسّ الكرامة ويكون مدعاة للسخرية والاستهزاء؛ وقد كان صلى الله عليه وسلم يغيّر الاسم القبيح.
- الأسماء التي لها اشتقاق من كلمات فيها تشاؤم حتى يسلم الأولاد من مصيبة هذه التسمية وشؤمها.
- الأسماء المختصّة بالله سبحانه؛ فلايجوز التسمية بالأحد ولابالصمد ولابالخالق ولا بالرازق.. ولابغيرها.

---

(١) رواه أبوداود: (١٠) كتاب الأضاحي، (٢١) باب من العقيقة، حديث (٢٨٣٨)، ج٢ ص٢٦٠.
ورواه الترمذي: كتاب الأضاحي، (٢٣) باب في العقيقة، حديث (١٥٢٢)، وقال عنه: حديث حسن صحيح. ج٤ ص١٠١.
ورواه النسائي: كتاب العقيقة، باب (٥)، حديث (٤٢٢٠)، ج٧ ص١٦٦.
ورواه ابن ماجه: (٢٧) كتاب الذبائح، (١) باب العقيقة، حديث (٣١٦٥)، ج٢ ص(١٠٥٦-١٠٥٧).

- الأسماء التي فيها يمن أو تفاؤل؛ حتى لايحصل كدر عند مناداتهم وهم غائبون بلفظ (لا)، كالتسمية بأفلح، ونافع، ورباح، ويسار.
- الأسماء المعبّدة لغير الله، كعبد العزّى، وعبد الكعبة، وعبد النبي، وما شابهها؛ فانّها محرّمة التسمية بها بالاتفاق.
- وكذلك ممّا لاينبغي التسمية به الأسماء التي فيها تميّع وتشبّه وغرام. كهيام، وهيفاء، ونهاد، وميّادة وغيرها..؛ لتميّز شخصيّة امّة الاسلام ولتعرف بخصائصها الخاصّة، وهذا هو هدي النبي صلى الله عليه وسلم(١).

* ومن البلاغة القرآنية :

في قوله تعالى: (وإنّي أعيذها..) قد جيء بصيغة المضارع في قوله (أعيذها)؛ للدلالة على الاستمرار والتجدّد(٢).

٤- العبر والفوائد من قبول الله لمريم وكفالة زكريا لها :

* إنّ الله يكافيء عبده التقيّ، ويتقبّل عنه بأفضل ممّا كان يتوقّع. ويظهر لنا هذا في قول الله تعالى: (فتقبّلها ربّها بقبول حسن) فاضافة لفظ (حسن) تدلّ على كمال القبول وبلوغه درجة عالية عند الله عزّ وجلّ. ويؤكّد هذا -أيضاً- كبير الاهتمام والحفظ والعناية منه سبحانه في قوله: (وأنبتها نباتاً حسناً وكفّلها زكريا).. وهذا -بلاشكّ- من فضل الله على عباده المتّقين.

* ويدلّنا تنازع العبّاد على كفالة مريم طلباً للثواب؛ على فضل كفالة اليتيم

---

(١) انظر: تربية الأولاد في الاسلام لعبد الله علوان: ج١ ص(٧٦-٨١).
(٢) انظر: صفوة التفاسير للصابوني ج١ ص٢٠٠.

وعظيم ثوابه. ويشير إلى هذا الفضل قول النبي صلى الله عليه وسلم: "أنا وكافل اليتيم في الجنّة كهاتينِ وأشار بالسبّابة والوسطى وفرّج بينهما شيئاً"(١). فإنّه من قام بأمور اليتيم من نفقة وكسوة وتأديب وتربية وغير ذلك؛ حصلت له هذه الفضيلة العظيمة.

وفي رواية الامام مسلم: (له أو لغيره) فالذي "له" كأن يكون قريباً من أقاربه، والذي "لغيره" فهو الأجنبيّ عنه. ولكليهما يحصل هذا الأجر(٢).

* وفي اقتراعهم على من يكفل مريم دلالة على مشروعية القرعة. يقول القرطبي رحمه الله: "استدلّ بعض علمائنا بهذه الآية (وماكنت لديهم إذ يلقون أقلامهم..) على إثبات القرعة، وهي أصل في شرعنا لكلّ من أراد العدل في القسمة، وهي سنّة عند جمهور الفقهاء في المستويين في الحجّة، ليعدل بينهم وتطمئنّ قلوبهم، وترتفع الظِنّة عمّن يتولّى قسمتهم، ولايفضّل أحد منهم على صاحبه إذا كان المقسوم من جنس واحد، اتباعاً للكتاب والسنّة. ومن أدلتها هذه الآية.

ومن الحديث النبوي قوله صلى الله عليه وسلم "مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة... الحديث"(٣). وحديث أمّ العلاء وأنّ عثمان بن مظعون طار لهم سهمه في السكنى حين اقترعت الأنصار سكنى المهاجرين(٤). وحديث عائشة -رضي الله عنها- قالت: كان النبي صلى الله عليه وسلم

---

(١) رواه البخاري: كتاب الطلاق، حديث(٤٧) ورواه أيضاً في كتاب الأدب، باب فضل من يعول يتيماً، حديث(٢٤). ورواه مسلم أيضاً: كتاب الزهد، حديث(٤٠).

(٢) شرح مسلم للنووي: ج٥ ص٨٣٢.

(٣) رواه البخاري: كتاب الشركة، باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيه، حديث(١١). ورواه أيضاً في كتاب الشهادات، باب القرعة في المشكلات وقوله: (إذ يلقون أقلامهم)، حديث(٤٩).

(٤) رواه البخاري: كتاب الشهادات، حديث(٥٠).

إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه فأيّتهنّ خرج سهمها خرج بها(١).

وكذلك حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لو يعلم الناس مافي النداء والصفّ الأول ثمّ لم يجدوا إلاّ أن يستهموا عليه لاستهموا.. الحديث"(٢). والأحاديث في هذا المعنى كثيرة."(٣).

* ومن البلاغة القرآنية مايلي :

-إنّ في اقتران كلمة (فتقبّلها) بلفظ الجلالة (ربّها) تشريف لمريم؛ فالله هو الذي يبلغها إلى كمالها اللائق بها(٤).

- وقوله: (بقبول حسن) فيه (الباء) زائدة، وجيء بها للتأكيد. فأصل نظم الكلام: فتقبّلها قبولاً حسناً. فأدخلت الباء على المفعول المطلق ليصير كالآلة للتقبّل، فكأنّه شيء ثان، وهذا لاشكّ فيه إظهار للعناية بها في هذا القبول(٥).

- وفي قوله: (وأنبتها نبتاً حسناً) استعارة تبعية؛ إذ شبّهها في ترعرعها ونموّها بالزرع الذي ينمو شيئاً فشيئاً، والكلام مجاز عن تربيتها بما يصلحها في جميع أحوالها(٦).

٥- العبر والفوائد من كرامة الله لمريم :

* إنّ في إعطاء هذه الكرامة لمريم لدلالة على فضلها ومكانتها عند الله عزّ

---

(١) رواه البخاري: كتاب الشهادات، حديث(٥١).
(٢) رواه البخاري: كتاب الشهادات، حديث(٥٢).
(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ج٤ ص٨٧.
(٤) تفسير أبي السعود: ج٢ ص٢٩.
(٥) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ج٣ ص٢٢٥.
(٦) انظر: صفوة التفاسير للصابوني ج١ ص٢٠٠.

وجلّ وإنّها ماوصلت الى هذه الدرجة الرفيعة إلاّ لعظيم تقواها لله واستغراقها في عبادته والتقرّب إليه.. وإنّها -عليها السلام- لقدوة لكلّ امرأة تريد التقرّب إلى الله عزّ وجلّ وتسعى لطلب ولايته سبحانه.

* مسـألة في العقيدة :

إنّ هذه الآية -(كلّما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً..)- نصّ في إثبات الكرامة لأولياء الله المتقين ولذا يجب الايمان بها وعدم إنكارها لهم.

وقد جاء في كلام الإمام الطحاوي -رحمه الله- حول أولياء الله قوله: "ونؤمن بما جاء من كراماتهم، وصحّ عن الثقات من رواياتهم".

ولشارح الطحاوية علي ابن أبي العز -رحمه الله- تعليقاً حول كلام الطحاوي هذا فيقول: "المعجزة في اللغة تعمّ كل خارق للعادة، وكذلك الكرامة في عرف أئمّة أهل العلم المتقدّمين، ولكنّ كثيراً من المتأخّرين يفرّقون في اللّفظ بينهما. فيجعلون المعجزة للنبي، والكرامة للولي. وجماعها الأمر الخارق للعادة"(١).

وقد أنكر الكرامة -للأولياء- المعتزلة، "وقولهم في إنكار الكرامة ظاهر البطلان، فانّه بمنزلة إنكار المحسوسات، وقولهم: لو صحّت لأشبهت المعجزة،، فيؤدّي الى التباس النبي بالوليّ، وذلك لايجوز! وهذه الدعوى إنّما تصحّ إذا كان الولي يأتي بالخارق، ويدّعي النبوّة، وهذا لايقع، ولو ادّعى النبوّة لم يكن ولياً، بل كان متنبّئاً كذّاباً"(٢).

---

(١) علي بن علي بن محمد بن أبي العزّ الدمشقي، شرح العقيدة الطحاوية، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، الطبعة الأولى. (نشر: دار البيان بدمشق، توزيع: دار المؤيّد بالطائف، ١٤٠١هـ/١٩٨١م) ص٤٩٥.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العزّ: ص٤٩٩.

وبهذا نكون قد انتهينا من الكلام حول هذا الفصل (مريم بنت عمران مع أمّها).

والحمد لله ربّ العالمين

الفصل الثاني
"مريم بنت عمران مع ابنها عيسى عليه السلام"

تقديم:

إنّ تفرّغ مريم لعبادة الله، واجتهادها في صلتها به: أبلغها درجة رفيعة عند الله فكانت محلاً لاصطفاء الله واختياره.. اصطفاء لعبادته وطهارة لها من الأكدار والوساوس، واصطفاها ثانياً لأمر عظيم وهو حمل عيسى وولادته. وبهذا جاءت الملائكة تخبرها: (وإذ قالت الملائكة يامريم إنّ الله اصطفاك وطهّرك واصطفاك على نساء العالمين).

وأمّا اصطفاؤها من بين نساء العالمين بحمل نبيّ من أنبياء الله وولادته: فقد تمّ على تدرّج من حيث إخبارها به وحملها ثمّ ولادته وموقف قومها منها. إلى غير ذلك ممّا يمرّ في هذه القصّة ويمثّل أحد أحداثها..

وقد أخبرنا الله عن هذه القصّة مفصّلة في سورة مريم وأشار إلى بعض أجزائها في غيرها من السور كآل عمران والنساء والمائدة والمؤمنون والأنبياء والتحريم.
لذا فسيكون مافي سورة مريم هو ماتدور عليه القصّة، وغيره من المواضع يذكر على حسب مايناسبه من فقرات القصّة في مريم. والله المستعان.

المبحث الأول: بيان القصة

يذكر الله لنا هذه القصّة -مفصّلة كما ذكرنا- في سورة مريم بقوله:

(واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقيّاً. فاتّخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثّل لها بشراً سوياً. قالت إنّي أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً. قال إنّما أنا رسول ربّك لأهب(١) لك غلاماً زكياً. قالت أنّى يكون لي غلام، ولم يمسسني بشر ولم أك بغياً. قال كذلك قال ربّك هو عليّ هيّن ولنجعله آية للناس ورحمة منّا وكان أمراً مقضياً. فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً. فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت ياليتني متّ قبل هذا وكنت نسْياً(٢) منْسياً. فناداها من تحتها(٣) ألاّ تحزني قد جعل ربّك تحتك سريّاً. وهزّي إليك بجذع النخلة تساقط(٤) عليك رطباً جنيّاً. فكلي واشربي وقرّي عيناً فإمّا ترينّ من البشر أحداً فقولي إنّي نذرت للرحمن صوماً فلن

---

(١) قرأ أبوعمرو وورش والحلواني عن نافع: (ليهب لك) بالياء، وقرأ الباقون: (لأهب لك) (حجّة القراءات لابن زنجلة: ص٤٤٠).

(٢) قرأ حمزة وحفص (نَسْياً) بفتح النون، وقرأ الباقون: (نِسْياً) بالكسر وهو الاسم (انظر: حجة القراءات لابن زنجلة: ص٤٤١).

(٣) قرأ أبو عمرو وابن كثير وابن عامر وأبوبكر: (فناداها مَن تحتَها) بفتح الميم والتاء، وقرأ الباقون: (مِن تحتِها) بكسر الميم والتاء. (انظر: حجة القراءات لابن زنجلة ص٤٤١).

(٤) قرأ حفص: (تُساقِط) بضمّ التاء وكسر القاف، وقرأ حمزة: (تَساقَطْ) بفتح التاء والتخفيف؛ أراد تتساقط ثمّ حذف التاء لاجتماع التاءين، وقرأ الباقون: (تسّاقط) بالتشديد؛ أدغموا التاء في السين، وقرأ حماد: (يسّاقط) بالياء؛ ذهب إلى الجذع والآخرون إلى النخلة. (حجة القراءات لابن زنجلة: ص٤٤٢-٤٤٣).

أكلّم اليوم انسياً. فأتت به قومها تحمله قالوا يامريم لقد جئت شيئاً فرياً. ياأخت هارون ماكان أبوك امرأ سوء وماكانت أمّك بغياً. فأشارت اليه قالوا كيف نكلّم من كان في المهد صبياً. قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً. وجعلني مباركاً أين ماكنت وأوصاني بالصلاة والزكاة مادمت حياً. وبرّاً بوالدتي ولم يجعلني جبّاراً شقياً. والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً) (١).

وسيكون بيان القصة كالآتي :

١- مجيء جبريل -عليه السلام- إلى مريم للنفخ فيها :

وحين تنحّت واعتزلت مريم أهلها وذهبت إلى شرقيّ المسجد الأقصى للتعبّد، وجعلت بينها وبينهم ساتراً وحاجزاً؛ أرسل الله إليها جبريل -عليه السلام- فجاءها في صورة إنسان تامّ كامل، ففوجئت بدخوله عليها وهي في خلوتها؛ وهو في أبهى صورة وفي جمال فائق، وحسبته أنّه يريدها عن نفسها؛ فذكّرته بالله وخوّفته من عقابه. فأجابها عليه السلام -مطمئناً ومذهباً الخوف عنها- بأنّه رسول من عند الله عزّ وجلّ ليهب لها غلاماً طاهراً نزيهاً من الذنوب. فاطمأنّت ومكنت من هذا الجانب ولكنّها تعجّبت من جانب آخر وهو أنّه كيف يكون لها ولد ولم يمسّها بشر، فذلك مخالف للمعتاد من أمر البشر، وذلك قولها: (قالت أنّى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغياً) فليست هي بذات زوج ولايتصوّر أنّها من أهل الفجور. والبغيّ هي الزانية بمعنى التي تبغي الرجال.

فأجابها جبريل راداً على تعجّبها: (قال كذلك قال ربّك هو عليّ هيّن ولنجعله آية للناس ورحمة منّا وكان أمراً مقضياً) فالله على مايشاء قادر، وهذا أمر هيّن سهل والله لايعجزه شيء، ولهذا قال: (ولنجعله آية للناس) أي دلالة وعلامة للناس على

---

(١) سورة مريم: ١٦-٢٢.

قدرة الله خالقهم وبارئهم الذي نوّع في خلقهم فخلق آدم من غير ذكر ولاأنثى، وخلق حوّاء من ذكر بلاأنثى، وخلق بقيّة الناس من ذكر وأنثى إلاّ عيسى خلقه من أنثى بلا ذكر؛ فتمّت القسمة الرباعيّة الدالّة على كمال قدرته وعظيم سلطانه.

(وكان أمراً مقضياً) لايتغيّر ولايتبدّل؛ إذ أنّه سابق في علم الله الأزلي.

ويحتمل أن تكون هذه الجملة كلاماً خبراً من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم، وأنّه كنّى بهذا عن النفخ في فرجها كما قال تعالى: (ومريم بنت عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا.. الآية) "التحريم:١٢". وكما قال هناك أيضاً: (والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا.. الآية) "الأنبياء:٩١".

ونلاحظ أنّ هاتين الآيتين بيّنتا الصفة التي حملت مريم بها عيسى، ولامنافاة بين الآيتين في قوله: (فنفخنا فيه- فنفخنا فيها)؛ لأنّ النفخ وصل إلى الفرج فكان منه حمل عيسى(١)، وقد قيل: إنّ جبريل نفخ في جيب درع مريم فنزلت النفخة فولجت في فرجها(٢).

وهذه هي الكلمة من الله، فهناك قد قال تعالى: (إنّما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه) "النساء:١٧١" أي خلقه بالكلمة التي أرسل بها جبريل إليها فنفخ فيها من روحه، وتلك النفخة هي بمنزلة لقاح الأب للأم والجميع مخلوق لله تعالى، وقد بيّن الله هذه الكلمة في قوله: (إنّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثمّ قال له كن فيكون) "آل عمران:٥٩" ولهذا يقال عن عيسى أنّه كلمة الله وروح منه، لأنّه لم يكن له أب تولّد منه وإنّما هو ناشىء عن الكلمة التي قال له بها كن فكان، فليست الكلمة صارت عيسى ولكن بالكلمة صار عيسى.

وليست كلمة (من) في قوله: (وروح منه) للتبعيض، كما تقوله النصارى، بل هي لابتداء الغاية، فهو مخلوق من روح مخلوقة، وأضيفت الروح إلى الله على وجه

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٢ ص(١١٤-١١٥)؛ أضواء البيان للشنقيطي ج٤ ص(٢٣٧-٢٤٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ج٤ ص٣٩٤.

التشريف كما أضيفت الناقة والبيت إلى الله (هذه ناقة الله- طهّر بيتي) وكقوله (وسخّر لكم مافي السموات ومافي الأرض جميعاً منه) أي من خلقه ومن عنده..

ثمّ إنّ مجيء جبريل -عليه السلام- إليها شمل النفخ فيها وتبشيرها بمنزلة من سيجيء منها:

(إذ قالت الملائكة يامريم إنّ الله يبشّرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقرّبين. ويكلّم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين... ويعلّمه(١) الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل ورسولاً إلى بني اسرائيل..) "آل عمران: ٤٥-٤٨".

فهذه الآيات الكريمة حوت عدداً ممّا يكون عليه عيسى -عليه السلام- من صفات عظيمة:

أوّلها- وجيهاً في الدنيا والآخرة: أي له المكانة الرفيعة والمنزلة العالية عند الله وعند الناس.. في الدنيا بما يوحيه الله إليه من الشريعة، وبما ينزل عليه من الكتاب، وغير ذلك ممّا منحه الله به، وفي الآخرة بما يأذن الله له من الشفاعة ويقبلها منه(٢).

وثانياً- يكلّم الناس في مهده وكهولته :

أمّا كلامه في المهد -وهو مضجع الصبيّ في رضاعه- فإنّه كلّمهم حين برّأ أمّه فقال: (إنّي عبد الله.. الآية).

وأمّا كلامه في الكهولة(٣) -قيل: الكهولة في الأربعين وقيل: ثلاث وثلاثين-

---

(١) قرأ عاصم ونافع: (يعلّمه) بالياء، وقرأ الباقون: (نعلّمه) بالنون. (انظر: حجة القراءات لابن زنجلة ص١٦٢).

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج١ ص(٥٨٩-٥٩١).

(٣) الكهل في اللغة: مااجتمع قوّته وكمل شبابه، وهو مأخوذ من قول العرب: اكتهل النبات إذا قوي (التفسير الكبير للفخر الرازي: ج٨ ص٥١).

فإنّه يكلّمهم بالنبوّة والرسالة(١).

ووجه الأهميّة في هذه الصفة أنّ كلامه في المهد فيه آيات وبراهين على صدقه ونبوّته وبراءة أمّه، وكلامه في كهولته فيه نفعه العظيم للخلق وكونه واسطة بينهم، وبين ربّهم في وحيه وتبليغ دينه وشرعه(٢).

وثالثها- تعليمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل ورسولاً إلى بني إسرائيل:

وهذه أمور أربعة معطوف بعضها على بعض بواو العطف، والمراد من الكتاب تعليم الخط والكتابة، ثمّ المراد بالحكمة تعليم العلوم وتهذيب الأخلاق؛ لأنّ كمال الانسان في أن يعرف الحقّ لذاته والخير لأجل العمل به ومجموعها هو المسمّى بالحكمة، ثمّ بعد أن صار عالماً بالخط والكتابة ومحيطاً بالعلوم العقلية والشرعيّة علّم التوراة، وإنّما أخّر تعليم التوراة عن تعليم الخط والحكمة؛ لأنّ التوراة كتاب إلهيّ وفيه أسرار عظيمة، والانسان مالم يتعلّم العلوم الكثيرة لايمكنه أن يخوض في البحث على أسرار الكتب الالهيّة. ثمّ قال في المرتبة الرابعة: الانجيل، وإنّما أخّره عن التوراة لأنّ من تعلّم الخط ثمّ تعلّم علوم الحقّ ثمّ أحاط بأسرار الكتاب السابق فقد عظمت درجته في العلم، فاذا أنزل الله عليه بعد ذلك كتاباً آخر وأوقفه على أسراره فذلك هو الغاية القصوى والمرتبة العليا في العلم والفهم، والإحاطة بالأسرار العقلية والشرعيّة والاطلاع على الحكم العلوية والسفلية(٣).

٢- حمل مريم بعيسى عليه السلام :

وبعد أن نفخ جبريل -عليه السلام- في مريم، وحملت بإذن الله ثمّ ظهرت علامات حملها؛ ضاقت ذرعاً ولم تدر ماذا تقول للناس، فإنّها تعلم أنّهم لن يصدّقوها

---

(١) انظر: تفسير القرطبي ج٤ ص(٨٨-٩٢).
(٢) تفسير الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي: ج١ ص٢٨٢.
(٣) التفسير الكبير للفخر الرازي: ج٨ ص٥٤.

فيما ستخبرهم به من أمرها الذي قدّره الله وقضاه؛ فذهبت بعيداً عنهم لئلاّ تراهم ولايرونها: (فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً).

واختلف المفسّرون في مدة حملها بعيسى، فالجمهور على أنّها حملت به تسعة أشهر.

وروي عن عكرمة: ثمانية أشهر.

وروي عن ابن عباس أنّه قال: لم يكن إلاّ أن حملت به فوضعت.

وقد ردّ على كلام ابن عباس -إن صحّ هذا عنه-: وكأنّ هذا القول مأخوذ من قوله تعالى: (فحملته فانتبذت ... فأجاءها المخاض.. الآية) للفاء التعقيبية. ولكن الفاء وإن كانت للتعقيب فكل شيء بحسبه، فهذه الفاء للتعقيب بحسبها، وهي كما في سورة "المؤمنون": (ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين. ثمّ جعلناه نطفة في قرار مكين. ثمّ خلقنا النطفة علقة.. الآية) "المؤمنون:١٢-١٤" وقد ثبت في الصحيحين أنّ بين كلّ صفتين أربعين يوماً(١).

وأقول -أيضاً- من جهة أخرى: إنّه لايترتّب على كمال قدرة الله أن تضع بعد الحمل مباشرة؛ فمظهر القدرة والاعجاز هو في أنّها حملت به من غير أب، لا أنّها تلده بعد حمله مباشرة. ولو كان ذلك -أيضاً- لما كان لذهابها بعيداً عن قومها فائدة؛ إذ أنّها هربت لئلاّ توجّه إليها الاتهامات، كما أنّ ظهور علامات الحمل هو ممّا يحتاج إلى فترة -كما ذكرنا- فهل هذا ممّا يكون في ساعته. فالصحيح -والله قادر على كلّ شيء- أنّها حملت به كما تحمل النساء بأولادهنّ.

٢- ولادة مريم بعيسى عليه السلام :

وتمّت مدّة الحمل، وجاءها الطلق -وهو ألم الولادة-، فألجأها واضطرّها من

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٢ ص(١١٥-١١٧).

شدّته إلى أن تمسك بجذع نخلة في المكان الذي تنحّت فيه -الجمهور على أنّ هذا المكان هو بيت لحم- وذلك قوله: (فأجاءها المخاض(١) إلى جذع النخلة). وحين ذلك تذكّرت ماسيلحقها من اتّهامات قومها لها بسبب ولادتها لهذا الولد الذي سيخرج منها؛ وهي العابدة الناسكة، وما سيقع الناس فيه من المعصية والفتنة بسبب كلامهم عليها، ولذلك (قالت ياليتني متّ قبل هذا وكنت نسياً منسياً)، فهي بكلامها -هذا- تتمنّى لو أنّها ماتت، أو أنّها لم تخلق ولم تك شيئاً يذكر.. (نسياً) شيئاً تافهاً شأنه أن ينسى ولايعتدّ به أصلاً.. (منسياً) لايخطر ببال أحد من الناس(٢).

وفي هذه اللحظات العصيبة الشديدة على مريم يطمئنها الله على لسان ولدها، ويريها معجزته التي تزيد في اطمئنانها وتذهب من روعها:
(فناداها من تحتها ألاّ تحزني قد جعل ربّك تحتك سرياً. وهزّي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً. فكلي واشربي وقرّي عيناً فإمّا ترينّ من البشر أحداً فقولي إنّي نذرت للرحمن صوماً فلن أكلّم اليوم إنسياً).

ويناديها من؟! ابنها الذي وضعته في توّها ولحظتها هذه!!، نعم، إنّها قدرة الله التي أنطقت الحجر والشجر، ولايعجزه شيء سبحانه.
وإنّه ليناديها ابنها الذي هو سبب قلقها وخوفها، فيناديها مطمئناً لها بأنّ الله قد أجرى من تحتها نهراً لكي تشرب منه وتروي ظمأها، وأمرها -أيضاً- أن تحرّك جذع النخلة إلى جهتها وتجذبه إليها فيسقط بذلك الرطب المثمر الذي لم يجفّ ولم ييبس وهو مهيّو لمن يجتنيه يأخذه فيأكله، وقيل: كان الوقت شتاء ولم يكن النخل في إبان ثمره، وهذه كذلك معجزة لها أخرى.

---

(١) المخاض: المخض هو الحركة الشديدة، ومنه: مخضت المرأة إذا تحرّك الولد في بطنها للخروج (تفسير أبي السعود: ج٥ ص٢٦١).
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٣ ص(١١٥-١١٧)؛ تفسير أبي السعود ج٥ ص(٢٦١-٢٦٢)؛ أضواء البيان للشنقيطي ج٤ ص(٢٤٠-٢٤٤).

ومن ثمّ امتنّ الله عليها بأن جعل عندها طعاماً وشراباً، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وهو صاحب الفضل العظيم سبحانه.
وقد قيل: "إنّ النهر كان يابساً لاماء فيه وكذا النخل، فالنهر جاءه الماء والنخل اخضرّ بعد يبسه وأثمر"(١).

أقول: والذي أميل إليه -والله أعلم- أنّ النخلة كانت خضراء وليست يابسة، ولكن -كما ذكرت- كانت في غير موعد ثمرها فأثمرت، وكذا النهر لم يكن جارياً فأجراه الله وكثّر ماءه، وهذا كاف في الاعجاز ولاضرورة إلى القول بغير هذا، فليس هناك مايفيده، وهل يقال للنخلة نخلة إن كانت يابسة، وهل يقال للنهر نهر إن كان لاأثر له.. ولوكان كذلك لأوشك أن ينصّ عليه القرآن.
وهكذا.. بالطعام والشراب طمأنها من جهة السلامة من ألم الولادة، ولكن بقي ماهو أهمّ بالنسبة لها وهو أن تطمئنّ من جهة قالة الناس واتهامهم لها، فطمأنها من هذه الناحية أيضاً وأمرها قائلاً: (فإمّا ترينّ من البشر أحداً فقولي إنّي نذرت للرحمن صوماً فلن أكلّم اليوم إنسيّاً) أي أنّه إذا رأت أحداً من الناس فلتقل لهم -والقول هنا على وجه الاشارة لئلاّ ينافي (فلن أكلّم اليوم إنسيّاً)، قال الفرّاء: والعرب تسمّي كلّ ماوصل إلى الانسان كلاماً بأيّ طريق وصل مالم يؤكّد بمصدر، فإذا أكّد لم يكن إلاّ حقيقة الكلام. -أنّها صائمة ولن تستطيع الكلام، وقد كان في شريعتهم أنّهم إذا صاموا يحرم عليهم الطعام والكلام "نصّ على هذا السدّي وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم".
وإنّما أمرت بذلك لكراهة مجادلة السفهاء ومناقلتهم، والاكتفاء بكلام عيسى؛ إذ أنّ كلامه آية ومعجزة تدلّ على طهرها وعفافها وتنبىء عن حقيقة ولدها(٢).

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود ج٥ ص٢٦٢.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٣ ص(١١٧-١١٨)؛ تفسير أبي السعود ج٥ ص(٢٦٢-٢٦٣)؛ تفسير الخازن ج٤ ص٢٤٢؛ تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي ج٥ ص(١٠٠-١٠١).

مسألة :

قيل أنّ الذي ناداها هو جبريل -عليه السلام- والراجح ماذكرناه وهو المشهور وماعليه أكثر المفسّرين من أنّه عيسى. وقد ذكر الإمام الفخر الرازي عدّة وجوه تؤيّد ماذهبنا إليه وهي كما يلي:

- إنّ قوله: (فناداها من تحتها) بفتح الميم، وهي قراءة متواترة، وهذا القول لايكون إلاّ إذا عُلم قبله أنّ تحتها أحد، والذي علم كونه حاصلاً تحتها هو عيسى فوجب حمل اللفظ عليه. وأمّا القراءة بكسر الميم فهي لاتقتضي أيضاً كون المنادي جبريل.
- إنّ ذلك الموضع موضع اللوث والنظر إلى العورة، وذلك لايليق بالملائكة.
- إنّ قوله: (فناداها) فعل، ولابدّ أن يكون فاعله قد تقدّم ذكره، ولقد تقدّم قبل هذه الآية ذكر جبريل وذكر عيسى؛ إلاّ أنّ ذكر عيسى أقرب لقوله: (فحملته فانتبذت به.. الآية) والضمير ههنا راجع إلى عيسى فكان حمله عليه أولى.
- ماقاله الحسن بن علي -رضي الله عنهما-: إنّ عيسى لو لم يكن كلّمها لما علمت أنّه ينطق وما كانت من بعد تشير إليه بالكلام. والله أنطقه لها حين وضعت تطييباً لقلبها وإزالة للوحشة عنها حتى تشاهد في أول الأمر مابشّرها به جبريل -عليه السلام- من علوّ شأنه(١).

٤- موقف قوم مريم منها :

وبعد أن اطمأنّت مريم ذهبت إلى قومها تحمل ابنها، وحين رأوها تحمله وهي لم تتزوّج بعد؛ أنكروا عليها ذلك، وتعجّبوا من فعلتها؛ وهي في نظرهم العابدة الطاهرة العفيفة. وحُقّ لهم أن يستغربوا ذلك قبل أن تتضح لهم حقيقة الأمر.

ويصوّر لنا القرآن هذا الموقف في الآيتين التاليتين: (فأتت به قومها تحمله قالوا يامريم لقد جئت شيئاً فرياً. ياأخت هارون ماكان أبوك امرأ سوء وماكانت أمّك

---

(١) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ج٢١ ص٢٠٤.

بغياً).

فهم اتّهموها بأنّها جاءت بأمر عظيم، كالآتي بالشيء يفتريه، ويعنون -أيضاً- بقولهم: فرياً الزنا؛ لأنّ ولد الزنا كالشيء المفترى المختلق، إذ الزانية تدّعي إلحاقه بمن ليس أباه، ويدلّ عليه قوله تعالى: (..ولاياتين ببهتان يفترينه بين أيديهنّ وأرجلهنّ.. الآية) "الممتحنة:١٢".

وقال أبوعبيدة: الفري: العجيب النادر. وقال الأخفش: فرياً عجيباً، والفري القطع، كأنّه ممّا يخرق العادة أو يقطع القول بكونه عجيباً نادراً.

وقد قال الله تعالىٰ دالاّ على رميهم لها بالزنا: (..وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً) "النساء:١٥٦" (١).

وزادوا في تأنيبها وتوبيخها بقولهم: (ياأخت هارون ماكان أبوك امرأ سوء وما كانت أمّك بغياً).

وفي معنى قولهم لها: ياأخت هارون قال البعض: قيل لها: (ياأخت هارون) اي أخي موسى، وكانت من نسله، كما يقال للتميمي: ياأخا تميم وللمضري: ياأخا مضر. وقال بعضهم أيضاً: أنّهم شبّهوها برجل فاسق كان فيهم اسمه هارون. وقيل: أنّها نسبت إلى رجل صالح كان فيهم اسمه هارون؛ إذ كانت تتأسّى به في العبادة والزهادة.

أقول: وهذا الرأي الأخير هو الراجح؛ لما ورد في الصحيح عن المغيرة بن شعبة قال: لما قدمتُ نجران سألوني فقالوا: إنّكم تقرءون ياأخت هارون؛ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا، فلمّا قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم سألته عن ذلك فقال: "إنّهم كانوا يسمّون بأنبيائهم والصالحين قبلهم" (٢). وقد رجّح هذا الرأي عمدة المفسّرين الإمام الطبري (٣).

---

(١) انظر: تفسير القرطبي ج١١ ص٩٩؛ أضواء البيان للشنقيطي ج٤ ص٢٧٠.

(٢) رواه مسلم: كتاب الآداب، باب النهي عن التكنّي بأبي القاسم وبيان مايستحبّ من الأسماء، حديث(١١)، ج٤ ص٨٤٦.

(٣) انظر: تفسير ابن جرير الطبري ج١٦ ص٥٩.

كما أنّ اطلاق اسم الأخ على النظير والمشابه معروف في القرآن الكريم وفي كلام العرب؛ فمن القرآن: (وما نريهم من آية إلاّ هي أكبر من أختها) "الزخرف: ٤٨" وكذلك: (إنّ المبذّرين كانوا إخوان الشياطين) "الاسراء: ٢٧"، ومن كلام العرب قولهم: إخوان العزاء أي أصحاب الصبر. إلى غير ذلك(١).

وكذلك فانّ القول بتشبيهها برجل فاسق قول بعيد؛ لأنّ الخطاب هنا في مقام بيان أصلها الطيّب وعفّتها. والله أعلم.

وقولهم: (ماكان أبوك امرأ سوء وما كانت أمّك بغيّاً) تتمّة لما بدءوه معها في توبيخها وكأنّهم يقولون لها بكلامهم هذا: إنّك من بيت طاهر طيّب معروف بالصلاح والعبادة والزهادة والتقوى فكيف يصدر منك هذا الخروج على عادتك وعادة أهلك!!

٥- ظهور براءة مريم على لسان عيسى :

وهي مع ما سمعته من الكلام في طهرها وعفافها؛ فانّها لم تنطق بحرف واحد، فقد نذرت للرحمن صوماً؛ وأبانت لهم هذا النذر بالاشارة، ثمّ أشارت إلى ابنها الذي تحمله بأنّ عليهم أن يكلّموه هو ويخاطبوه هو!!! فظنّوا أنّها تستهزىء وتلعب بهم؛ إذ كيف يخاطبون من هو في سنّ صغيرة لايدرك معها الخطاب، ولايستطيع فيها الكلام، وذلك قوله تعالى: (فأشارت إليه قالوا كيف نكلّم من كان في المهد صبياً).

ولكن يقطع الصغير بكلامه مااعتقدوه؛ مبرّئاً أمّه من الاتّهام الخطير، ومبيّناً ماهيّته وحقيقة أمره:

(قال إنّي عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيّاً. وجعلني مباركاً أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة مادمت حيّاً. وبرّاً بوالدتي ولم يجعلني جبّاراً شقيّاً. والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيّاً).

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير الطبري ج١٦ ص٥٩؛ تفسير القرطبي ج١١ ص١٠٠؛ تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٣ ص(١١٨-١١٩)؛ أضواء البيان للشنقيطي ج٤ ص(٢٧١-٢٧٢).

ومما نلاحظه -في هذه الآيات- أن أول أمر نطق به عيسى -عليه السلام- أن نزّه الله وبرّأه عن الولد، وأثبت لنفسه العبودية لله.. وإنه لينطق بهذه المسألة التي ضلّ فيها فيما بعد النصارى بأقوالهم المختلفة المنحرفة البعيدة عن الحقيقة التي قالها عليه السلام وهو في مهده.

وبعد بيانه لهذه القضية الهامّة أخذ يعدّد ماسيؤول إليه أمره في مستقبله، فذكر أنّ الله حكم له بإيتائه الكتاب (الانجيل)، ويجعله نبياً، كما أنه تعالى جعله ذا بركات ومنافع في الدين والدعوة إليه وتعليمه أينما كان.. وقد أوصاه الله بالصلاة والزكاة ليؤدّيهما إذا أدركه سنّ التكليف وأمكنه الأداء مادام حياً وهذا كقوله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم: (واعبد ربّك حتى يأتيك اليقين) "الحجر:٩٩"، وإضافة إلى هذا أوصي ببرّ والدته ولم يجعله تعالى جباراً بالاستكبار عن عبادته وطاعته وبره لوالدته فيشقى بذلك. وقال بعض السلف: "لاتجد أحداً عاقاً لوالديه إلاّ وجدته جبّاراً شقياً" (١).

ثمّ يختم عيسى كلامه بقوله: (والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً).

وهكذا يجيء في الختام -أيضاً- كما جاء في البدء.. إثبات من عيسى لعبوديته لله عزّ وجلّ، وأنّه مخلوق من خلق الله.. يُحيى ويُمات ويبعث كسائر الخلائق، ولكن له السلامة في هذه الأحوال التي هي أشقّ مايكون على الناس، وفي هذا تأكيد لحقيقته وماهيته بحيث لايترك مجالاً لمفتر على الله(٢).

وهكذا، فإنّه بظهور معجزة نطق عيسى وهو في مهده، وبيانه لحقيقة أمره وما سيؤول إليه حاله؛ مايدلّ قطعاً على براءة أمّه ممّا نسب إليها من البغي والزنا.. وإنّما المدبّر هو الله.

---

(١) انظر: تفسير القرطبي ج١١ ص١٠٢؛ تفسير ابن كثير ج٣ ص(١١٩-١٢٠)؛ تفسير أبي السعود ج٥ ص(٢٦٢-٢٦٤)؛ تفسير الخازن ج٤ ص٢٤٥.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ج٣ ص١٢٠.

* وبعد ختام هذه القصّة يقرّر الله عزّ وجلّ بطلان ماعليه بعض النصارى من نسبهم له ولداً وهو عيسى؛ بعد بيانه لحقيقته، وهي الحقّ الذي ينبغي أن يؤخذ به. يقول تعالى: (ذلك عيسى بن مريم قول الحقّ الذي فيه يمترون. ماكان لله أن يتّخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنّما يقول له كن فيكون) (١). فإنّما هي الكلمة وأمر الله ونفخ جبريل من روحه سبحانه.

وبهذا التعقيب الالهي ينتهي كلامنا حول بيان قصّة مريم مع ابنها عيسى عليه السلام.

ومن ثمّ ننتقل إلى استخلاص العبر والفوائد منها في المبحث القادم. والله المستعان.

---

(١) سورة مريم: ٣٤-٣٥.

قرأ عاصم وابن عامر (قولَ الحق) بنصب اللام على المصدر، وقرأ الباقون: قولُ الحق بالرفع (حجة القراءات لابن زنجلة ص٤٤٢). وقرأ ابن عامر (كن فيكونَ) بالنصب (المرجع السابق ص٤٤٤).

المبحث الثاني: العبر والفوائـد

١- العبر والفوائد من حال مريم قبل تلقّي النفخة :

* إنّ مريم لتعطي أعظم أنموذج لكل فتاة مؤمنة؛ في عبادتها وقوّة صلتها بالله؛ إذ أنّها جعلت حياتها كلّها لعبادة الله دونما أيّ شغل آخر (يامريم اقنتي، لربّك واسجدي واركعي مع الراكعين). ونحن لانقول ينبغي أن تسلك الفتيات هذا المسلك وتعطي كلّ وقتها للصلاة والركوع والسجود. لا. فلارهبانيّة في الاسلام، ولكن عليهنّ أن لايهملن جانب الصلة بالله عزّ وجلّ، بل لابدّ أن يعطى هذا الجانب اهتماماً بالغاً، حتى يصلن إلى محبّة الله ويكنّ في مصافّ الصالحات القانتات مع مريم بنت عمران عليها السلام.

وأقول أيضاً: إن كان هذا حال النساء مع ضعفهنّ وعوارضهنّ فالرجال من باب الأولى أن يهتمّوا بهذا الجانب المهمّ؛ خصوصاً وأنّ قوّة الصلة بالله ممّا يهيء النفس للقيام بالأمور العظائم من أمور الدين كالدعوة إليه وغير ذلك من مقتضيات هذا الدين الحنيف.

* إنّ الله قد جعل من قنوت وعبادة مريم وطهارتها مؤهّلاً لتلقّي هذا الفضل واستقبال هذا الحدث العظيم. وهاهي ذي تتلقّى لأوّل مرّة التبليغ عن طريق الملائكة بالأمر الخطير. اختارها الله واصطفاها لتلقّي النفخة المباشرة العلوية كما تلقّاها أول هذه الخليقة آدم عليه السلام، وعرض الله هذه الخارقة على البشرية من خلالها وعن طريقها.. اصطفاها الله لأمر فريد في تاريخ البشرية؛ وذلك لما وصلت إليه من رفعة ومحبّة عند الله أثراً للقنوت والعبادة (١).

---

(١) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب ج١ ص(٢٩٥-٢٩٦).

* وفي قوله تعالى: (إنّ الله اصطفاك وطهّرك واصطفاك على نساء العالمين) نلحظ -أيضاً- أنّ الله أشار إلى طهر مريم وذلك له مغزى عظيم . يقول سيد قطب: "وذلك لما لابس مولد عيسى من شبهات لم يتورّع اليهود أن يلصقوها بمريم الطاهرة، معتمدين على أنّ هذا المولد لامثال له في عالم الناس فيزعموا أنّ من ورائه سرّاً لايشرّف قبّحهم الله!! وهنا تظهر عظمة هذا الدين، ويتبيّن مصدره عن يقين، فهاهو ذا محمد صلى الله عليه وسلم رسول الاسلام الذي يلقى من أهل الكتاب ومنهم النصارى؛ مايلقى من التكذيب والعنت والجدل والشبهات.. ها هو ذا يحدّث عن ربّه بحقيقة مريم العظيمة، وتفضيلها على نساء العالمين. بهذا الاطلاق الذي يرفعها إلى أعلى الآفاق. وهو في معرض مناظرة مع القوم الذين يعتزّون بمريم ويتّخذون من تعظيمها مبرراً لعدم إيمانهم بمحمد وبالدين الجديد! أيّ صدق وأيّ عظمة! وأيّة دلالة على مصدر هذا الدين وصدق صاحبه الأمين" (١) .

٢- العبر والفوائد من مجيء جبريل إلى مريم للنفخ فيها :

* نريد أن نبيّن أوّلاً: أنّ إرسال جبريل عليه السلام إلى مريم في قوله: (فأرسلنا إليها روحنا) إنّما هو لغرض معيّن وليس إرسالاً من أجل نبوّتها، وقد بيّن جبريل ذلك بقوله: (قال إنّما أنا رسول ربّك لأهب لك غلاماً زكيّاً) ؛ فهو إنّما أرسل إليها ليهب لها هذا الغلام بالنفخ فيها كما أمره الله. وقد اتفق على أنّه لايوحى بالنبوة لامرأة ودليل ذلك قوله تعالى: (وما أرسلنا من قبلك إلاّ رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى) "يوسف: ١٠٩".

فارسال جبريل ليس على وجه النبوة -كما قلنا- وإنّما هو كرامة لها وإرهاصاً لنبوة عيسى عليه السلام (٢) .

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج١ ص(٢٩٥-٢٩٦) .

(٢) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ج٨ ص(٤٢-٤٣) ؛ تفسير أبي السعود ج٢ ص٢٥.

* ولنا -في هذا الموقف أيضاً- عبرة للفتيات فيما ينبغي أن يكون عليه حالهن من تقوى الله في ابتغاء الحلال والبعد عن الحرام؛ فإنّ مريم حين دخل عليها جبريل في أبهى صورة -قيل: جاءها في أبهى صورة رجل لاختبارها وسبر عفّتها- وهي في خلوتها وبعدها عن أعين الناس قالت: (إنّي أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيّاً) فكلامها هذا شاهد على أنّه لم يخطر ببالها شائبة ميل إليه.. وإنّها لقمّة الورع والعفاف، كما أنّها ذكرت الله بعنوان الرحمانية للمبالغة في العياذ به واستجلاب آثار الرحمة الخاصّة التي هي العصمة ممّا دهمها(١).

وهكذا كانت مريم عليها السلام مثالاً يحتذى به في كلّ شيء.. في العبادة والتقوى والطهر والعفاف.

* وحول النفخة من روح الله التي أمر بها جبريل ونفخها.. ذلك السرّ الذي لايعلمه أحد.. سرّ الحياة يحدثنا سيد قطب عنه فيقول فيما خلاصته: ماهي هذه النفخة وكيف تنفخ في الموات فينشأ هذا السرّ اللطيف الخافي على الأفهام؟ ماهي وكيف؟ هذا هو الذي لم يخلق العقل البشري لإدراكه لأنّه ليس من شأنه. إنّ معرفة ماهية الحياة وطريق النفخة لايجديه شيئاً في وظيفته التي خلقه الله.. وظيفة الخلافة في الأرض وإنّه لن يخلق حياة من موات، فما قيمة أن يعرف طبيعة الحياة وماهية النفخة من روح الله، وكيفية اتصالها بآدم أو بأول سلم الحياة التي سارت فيه السلالة الحية؟ والله يقول إنّ النفخة من روحه في آدم هي التي جعلت له الامتياز والكرامة حتى على الملائكة، فلابد إذن أن تكون شيئاً آخر غير مجرّد الحياة الموهوبة للدود والميكروب، وهذا مايقودنا إلى اعتبار الانسان جنساً نشأ نشأة ذاتية وأنّ له اعتباراً خاصّاً في نظام الكون ليس لسائر الأحياء.. وقد شاء الله بعد نشأة آدم نشأة ذاتية مباشرة أن يجعل لإعادة النشأة الانسانية طريقاً معيّناً.. طريق التقاء ذكر وأنثى واجتماع بويضة وخليّة تذكير. فيتمّ الاخصاب ويتمّ الإنسال. والبويضة حيّة غير ميتة،

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود ج٥ ص٢٦٠.

والخلية حيّة كذلك متحرّكة. ومضى مألوف الناس على هذه القاعدة.. حتى شاء الله أن يخرق هذه القاعدة المختارة في فرد من بني الانسان فينشئه نشأة قريبة وشبيهة بالنشأة الأولى. وإن لم تكن مثلها تماماً. أنثى فقط. تتلقى النفخة التي تنشيء الحياة ابتداء فتنشأ فيها الحياة(١).

* وفي نفخ الله من روحه في مريم وهي بكلمة "كن" (وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه) فقوله: (وروح منه) "من" هنا لابتداء الغاية مجازاً، لاتبعيضية؛ كما زعمت النصارى فقالوا إنّه ابن الله.

وفي هذا الشأن يروى أنّ طبيباً نصرانياً حاذقاً للرشيد ناظر علي بن الحسين الواقدي المروزي ذات يوم فقال له: إنّ في كتابكم مايدلّ على أنّ عيسى -عليه السلام- جزء منه تعالى، وتلا هذه الآية.

فقرأ بعدها الواقدي قول الله عزّ وجلّ: (وسخر لكم مافي السموات ومافي الأرض جميعاً منه) "الجاثية:١٣" وقال: إذن يلزم أن يكون جميع تلك الأشياء جزءاً منه تعالى علواً كبيراً. فانقطع النصراني وأسلم، وفرح الرشيد فرحاً شديداً ووصل الواقدي بصلة فاخرة(٢).

وقد أوضحنا هذه المسألة في بيان القصّة بما فيه الكفاية إن شاء الله.

* وفي قوله تعالى: (إذ قالت الملائكة يامريم إنّ الله يبشّرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقرّبين. ويكلّم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين... ويعلّمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل ورسولاً إلى بني إسرائيل...) "آل عمران:٤٥-٤٨" نذكر ثلاثة أمور:

أولها- في سبب تسميته بالمسيح:

---

(١) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب ج١ ص(٢٩٧-٢٩٨).
(٢) انظر: تفسير أبي السعود ج٢ ص٢٥٩.

المسيح هو لقبه عليه السلام، وهو من الألقاب المشرّفة كالصدّيق، وأصله بالعبرية مشيحاً (بالشين) ومعناه: المبارك.

وروي أنّ معناه هو الصدّيق. قاله إبراهيم النخعي.

وقال بعض السلف: سمّي مسيحاً لكثرة سياحته. وقيل: لأنّه كان مسيح القدمين لاأخمص لهما. وقيل: لأنّه كان إذا مسح أحداً من ذوي العاهات برىء بإذن الله. وقيل: لأنّه مسح بالطهر من الذنوب. وقيل: مسحه الله أي خلقه خلقاً حسناً مباركاً، ومقابله: "مسخه" أي خلقه خلقاً قبيحاً. والله أعلم بمراده.

وعلى سبيل الفائدة قد يخطر ببال أحد لم سمّي الدجّال مسيحاً. فنقول: لأنّه ممسوح إحدى العينين وبه سمّي الأعور. وقيل: سمّي بذلك لأنّه يطوف الأرض كلّها إلاّ المدينة ومكة وبيت المقدس، فعيسى يطوفها منحة، والدجّال محنة(١).

وثانيها- إنّ في ذكر أحوال عيسى المتباينة المختلفة (يكلّم الناس في المهد وكهلاً...يعلّمه... ورسولاً..) إشارة إلى أنّه بمعزل عن الألوهية(٢).

وثالثها- ماأورده أبو يحيى زكريا الأنصاري من أنّه ماهي المعجزة في تكليم عيسى الناس في كهولته؟ وأجاب عليه بقوله: أن المعجزة هي تكلّمه في الحالتين بكلام الأنبياء من غير تفاوت بين الطفولة والكهولة التي يستحكم فيها العقل وتنبأ فيها الأنبياء(٣).

---

(١) انظر: تفسير القرطبي ج٤ ص(٨٨-٩٢)؛ تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج١ ص(٣٦٢-٣٦٤)؛ تفسير أبي السعود ج٢ ص٢٧.

(٢) تفسير أبي السعود: ج٢ ص(٢٧-٢٨).

(٣) انظر: فتح الرحمن بكشف مايلتبس في القرآن لأبي يحيى زكريا الأنصاري ص(٨٨-٨٩).

* ومن البلاغة القرآنية في الآيات مايلي :

- قول مريم: (إنّي أعوذ بالرحمن منك "إن كنت تقياً") فيه: أنّ مجيء هذا التذكير بصيغة الشرط المؤذن بالشك في تقواه قصد لتهييج خشيته، وكذلك اجتلاب فعل الكون الدالّ على كون التقوى مستقرّة فيه، وهذا أبلغ وعظ وتذكير وحثّ على العمل بتقواه (١).

- وقول جبريل: (لأهب لك غلاماً زكياً) فيه: أنّ إسناد الهبة إلى نفسه مجاز عقلي؛ لأنّه سبب الهبة (٢).

- وقولها: (ولم يمسسني بشر) فيه كناية لطيفة، فالمسّ هنا كناية عن المعاشرة الزوجية بالجماع (٣).

- ثمّ إنّ قولها: (ولم أك بغياً) فيه -أيضاً- كناية عن التنزّه عن الوصم بالبغاء بقاعدة الاستصحاب. والمعنى: ماكنت بغياً فيما مضى أفأعد بغياً فيما يستقبل (٤).

٢- العبر والفوائد من بقيّة القصّة :

* إنّ في قوله تعالى على لسان مريم عند مخاضها: (ياليتني متّ قبل هذا وكنت نسياً منسياً) دليل على جواز تمنّي الموت عند الفتنة، فإنّها قد خافت أن يفتتن الناس بسببها في كلامهم عليها واتهامهم إيّاها بالزنا فيصيبهم ذنب عظيم (٥).

---

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور: ج١٦ ص٨١.
(٢) المرجع السابق: ج١٦ ص٨١.
(٣) صفوة التفاسير للصابوني: ج٢ ص٢١٧.
(٤) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور: ج١٦ ص٨٢.
(٥) انظر: تفسير القرطبي ج١١ ص٩٨.

* إنّ تكلّم عيسى في مهده إعجاز عظيم. وقد جاء في الصحيح أنّه قد تكلّم في المهد غيره، دلالة على قدرته سبحانه وتعالى التي أنطقت الحجر والشجر؛ فروى أبو هريرة -رضي الله عنه- أنّ النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: "لم يتكلّم في المهد إلاّ ثلاثة: عيسى، وكان في بني إسرائيل رجل يقال له جريْج كان يصلي جاءته أمّه فدعته. فقال: أجيبها أو أصلي فقالت: اللهمّ لاتمته حتى تريه وجوه المومسات. وكان جريج في صومعته فتعرّضت له امرأة وكلّمته فأبى، فأتت راعياً فأمكنته من نفسها فولدت غلاماً. فقالت من جُريْج، فأتوه فكسروا صومعته وأنزلوه وسبّوه، فتوضأ وصلى ثمّ أتى الغلام فقال: من أبوك ياغلام. قال: الراعي. قالوا: نبني صومعتك من ذهب. قال: لا إلاّ من طين. وكانت امرأة ترضع ابناً لها من بني إسرائيل فمرّ بها رجل راكب ذو شارة، فقالت: اللهمّ اجعل ابني مثله، فترك ثديها وأقبل على الراكب فقال: اللهمّ لاتجعلني مثله، ثمّ أقبل على ثدي أمّه يمصّه -قال أبو هريرة: كأنّي أنظر إلى النبي صلى الله عليه وسلم يمصّ إصبعه- ثمّ مرّ بأمة فقالت: اللهمّ لاتجعل ابني مثل هذه، فترك ثديها فقال: اللهمّ اجعلني مثلها. فقالت: لم ذاك؟ فقال: الراكب جبّار من الجبابرة وهذه الأمة يقولون: سرقت زنيت ولم تفعل."(١).

* وحول قوله تعالى: (وهزّي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً) نذكر مايلي:

- يقول القرطبي المفسّر رحمه الله: استدل بعض الناس من هذه الآيةعلى أنّ الرزق وإن كان محتوماً فإن الله تعالى قد وكل ابن آدم إلى سعي مافيه مناله؟ لأنّه أمر مريم بهزّ النخلة لترى آية، وكانت الآية تكون بألاّ تهزّ، والأمر بتكليف الكسب في الرزق سنّة الله تعالى في عباده، وذلك لايقدح في التوكّل(٢).

---

(١) رواه البخاري: كتاب الأنبياء، حديث(٢٢٢)، ج٤ ص٢٢٠.
ورواه مسلم: كتاب البرّ، حديث(٦)، ج٥ ص(١١٤-١١٦).
(٢) انظر: تفسير القرطبي ج١١ ص٩٥.

وفي هذا المقام نذكر لأحد الشعراء قوله:

ألم تر أنّ الله قال لمريم وهزّي إليك الجذع يسّاقط الرطب
ولو شاء الله أن تجنيه من غير هزّها جنته ولكن كل شيء له ســـبب.

- وفي أمرها بهزّ جذع النخلة لتناول الرطب يقول الربيع بن خثيم: ماللنفساء عندي خير من الرطب لهذه الآية، ولو علم الله شيئاً هو أفضل للنفساء من الرطب لأطعمه مريم. ولذلك قالوا: التمر عادة للنفساء من ذلك الوقت، وكذلك التحنيك به للمولود. وقيل: إذا تعسّرت ولادة المرأة لم يكن لها خير من الرطب(١).

وقد أثبتت البحوث العلمية التي أجريت على الرطب أنّها تحتوي على مادّة قابضة للرحم، تقوّي عمل عضلات الرحم في الأشهر الأخيرة من الحمل، ممّا يساعد على الولادة من جهة، كما تقلل كميّة النزيف الحاصل بعد الولادة من جهة أخرى.

كما تشكّل السكّريات البسيطة سهلة الهضم الموجودة في الرطب المصدر الأساسي للطاقة اللازمة خلال عملية الولادة. فسبحان الله العظيم!

* ويذكر الرازي لطيفة حول قوله تعالى: (فكلي واشربي وقرّي عيناً) فيقول: "قدّم الأكل على الشرب لأنّ احتياج النفساء إلى أكل الرطب أشدّ من احتياجها إلى شرب الماء؛ لكثرة ما سال منها من الدماء(٢).

* وإنّ في ظهور براءة مريم على لسان ابنها لمظهر من مظاهر تأييد الله لها وكرامتها لمنزلتها الرفيعة؛ بأن قال: (إنّي عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً وجعلني مباركاً أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة مادمت حياً. وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً. والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً).

---

(١) انظر: تفسير القرطبي ج١١ ص٩٦.
(٢) التفسير الكبير للفخر الرازي: ج٢١ ص٢٠٦.

- وقال أنس بن مالك -رضي الله عنه- في هذه الآيات: "ماأشدّها على أهل القدر! أخبر عيسى -عليه السلام- بما قضي من أمره، وبما هو كائن إلى أن يموت".

- وقد روي عن ابن زيد وغيره: أنّهم لمّا سمعوا كلام عيسى أذعنوا وقالوا: إنّ هذا لأمر عظيم.

- كما أنّه روي أنّ عيسى إنّما تكلّم في طفولته بهذه الكلمات؛ ثمّ عاد إلى حالة الاطفال حتى مشى على عادة البشر إلى أن بلغ مبلغ الصبيان، فكان نطقه إظهاراً لبراءة أمّه؛ لا أنّه كان ممّن يعقل في تلك الحالة، وهو كما يُنطق الله الجوارح يوم القيامة.

- وقد دلّت هذه الآيات على أنّ الصلاة والزكاة وبرّ الوالدين كان واجباً على الأمم السابقة والقرون الماضية، فهو ممّا يثبت حكمه ولم ينسخ في شريعة أمره مع اختلاف صوره(١).

وهذا ممّا يدلّ على أهمّية هذه الأمور؛ إذ أنّ الصلاة تمثّل جانب حسن الصلة بالله وتأتي في الدرجة الأولى، والزكاة تأتي في جانب حسن الصلة بالآخرين، وبرّ الوالدين يمثّل جانب حسن الصلة بهما؛ وأفردا بالذكر دون غيرهما لعظم حقّهما على الانسان.

* ومن البلاغة القرآنية في الآيات مايلي :

- قوله تعالى: (وقرّي عيناً) فيه الكناية عن السرور بطريق المضادّة، وفي كونه قرّة عين كناية عن ضمان سلامته ونباهة شأنه(٢).

---

(١) انظر: تفسير القرطبي ج١١ ص(١٠٢- ١٠٤).
(٢) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور: ج١٦ ص٨٩.

- السجع في نهايات الآيات: (سرياً، بغياً، صبياً، نبياً) وهو من المحسنات البديعية(١).

وبهذه العبر والفوائد حول قصّة مريم مع ابنها عيسى -عليهما السلام- نكون قد انتهينا من هذا الباب (مريم مع أمّها وابنها عيسى عليهم السلام).

والحمد لله ربّ العالمين.

---

(١) صفوة التفاسير للصابوني: ج٢ ص٢١٧.

الباب العاشـــر

"مواقف لعدد من صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم"

وفيه تمهيد وثلاثة فصول :

الفصل الأول: موقف لأبي بكر الصديق رضي الله عنه.
الفصل الثاني: موقف لسعد بن أبي وقّاص رضي الله عنه.
الفصل الثالث: مواقف لعدد من الصحابة رضي الله عنهم.

"تمهيـــد"

في هذا الباب سنتناول بالذكر بعض الآيات التي لها صلة ببحثنا؛ وكان سبب نزولها قصصاً بين الآباء والأبناء، ممّا يوضّح لنا جوانب مهمّة -من هذه العلاقة- تكون متمّمة لبحثنا.

وهذه المواقف التي ندرسها من خلال الآيات القرآنية هي لصحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- خير قدوة لنا بعده عليه الصلاة والسلام، وهم -رضي الله عنهم- قد اقتبسوا من منهجه في كلّ شيء وكانوا خير من اقتدى به.

فإذاً مواقفهم التي سندرسها في هذا الباب إنّما هي بمثابة أنوار لنا في سيرنا في هذا الأمر العظيم نهتدي بها ونترسّم خطاها.

وسيحتوي بابنا هذا على ثلاثة فصول:

أمّا الفصل الأول فهو: موقف لأبي بكر الصديق رضي الله عنه.

وفيه تقديم وثلاثة مباحث:

الأول: ذكر سبب النزول.

الثاني: بيان الآيتين الكريمتين.

الثالث: العبر والفوائد.

وأما الفصل الثاني فهو: موقف لسعد بن أبي وقّاص رضي الله عنه.

وفيه تقديم وثلاثة مباحث:

الأول: ذكر سبب النزول.

الثاني: بيان الآيتين الكريمتين.

الثالث: العبر والفوائد.

والفصل الثالث والأخير: مواقف لعدد من الصحابة رضي الله عنهم من خلال قوله تعالى: (لاتجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله.. الآية) "المجادلة: ٢٢".

ويشتمل هذا الفصل على تقديم وثلاثة مباحث أيضاً:

الأول: ذكر سبب النزول.

الثاني: بيان الآية.

الثالث: العبر والفوائد.

ونسأل الله عزّ وجل التوفيق والسداد.

الفصل الأول
"موقف أبي بكر الصديق رضي الله عنه"

تقديم:

قد تكررت الوصايا ببرّ الوالدين في القرآن الكريم في مواضع عديدة، وكذلك حثّ النبي صلى الله عليه وسلّم عليها في أحاديثه الشريفة، فكان برّ الوالدين أجلى مظهراً في هذه الأمّة المحمدية منه في غيرها، وكان من بركات أهلها بحيث لم يبلغ برّ الوالدين مبلغاً في أمّة مبلغه في المسلمين.

ومن الآيات القرآنية التي جاءت بالوصية ببرّ الوالدين قوله تعالى:

(ووصّينا الانسان بوالديه إحساناً(١) حملته أمّه كرهاً ووضعته كرهاً(٢) وحمله وفصاله ثلاثون شهراً حتى إذا بلغ أشدّه وبلغ أربعين سنة قال ربّ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لي في ذرّيتي إنّي تبت إليك وإنّي من المسلمين. أولئك الذين نتقبّل عنهم أحسن ماعملوا ونتجاوز عن سيّئاتهم(٢) في أصحاب الجنّة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون) "الأحقاف: ١٥-١٦".

---

(١) قرأ عاصم وحمزة والكسائي: (إحساناً) بالألف، وقرأ الباقون: (حُسْناً). (انظر: حجّة القراءات لابن زنجلة ص٦٦٢).

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو: (كَرْهاً ووضعته كَرْهاً) بفتح الكاف، وقرأ الباقون بالضمّ (كُرْهاً). (انظر: حجّة القراءات لابن زنجلة ص٦٦٢-٦٦٤).

(٢) قرأ الكسائي وحمزة وحفص: (نتقبل) بالنون، (أحسنَ) بالنصب، (ونتجاوز) بالنون. وقرأ الباقون: (يتقبّل) بالياء، (أحسنُ) بالرفع، (ويتجاوز) بالياء. (انظر: حجة القراءات لابن زنجلة ص٦٦٤).

وهاتان الآيتان كان لهما سبب نزول يعبّر عن حالة من البرّ بالوالدين عظيمة. وسنبيّن هذا السبب ومن ثمّ نوضّح ماأشارت إليه الآيتان وأخيراً -كالمعتاد- نستخرج العبر والفوائد.

والله المستعان.

المبحث الأول - ذكر سبب النزول :

إنّ من المعلوم أنّ العبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب، وهاتان الآيتان تشيران الى وجوب برّ الوالدين فهما على عمومهما؛ ولكن هذا لايمنع أن يذكر السبب الخاص الذي نزلتا فيه، فهو لايتعارض مع العموم، بل قد يضيف معنى وعبرة يستفاد بهما من الآيات بصورة أفضل مع العموم، وهذه من فوائد معرفة أسباب النزول؛ إذ بها يكون أثر الآيات أعمق وأوقع في النفوس لما تجده من القدوات أمامها متمثلة في حقيقتها.

ولذلك نحن نذكر من نزلت فيه هاتان الآيتان لالحصرهما فيه -كما أشرنا- بل هما تنطبقان على الكلّ وتشيران الى ماينبغي أن يكون عليه حال الأبناء مع آبائهم..

* فقوله: (حتى إذا بلغ أشدّه وبلغ أربعين سنة... الآية) يقول ابن عباس في رواية عطاء: "أنزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وذلك أنه صحب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو ابن ثماني عشرة سنة، ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- ابن عشرين سنة، وهم يريدون الشام في التجارة، فنزلوا منزلاً فيه سدرة، فقعد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في ظلّها، ومضى أبو بكر إلى راهب هناك يسأله عن الدين، فقال له: من الرجل الذي في ظلّ السدرة؟ فقال: ذاك محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، قال: هذا والله نبيّ، وما استظلّ تحتها أحد بعد عيسى بن مريم إلاّ محمد نبيّ الله. فوقع في قلب أبي بكر اليقين والتصديق، فكان لايفارق رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في أسفاره وحضوره. فلمّا نبّىء رسول الله صلى الله عليه وسلم- وهو ابن أربعين سنة، وأبو بكر ابن ثمان وثلاثين سنة أسلم وصدّق رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما بلغ أربعين سنة قال: ربّ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ.. الآية" (١).

---

(١) أسباب النزول للواحدي: ص(٤٠١-٤٠٢).

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: في أبي بكر أسلم أبواه جميعاً ولم يجتمع لأحد من المهاجرين أن أسلم أبواه غيره، وأوصاه الله بهما ولزم ذلك من بعده.

* وفي قوله: (وأن أعمل صالحاً ترضاه) قال ابن عباس: أجابه الله تعالى فأعتق تسعة من المؤمنين يعذّبون في الله منهم بلال، ولم يرد شيئاً من الخير إلاّ أعانه الله عليه.

* وقوله: (وأصلح لي في ذرّيتي) أجابه الله عليه فلم يكن له ولد إلاّ آمن، فاجتمع لأبي بكر إسلام أبويه: أبي قحافة عثمان بن عمرو. وأمّه أمّ الخير بنت، صخر بن عمر، وابنه عبد الرحمن وابن عبد الرحمن أبي عتيق محمد. فهؤلاء أربعة: أبوبكر وأبوه وأمّه وابنه وابن ابنه محمد كلهم أدركوا النبي -صلى الله عليه وسلم- وأسلموا ولم يجتمع ذلك لأحد من الصحابة غير أبي بكر(١).

---

(١) انظر: تفسير الخازن والبغوي عليه ج٦ ص(١٥٩-١٦٠)؛ الدر المنثور في التفسير بالمأثور ج٧ ص٤٤٢؛ التفسير الكبير للفخر الرازي ج٢٨ ص(١٤-١٩)؛ جامع النقول في أسباب النزول لابن خليفة عليوي ج٢ ص(٢٩١-٢٩٢).

المبحث الثاني - بيان الآيتين الكريمتين :

أوصى الله عزّ وجلّ الانسان وأمره بالاحسان إلى الوالدين والحنو عليهما وبرّهما في حياتهما، وبعد مماتهما بالدعاء لهما وإيصال رحمهما. ثمّ خصّ الله الأمّ بالذكر لعظم حقّها مبيّناً ماتلاقيه من الشدائد فهي التي قاست بسببه في حال حمله مشقة وتعباً من وحم وغثيان وثقل وكرب إلى غير ذلك ممّا تنال الحوامل من التعب والمشقة، وكذلك وضعته في وقت مولده بمشقّة أيضاً من الطلق وآلامه وشدّته.

ثمّ وضّح الله أنّ مدّة حمله وفطامه شرب اللبن ثلاثون شهراً.

وبعد ذلك وصف الله تعالى الحالة التي ينبغي أن يكون عليها الانسان حين بلوغه الأشدّ وهو سنّ الثلاثة والثلاثين وحين بلوغه الأربعين عاماً، وهي حالة الانسان الذي هداه الله لرشده وعرّفه حقّه عليه فيما ألزمه من برّ الوالدين، فيقول: ربّ ألهمني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ في تعريفك إيّاي توحيدك، وهدايتك لي للاقرار بذلك والعمل بطاعتك، وعلى والديّ من قبلي وغير ذلك من نعمك علينا. -أصل أوزعني: من وزعت الرجل على كذا إذا دفعته عليه- وهو مع شكره هذا يدعو ربّه بأن ييسّر له عمل الصالحات، وأن يصلح له ذريّته (وأصلح لي في ذرّيتي) ونزّلت الذريّة منزلة الظرف ممّا يفيد تمكّن الاصلاح من الذريّة وتغلغله فيهم.

ثمّ ماينسى هذا الانسان السويّ مع شكره ودعائه أن يقرن ذلك بالتوبة إلى الله عزّ وجلّ والانابة إليه وحسن الرجعة..

وبعد أن ذكر الله صفات هذه الفئة السويّة من الناس بيّن ماأعدّه لهم من عظيم الأجر والثواب عنده فقال: (أولئك الذين نتقبّل عنهم أحسن ماعملوا ونتجاوز عن سيّئاتهم في أصحاب الجنّة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون). فهؤلاء هم الذين يتقبّل الله عنهم أحسن ماعملوا ويتجاوز عن سيّئاتهم فيغفر لهم الكثير من الزلل ويتقبّل منهم اليسير من العمل ويجعلهم في جملة أصحاب الجنّة. وهذا هو حكمهم عند الله كما وعد الله من تاب إليه وأناب(١).

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير الطبري ج٢٦ ص(١١-١٢)؛ تفسير القرآن =

المبحث الثالث - العبر والفوائد :

* يقول الشهيد سيد قطب -رحمه الله- حول الايصاء بالوالدين في هذا المقام: "هذا الشوط يسير مع الفطرة في استقامتها وفي انحرافها، وفيما تنتهي إليه حين تستقيم، وماتنتهي إليه حين تنحرف.

ويبدأ بالوصية بالوالدين وكثيراً ماترد هذه الوصية لاحقة للكلام عن العقيدة في الله أو مصاحبة لهذا الحديث. ذلك أنّ وشيجة الأبوّة والبنوّة هي أول وشيجة بعد وشيجة الايمان في القوّة والأهميّة وأولاها بالرعاية والتشريف. وفي هذا الاقتران دلالتان:

أولاهما: هذه.

والثانية: أنّ آصرة الايمان هي الأولى وهي المقدّمة، ثمّ تليها آصرة الدم في أوثق صورها.

(ووصينا الانسان بوالديه) فهي وصيّة لجنس الانسان كلّه، قائمة على أساس انسانيّته، بدون حاجة إلى أيّة صفة أخرى وراء كونه إنساناً. وهي وصيّة بالإحسان مطلقة من كلّ شرط ومن كلّ قيد، فصفة الوالدية تقتضي هذا الاحسان بذاتها بدون حاجة إلى أية صفة أخرى كذلك.

وهي وصية صادرة من خالق الانسان، وربّما كانت خاصّة بهذا الجنس أيضاً. فما نعرف في عالم الطير أو الحيوان أو الحشرات وما إليها أنّ صغارها مكلّفة برعاية كبارها.

والمشاهد الملحوظ هو فقط تكليف فطرة هذه الخلائق أن ترعى كبارها صغارها في بعض الأجناس. فهي وصية ربّما كانت خاصّة بجنس الانسان.

وتتكرّر في القرآن الكريم وفي حديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الوصية بالاحسان إلى الوالدين، ولاترد وصية الوالدين بالأولاد إلا نادرة، ولمناسبة حالة معيّنة. وذلك أنّ الفطرة وحدها تتكفّل برعاية الوالدين للأولاد، رعاية تلقائية

= العظيم لابن كثير ج٤ ص(١٥٦-١٥٨).

مندفعة بذاتها لاتحتاج إلى مثير. وبالتضحية النبيلة الكاملة العجيبة التي كثيراً ماتصل إلى حدّ الموت فضلاً على الألم بدون تردد، ودون انتظار عوض، ودون منّ ولارغبة حتى في الشكران! أمّا الجيل الناشيء فقلّما يتلفّت إلى الخلف.. قلّما يتلفّت إلى الجيل المضحّي الواهب الفاني لأنّه بدوره مندفع إلى الأمام، يطلب جيلاً ناشئاً منه يضحّي له بدوره ويرعاه! وهكذا تمضي الحياة(١)".

* إنّ تخصيص الأمّ بالذكر بعد الوصيّة العامّة بالوالدين يدلّ على عظم حقّها.
وفي هذا الشأن يذكر أبو حيّان لطيفة فيقول: "ذكر تعالى الأمّ في ثلاث مراتب في قوله (بوالديه) وحمله وإرضاعه المعبّر عنه بالفصال، وذكر الوالد في واحدة في قوله (بوالديه)؛ فناسب ماقال الرسول -صلى الله عليه وسلم- من جعل ثلاثة أرباع للأمّ والربع للأب في قوله للرجل: "أمّك ثمّ أمّك ثمّ أمّك ثمّ أبوك، في سؤاله عن أحقّ الناس بحسن الصحبة"(٢).

* وقد دلّ على عظم حقّ الأمّ على أولادها ماتواجهه من المشاقّ في رحلة وجود كلّ منهم في حمله ثمّ وضعه ومن ثمّ إرضاعه.
ويصف لنا سيد قطب -رحمه الله- هذه المشاقّ فيقول: "ويصوّر القرآن هنا تلك التضحية النبيلة الكريمة الواهبة التي تتقدّم بها الأمومة التي لايجزيها أبداً إحسان من الأولاد مهما أحسنوا القيام بوصيّة الله في الوالدين. (حملته أمّه كرهاً ووضعته كرهاً) وتركيب الألفاظ وجرسها يكاد يجسّم العناء والجهد والضنى والكلال (حملته أمّه كرهاً ووضعته كرهاً) لكأنّها آهة مجهد مكروب ينوء بعبء ويتنفّس بجهد، ويلهث بالأنفاس! إنّها صورة الحمل وبخاصّة في أواخر أيّامه، وصورة الوضع وطلقه وآلامه

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج٦ ص٣٢٦١.
(٢) تفسير البحر المحيط لأبي حيّان: ج٨ ص٦١.

البويضة بمجرّد تلقيحها بالخليّة المنويّة تسعى للالتصاق بجدار الرحم. وهي مزوّدة بخاصيّة أكّالة تمزّق جدار الرحم الذي تلتصق به وتأكله، فيتوارد دم الأمّ إلى موضعها، حيث تسبح هذه البويضة الملقّحة دائماً في بركة من دم الأمّ الغني بكلّ مافي جسمها من خلاصات وتمتصّه لتحيا به وتنمو. وهي دائمة الأكلان لجدار الرحم. دائمة الامتصاص لمادة الحياة. والأمّ المسكينة تأكل وتشرب وتهضم وتمتصّ، لتصبّ هذا كله دماً نقياً غنياً لهذه البويضة الشرهة النهمة الأكول!

وفي فترة تكوين عظام الجنين يشتدّ امتصاصه للجير من دم الأمّ فتفتقر إلى الجير. ذلك أنّها تعطي محلول عظامها في الدم ليقوم به هيكل هذا الصغير وهذا كلّه قليل من كثير!

ثمّ الوضع وهو عملية شاقة ممزّقة، ولكن آلامها الهائلة كلّها لاتقف في وجه الفطرة ولاتنسي الأمّ حلاوة الثمرة.. ثمرة التلبية للفطرة ومنح الحياة لنبتة جديدة تعيش وتمتدّ.. بينما هي تذوي وتموت! ثمّ الرضاع والرعاية. حيث تعطي الأمّ عصارة لحمها وعظمها في اللبن وعصارة قلبها وأعصابها في الرعاية. وهي مع هذا كلّه فرحة سعيدة رحيمة ودود. لاتملّ أبداً ولاتكره تعب هذا الوليد. وأكبر ماتتطلّع اليه من جزاء أن تراه يسلم وينمو. فهذا هو جزاؤها الحبيب الوحيد. فأنّى يبلغ الانسان في جزاء هذه التضحية مهما يفعل. وهو لايفعل إلاّ القليل الزهيد! "(١).

* ومن قوله تعالى: (وحمله وفصاله ثلاثون شهراً) استدلّ علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- مع التي في لقمان (وفصاله في عامين) "لقمان:١٤" على أنّ أقلّ مدّة الحمل ستة أشهر. وهو استنباط قويّ وصحيح، ووافقه عليه عثمان بن عفّان -رضي الله عنه- وجماعة من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين.

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج٦ ص٣٢٦٢.

- ومن جهة أخرى روى عكرمة عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: "إذا وضعت المرأة لتسعة أشهر كفاه من الرضاع أحد وعشرون شهراً، وإذا وضعت لسبعة كفاه ثلاثة وعشرون شهراً، وإذا وضعت لستة فحولين كاملين." (١).

* وحول قوله تعالى: (حتى إذا بلغ أشدّه وبلغ أربعين سنة قال ربّ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ.. الآية) يقول سيد قطب رحمه الله: "وفي هذه السنّ تتجه الفطرة المستقيمة السليمة إلى ماوراء الحياة وما بعد الحياة. وتتدبر المصير والمآل. ويصور القرآن هنا خوالج النفس المستقيمة وهي في مفرق الطريق بين شطر من العمر ولّى وشطر آخر يكاد ينتهي وهي تتوجّه إلى الله (ربّ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ) دعوة القلب الشاعر بنعمة ربّه المستعظم المستكثر لهذه النعمة التي تغمره وتغمر والديه قبله فهي قديمة العهد به المستقلّ المستصغر لجهده في شكرهما، يدعو ربه أن يعينه بأن يجمعه كله (أوزعني) لينهض بواجب الشكر فلا يفرّق طاقته ولااهتمامه في مشاغل أخرى غير هذا الواجب الضخم الكبير.
(وأن أعمل صالحاً ترضاه) وهذه أخرى فهو يطلب العون للتوفيق إلى العمل الصالح يبلغ من كماله وإحسانه أن يرضاه ربّه فرضى ربّه هو الغاية التي يتطلّع إليها وهو وحده الرجاء الذي يأمل فيه.
(وأصلح لي في ذريّتي) وهذه ثالثة وهي رغبة القلب المؤمن في أن يتّصل عمله الصالح في ذريته، وأن يؤنس قلبه شعوره بأنّ في عقبه من يعبد الله ويطلب رضاه. والذرية الصالحة أمل العبد الصالح وهي آثر عنده من الكنوز والذخائر. وأروح لقلبه من كلّ زينة الحياة. والدعاء يمتدّ من الوالدين إلى الذريّة ليصل الأجيال المتعاقبة في طاعة الله." (٢).

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٤ ص١٥٧.
(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج٦ ص(٣٢٦٢-٣٢٦٣).

أقول: وبمثل هذه المعاني ينبغي أن يعيش المؤمن في حياته، تطلّعاً إلى المصير، وشكراً للنعم، ورغبة في الثبات على العمل الصالح طلباً لرضى الله، وابتغاء أكيداً للذريّة الصالحة المستقيمة.

* وفي قوله تعالى: (حتى إذا بلغ أشدّه وبلغ أربعين سنة.. الآية) إشارة -أيضاً- إلى أنّ ماوصّي به الانسان من الاحسان إلى الوالدين فهو مطلوب -أيضاً- في وقت بلوغه الأشدّ، فلا يفتر عن الاحسان إليهما بكلّ وجه حتى بالدعاء لهما.

وخصّ زمان بلوغه الأشدّ لأنّه زمن يكثر فيه الكلف بالسعي للرزق، إذ يكون للرجل فيه زوجة وأبناء، وتكثر تكاليف الحياة. كما أنّه في جانب المرأة فانّه يكون لها في هذا السنّ زوج وبيت وأبناء، وبالتالي يكون كلّ من الرجل والمرأة مظنّة أن تشغلهما التكاليف عن تعهد والديهما والاحسان إليهما؛ فجاء التنبيه لهما لئلاّ يفترا عن الاحسان(١).

* وإضافة إلى ماذكره سيد قطب حول قوله: (وأصلح لي في ذريّتي) نذكر كلاماً للطاهر بن عاشور حيث يقول: "استطراد في أثناء الوصاية بالدعاء للوالدين بأن لايغفل الانسان عن التفكر في مستقبله بأن يصرف عنايته إلى ذريّته كما صرفها إلى أبويه ليكون له من إحسان ذرّيته إليه مثل ماكان لأبويه، وإصلاح الذرية يشمل إلهامهم الدعاء إلى الوالد"(٢).

أقول: وقد نلحظ بعض الآباء من يصرف همّه وشغله في أبويه، ويهمل حقّ أبنائه، وهذا من الخطأ الواضح؛ إذ لكلّ من الأبوين والولد حقّ ينبغي أن يؤدّى.. وكلا الطرفين واجب ومسؤول عنه الانسان أمام ربّه..برّه بوالديه وإصلاحه لولده. فإذاً لابدّ من التوازن وإعطاء كلّ ذي حقّ حقّه.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ج٢٦ ص٢٢.
(٢) المرجع السابق: ج٢٦ ص٢٢.

* وإنّ في إدماج تلقين الدعاء بإصلاح ذريّته مع أنّ سياق الكلام في الإحسان إلى الوالدين: إيماء إلى أنّ الإنسان يلقى من إحسان أبنائه إليه مثل مالقي أبواه من إحسانه إليهما(١).

أقول: وهذه حقيقة الواقع يصدّقها، فانّا نلاحظ أنّ من عقّ والديه فانّ أولاده -على الغالب- يكونون عاقّين له، وكذلك من كان محسناً لأبويه كان أولاده محسنين له. وهذا من جزاء الله في الدنيا لمن أحسن وعلى من أساء في هذا الواجب العظيم. والله أعلم.

* وفي قوله تعالى: (.. إنّي تبت إليك وإنّي من المسلمين) إرشاد لمن بلغ الأربعين أن يجدّد التوبة والإنابة إلى الله عزّ وجلّ ويعزم عليها.

وقد روى أبو داود في سننه عن ابن مسعود -رضي الله عنه- أنّ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان يعلمهم أن يقولوا في التشهّد: "اللهمّ ألّف بين قلوبنا وأصلح ذات بيننا واهدنا سبل السلام ونجّنا من الظلمات إلى النور، وجنّبنا الفواحش ماظهر منها ومابطن، وبارك لنا في أسماعنا وأبصارنا وقلوبنا وأزواجنا وذريّاتنا وتب علينا إنّك أنت التوّاب الرحيم، واجعلنا شاكرين لنعمتك مثنين بها عليك قابليها وأتمّها علينا" (٢).

---

(١) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ج٢٦ ص٢٢.

(٢) رواه أبو داود: كتاب الصلاة، (١٨٢) باب التشهد، حديث(٩٦٩)، ج١ ص٥٩٢.

وأخرجه الحاكم في المستدرك: ج١ ص٢٦٥، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرّجاه، وذكر له شاهد، وأقرّه الذهبي في التلخيص.

- وسُئل مسروق متى يؤخذ الرجل بذنوبه؟ فقال: إذا بلغ الأربعين فليأخذ حذره.

وقد قال الحجاج بن عبد الله الحليمي أحد أمراء بني أميّة بدمشق: تركت المعاصي والذنوب أربعين سنة حياءً من الناس ثمّ تركتها حياء من الله عزّ وجلّ(١).

وبهذه الفائدة الأخيرة ينتهي كلامنا حول هذا الفصل.

والحمد لله ربّ العالمين.

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٤ ص(١٥٧-١٥٨).

الفصل الثاني

"سعد بن أبي وقّاص مع أمّه"

تقديـــم :

وفي هذا الفصل سنتناول بالدراسة موقفاً لأحد العشرة المبشّرين بالجنّة من صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو سعد بن أبي وقّاص -رضي الله عنه-، وذلك مع أمّه حين أسلم وأنزل الله قوله:

(ووصّينا الانسان بوالديه حسناً وإن جاهداك لتشرك بي ماليس لك به علم فلاتطعهما إليّ مرجعكم فأنبّئكم بما كنتم تعملون. والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنّهم في الصالحين) "العنكبوت: ٨-٩".

وسنتناول دراسة هاتين الآيتين ليتضح لنا هذا الموقف من خلال معرفة سبب النزول، ثمّ شرح الآيتين، وأخيراً ذكر العبر والفوائد.

والله المستعان.

المبحث الأول - ذكر سبب النزول :

روى الامام مسلم -رحمه الله- في صحيحه أنّ مصعب بن سعد حدّث عن أبيه أنّه نزلت فيه آيات من القرآن الكريم وفيه: أنّه قال: حلفت أمّ سعد ألاّ تكلّمه أبداً حتى يكفر بدينه ولاتأكل ولاتشرب. قالت: زعمت أنّ الله وصّاك بوالديك وأنا أمّك وأنا آمرك بهذا. قال: مكثت ثلاثاً حتى غشي عليها من الجهد، فقام ابن لها يقال له عمارة فسقاها فجعلت تدعو على سعد فأنزل الله عزّ وجلّ في القرآن هذه الآية (ووصّينا الانسان بوالديه حسناً وان جاهداك على أن تشرك بي ماليس لك به علم فلاتطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً..). وفيه أنّهم إذا أرادوا إطعامها شجروا فاها بالعصا(١).

* فهذه الرواية تدلّ على أنّ الله أنزل بشأن سعد مع أمّه قوله تعالى: (ووصّينا الانسان بوالديه حسناً..)، ثمّ أكمل الراوي وأخطأ في إكماله للآية فقال: (على أن تشرك بي..) وبداية الآية في العنكبوت وليس فيها (على أن تشرك) بل فيها (لتشرك بي..) ثمّ أكمل وقال فيها: وصاحبهما في الدنيا معروفاً. وقوله هذا ليس بصحيح، فليس في آية العنكبوت ذلك، بل هذه في سورة لقمان. فالواقع أنّه خلط بين الآيات التي في العنكبوت والتي في لقمان، وبداية الآية هي المعوّل عليها، ويدلّ على صحة ماقلناه أنّه روي عن سعد بن أبي وقّاص قوله: أنزلت فيّ هذه الآية (وان جاهداك لتشرك بي ماليس لك به علم فلاتطعهما)(٢) وهذا نصّ آية العنكبوت، ويدلّ عليه -كذلك- مارواه الامام الترمذي(٣) في أنّه نزلت هذه الآية (ووصّينا

---

(١) رواه مسلم: كتاب فضائل الصحابة، فضل سعد بن أبي وقّاص، حديث(٤٦)، ج٥ ص(٢٧٨-٢٧٩).

(٢) انظر: أسباب النزول للواحدي ص٢٥٧.

(٣) رواه الترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب(٣٠) سورة العنكبوت، حديث(٢١٨٩).

الانسان بوالديه حسناً..) ولم تكمل الآية، ففيه دلالة على أنّ المراد آية العنكبوت. والله أعلم.

- وفي رواية أخرى: انّ أمّه حمنة بنت أبي سفيان بن أمية بن عبد شمس لمّا أسلم وكان من السابقين الأولين وكان باراً بأمّه قالت له أمّه: ماهذا الذي أحدثت. والله ماآكل ولاأشرب حتى ترجع إلى ماكنت عليه أو أموت فتعيّر بذلك أبد الدهر ويقال: ياقاتل أمّه. ثمّ إنّها مكثت يوماً وليلة لم تأكل ولم تشرب ولم تستظلّ فاصبحت وقد جهدت، ثمّ مكثت كذلك يوماً آخر وليلة فجاءها فقال: ياأمّاه لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ماتركت ديني فكلي إن شئت وإن شئت فلاتأكلي، فلمّا أيست منه أكلت وشربت فأنزل الله هذه الآية وأمره بالبرّ بوالديه والاحسان إليهما وأن لايطيعهما في الشرك فذلك قوله تعالى: (وإن جاهداك لتشرك بي) (١).

- وقد قال البعض انّ آيتي لقمان نزلت أيضاً في شأن سعد، والذي أراه غير ذلك -مع أنّه لامانع من أن تنزل عدّة آيات بسبب حادثة واحدة- وذلك لأنّ السياق في آيات لقمان وهو الحديث عن وصيّة لقمان غير مناسب، كما أنّ آية العنكبوت هي المناسبة لسبب النزول؛ لأنّها أخليت من الأوصاف التي فيها ترقيق على الأمّ بخلاف هذه (حملته أمّه وهناً على وهن وفصاله في عامين..) فهذه عامّة في الوصيّة بالوالدين وما لهما من فضل، ثمّ أردفت بما سيق من النهي عن الشرك في الآية السابقة لها: (يابنيّ لاتشرك بالله..) فناسب أن تجيء بعدها كما ذكرنا في وصيّة لقمان.

ومادام وقت نزول الآيتين مختلف فالأولى حملها على ماكانت بسببه نزلت، كما أنّه قد جاء التصريح في صحيح مسلم بآية العنكبوت أنّها نزلت في شأن سعد، وكذا

---

(١) انظر: تفسير البغوي على الخازن ج٥ ص١٨٨؛ أسباب النزول للواحدي ص(٢٥٦-٢٥٧)؛ لباب النقول للسيوطي ص(١٦٦-١٦٧)؛ جامع النقول في أسباب النزول لابن خليفة عليوي ج٢ ص(٢٦٣-٢٦٤).

الكلام المنقول عن سعد نفسه يدلّ على هذا.

كما أنّ صاحب التحرير والتنوير يذكر وجهاً يؤيّد ماذكرناه فيقول: "ذكر في لقمان (على أن تشرك بي) وفي العنكبوت: (لتشرك بي) فأمّا حرف (على) فهو، أدلّ على تمكّن المجاهدة، أي مجاهدة قويّة للاشراك، والمجاهدة: شدة السعي والالحاح، والمعنى: إن ألحّا وبالغا في دعوتك إلى الاشراك بي فلاتطعهما. وهذا تأكيد للنهي عن الاصغاء إليهما إذا دعوا إلى الاشراك. وأمّا هنا في العنكبوت فجيء فيها بلام العلّة لظهور أنّ سعداً كان غنياً عن تأكيد النهي عن طاعة أمّه لقوّة إيمانه" (١). والله أعلم.

---

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور: ج٢١ ص١٦٠.

المبحث الثاني - بيان الآيتين الكريمتين :

يأمر الله عباده -هاهنا- بالاحسان إلى الوالدين، وهذا كما قال سبحانه:

(وقضى ربّك ألاّ تعبدوا إلاّ إيّاه وبالوالدين إحساناً إمّا يبلغنّ عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلاتقل لهما أفّ ولاتنهرهما وقل لهما قولاً كريماً. واخفض لهما جناح الذلّ من الرحمة وقل ربّ ارحمهما كما ربّياني صغيراً)* "الاسراء: ٢٣-٢٤".

ومع هذه الوصية بالرأفة والرحمة والاحسان لما هما أهلٌ له قال: (وان جاهداك لتشرك بي ماليس لك به علم فلاتطعهما إليّ مرجعكم فأنبّئكم بما كنتم تعملون) أي وان حرّضا عليك وأمراك بأن تتابعهما في شركهما وكفرهما بالله فإيّاك أن تطعهما في ذلك؛ فهذا أمر بمعصية الله.. وأيّ معصية أعظم من الكفر بالله التي يخلّد صاحبها في النار. والحال أنّ المرجع بعد ذلك كلّه إلى الله سبحانه في يوم القيامة فيجازي الله المحسن إحساناً -برحمته وفضله- والمسيء بإساءته عدلاً منه، والله سبحانه يحشر كل فرقة مع بعضهم البعض، فأنت يحشرك في زمرة الصالحين لا في زمرة والديك وان كانوا هم أقرب الناس إليك في الدنيا، وأمّا في الآخرة فالمرء مع من أحبّ -أي حبّاً دينياً- ولهذا قال تعالى: (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنّهم في الصالحين) (١).

* ويذكر الزمخشري أنّ في قوله تعالى: (إليّ مرجعكم) أمران:
الأول: أنّ الجزاء إليّ فلاتحدث نفسك بجفوة والديك وعقوقهما لشركهما، ولاتحرمهما برّك ومعروفك في الدنيا كما أنّي لاأمنعهما رزقي.

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٢ ص٤٠٥.

*قرأ حمزة والكسائي (امّا يبلغانّ) على الاثنين، وقرأ الباقون (اما يبلغنّ) على واحد. وقرأ ابن كثير وابن عامر (أفَّ) بفتح الفاء، وقرأ نافع وحفص (أفٍّ) بالتنوين، وقرأ الباقون (أفِّ) خفضاً بغير تنوين. (حجة القراءات لابن زنجلة ص٣٩٩).

والثاني: التحذير من متابعتهما على الشرك والحثّ على الثبات والاستقامة في الدين بذكر المرجع والوعيد(١)".

ويضيف الفخر الرازي -حول هذا المقطع- فيقول: "يعني عاقبتكم ومآلكم إليّ، وإن كان اليوم مخالطتكم ومجالستكم مع الآباء والأولاد والأقارب والعشائر، ولاشك أنّ من يعلم أنّ مجالسته مع واحد خالية منقطعة وحضوره بين يدي غيره دائم غير منقطع لايترك مراضي من تدوم معه صحبته لرضا من يتركه في زمان آخر(٢)".

* وحول قوله (فأنبّئكم بما كنتم تعملون) يذكر الفخر الرازي -أيضاً- لطيفة فيقول: "أنّ الله تعالى يقول: لاتظنّوا أنّي غائب عنكم وآباؤكم حاضرون فتوافقون الحاضرين في الحال اعتماداً على غيبتي، وعدم علمي بمخالفتكم إيّاي، فإنّي حاضر معكم أعلم ماتفعلون ولاأنسى فأنبّئكم بجميعه"(٣).

---

(١) الكشاف للزمخشري: ج٣ ص١٩٨.
(٢) التفسير الكبير للفخر الرازي: ج٢٥ ص٢٦.
(٣) المرجع السابق: ج٢٥ ص٢٦.

المبحث الثالث - العبر والفوائد :

* يؤخذ من قوله تعالى: (ووصّينا الانسان بوالديه حسناً) دليل على ماجاءت الآية بشأنه وهو عدم جواز متابعة الأبوين في الكفر، وذلك لأنّ الاحسان بالوالدين وجب بأمر الله تعالى، فلو ترك العبد عبادة الله بقول الوالدين لترك طاعة الله تعالى فلاينقاد لما وصّاه به، فلايحسن إلى الوالدين، فاتباع العبد أبويه لأجل الاحسان إليهما يفضي إلى ترك الاحسان إليهما، ومايفضي وجوده إلى عدمه باطل، فالاتباع باطل، وأمّا اذا امتنع من الشرك بقي على الطاعة والاحسان إليهما من الطاعة فيأتي به، فترك هذا الاحسان صورة تفضي إلى الاحسان حقيقة(١).

* يقول صاحب فتح القدير: "واذا لم تجز طاعة الأبوين في هذا المطلب مع المجاهدة منهما له، فعدم جوازها مع مجرّد الطلب بدون مجاهدة منهما أولى. ويلحق بطلب الشرك منهما سائر المعاصي؛ إذ لاطاعة لمخلوق في معصية الخالق" (٢).

وأقول: نعم. فانّ نفس المؤمن عزيزة ودين الله عزيز عليه، لايفرّط في دينه من أدنى كلمة تقال له، فهو عليه مستقيم لاينحرف عنه لأيّ سبب كان..

ولايقول المؤمن في صغائر الذنوب إنّها صغائر ويمكن التساهل في أمرها لطلب رضا الأبوين. ولكن هذا الكلام مرفوض وخطأ.. فالنظر ليس لصغر المعصية وحدها، بل النظر الحقيقي إلى من يعصي.. فإنّه يعصي الله الكبير المتعال.. صاحب الفضل والمنّة، فلايعصي المؤمن ربه ليرضي أبويه.

وأجمل الإمام القرطبي -رحمه الله في تفسيره- ماينبغي الطاعة فيه ومالا ينبغي

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي: ج٢٥ ص(٢٥-٢٦).

(٢) فتح القدير للشوكاني: ج٤ ص١٩٢.

فقال فيما معناه: طاعة الابوين لاتراعى في ركوب كبيرة ولا صغيرة من المعاصي، ولا في ترك فريضة على الأعيان، كما أنّه في مقابل ذلك تلزم طاعتهما في الأمور المباحة شرعاً، ويستحسن طاعتهما في ترك الطاعات المندوب إليها ومنها مثلاً أمر الجهاد الكفاية(١).

* إنّ ورود هذه الآية في سورة العنكبوت -التي مطلعها يتحدّث عن حقيقة الفتن والابتلاءات وأنّها تميّز بين الصادق والكاذب في إيمانه (ألم. أحسب الناس أن يُتركوا أن يقولوا آمنّا وهم لايُفتنون ولقد فتنّا الذين من قبلهم فليعلمنّ الله الذين صدقوا وليعلمنّ الكاذبين) "العنكبوت:١-٢"- ليعطينا دليلاً أكيداً على سبب النزول وأنّه مختصّ بقصّة سعد، ولايُناسب مقام غيره هذه القصّة.. القصّة التي تحكي الابتلاء الذي عاناه سعد من أحبّ الناس إليه في ردّه عن دينه.

ويشابه قصة سعد هذه قصة عيّاش بن أبي ربيعة المخزومي رضي الله عنه، وقد قيل انّ آيتي العنكبوت اللتين نزلتا في سعد نزلتا بشان عيّاش وهذا أمر محتمل إذ قد يكون النازل واحد والأسباب متعددة، وقصّته: أنّه هاجر مع عمر بن الخطّاب حتى نزلا المدينة، فخرج أبو جهل والحارث أخواه لأمّه أسماء فنزلا بعيّاش وقالا له: إنّ من دين محمد -صلى الله عليه وسلم- صلة الأرحام وبرّ الوالدين، وقد تركت أمّك لاتطعم ولاتشرب ولاتأوي بيتاً حتى تراك فاخرج معنا، واستشار عمر فقال: هما يخدعانك ولك عليّ أن أقسم مالي بيني وبينك، فما زالا به حتى أطاعهما وعصى عمر فقال عمر: أمّا إذا عصيتني فخذ ناقتي فليس في الدنيا بعير يلحقها فان رابك منهما ريب فارجع. فلمّا انتهوا الى البيداء قال أبو جهل: انّ ناقتي قد كلّت فاحملني معك فنزل ليوطىء لنفسه وله فأخذاه فشدّاه وثاقاً وجلده كلّ واحد مائة جلدة، وذهبا به إلى أمّه فقالت: لاتزال في عذاب حتى ترجع عن دين محمد(٢).

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ج١٤ ص٦٤.
(٢) انظر: تفسير أبي السعود ج٧ ص٣١؛ البحر المحيط لأبي حيّان: ج٧ ص١٤٢؛ تفسير القرطبي ج١٣ ص٢٢٨.

وإنّه للابتلاء في الدين الذي مرّ بالمؤمنين من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنّه لسنّة الله في عباده المؤمنين.. وهذا صنف من الناس فُتن وابتلي من قبل آبائهم وأمّهاتهم وأقربائهم؛ يستخدمون معهم سلاح العاطفة والمودّة والرّحم. ولذلك جاءت وصية الله بالاحسان إلى الوالدين ثمّ نبّه إلى عدم طاعتهما إذا أكرها على الشرك، إذ كل حقّ وإن عظم ساقط إذا عارض حق الله ولا طاعة لمخلوق في معصية الله، فجاءت هاتان الآيتان تثبيتاً من عند الله لعباده الصادقين في محنتهم وابتلائهم.

وفي هذا الشأن يتكلّم سيد قطب -رحمه الله- فيقول: " ثمّ يجيء إلى لون من ألوان الفتنة: فتنة الأهل والأحبّاء، فيفصل في الموقف الدقيق بالقول الحازم الوسط، لاافراط فيه ولاتفريط.. إنّ الوالدين لأقرب الأقرباء وإنّ لهما لفضلاً، وإنّ لهما لرحماً، وإنّ لهما لواجباً مفروضاً: واجب الحبّ والكرامة والاحترام والكفالة. ولكن ليس لهما من طاعة في حقّ الله وهذا هو الصراط.. إنّ الصلة في الله هي الصلة الأولى، والرابطة في الله هي العروة الوثقى. فان كان الوالدان مشركين فلهما الاحسان والرعاية لاالطاعة والاتّباع. وإن هي إلاّ الحياة الدنيا ثم يعود الجميع إلى الله، ويفصل مابين المؤمنين والمشركين، فاذا المؤمنون أهل ورفاق، ولو لم يعقد بينهم نسب ولاصهر (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنّهم في الصالحين)، وهكذا يعود الموصولون بالله جماعة واحدة، كما هم في الحقيقة، وتذهب روابط الدم والقرابة والنسب والصهر، وتنتهي بانتهاء الدنيا، فهي روابط عارضة لاأصيلة لانقطاعها عن العروة الوثقى التي لاانفصام لها..

بهذه الآيات ثبت سعد وغيره من المؤمنين وانتصر الايمان على فتنة القرابة والرحم، واستبقي الاحسان والبرّ، وإنّ المؤمن لعرضة لمثل هذه الفتنة في كلّ آن، فليكن بيان الله وفعل سعد هما راية النجاة والأمان" (١).

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج٥ ص(٢٧٢٢-٢٧٢٣).

* وإنّ موقف سعد بن أبي وقّاص -رضي الله عنه- مع أمّه ليعطينا نموذجاً مثالياً للمؤمن الصادق المتمسك بعقيدته.. الذي لايساوم عليها أبداً.

وهو موقف المؤمن الذي واجه الابتلاء بالصبر والثبات، فلم تؤثّر فيه عاطفة الأمومة فيضعف أمامها فتردّه عن عقيدته.. ولاشكّ أنّ عاطفة الأمومة أمر شاق عسير يصعب على الكثير الوقوف أمامه والصمود، ولكن هو الإيمان الصادق الذي لايقف أمامه شيء.

وهذه هي حقيقة الإيمان، والابتلاء إنّما يمرّ بالمؤمنين ليظهر هذه الحقيقة فإن صبروا وثبتوا نجحوا واستفادوا. وكما يقول سيد قطب:

"إنّ الايمان ليس كلمة تقال إنّما هو حقيقة ذات تكاليف وأمانة ذات أعباء، وجهاد يحتاج إلى صبر، وجهد يحتاج إلى احتمال، فلايكفي أن يقول الناس آمنّا. وهم لايتركون لهذه الدعوى حتى يتعرّضوا للفتنة فيثبتوا عليها ويخرجوا منها صافية عناصرهم خالصة قلوبهم. كما تفتن النار الذهب لتفصل بينه وبين العناصر الرخيصة العالقة به -وهذا هو أصل الكلمة اللغوي وله دلالته وظلّه وإيحاؤه- وكذلك تصنع الفتنة بالقلوب" (١).

وأقول: فما أحوج الدعاة إلى الله إلى مثل هذه الدروس في الصبر والثبات أمام المحن والابتلاءات على أمر الدين.. فلتكن القدوة صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم في صبرهم وثباتهم وبقائهم على طريق العقيدة دون أيّة مساومة.

* ويجدر بنا ونحن في هذا المقام أن نذكر بعض الحقائق المهمّة عن الفتنة والابتلاء في الدين على مايلي:

- إنّ الفتنة على الايمان أصل ثابت وسنّة جارية في ميزان الله، والله يعلم حقيقة القلوب قبل الابتلاء، ولكن الابتلاء يكشف في عالم الواقع ماهو مكشوف لعلم الله، مغيب عن علم البشر، فيحاسب الناس إذاً على مايقع من عملهم لاعلى مجرّد مايعلمه

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج٥ ص٢٧٢٠

سبحانه من أمرهم. وهو فضل من الله من جانب، وعدل من جانب، وتربية للناس من جانب، فلايأخذوا أحداً إلاّ بما استعلن من أمره، وبما حقّقه فعله فليسوا بأعلم من الله بحقيقة قلبه.

- وانّ الفتن أنواع: فتنة الأذى من الباطل وأهله ولايجد المؤمن مسانداً ولانصيراً، وفتنة الأهل والأحبّاء، وفتنة إقبال الدنيا، وفتنة رؤية الدول المشاقّة لله في عزّ وفي منعة وغنى.. وغيرها.. ولكل من هذه الفتن آلامها وإغراءاتها ومصاعبها، وقد يمتحن البعض ببعضها وقد تجتمع وتعدّد على بعض المؤمنين -وهنا يكون الأمر أشدّ وأصعب- والصادقون هم الصابرون، والصابرون هم الثابتون..

- وفائدة الفتنة أنّها إعداد لتحمّل الأمانة الكبرى.. أمانة الله في الأرض، فانّها لايحملها إلاّ من هم أهل لها بصدق قلوبهم وتجرّدها وإخلاصها.. بإيثارهم لها على الراحة والدعة والأمن والسلامة والمتاع والاغراء..وهي أمانة الخلافة والقيادة التي لايضطلع بها إلاّ طراز خاص يصبر على الابتلاء، والنفس تصهرها الشدائد فتنفي عنها الخبث، وتستجيش كامن قواها المذخورة فتستيقظ وتتجمّع.. وتطرقها بشدّة وعنف فيشتدّ عودها ويصلب ويصقل. وهؤلاء هم من يسلّم الأمانة وهي عزيزة على نفوسهم بما أدّوا لها من غالي التضحيات وبالتالي فلايسلّمونها رخيصة بعد كلّ ماأدّوه من أجلها(١).

وبهذه الكلمات عن حقيقة الفتنة والابتلاء ينتهي كلامنا حول هذا الفصل سائلين منه سبحانه أن يثبتنا على دينه. والحمد لله ربّ العالمين.

---

(١) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب ج٥ ص(٢٧٢٠-٢٧٢١).

الفصل الثالث
"مواقف لعدد من الصحابة رضي الله عنهم"

تقديـــم :

في هذا الفصل نقف على مشاهد عظيمة ملؤها الإيمان والاعتزاز بهذا الدين.. مشاهد المؤمنين مع أقربائهم، بل مع أقرب الناس إليهم.. وذلك من خلال مواقفهم التي أنزل الله بشأنها قرآناً يتلى، ليعرف الناس عظم الرسالة الالهية ورفعتها على كلّ شيء في الوجود. وهذا ماجاء في قوله تعالى:

(لاتجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيّدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إنّ حزب الله هم المفلحون) "المجادلة:٢٢".

وسنوضح هذه المواقف من هذه الآية الكريمة بذكر سبب نزولها وبيانها وما ترشد إليه من عبر وفوائد.

والله المستعان.

المبحث الأول - ذكر سبب النزول :

ذُكر أنّ هذه الآية أنزلت إلى آخرها في أبي عبيدة عامر بن عبد الله الجرّاح رضي الله عنه، حين قتل أباه يوم بدر.

وقد فصّل آخرون فيها فقالوا: قوله: (ولو كانوا آباءهم) نزلت في أبي عبيدة قتل أباه يوم بدر، وقوله: (أو أبناءهم) في الصدّيق همّ بقتل ابنه عبد الرحمن، وقوله: (أو إخوانهم) في مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير يومئذ، وقوله: (أو عشيرتهم) في عمر قتل خاله العاص بن هشام بن المغيرة يومئذ أيضاً، وفي حمزة وعليّ وعبيدة بن الحارث قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة يومئذ. وهذا التفصيل أشمل وقد ناسب كلّ كلمة حدث؛ وفي وقت واحد، فصحّ أن يكون كذلك. والله أعلم(١).

---

(١) انظر: أسباب النزول للواحدي ص٤٤٠؛ لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي ص٢٠٨؛ البغوي على الخازن ج٧ ص٥٤؛ تفسير ابن كثير ج٤ ص(٢٢٩-٢٣٠).

المبحث الثاني - بيان الآية :

أخبر الله سبحانه وتعالى في هذه الآية أنّ إيمان المؤمنين يكون في غاية النقصان بموادّة الكافرين، وأنّ من كان مؤمناً لايوالي من كفر؛ لأنّ من أحبّ أحداً امتنع أن يحبّ عدوّه، فهؤلاء قد شاقّوا الله ورسوله وكانوا لهما معادين فوجب من المؤمنين عدم محبتهم والميل إليهم ونصرتهم؛ وإن كانوا أقرب الناس إليهم كآبائهم وأبنائهم وإخوانهم، أو من عشيرتهم التي هم منها.

يقول الإمام الصاوي في حاشيته على الجلالين: "وقدّم أولاً الآباء لأنّهم تجب طاعتهم ثمّ الأبناء لأنّهم أعلق بالقلب ثمّ الإخوان لأنّهم الناصرون للشخص بمنزلة العضد من الذراع، ثمّ بالعشيرة لأنّ بها يستغاث وعليها يعتمد"(١).

ثمّ إنّ أولئك الذين امتنعوا من موادّة الكافرين قد امتنّ الله عليهم بأن أثبت التصديق في قلوبهم، فقلوبهم مؤمنة موقنة مخلصة.

وقيل: (كتب) أي قضى وحكم لهم بالإيمان، وإنّما ذكر القلوب لأنّها موضعه، فكتب لهم بذلك الإيمان السعادة الحقيقية المطلوبة، وهذا كقوله سبحانه: (.. ولكنّ الله حبّب إليكم الإيمان وزيّنه في قلوبكم وكرّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون) "الحجرات:٧".

وأمّا تأييد الله لهم بروح منه فمعناه أنّه قوّاهم ونصرهم ببرهان منه ونور وهدى. ثم يجزيهم الله في الآخرة على صدق إيمانهم وثباتهم بأن يدخلهم جنات (بساتين) تجري من تحت أشجارها الأنهار ماكثين فيها أبداً، وهو قد رضي عنهم -سبحانه- بطاعتهم إيّاه في الدنيا، وهم قد رضوا عنه في الآخرة بإدخاله إيّاهم في الجنّة.

ويقول ابن كثير -رحمه الله- حول قوله (رضي الله عنهم ورضوا عنه): "إنّ فيها سرّاً بديعاً، وهو أنّه لمّا سخطوا على القرائب والعشائر في الله تعالى عوّضهم

---

(١) حاشية الصاوي على الجلالين: ج٤ ص١٨٥.

الله بالرضا عنهم وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم والفوز العظيم والفضل العميم" (١).

ومن ثمّ يختم الله عزّ وجلّ هذه الآية بخير ختام يرفع فيه المؤمنين ويخفض فيه أعداءه ويميّز فيه أولياءه عن غيرهم، فيقرّر أنّ من كان في تلك الصفات العظيمة السابقة الذكر فهم جند الله وأولياؤه وخاصّته الذين يمتثلون أوامره ويقاتلون أعداءه وينصرون أولياءه، وفي إضافتهم إلى الله سبحانه تشريف لهم عظيم وتكريم فخيم.. وهؤلاء هم وحدهم المفلحون الفائزون الذين أدركوا ماطلبوا والتمسوا بطاعتهم لله وطلب رضاه فحازوا بالرضوان من الله وأيّ رضوان!! (٢).

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ج٤ ص٣٣٠.

(٢) انظر: تفسير ابن جرير الطبري ج٢٨ ص(١٨-١٩)؛ تفسير القرآن العظيم ج٤ ص(٣٢٩-٣٣٠)؛ تفسير البغوي والخازن ج٦ ص(٥٤-٥٥)؛ فتح القدير للشوكاني ج٥ ص١٩٢.

المبحث الثالث - العبر والفوائد :

* انّ ماتضمّنته الآية الكريمة من النهي والزجر العظيم عن موالاة أعداء الله جاء موضّحاً في آيات أخر كقوله تعالى: (قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنّا برءآؤا منكم وممّا تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده.. الآية) "الممتحنة:٤"، وقوله تعالى: (محمد رسول الله والذين معه أشدّاء على الكفار رحماء بينهم.. الآية) "الفتح:٢٩"، وقوله أيضاً: (فسوف يأتي الله بقوم يحبّهم ويحبّونه أذلّة على المؤمنين أعزّة على الكافرين.. الآية) "المائدة:٥٤"، وقوله: (وليجدوا فيكم غلظة) "التوبة:١٢٢"، وكذلك قوله: (ياأيها النبي جاهد الكفّار والمنافقين واغلظ عليهم.. الآية) "التحريم:٩"(١).

وهذه الآيات كلّها تحمل الحقيقة التي ينبغي أن يكون عليها المؤمنون تجاه أعداء الله سواءً كانوا أقرباءهم أو غير ذلك. وفي هذا يقول الشهيد سيد قطب -رحمه الله- فيما خلاصته: وفي النهاية تجيء القاعدة الثابتة التي يقف عليها المؤمنون أو الميزان الدقيق للايمان في النفوس. إنّها المفاصلة الكاملة بين حزب الله وحزب الشيطان والانحياز النهائي للصفّ المتميّز والمتجرّد من كلّ عائق وجاذب، والارتباط في العروة الوثقى الواحدة بالحبل الواحد، فما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه، وما يجمع انسان في قلب واحد ودّين. ودّ الله ورسوله. وودّاً لأعداء الله ورسوله! فامّا أيمان أو لاايمان. أمّا هما معاً فلايجتمعان. (ولو كانوا آباءهم..) فروابط الدم والقرابة هذه تتقطّع عند حدّ الايمان وانّها يمكن أن تراعى إذا لم تكن هناك محادّة وخصومة بين اللوائين: لواء الله ولواء الشيطان.

والصحبة بالمعروف للوالدين المشركين مأمور بها حين لاتكون هناك حرب بين حزب الله وحزب الشيطان. فأمّا إذا كانت المحادّة والمشاقّة والحرب والخصومة فقد

---

(١) انظر: أضواء البيان للشنقيطي ج٧ ص٨٢٥.

تقطّعت تلك الأواصر التي لاترتبط بالعروة الواحدة وبالحبل الواحد، ومن ثم انقطعوا عن كلّ شيء سوى الله ووصلوا أنفسهم به فتقبّلهم في كنفه وأفسح لهم في جنابه وأشعرهم برضاه فرضوا. رضيت أنفسهم هذا القرب وأنست به واطمأنّت له..

وهكذا تنقسم البشرية إلى حزبين اثنين: حزب الله وحزب الشيطان، وإلى رايتين اثنتين: راية الحق وراية الباطل، فامّا أن يكون الفرد من حزب الله فهو واقف تحت راية الحق، وامّا أن يكون من حزب الشيطان فهو واقف تحت راية الباطل، وهما صفّان متميّزان لايختلطان ولايتميّعان!! لانسب ولاصهر، ولاأهل ولاقرابة، ولاوطن ولاجنس ولاعصبية ولا قومية.. انّما هي العقيدة، والعقيدة وحدها. فمن انحاز إلى حزب الله ووقف تحت راية الحق فهو وجميع الواقفين تحتها اخوة في الله وإن اختلفت الوانهم وأوطانهم وعشائرهم وأسرهم، فتذوب الفوارق كلّها تحت الراية الواحدة. وأمّا من استحوذ عليه الشيطان فوقف تحت راية الباطل فلاتربطه بأحد من حزب الله رابطة لامن أرض ولامن جنس ولامن وطن ولامن لون ولامن عشيرة ولامن نسب ولامن صهر.. لقد انبتّت الوشيجة الأولى التي تقوم عليها هذه الوشائج فانبتّت هذه الوشائج جميعاً(١).

* ونذكر كلاماً -هنا- لصاحب محاسن التأويل -نؤكّد فيه نقطة مهمّة قد أشار اليها سيد قطب في كلامه حول الولاء- حيث يقول: "يفهم من قوله تعالى: (من حادّ الله ورسوله) وقوله في آية أخرى: (لاتتخذوا عدوّي وعدوكم أولياء..) أنّ المراد بهم المحاربون لله ولرسوله، الصادّون عن سبيله المجاهرون بالعداوة والبغضاء وهم الذين أخبر عنهم قبل بأنّهم يتناجون بالاثم والعدوان ومعصيت الرسول. فتشمل الآية المشركين وأهل الكتاب المحاربين المحادّين لنا، أي الذين على حدّ منّا ومجانبة

---

(١) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب ج٦ ص(٢٥١٤-٢٥١٥).

لشؤوننا تحقيقاً لمخالفتنا، وترصّداً للايقاع بنا. وأمّا أهل الذمّة الذين بين أظهرنا، ممّن رضي بأداء الجزية لنا وسالمنا واستكان لأحكامنا وقضائنا، فأولئك لاتشملهم الآية، لأنّهم ليسوا بمحادّين لنا بالمعنى الذي ذكرناه، ولهذا كان لهم مالنا، وعليهم ماعلينا، وجاز التزوّج منهم ومشاركتهم والاتجار معهم وعيادة مرضاهم، فقد عاد النبي صلى الله عليه وسلم يهودياً وعرض عليه الاسلام فأسلم كما روى هذا الامام البخاري(١).

وعلى الامام حفظهم ومنع أذاهم واستنقاذ أسراهم؛ لأنّه جرت عليهم أحكام الاسلام وتأبّد عهدهم فلزم ذلك كما لزم المسلمين... والأصل في هذا قوله تعالى: (لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم وتقسطوا إليهم إنّ الله يحبّ المقسطين. إنّما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولّوهم ومن يتولّهم فأولئك هم الظالمون) "سورة الممتحنة: ٨-٩" (٢).

* ولقد ألحق العلماء بهؤلاء من يستخفّ بحرمات الاسلام مثل أهل الظلم والعدوان في الأعمال والمتجاهرين بالكبائر والفواحش الساخرين من الزواجر والمواعظ، ومثل أهل الزيغ والضلال في الاعتقاد ممّن يؤذن حالهم بالاعراض عن أدلّة الاعتقاد الحقّ، وإيثار الهوى والعصبية على أدلّة الاعتقاد الحق.

ومن هذا أنّهم قالوا: يجوز أو يجب هجران ذي البدعة الضالّة أو المجاهر بالكبائر إذا لم يقبل الموعظة(٣).

ومن هذا -أيضاً- ماروي عن الامام مالك أنّه سئل عن مجالسة القدرية التي تدّعي أنّها تخلق كما يخلق الله وأنّها تأتي بما يكره الله ولايريده، ولايقدر على ردّ

---

(١) رواه البخاري: كتاب المرضى والطب، حديث(١٨)، ج٧ ص٢١٤.
(٢) محاسن التأويل للقاسمي: ج١٦ ص(٩٠-٩١).
(٣) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور: ج٢٨ ص(٥٩-٦٠).

ذلك فقال: لاتجالس القدرية وعادهم في الله لقوله: (لاتجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله..الآية) (١).

* وانّه لمن المواقف الشبيهة بموقف أبي عبيدة مع أبيه موقف عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول ابن رأس المنافقين، وذلك انّه حين لقي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بني المصطلق على المريسيع وهو ماء لهم وهزمهم وقتل منهم، وازدحم على الماء جهجاه بن سعيد أجير لعمر يقود فرسه، وسنان الجهني حليف لعبد الله بن أبي بن سلول فاقتتلا، فصرخ جهجاه: ياللمهاجرين، وسنان: ياللأنصار، فأعان جهجاه جعال من فقراء المهاجرين ولطم سناناً، فقال عبد الله لجعال: وأنت هناك. وقال: ماصحبنا محمداً إلاّ لنلطم، والله مامثلنا ومثلهم إلاّ كما قال سمّن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ -عنى بالأعزّ نفسه وبالأذلّ رسول الله- صلى الله عليه وسلم- ثم قال لقومه: ماذا فعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم، أما والله ولو أمسكتم عن جعال وذويه فضل الطعام لم يركبوا رقابكم ولأوشكوا أن يتحوّلوا عنكم فلاتنفقوا عليهم حتى ينفضّوا من حول محمد. فسمع بذلك زيد بن أرقم -رضي الله عنه- وهو غلام حدث فقال: أنت والله الذليل القليل المبغض في قومك، ومحمد في عزّ من الرحمن وقوّة من المسلمين. فقال عبد الله: اسكت فانّما كنت ألعب. فأخبر زيد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق يارسول الله. فقال: إذن ترعد أنف كثيرة بيثرب. قال: فان كرهت أن يقتله مهاجري فأمر به أنصارياً. قال: فكيف إذا تحدّث الناس أنّ محمداً يقتل أصحابه؟ وقال النبي -صلى الله عليه وسلم- لعبد الله: أنت صاحب الكلام الذي بلغني؟ قال: والذي أنزل عليك الكتاب ماقلت شيئاً من ذلك، وانّ زيداً لكاذب. فقال الحاضرون: يارسول الله شيخنا وكبيرنا لاتصدّق عليه كلام غلام عسى أن يكون قد وهم.. (٢).

---

(١) انظر: تفسير القرطبي ج١٧ ص٣٠٨؛ أحكام القرآن لابن العربي ج٤ ص١٧٦٢.

(٢) انظر: تفسير الكشاف للزمخشري ج٤ ص١١٠؛ أسباب النزول للواحدي ص(٤٥٧-٤٦١)؛ لباب النقول للسيوطي ص٢١٤؛ جامع النقول لابن خليفة عليوي =

وسمع عبد الله ماقاله أبوه في النبي -صلى الله عليه وسلم- ولنرى موقفه العظيم: فقد ذكر عكرمة وابن زيد وغيرهما أنّ الناس لمّا قفلوا راجعين الى المدينة وقف عبد الله على باب المدينة واستلّ سيفه فجعل الناس يمرّون عليه فلمّا جاء أبوه قال له: وراءك. فقال: مالك ويلك؟ فقال: والله لاتجوز من ههنا حتى يأذن لك رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فانّه العزيز وأنت الذليل، فلمّا جاء النبي صلى الله عليه وسلم وكان انّما يسير في مؤخّرة الجيش ينظر المتخلّف والضالّ والمحتاج لمعونة شكا اليه عبد الله ابنه فقال ابنه: والله يارسول الله لايدخلها حتى تأذن له. فأذن له -صلى الله عليه وسلم- فقال: أمّا إذا أذن لك -صلى الله عليه وسلم- فجز الآن(١).

وفي رواية للترمذي أنّه قال لأبيه: والله لاتنفلت حتى تقرّ أنّك الذليل ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- العزيز، ففعل(٢).

كما أنّ الامام الطبري يروي له موقفاً آخر مع أبيه وهو: أنّه أتى النبيّ -صلى الله عليه وسلم- فقال: يارسول الله انّه بلغني أنّك تريد قتل أبي فيما بلغك عنه فان كنت فاعلاً فمرني به فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ماكان فيها رجل أبرّ بوالده منّي وانّي أخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلاتدعني نفسي أن أنظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس فأقتله فأقتل مؤمناً بكافر. فأدخل النار. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: بل نرفق به ونحسن صحبته مابقي معنا(٣).

= ج٢ ص(٢١٥-٢١٦)؛ صحيح البخاري: كتاب التفسير، سورة المنافقون، الأحاديث (٢٩٤-٤٠١)؛ صحيح مسلم: كتاب صفات المنافقين، حديث(١)؛ الترمذي: كتاب التفسير، (٦٤) باب سورة المنافقون، أحاديث(٢٢١٢-٢٢١٥). وروي في غيرها من الكتب أيضاً..

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ج٤ ص٣٧٢.

(٢) رواه الترمذي: كتاب التفسير، (٦٤) سورة المنافقون، حديث(٢٢١٥) وقال: حديث حسن صحيح.

(٣) تفسير ابن جرير الطبري: ج٢٨ ص٧٦.

* وإنّه -بلاشك- موقف عظيم.. الابن يريد قتل أبيه؛ لأنّ أباه مشاقّ لله ولرسوله.. إذ لاوزن عنده لشيء مقابل دين الله وإن كان الأب والأمّ، وإنّما هو الاسلام أمّه وأبوه وكلّ شيء. وإذا حارب أحد أبويه الإسلام كان الابن المسلم متخلياً عن أبويه راجعاً إلى أصله ونسبه الحقيقي الذي أنعم به الله عليه "الاسلام"..

إنّ هذا الموقف لايصدر إلاّ عن كاملي الايمان الذين قدّموا دينهم على كلّ شيء، وقدّموا حبّ الله ورسوله -أيضاً- على كلّ شيء، وهذا الكمال في الإيمان الذي عبّر عنه النبي -صلى الله عليه وسلم- في قوله: "لايؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من ولده ووالده والنّاس أجمعين" (١).

وهذا عبد الله بن أبي بن سلول المنافق يؤذي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بالقول فيقول عنه الذليل، فيتصدّى له ابنه، ويريد أن يترجم لأبيه حقيقة أنّه هو الذليل؛ ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- هو العزيز، فيرغمه أن يقول ذلك فيقول، ويمنعه من الدخول إلى المدينة حتى يأذن له رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ويفعل فلم يدخل المدينة حتى جاء رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأذن له مثبتاً بذلك أنّ أباه الذليل والرسول هو الكريم العزيز!

إنّه لقمّة الايمان وكماله، ولعلّه من الصعب والعسير أن يملك الإنسان عاطفته ويسيّرها كما يريد، وخصوصاً عاطفة البنوّة التي هي من أقوى العواطف المعبّرة عن أقوى الصلات. ولكنّما هي نفس المؤمن الكامل التي لاتعرف سوى رضا ربّها ورضا رسولها منهجاً وطريقاً..

وهكذا يرفع الاسلام أصحابه إلى القمم العليا، وهكذا يصنع الاسلام الرجال. وكما يقول الشهيد سيد قطب: "ألا إنّها لقمّة سامقة تلك التي رفع الإيمان إليها أولئك الرجال. رفعهم إلى هذه القمّة، وهم بعد بشر بهم ضعف البشر، وفيهم عواطف البشر،

---

(١) رواه البخاري: كتاب الإيمان، باب حبّ الرسول -صلى الله عليه وسلم- من الإيمان، حديث(١٤،١٢).

ورواه مسلم: كتاب الإيمان، حديث (٦٧).

وخوالج البشر.. وهذا هو أجمل وأصدق مافي هذه العقيدة حين يدركها الناس على حقيقتها، وحين يصبحون هم حقيقتها التي تدبّ على الأرض في صورة أناسيّ تأكل الطعام وتمشي في الأسواق.."(١).

ولعلّه يكفينا -ونحن نشاهد هذه المواقف العظيمة- لنعرف عظم عقيدة التوحيد، وماينبغي تجاهها من أصحابها..

ولنعرف -كذلك- كم بذل صحابة رسول الله من التضحيات في سبيل هذا الدين وبأعزّ مايملكون.. وفي هذا دافع للمؤمنين الصادقين إلى المحافظة على أمر الدين وإلى أن يضحّوا في سبيله بكلّ شيء، حتى تعود للإسلام كلمته وللدين قوّته وعزّته.. ولجنده الرفعة والمكانة السامية.

* ومن البلاغة القرآنية في الآية مايلي :

- إنّ هذه الآية وردت بلفظ الخبر (لاتجد..) والمراد بها الإنشاء، وهو النهي البليغ والزجر العظيم عن موالاة أعداء الله. وإيراد الإنشاء بلفظ الخبر أقوى وأوكد من إيراده بلفظ الإنشاء كما هو معلوم في محلّه(٢).

وبهذه الفائدة البلاغية العظيمة ينتهي كلامنا حول هذه المواقف لصحب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وبانتهائنا من هذا الفصل نكون قد ختمنا كلامنا حول هذا الباب الذي يمثّل آخر أبواب بحثنا في القصص بين الآباء والأبناء.

والحمد لله ربّ العالمين.

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب: ج٦ ص٣٥٧٨.

(٢) أضواء البيان للشنقيطي: ج٧ ص ٨٢٤.

"خاتمة البحث"

أختم بحثي -هذا- بذكر أهمّ النتائج المستخلصة من دراستنا لجانب القصص القرآني بين الآباء والأبناء. وسيكون التركيز في هذه النتائج على مايختص ويتصل بجانب الآباء والأبناء مع ذكرنا لأهمّ مايختص بغيره. وهذه النتائج كما يلي :

١ - تحدّثنا أوّلاً عن موقف نوح -عليه السلام- مع ابنه المعارض لدين الله. وأهمّ ماظهر لنا- في هذا الموقف- الآتي :

* إنّ على الآباء إدراك مسؤوليتهم العظيمة تجاه أبنائهم في دعوتهم إلى الالتزام بدين الله، ولآخر لحظة من لحظات إمكان التبليغ.

* إنّ من الأسباب القوية في فساد الأبناء البيئة الفاسدة، فيلزم من الآباء توفير البيئة الصالحة داخل البيت وخارجه.

* إنّ عقوق الأبوين أو أحدهما له نتائج سيئة على الابن العاق في الدنيا والآخرة. وهذا ماشاهدناه في ابن نوح حين عقّ أباه ولم يجب دعوته؛ فأهلك في الدنيا بالغرق وحقّ القول عليه بالعذاب في الآخرة.

وفي إجابة الله لنوح: (إنّه ليس من أهلك إنّه عمل غير صالح) يظهر لنا أنّ العبرة بقرابة الدين لابقرابة النسب.

* إنّ الصلاح لاعلاقة له بالوراثة والأنساب.

* إنّه قد يبتلى بعض الصالحين من الآباء بفساد أبنائهم.. وفي موقف نوح -عليه السلام- مع ابنه عزاءٌ لهم..

٢ - ثمّ تحدّثنا في الباب الثاني بفصله الأول عن موقف إبراهيم -عليه السلام- مع أبيه الكافر، وأهمّ مانستخلصه منه مايلي:

* إنّ واجب كلّ داعية أن يبدأ في دعوته مع أهله وأقربائه؛ لأنّها المسؤولية الأولى الواجبة عليه

* ضرورة حرص الأبناء على إصلاح آبائهم إن وجدوا فيهم انحرافاً، مع مراعاة الأدب في دعوتهم وإصلاحهم من اللطف وحسن الخطاب، والتدرّج والتنوع في الأساليب. وهذا حال الداعية إلى الله.. يدعو كلّ إنسان بما يناسب حاله ومكانته.

* ومن عنف آزر مع ابنه إبراهيم -مع أنّ الطبيعي أن يكون جانب الآباء أكثر شفقة من جانب الأبناء- يظهر لنا أثر البعد عن الله في تغيير الفطرة البشرية والطبيعة الانسانية.

* إنّ على الآباء أن يكونوا مصدراً لدعوة أبنائهم إلى الحقّ؛ لا إلى الضلال.

* إنّ على الأبناء إذا ابتلوا بآباء يدعونهم إلى الضلال فعليهم أن ينهجوا نهج إبراهيم عليه السلام. إذ لاطاعة لمخلوق في معصية الخالق.

-وتكلّمنا من بعد عن موقفه -عليه السلام- مع أبنائه. فشهدناه في موقف البشارة بابنه إسماعيل.. وقد طلبه من الله صالحاً ليعينه على أمر الدعوة... وهذا ماينبغي أن يطلبه الآباء ويسعوا جاهدين في تحقيقه.

كما أنّ على الآباء أن يشعروا بضرورة أن يكون أبناؤهم ممّن يقومون بواجب الدعوة، وليسعوا في إعدادهم لهذا الأمر.

* ثم شهدناه وهو يترك ابنه وزوجه في واد غير ذي زرع تلبية لأمر الله.. وإذ لم تمنعه عاطفة الأبوّة عن طاعة الله. فكان مثالاً لكلّ الآباء في تقديم طاعة الله على ماتنعطف عليه النفس من الولد والزوجة.

كما أنّا شاهدنا هاجر -زوجه- في إعانته على الطاعة، ولم يمنعها خوفها على هلاك ابنها وهلاكها من التردّد في الاجابة (إذن لايضيّعنا)، فكانت قدوة لكل زوجة

في ثقتها بالله وإعانة زوجها على طاعة الله.

* وشهدناه - عليه السلام - مرّة أخرى وهو يريد ذبح ابنه طاعة لأمر الله.. فكان مثلاً لما ينبغي أن يكون عليه الآباء من حسن عرض أوامر الله على أبنائهم ليوطنوهم على الامتثال (فانظر ماذا ترى)..

كما أنّا شاهدنا موقف الابن البارّ المضحّي بنفسه -من إسماعيل- في سبيل طاعة الله وطاعة أبيه.

* ثمّ شهدنا موقفهما -عليهما السلام- وهما مجتمعان على طاعة الله في بناء بيته ويظهر لنا من هذا الموقف العظيم أنّ من أفضل الأحوال في الآباء أن يكون كلاهما مجتهداً في طاعة الله..

وهذه أعظم سعادة للآباء حيث أنّهم يرون أبناءهم صالحين مثلهم، وهي -أيضاً- أعظم سعادة بالنسبة للأبناء حيث يرون أباءهم على منهج الله.. ففي هذا الأمر سعادة الجميع.

وفي دعائهما لذريّتهما تعليم لكلّ أب في أن يدعو بذلك.

* ثمّ شاهدنا منّة الله وإعجازه في تبشير إبراهيم بإسحاق بعد أن كانت زوجه عاقراً لاتلد، وهو قد كبر سنّه. وأعظم نتيجة لهذا الحدث هو أنّ إرادة الله، مطلقة لايحدّها شيء من النواميس؛ إذ أنّ الناموس يجري وينفذ بقدر من الله في كلّ مرّة ينفذ فيها، فإذا قدّر الله في مرّة أن يجريه بصورة أخرى كان ماأراد -سبحانه- من قدره..

ثمّ تعرضنا أخيراً لمشهد وصيته لأبنائه أجمعين ونستنتج منها: ضرورة تعهّد الآباء أبناءهم بالوصايا الدينية المهمّة. وعلى أنّ الوصيّة بعقيدة التوحيد وبما تشتمل عليه من سلوك هي أهمّ مايوصي به الآباء أبناءهم في كلّ أطوار حياتهم.

٣- ثم كان الباب الثالث في قصة يعقوب -عليه السلام- مع أبنائه. وأهمّ النتائج فيه مايلي:

* ضرورة مراعاة الآباء للحالة النفسية بين الأبناء، والعدل بينهم، وعدم اظهار تفضيل أحدهم على الآخر، فهذا ممّا يحفظ أخوتهم.

* ضرورة معالجة أخطاء الأبناء بحكمة من قبل الآباء.

* ينبغي على الأبناء أن يحرصوا على عدم إدخال الحزن على آبائهم.

* على الآباء قطع كلّ الأسباب المؤدّية إلى احتمال إصابة أبنائهم بأيّ سوء، فهذا من واجبات الآباء تجاه أبنائهم. ونشهد هذا في موقف يعقوب -عليه السلام- حين طلب إخوة يوسف اصطحاب أخيهم بنيامين معهم فقال: (هل آمنكم عليه إلاّ كما أمنتكم على أخيه من قبل..)، وكذلك حين أمرهم أن يدخلوا مصر من أبواب متفرّقة لامن باب واحد ليصرف عنهم العين.

* إنّ ماوصل إليه يعقوب من فقده لبصره نتيجة الحزن على يوسف ليعطينا دلالة كافية على فضل الآباء على الأبناء وعظم حقّهم عليهم.

* إنّ الرأفة والرحمة بالأولاد وقبول معذرتهم أمر مطلوب من الآباء -خصوصاً إذا شهدوا صدق حالهم- وهذا ماكان من أمر يعقوب مع أبنائه حين صلح حالهم (قال سأستغفر لكم ربي)، فإنّه ممّا يثلج صدور الآباء رجوع أبنائهم عن الخطأ؛ والعبرة في حال العبد بكمال النهاية لابنقص البداية.

* وجوب إكرام واحترام وتقدير الأبوين، فهذا يوسف -عليه السلام- رفع أبويه على سريره وأجلسهما عليه.. فإنّه مهما بلغ الانسان من مكانة ومنزلة فإنّ أبويه هما أبواه وهو ابنهما فعليه حق برّهما واحترامهما.

* ثمّ نرى حاله -عليه السلام- عند احتضاره في وصيته لأبنائه.. في اطمئنانه على التركة والارث.. تركة العقيدة والدين. وهذه هي التركة الحقيقية التي ينبغي أن تشغل بال الآباء في حرصهم على إيصالها لأبنائهم، وفي الاطمئنان على وجودها.

٤- ثم تناولنا قصة موسى -عليه السلام- مع أمّه وأهمّ مانستخلصه منها من

نتائج مايلي:

* الاشارة إلى عظم حق الأم لما لها من كبير العاطفة على أبنائها، فينبغي بالتالي مراعاة الأبناء لعاطفة الأمومة.
* إن الخوف الطبيعي لاينافي الايمان ولايزيله (فاذا خفت عليه).
* إن حال المؤمن الصادق أن يكون واثقاً بأمر الله ووعده، فثقة أم موسى بوعد الله هي التي جعلتها تلقي بابنها الرضيع في اليم.
* إن الله إذا أراد أمراً هيأ أسبابه المفضية إليه بترتيب وتدرج محكم. فالله أراد هلاك فرعون والأخذ بناصر المستضعفين، فكانت حياة موسى كلها وتنقله من حال إلى حال إشارة إلى هذا.

٥- وفي الباب الخامس تحدثنا عن قصة فتاتي مدين مع أبيهما وأهم النتائج منها مايلي:

* ضرورة تحلي الفتيات بخلق الحياء، لما فيه من إغلاق باب الفتن والفساد.
* ضرورة اعتناء الآباء بتربية بناتهم -عناية خاصة- على الطهر والعفاف وتقوى الله.
* ينبغي أن لايمنع الآباء بناتهم من حق إبداء آرائهن فيما فيه وجه للرأي، وهذا ماشاهدناه في قول الفتاة مبدية لرأيها: (ياأبت استأجره..). وهذا الجانب مهم في التربية إذ يهيء الفتاة من بعد لمواجهة ظروف الحياة المتغيرة واتخاذ القرار المناسب، كما أن هذا يكسبها الثقة بنفسها وعدم الضعف أمام أي متغير.

٦- ثم جاء الحديث في الباب السادس عن داود وابنه سليمان -عليهما السلام- ويظهر لنا فيه مايلي:

* انّ العلم أمر ينبغي أن يتنبّه إليه الآباء، فعليهم أن يحرصوا أن يكون أبناؤهم من طلاّب العلم- وهذا حال السلف الصالح مع أبنائهم- وعليهم بالتالي أن ييسّروا لهم كلّ سبل تلقّي العلم وأن يشجّعوهم على ذلك كلّ التشجيع.
كما انّ على الآباء أن لاينسوا هذا الفضل لأنفسهم، فانّ أفضل الأحوال أن يكون الأب وأبناؤه طلاباً للعلم مجتهدين فيه كلّ الاجتهاد.
* ضرورة العلم بالنسبة للدعاة إلى الله -خاصة- إذ أنّ فاقد الشيء لايعطيه، وهذا ماكان من إيتاء الله العلم لداود وسليمان وهما كانا من الدعاة إلى الله.
* وفي حكمهما في قضيّة الزرع استنتجنا أنّه لامانع من أن يقول الولد الصواب ويُعلم أباه به ولو كان قد رأى الأب مايخالف رأي الابن؛ فالغاية هي الوصول إلى الحقّ والصواب.
* وانّ على الآباء أن يستمعوا لآراء أبنائهم، بل واستشارتهم -إن لزم الأمر- ومعرفة آرائهم؛ فلعلّ الله يجعل الحقّ على ألسنتهم.
* انّ على الأبناء إذا أرادوا عرض آرائهم على آبائهم فليعرضوها بكلّ أدب وهذا ماشاهدناه في قول سليمان لأبيه: إنّي رأيت ماهو أرفق بالجميع.
* إنّ خير الارث إرث الأنبياء، وهو العلم.

٧- ثمّ عرضنا في الباب السابع لموقف الموعظة والإرشاد من جانب لقمان لابنه ولنا فيه مايلي:

* إنّ الوضع السليم بين الآباء والأبناء هو أن يكون الآباء دائماً في إرشاد أبنائهم، وهذا هو السير الصحيح في طريق التربية.. الوعظ وبشتّى الأساليب والوسائل. وقد ذكرنا عدداً من طرق الوعظ، إذ أنّه لايقتصر الوعظ والارشاد على الخطاب الكلامي المباشر فحسب.

* ينبغي أن تكون مواعظ الآباء لأبنائهم شاملة لكلّ أمور الدين وجوانبه، فلايقتصر على جانب معيّن وتترك الجوانب الأخرى، وهذا مالمحناه في موعظة لقمان لابنه ففيها العقيدة والسلوك والمعاملات وغيرها..

* إنّه يجب أن تبدأ المواعظ بأهمّ الأمور وهو أمر العقيدة..

٨- وانتقلنا بعد ذلك في الحديث عن زكريا وابنه يحيى عليهما السلام. وأهمّ النتائج التي نستوحيها من هذا الباب مايلي:

* إنّ حبّ الولد فطرة في النفس البشرية، وتلك هي سنة المرسلين، فكثير منهم ذكر القرآن عنهم طلبهم للولد، وهذا نبيّ الله زكريّا يطلب من الله الولد.

* ونشهد كذلك -هنا- طلاقة المشيئة الربانية.

ضرورة تسمية الأبناء بالأسماء الحسنة، والأسماء الحسنة المبتكرة لها ميزة فريدة عن غيرها.

إنّ المؤمن ينبغي أن لايسوؤه إذا لم يهب الله له ولداً، فلعلّ الله قد جعل له في ذلك خيراً وصرف عنه شرّاً.

* أهمّية ذكر الله وفضله في كلّ حال.. وقد تكلّمنا عن فضيلة الذكر بما فيه الكفاية والحمد لله.

* ضرورة حمل الدعاة لما حمله الأنبياء والمرسلون من مؤهلات الدعوة والتبليغ (العلم والحكمة- الشفقة والحنان على الناس- إصلاح النفس وتزكيتها- إصلاح الآخرين- مراقبة الله وخشيته- الجدية في أمر الدعوة) وهذا ماحمله يحيى (يايحيى خذ الكتاب بقوّة... الآيات).

٩- ثمّ تكلّمنا في الباب التاسع بفصله الأول عن قصة مريم -عليها السلام- مع أمّها وأهمّ النتائج فيه مايلي:

* إنّه يجوز أن ينذر الآباء أبناءهم لعبادة الله، أو لتعليم شرع الله- أو ماإلى ذلك من الطاعات- ولايشغلوهم بغيرها.

* لابدّ أن يهتمّ الآباء بجانب الصلة الروحية بالله عند أبنائهم ويتفقّدوا أحوالهم دائماً في هذا الجانب، لأنّ الصلة بالله عزّ وجلّ هي أساس الخير وهي أعظم مدد للانسان في حياته ودعوته.

* إنّ رضى أمّ مريم بقدر الله، بأن وهبها الله أنثى مع أنّها كانت تريده أن يكون ذكراً؛ ليدلّ على إيمانها وإخلاصها. وهذا ماينبغي أن يكون عليه حال المؤمن من الرضا بما قدّر الله.

* إنّه لابدّ من الاهتمام بالآداب النبوية في تسمية الولد وتعويذه وغير ذلك ممّا يكون عند الولادة وبعدها.

- ثمّ انتقلنا فيما بعد في الفصل الثاني للحديث عن مريم بنت عمران مع ابنها عيسى عليهما السلام ولنا هنا مايلي:

* كانت مريم بنت عمران -وماتزال- مثالاً رائعاً لكل فتاة تريد التقرّب إلى الله وبلوغ رضاه. كما أنّها مثال في التقوى والطهر والعفاف.

* ظهور براءة مريم على لسان ابنها عيسى مظهر من مظاهر تأييد الله لها وكرامته إيّاها.

* إنّ هذه القصة بما فيها حجّة قويّة لابطال كل مايزعمه النصارى حول عيسى عليه السلام وأمّه.

١٠- وكان آخر أبواب البحث يعالج الآيات التي كان سبب نزولها مواقف للصحابة- رضي الله عنهم- مع آبائهم أو أبنائهم وأهمّ مانذكره هنا مايلي:

* إنّ برّ الوالدين صفة أساسية دائمة من صفات المؤمن، فينبغي أن لاينشغل الابن عن برّ أبويه في أيّ فترة من فترات حياته التي يكون فيها مظنّة للشغل في أمور العيش والحياة.

* إنّ حقّ الأمّ أعظم من حقّ الأب. وهذا ماشهد به القرآن والسنّة.

* قد يبتلى المؤمن بأحد أبويه أو كليهما، ليصدّاه عن دين الله.. وهما يستخدمان معه سلاح العاطفة والرّحم.. فما على المؤمن إلاّ أن يذكر مواقف صحب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في ثباتهم على هذا الدين.

* إنّ أمر العقيدة لايقبل المساومة. وإنّما هو موقف واحد لايتغيّر. فعقيدة التوحيد هي أعزّ مايملكه الانسان.

* إنّ الولاء لايكون إلاّ للمؤمنين (إنّما وليّكم الله ورسوله والذين آمنوا..).

* إنّ القاعدة الثابتة في هذا الدين هي المفاصلة بين حزب الله وحزب الشيطان.

* وإنّ بهذه المواقف ليدرك الواحد منّا عظم أمر عقيدة التوحيد، ومايبنغي تجاهها في الحفاظ عليها من أصحابها.

وأقول في نهاية خاتمتنا هذه: إنّ قصص القرآن الكريم فوائده عظيمة ولاتنتهي، وهذا هو شأن كتاب الله كلّه. وإنّ الذي يأتي من بعد ويفتح الله عليه سيُخرج مالم يُخرجه غيره من هذه العبر والفوائد. وإنّ جانباً واحداً -بدراسة متواضعة- من جوانب القصص القرآني وهو ماكان بين الآباء والأبناء أخذ ماأخذ من الكلام! وهنا يقف الانسان مستشعراً عظمة كتاب الله عزّ وجلّ وعلوّه.

وهذا القصص القرآني هو جزء من كتاب الله فكيف بكتاب الله كلّه!!!

وما ذلك إلاّ ليعلم الناس أنّ هذا الكتاب العظيم هو الذي ينبغي أن يهيمن على

سائر شؤون الحياة الخاصّة والعامّة. وإنّها للسعادة في الدنيا والآخرة.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

والحمد لله ربّ العالمين .

"مراجع البحث"

١- أحكام القرآن : الكيّا الهرّاسي، عماد الدين بن محمد الطبري. الطبعة الأولى. ٤ج . بيروت -لبنان: دار الكتب العلمية، ١٤٠٢هـ/١٩٨٣م.

٢- أحكام القرآن : الجصّاص، أبو بكر بن علي الرازي. الطبعة الأولى. ٣ج. لاهور -باكستان: سهيل اكيديمي.

٣- أحكام القرآن : ابن العربي، أبو بكر محمد بن عبد الله. تحقيق: علي محمد البجاوي. ٤ج. القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م.

٤- أحكام القرآن : الشافعي، أبو عبد الله محمد بن إدريس. جمعه: أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي. كتب هوامشه: عبد الغني عبد الخالق. ٢ج. بيروت- لبنان: دار الكتب العلمية، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

٥- أخلاقية الداعية : علوان، عبد الله ناصح. الطبعة الأولى. بيروت- حلب- القاهرة: دار السلام، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

٦- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: أبو السعود، محمد بن محمد العمادي. ٩ج. بيروت- لبنان: دار إحياء التراث العربي.

٧- أسباب نزول القرآن: الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد. تحقيق: السيد أحمد صقر. الطبعة الثانية. جدة- المملكة العربية السعودية: دار القبلة للثقافة الاسلامية، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

٨- الأسرة المثلى في ضوء القرآن والسنّة: نجيب، عمارة. الطبعة الأولى. الرياض: مكتبة المعارف، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

٩- أصول الدعوة : زيدان، عبد الكريم. الطبعة الثالثة. مكتبة المنار

الاسلامية، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
١٠- أصول الفقه : أبو زهرة، محمد. القاهرة: دار الفكر العربي.
١١- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن : الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار الجكني. ١٠ج. طبع على نفقة الأمير أحمد بن عبد العزيز آل سعود، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م.
١٢- إعجاز القرآن : الخطيب، عبد الكريم. الطبعة الثانية. بيروت: دار المعرفة، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.
١٣- الاكليل في استنباط التنزيل : السيوطي، جلال الدين. بيروت: دار الكتب العلمية.
١٤- الأمومة في القرآن الكريم والسنة النبوية : الزعبلاوي، محمد السيد محمد. الطبعة الأولى. بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
١٥- أنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي. ٥ج. بيروت: مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع.
١٦- البداية والنهاية : ابن كثير، إسماعيل بن عمر. تحقيق: أحمد أبو ملحم- علي نجيب عطوي- فؤاد السيد- مهدي ناصر الدين -علي عبد الساتر. الطبعة الأولى. ١٤ج. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
١٧- برّ الوالدين في القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة: سكجها، نظام. الطبعة الثانية. عمّان- الأردن: المكتبة الاسلامية ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
١٨- البرهان في علوم القرآن : الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. الطبعة الثالثة. ٤ج. القاهرة: دار الفكر، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.
١٩- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: الفيروزابادي، مجد الدين محمد بن يعقوب. تحقيق: محمد علي النجّار. ٦ج. بيروت: دار الكتب العلمية.

٢٠- تأملات في سورة مريم : باجودة، حسن محمد. القاهرة: دار النصر للطباعة الاسلامية. دار الاعتصام، ١٩٧٨م.
٢١- تأويل مشكل القرآن : ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم. تحقيق: السيد أحمد صقر. الطبعة الثانية. القاهرة: دار التراث، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.
٢٢- تبصير الرحمن وتيسير المنّان: المهايمي، علي بن أحمد بن إبراهيم. الطبعة الثانية. ٢ج. بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
٢٣- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي: المباركفوري، أبو العلى محمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم. أشرف على طباعته: عبد الوهاب عبد اللطيف. الطبعة الثالثة. ١٠ج. بيروت: دار الفكر، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
٢٤- تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب : الأندلسي، أثير الدين أبو حيّان. تحقيق: سمير المجذوب. الطبعة الأولى. بيروت- دمشق: المكتب الاسلامي، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
٢٥- تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف : المزّي، يوسف بن الزكي عبد الرحمن بن يوسف. تحقيق: عبد الصمد شرف الدين، إشراف: زهير الشاويش. الطبعة الثانية. ١٤ج. بمباي- الهند: الدار القيّمة، بيروت- دمشق: المكتب الاسلامي، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
٢٦- تربية الأولاد في الاسلام : علوان، عبد الله ناصح. الطبعة الثالثة. ٢ج. بيروت: دار السلام، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.
٢٧- ترتيب القاموس المحيط : الزاوي، الطاهر أحمد. الطبعة الثالثة. ٤ج. بيروت: دار الفكر.
٢٨- التسهيل لعلوم التنزيل : ابن جزي الكلبي، محمد بن أحمد. بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
٢٩- تفسير البحر المحيط : أبو حيان، محمد بن يوسف الأندلسي الغرناطي.

الطبعة الثانية. ٨ج. بيروت: دار الفكر، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
٢٠- تفسير التحرير والتنوير : ابن عاشور، محمد الطاهر. ٣٠ج. تونس: الدار التونسية للنشر- الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، ١٩٨٤م.
٢١- تفسير الجلالين : السيوطي- المحلّي، جلال الدين. الطبعة الأولى. بيروت: دار المعرفة، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
٢٢- تفسير روح البيان : البرسوي، إسماعيل حقي. ١٠ج. بيروت: دار إحياء التراث العربي.
٢٣- تفسير غريب القرآن : ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم. تحقيق: السيد أحمد صقر. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.
٢٤- تفسير القرآن العظيم : ابن كثير، إسماعيل بن عمر. ٤ج. بيروت: دار المعرفة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
٢٥- التفسير القيم : ابن القيم، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي. جمعه : محمد أويس الندوي. حققه: محمد حامد الفقي. بيروت: دار العلوم الحديثة.
٢٦- تفسير المراغي : المراغي، أحمد مصطفى. ٣٠ج. بيروت: دار إحياء التراث العربي.
٢٧- تفسير المنار : رضا، محمد رشيد. الطبعة الثانية. ١٢ج. بيروت: دار المعرفة.
٢٨- تفسير النسفي : النسفي، عبد الله بن أحمد بن محمود. ٤ج. بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
٢٩- التفسير الواضح : حجازي، محمد محمود. الطبعة الأولى. ٣ج. بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
٤٠- التفسير والمفسرون : الذهبي، محمد حسين. الطبعة الثانية. ٢ج.

القاهرة: دار الكتب الحديثة، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.
٤١- تفصيل آيات القرآن الكريم : وضعه بالفرنسية جول لابوم، نقله إلى العربية محمد فؤاد عبد الباقي. الطبعة الثانية. بيروت: دار الكتاب العربي.
٤٢- تقريب التهذيب : ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي. تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف. الطبعة الثانية. ٢ج. بيروت: دار المعرفة، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.
٤٣- تهذيب مدارج السالكين : العزّي، عبد المنعم صالح العلي. وزارة العدل والشئون الاسلامية والأوقاف- دولة الأمارات المتحدة.
٤٤- تيسيرالرحمن في تفسير كلام المنّان : السعدي، عبد الرحمن بن ناصر. تحقيق: محمد زهري النجار. ٧ج. الرياض: الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، ١٤٠٤هـ.
٤٥- التيسير في القراءات السبع : الداني، أبو عمر عثمان بن سعيد. عني بتصحيحه: اوتوبرتزل. الطبعة الثانية. بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
٤٦- جامع البيان في تفسير القرآن : الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. ٣٠ج. بيروت: دار المعرفة، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
٤٧- الجامع لأحكام القرآن : القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري. الطبعة الثانية. ٢٠ج. بيروت: دار الكتاب العربي.
٤٨- جامع النقول في أسباب النزول : عليوي، ابن خليفة. الطبعة الأولى. ٢ج. الرياض -المملكة العربية السعودية: مطابع الاشعاع، ١٤٠٤هـ.
٤٩- الجواهر الحسان في تفسير القرآن: الثعالبي، عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف. ٤ج. بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.
٥٠- حاشية الصاوي على تفسير الجلالين : الصاوي، أحمد بن محمد. ٤ج. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

٥١- حجة القراءات : ابن زنجلة، أبو زرعة عبد الرحمن بن محمد. حققه وعلّق عليه: سعيد الأفغاني. الطبعة الثانية. بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
٥٢- درّة التنزيل وغرّة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز: الخطيب الإسكافي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله. الطبعة الثانية. بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٧٧م.
٥٣- الدرّ المنثور في التفسير المأثور : السيوطي، عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين. الطبعة الأولى. ٨ج. بيروت: دار الفكر، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
٥٤- دستور الأخلاق في القرآن : دراز، محمد عبد الله. تحقيق وتعريب وتعليق: عبد الصبور شاهين. مراجعة: السيد محمد البدوي. الطبعة الرابعة. بيروت: مؤسسةالرسالة، الكويت: دار البحوث العلمية، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.
٥٥- دعوة الرسل إلى الله تعالى : العدوي، محمد أحمد. بيروت: دار المعرفة، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
٥٦- الدعوة إلى الله في سورة إبراهيم الخليل عليه السلام : ابن الحبيب، محمد بن سيدي. الطبعة الأولى. جدة- المملكة العربية السعودية : دار الوفاء، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
٥٧- دقائق التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن تيمية : تحقيق: محمد السيد الجليند. الطبعة الثانية. ٦ج. دمشق- بيروت : مؤسسة علوم القرآن، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
٥٨- دلائل الإعجاز : الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد. تعليق: محمود محمد شاكر. القاهرة: مكتبة الخانجي -مطبعة المدني.
٥٩- دور المنهج الربّاني في الدعوة الإسلامية : النحوي، عدنان. الدمام- المملكة العربية السعودية : دار الإصلاح.
٦٠- الرؤى والأحلام : البيانوني، أحمد عز الدين. الطبعة الثانية. سوريا:

دار السلام، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
٦١- الرسل والرسالات : الأشقر، عمر سليمان. الطبعة الأولى. بيروت: دار النفائس- الكويت: مكتبة الفلاح، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
٦٢- روائع البيان تفسير آيات الأحكام من القرآن : الصابوني، محمد علي. الطبعة الثانية. ٢ج. دمشق: الوكالة العامة للتوزيع- مكتبة الغزالي، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.
٦٣- روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني : الألوسي، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود. ٢٠ج. بيروت: دار إحياء التراث العربي.
٦٤- زاد المسير في علم التفسير : ابن الجوزي، أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد. الطبعة الثالثة. ٩ج. دمشق - بيروت: المكتب الاسلامي، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
٦٥- زاد المعاد في هدي خير العباد : ابن القيم، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي. تحقيق: شعيب وعبد القادر الأرنؤوط. الطبعة السادسة. ٥ج. بيروت: مؤسسة الرسالة- مكتبة المنار الاسلامية، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
٦٦- سبل السلام شرح بلوغ المرام من جمع أدلة الأحكام : الصنعاني، محمد بن إسماعيل الأمير اليمني. صححه وعلق عليه: محمد عبد العزيز الخولي. ٤ج. القاهرة: مكتبة عاطف.
٦٧- سلسلة الأحاديث الصحيحة : الألباني، محمد ناصر الدين. الطبعة الثالثة. ٤ج. بيروت- دمشق: المكتب الاسلامي، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
٦٨- سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة : الألباني، محمد ناصر الدين. الطبعة الرابعة. ٢ج. بيروت- دمشق: المكتب الاسلامي، ١٣٩٨هـ.
٦٩- سنن أبي داود : أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي. إعداد وتعليق: عزت عبيد الدعاس- عادل السيد. الطبعة الأولى. ٥ج. سوريا- لبنان: دار الحديث، ١٣٨٨هـ/١٩٦٩م.

٧٠- سنن ابن ماجه : ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. ٢ج. بيروت: دار الفكر.

٧١- سنن الترمذي : الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة. تحقيق: أحمد محمد شاكر- محمد فؤاد عبد الباقي- إبراهيم عطوة عوض. ٥ج. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

٧٢- سنن الدارقطني : الدارقطني، علي بن عمر. تحقيق: السيد عبد الله هاشم يماني المدني. ٤ج. القاهرة: دار المحاسن للطباعة.

٧٣- سنن الدارمي : الدارمي، أبو محمد عبد الله بن بهرام.. ٢ج. القاهرة: دار الفكر، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

٧٤- سنن النسائي : النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي بن بحر بن سنان بن دينار. اعتنى به ورقمه وصنع فهارسه: عبد الفتاح أبو غدة. الطبعة الأولى. ٩ج. بيروت- لبنان: دار البشائر الاسلامية للطباعة والنشر والتوزيع- الناشر: مكتب المطبوعات الاسلامية بحلب، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

٧٥- السيرة النبوية دروس وعبر: السباعي، مصطفى. الطبعة الرابعة. بيروت: المكتب الاسلامي، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.

٧٦- شرح العقيدة الطحاوية: أبو العز، علي بن علي بن محمد. تحقيق: شعيب الأرنؤوط. الطبعة الأولى. دمشق: دار البيان للنشر- الطائف: مكتبة المؤيد للتوزيع، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

٧٧- صحيح البخاري : البخاري، أبو عبد الله محمد بن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة ابن بردزبة. الطبعة الرابعة. ٩ج. بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

٧٨- صحيح مسلم بشرح النووي : القشيري، مسلم بن الحجاج- النووي، يحيى بن شرف. تحقيق وإشراف: عبد الله أحمد أبو زينة. ٥ج. القاهرة: كتاب

الشعب.
٧٩- الصحيح المسند من أسباب النزول : الوادعي، مقبل بن هادي. الطبعة الثانية. الكويت: دار الأرقم.
٨٠- صفوة التفاسير: الصابوني، محمد علي. الطبعة الرابعة. ٣ج. بيروت: دار القرآن الكريم، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
٨١- العدة شرح العمدة : المقدسي، بهاء الدين عبد الرحمن بن إبراهيم. الرياض: مكتبة الرياض الحديثة.
٨٢- علاقة الآباء بالأبناء في الشريعة الاسلامية- دراسة فقهية مقارنة : الصالح، سعاد إبراهيم. الطبعة الثانية. جدة- المملكة العربية السعودية: تهامة، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
٨٣- علوم البلاغة : المراغي، أحمد مصطفى. راجعه: أبو الوفا مصطفى المراغي. الطبعة الخامسة. القاهرة: المكتبة المحمودية التجارية.
٨٤- علوم القرآن : زرزور، عدنان محمد. الطبعة الثانية. بيروت- دمشق: المكتب الاسلامي، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
٨٥- العمدة في غريب القرآن : القيسي، أبو محمد مكي بن أبي طالب. تحقيق: يوسف عبد الرحمن المرعشلي. الطبعة الثانية. بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
٨٦- العوائق : الراشد، محمد أحمد. الطبعة الثانية. بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.
٨٧- الغاية في القراءات العشر : النيسابوري، أبو بكر احمد بن الحسين بن مهران. تحقيق: محمد غياث الجنباز. الطبعة الأولى. الرياض: شركة العبيكان للطباعة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
٨٨- غريب القرآن وتفسيره : الزيدي، أبو عبد الرحمن عبد الله بن يحيى بن

المبارك. تحقيق: محمد سليم الحاج. الطبعة الأولى. بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

٨٩- فتح الباري شرح صحيح البخاري : ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي. قرأ أصله تصحيحاً وتحقيقاً: عبد العزيز بن باز- رقمه: محمد فؤاد عبد الباقي- أشرف على طبعه: محب الدين الخطيب. ١٣ج. الرياض: مكتبة الرياض الحديثة.

٩٠- الفتح الربّاني ترتيب مسند الامام أحمد : البنّا، أحمد عبد الرحمن. ٢٤ج. القاهرة: دار الشهاب.

٩١- فتح الرحمن بكشف مايلتبس في القرآن : الأنصاري، أبو يحيى زكريا. تحقيق: محمد علي الصابوني. الطبعة الأولى. بيروت: دار القرآن الكريم، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

٩٢- فتح القدير الجامع بين فنّي الرواية والدراية في علم التفسير : الشوكاني، محمد بن علي بن محمد. ٥ج. بيروت: دار المعرفة.

٩٣- الفتوحات الالهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية : الجمل، سليمان بن عمر العجيلي الشافعي. ٤ج. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

٩٤- فقه الدعوة في إنكار المنكر : البلالي، عبد الحميد. راجعه وقدّم له: سالم البهنساوي. الطبعة الأولى. الكويت: دار الدعوة، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

٩٥- فقه السنة : سابق، السيد. الطبعة الأولى. ١٤ج. بيروت: دار الكتاب العربي، ١٣٩١هـ/١٩٧١م.

٩٦- الفقه الاسلامي وأدلّته : الزحيلي، وهبة. الطبعة الثانية. ٨ج. دمشق: دار الفكر، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

٩٧- في ظلال القرآن : قطب، سيد. الطبعة السادسة. ٦ج. بيروت- القاهرة: دار الشروق، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

٩٨- فيض القدير شرح الجامع الصغير: المناوي، عبد الرؤوف. الطبعة

الثانية. ٦ج. بيروت: دار المعرفة، ١٣٩١هـ/١٩٧٢م.
٩٩- قصص الأنبياء : ابن كثير، إسماعيل بن عمر. تحقيق: محمد أحمد عبد العزيز. ٢ج. القاهرة: دار مصر للطباعة- دار الحديث.
١٠٠- قصص الأنبياء : النجار، عبد الوهاب. الطبعة الثالثة. بيروت: دار إحياء التراث العربي.
١٠١- القصص الرمزي في القرآن :جمال، أحمد محمد. الطبعة الرابعة. بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
١٠٢- القصة في القرآن الكريم : السباعي، مريم عبد القادر عبد الله. رسالة دكتوراة بجامعة أمّ القرى، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
١٠٣- قصص القرآن : جاد المولى، محمد أحمد. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.
١٠٤- قصص القرآن : محمد أحمد جاد المولى- محمد أبو الفضل إبراهيم- علي محمد البجاوي- السيد شحاتة. بيروت: دار الفكر.
١٠٥- القصص القرآني في منطوقه ومفهومه : الخطيب، عبد الكريم. بيروت: دار المعرفة.
١٠٦- قصص من التنزيل : عسّاف، أحمد محمد. الطبعة الأولى. بيروت: دار لبنان للطباعة والنشر، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
١٠٧- الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة : الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز. الطبعة الأولى. ٣ج. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
١٠٨- كتابة البحث العلمي ومصادر الدراسات الاسلامية : أبو سليمان، عبد الوهاب إبراهيم. الطبعة الثانية. جدة : دار الشروق، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
١٠٩- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل :

الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر. ٤ج. بيروت: دار المعرفة.

١١٠- لباب التأويل في معاني التنزيل : الخازن، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي. ٧ج. بيروت: دار الفكر، ١٢٩٩هـ/١٩٧٩م.

١١١- لباب النقول في أسباب النزول : السيوطي، عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين. الطبعة الثالثة. بيروت: دار إحياء العلوم ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

١١٢- لسان العرب : ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم. ١٥ج. بيروت: دار الفكر- دار صادر.

١١٣- لسان الميزان : ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي. الطبعة الثانية. ٧ج. بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٢٩٠هـ/١٩٧١م.

١١٤- مباحث في علوم القرآن : الصالح، صبحي. الطبعة العاشرة. بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧٧م.

١١٥- مباحث في علوم القرآن : القطان، منّاع خليل. الطبعة الرابعة عشر. بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

١١٦- متشابه القرآن : الهمذاني، عبد الجبار بن أحمد. تحقيق: عدنان محمد زرزور. القاهرة: دار التراث.

١١٧- مجاز القرآن : ابن المثنّى التيمي، أبو عبيدة معمر. علق عليه: محمد فؤاد سزكين. الطبعة الثانية. ٢ج. بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

١١٨- محاسن التأويل : القاسمي، محمد جمال الدين. علق عليه : محمد فؤاد عبد الباقي. الطبعة الثانية. ١٧ج. بيروت: دار الفكر، ١٢٩٨هـ/١٩٧٨م.

١١٩- مختصر سنن أبي داود : المنذري، عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله بن سلامة بن سعد. تحقيق: أحمد محمد شاكر- محمد حامد الفقي. ٨ج. بيروت: دار المعرفة، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

١٢٠- مختصر منهاج القاصدين : ابن قدامة المقدسي، أحمد بن عبد الرحمن.

تعليق: شعيب وعبد القادر الأرنؤوط. دمشق: مكتبة دار البيان، بيروت- دمشق: مؤسسة علوم القرآن، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

١٢١- مدارج السالكين : ابن قيّم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي. تحقيق: محمد حامد الفقي. ٣ج. بيروت: دار الكتاب العربي، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.

١٢٢- مذكرة أصول الفقه على روضة الناظر لابن قدامة : الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار. المدينة المنورة: المكتبة السلفية.

١٢٣- المستدرك على الصحيحين : الحاكم، أبو عبد الله محمد بن عبد الله. ٤ج. بيروت: دار الكتاب العربي.

١٢٤- مع الأنبياء في القرآن الكريم : طبّارة، عفيف عبد الفتاح. الطبعة الحادية عشرة. بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٢م.

١٢٥- معالم التنزيل : البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء. (على هامش الخازن).

١٢٦- معالم الدعوة في قصص القرآن الكريم : الديلمي، عبد الوهاب بن لطف. الطبعة الأولى. ٢ج. جدة: دار المجتمع، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

١٢٧- معاني الحروف : الرمّاني، أبو الحسن علي بن عيسى. تحقيق: عبد الفتاح إسماعيل شلبي. الطبعة الثالثة. جدة: دار الشروق، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

١٢٨- معاني القرآن : الأخفش، سعيد بن مسعدة البلخي المجاشعي. دراسة وتحقيق: عبد الأمير محمد أمين الورد. الطبعة الأولى. ٢ج. بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

١٢٩- معاني القرآن : الفرّاء، أبو زكريا يحيى بن زياد. الطبعة الثالثة. ٣ج. بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٣هـ.

١٣٠- المعجزة الكبرى "القرآن" : أبو زهرة، محمد. القاهرة: دار الفكر

العربي- دار غريب للطباعة.
١٢١- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: عبد الباقي، محمد فؤاد. استانبول- تركيا: المكتبة الاسلامية، ١٩٨٤م.
١٢٢- المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي : الاتحاد الأممي للمجامع العلمية، وضعه مجموعة من المستشرقين، ونشره: أ. ي. ونسنك. ٧ج. استانبول- تركيا: المكتبة الاسلامية.
١٢٣- مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) : الفخر الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن حسين. الطبعة الثالثة. ٢٠ج. بيروت: دار إحياء التراث العربي.
١٢٤- مفتاح كنوز السنة: وضعه بالانكليزية: أ. ي. فنسنك، نقله إلى العربية: محمد فؤاد عبد الباقي. بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
١٢٥- المفردات في غريب القرآن : الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد. تحقيق: محمد سيد كيلاني. بيروت: دار المعرفة.
١٢٦- ملاك التأويل القاطع بذوي الالحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل: الثقفي العاصمي الغرناطي، أحمد بن إبراهيم بن الزبير. تحقيق: سعيد الفلاح. الطبعة الأولى. ٢ج. بيروت: دار الغرب الاسلامي، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
١٢٧- مناهج الجدل في القرآن الكريم : الألمعي، زاهر عواض. الطبعة الثانية. الرياض: مطابع الفرزدق التجارية، ١٤٠٠هـ.
١٢٨- مناهل العرفان في علوم القرآن : الزرقاني، محمد عبد العظيم. ٢ج. بيروت: دار الفكر.
١٢٩- منهاج التربية الصالحة : البيانوني، أحمد عزّ الدين. حلب- سوريا: مكتبة الهدى، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.
١٤٠- منهج التربية الاسلامية : قطب، محمد. الطبعة الخامسة. ٢ج. جدة:

دار الشروق، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
١٤١- منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله : زين العابدين، محمد بن سرور نايف. الطبعة الأولى. ج١. الكويت: دار الأرقم، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
١٤٢- منهج القرآن في الدعوة إلى الايمان : القفيهي، علي بن محمد ناصر. الطبعة الأولى. ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.
١٤٣- منهج القصة في القرآن : شديد، محمد. الطبعة الأولى. جدة: دار عكاظ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
١٤٤- الموطأ : مالك بن أنس. صححه وعلق عليه: محمد فؤاد عبد الباقي. القاهرة: كتاب الشعب.
١٤٥- النبوة والأنبياء : الصابوني، محمد علي. الطبعة الثانية. ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.
١٤٦- النبوة والأنبياء في ضوء القرآن : الندوي، أبو الحسن علي الحسني. الطبعة السادسة. دمشق: دار القلم، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
١٤٧- نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر : ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن. تحقيق ودراسة: محمد عبد الكريم كاظم الراضي. الطبعة الأولى. بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
١٤٨- النشر في القراءات العشر : ابن الجزري، أبو الخير محمد بن محمد الدمشقي. أشرف على تصحيحه ومراجعته: علي محمد الضباع. ٢ج. بيروت: دار الكتب العلمية.
١٤٩- النكت والعيون : الماوردي، أبو الحسن علي بن حبيب. تحقيق: خضر محمد خضر. راجعه: عبد الستار أبو غدة. الطبعة الأولى. ٤ج. الكويت: طباعة مقهوى، وزارة الأوقاف والشئون الاسلامية- التراث الاسلامي، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.